
UEFA
CHAMPIONS
LEAGUE
5.11.2019
وزارة
السعادة
القصوى
أروندهاتي روي
ترجمة أحمد شافعي
رواية

أروندهاتي روي

وزارة السعادة القصوى

رواية

ترجمة

أحمد شافعي



The Ministry of Utmost Happiness © Arundhati Roy 2017

وزارة السعادة القصوى
رواية
الطبعة الأولى: ٢٠١٩
رقم الإيداع: ٢٥٩٣٥/ ٢٠١٨
الترقيم الدولي: ٤-٠٩١-٨٠٣-٩٧٧-٩٧٨
الغلاف: حاتم سليمان

الكتب خان للنشر والتوزيع ®
١٣ شارع ٢٥٤ - دجلة - المعادي - القاهرة.
تليفون: ٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+ - ٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨+
بريد إليكتروني: info@kotobkhan.com
موقع إليكتروني: www.kotobkhan.com



فهرسة أثناء النشر
الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية
روي، أروندهاتي
وزارة السعادة القصوى : رواية/ تأليف أروندهاتي روي، ترجمة : أحمد شافعي. -
ط١. - القاهرة: الكتب خان للنشر والتوزيع، ٢٠١٩
٦٠٨ ص، ٢٠ سم
تدمك: ٤-١٩١-٠٠-٨٠٣-٩٧٧-٩٧٨
١ - رواية
أ- العنوان
ب- شافعي، أحمد (مترجمًا)
رقم الإيداع : ٢٥٩٣٥
الطبعة الأولى ٢٠١٩

إلى

من لا عزاء لهم



"الأمر كله

معلّق بقلبك..."

ناظم حكمت

في ساعة سحرية، تغيب فيها الشمس ولا يغيب النور، تنتزع جيوش الوطاويط أنفسها من شجر التين في المقبرة العتيقة، لتنداح في المدينة انداح الدخان. وإذ ترحل الوطاويط، ترجع الغربان، فلا تملأ بضجيج رجوعها ما تخلف من صمت بعد أن غابت العصافيرُ، وبعد أن محيت من الوجود النسورُ الهرمةُ بيضاءُ الظهور حرّاسُ الموتى منذ مئة مليون سنة. ماتت النسور مسمّمةً بالديكلوفيناك، أو ما يُعرف بأسبرين البقر، وهو العقار الذي يعطى للماشية ليساعد على إرخاء عضلاتها، وتخفيف آلامها، وزيادة إدرارها للحليب، لكنه للنسور بيضاء الظهور، أو كان لها، بمثابة غاز أعصاب. فلم تكن تموت بقرة أو جاموسة مرخاة كيميائيًا ومُدرّة للحليب إلا لتمسي طُعمًا سامًّا تبلعه النسور. وبينما كانت الماشية تتحوّل إلى آلات أكفأ إدرارًا للحليب، وبينما كانت المدينة تأكل مزيدًا من الآيس كريم، والحلوى المقرمشة، والبسكويت، والشوكولاته، وبينما كانت تشرب المزيد من ميلك شيك المانجو، كانت رقاب النسور تتهدّل كما لو أنها منهكة أو عاجزة عن مجرد الاستمرار في الصحو، ويتقاطر اللعاب من مناقيرها لِحى فضيةً، وتتهاوى واحدًا إثر واحد عن غصونها، جثامين بلا روح.

لم يتنبه الكثيرون إلى غياب الطيور الهرمة الحبيبة، فما أكثر ما كانت العيون مشدودة إليه!

١

إلى أين تذهب الطيور الهرمة لتموت؟

كانت تعيش في المقبرة عيْشَ شجرة. فهي عند الفجر تودِّع الغربان وتستقبل الوطاويط. وعند الغروب تفعل العكس. وبين النوبتين تتشاور مع أشباح النسور الحاضرة في أغصانها العالية، مستشعرةً من مخالبها الملتفة برقّةٍ على أغصانها ما يشبه وجع طرف مبتور، مدركةً أن تلك النسور غير تعيسة إطلاقًا بانسحابها من القصة.

احتملت، حينما جاءت هنا للمرة الأولى، شهورًا من القسوة المعهودة، احتمال شجرة، فلم تجفل، ولم تلتفت مرة لترى أيَّ صبي صغير رماها بحجر، ولم تلْوِ رقبتها لتقرأ ما حُفر في لحائها من سباب. وحينما كان الناس يسخرون منها، قائلين إنها بهلوان بلا سيرك وملكة بلا قصر، كانت تُعرِض عن الأذى، تاركة إيّاه يمرُّ في غصونها مرور النسيم، وتتخذ من موسيقى حفيفه في أوراقها بلسمًا يهوّن عليها الألم.

ولم يقرِّر الجيران أن الوقت حان ليتركوها تعيش في سلام إلا بعد أن أصبح ضياء الدين ـالإمام الأعمى الذي كان في يوم من الأيام يؤمُّ الصلوات في مسجد فتح بوري ـ صديقًا لها وبدأ يزورها.

قبل زمن بعيد قال لها رجل يجيد الإنجليزية إن اسمها حينما يكتب معكوسًا (بالإنجليزية) فإنه يتحول إلى "مَجنو". وقال إن "مَجنو" في النسخة الإنجليزية من قصة "ليلى والمجنون" يدعى روميو، وليلى تدعى جولييت. رأت ذلك طريفًا للغاية. سألته "أتعني أنني حوَّلت قصتهم إلى كشري؟ ما الذي سيفعلونه حينما يكتشفون أن ليلى قد تكون فعليًا مَجنو، وأن رومي كان في الحقيقة جولي؟" وفي المرة التالية التي قابلها فيها، قال الرجل الذي يجيد الإنجليزية إنه أخطأ. وإن اسمها لو كتب معكوسًا فهو مُجنا، وذلك ليس اسمًا، وليس له معنى على الإطلاق. فقالت "لا يهم. أنا كل هؤلاء. أنا رومي وجولي، أنا ليلي ومجنو. وأنا مُجنا، لم لا؟ من الذي يقول إن اسمي هو أَنْجُم؟ أنا لست أنجم، أنا أنجمن. أنا محفل.[1] أنا ملتقى الجميع ولا أحد. الجميع ولا شيء. هل ثمة من تودُّ دعوته أيضًا؟ الدعوة مفتوحة للجميع".

قال لها الرجل الذي يجيد الإنجليزية إنها بارعة حقًا إذ أتت بهذا، وقال إنه ما كان ليفكِّر فيه هو نفسه. فقالت له "وكيف تفكر فيه بلغتك الأرديَّة الفصيحة؟ أم تظن أن الإنجليزية تضمن لك البراعة طول الوقت؟"

---

١ أنجمن ومحفل كلمتان في الأردية تعنيان "ملتقى"، ويتضح ذلك من السياق.

ضحك الرجل. وضحكت لضحكه. ونقاسما سيجارة. أبدى استياءه من سجائر ويلز نيفيكت قائلاً إنها قصيرة، وممتلئة، ومن الآخر لا تستحق ثمنها. فقالت إنها تفضلها بالقطع عن فورسكوير أو سيجارة ريد آند وايت الرجالية أكثر من اللازم.

لم تعد الآن تتذكر اسمه. ولعلها لم تعرف له اسمًا قط. خاصة وقد ذهب منذ زمن بعيد، ذلك الرجل الذي يجيد الإنجليزية، إلى حيثما تحتّم عليه الذهاب. ومضت هي لتعيش في مقبرة وراء المستشفى الحكومي. لا يرافقها غير خزانة جودريج المعدنية تحتفظ فيها بموسيقاها ـ في أسطوانات مخدوشة وأشرطة ـ وأرغن قديم، وحليٍّ، ودواوين أبيها، وألبومات صورها وقصاصات صحفية قليلة نجت من حريق الخواب جاه. تعلّق مفتاح الخزانة حول رقبتها في خيط أسود وبجانبه خلة الأسنان الفضية الملتوية. تنام على سجادة عجمية بالية تغلق عليها الخزانة بالنهار وتفردها بالليل بين مقبرتين (وعلى سبيل الطرفة الشخصية لم تكن تنام بين المقبرتين نفسيهما في ليلتين متعاقبتين). وكانت لا تزال تدخن نيفيكت.

وذات صباح بينما كانت تقرأ الجريدة على الإمام الهرم، وكان من الواضح أنه لا ينصت، سألها عرضًا "هل حقيقي أنه حتى الهندوس منكم يُدفنون، ولا يُحرقون؟"

استشعرت المشاكل فراوغته. "حقيقي؟ ما الحقيقي؟ ما الحقيقة؟"

ولإصراره على ألا يحيد عن سؤاله، غمغم الإمام بردّ آلي. "سَتش خُدا هي. خُدا هي سَتش هي". الحقيقة هي الرب. الرب هو الحقيقة. تلك حكمة كالتي تُكْتب على مؤخرات عربات النقل المزمجرة على الطرق السريعة. ثم ضيّق عينيه الخضراوين العمياوين وسأل في همس لئيم "أخبريني، أمثالكم من الناس حينما تموتون، أين يدفنونكم؟ من يغسل الجثامين؟ من يتلو الصلوات؟"

مرّ وقت طويل دون أن تقول أنجُم شيئًا. ثم مالت عليه وهمست بطريقة لاشجرية على الإطلاق "يا فضيلة الإمام، عندما يتكلم الناس عن الألوان ـعن الأحمر والأزرق والبرتقالي، عندما يصفون سماء الغروب، وظهور القمر في رمضانـ ما الذي يتصوّره عقلك؟"

جلس الاثنان ـوقد جرح أحدهما الآخر هذا الجرح العميق شبه القاتلـ هادئَيْن متجاورَيْن، قرب مقبرة مشمسة، ينزفان. وأخيرًا، كانت أنجم هي التي كسرت الصمت.

قالت "أخبرني، وأنت فضيلة الإمام لا أنا، إلى أين تذهب الطيور الهرمة لتموت؟ هل تسقط علينا من السماء سقوط الحجارة؟ هل نتعثّر بجثثها في الشوارع؟ ألا تعتقد أن الواحد العظيم البصير الذي أنزلنا في هذه الأرض قد أعدّ الترتيبات اللائقة لأخذنا؟"

في ذلك اليوم انتهت زيارة الإمام قبل موعدها المعتاد. ورأته أنجم وهو يرحل، ناقرًا طريقه بعصاه وسط المقابر، عازفًا بها ـوهي بصيرة العينـ كلّما صادفت زجاجات الشراب الخاوية والمحاقن الملقاة في طريقه

القذر. لم تستوقفه. وقد علمت أنه سيرجع. فقد كانت تعرف الوحدة حينما تقع عليها عيناها برغم كل أشكال التظاهر والتخفّي. وتستشعر بطريقة محسوسة عجيبة أنه بحاجة إلى ظلّها بقدر ما هي بحاجة إلى ظلّه. وكانت تعلم من واقع الخبرة أن في مخزن الحاجة متسعًا لقدر لا بأس به من القسوة.

برغم أن رحيل أنجم عن الخواب جاه لم يكن رحيلاً وديًّا بأي حال، فقد كانت تعلم أن أحلام الخواب جاه وأسراره ليست ملكًا لها وحدها فتخونها.

٢

الخواب جاه

كانت الرابعة بين خمسة أطفال، وُلدت ذات ليلة باردة من يناير، في نور قنديل (بسبب انقطاع الكهرباء) في شاه جهان آباد، أي مدينة دلهي المسوَّرة. قالت القابلة أحلام باجي التي استقبلتها ثم وضعتها بين ذراعي أمها ملفوفةً في شالين إنَّها "ولد". ففي ظلِّ تلك الظروف كان ذلك الخطأ مقبولاً.

بعد مضيٍّ شهر على حملها قرَّرت الست جهان آرا وزوجها إن ولد لهما صبيٌّ أن يسمِّياه آفتاب، وكانا بعدما وُلدت لهما ثلاث بنات ينتظران آفتابهما هذا منذ ست سنين. فكانت ليلة ميلاده أسعد ليلة في حياة الست جهان آرا.

في الصباح التالي حينما أشرقت الشمس فملأت الغرفة لطفًا ودفئًا، نزعت اللفائف عن آفتاب الصغير، وتفقَّدت جسمه الضئيل ـ عينين وأنفًا ورأسًا ورقبةً وإبطين وأصابع قدمين ـ ببهجة متروِّية.

وساعتذاك اكتشفت عُشًا أسفل عضوه الصبيانيّ الصغير، وفي العشّ عضو صغير عدم الشكل لكنه أنثوي بلا مراء.

هل يمكن أن تفزع أمٌّ من وليدها؟ ذلك ما حدث للست جهان آرا. كان أول رد فعل لها أن شعرت بقلبها ينقبض وبعظامها تستحيل رمادًا. وكان ثاني ردٍّ فعل أن نظرت تارة أخرى لتتأكد أنها غير مخطئة. وثالث ردٍّ فعل أن ارتدّت مبتعدة عن ذلك الذي خلقته بينما تتلوّى أمعاؤها فيسيل على فخذيها خيطٌ من الغائط. ورابع ردٍّ فعل أنها فكرت في قتل نفسها وطفلتها. وخامس ردٍّ فعل أن تناولت الطفلة واحتضنتها وهي تسقط في شقٍّ بين عالم عرفته وعوالم لم تكن تعرف أن لها وجودًا. وهنالك في الهاوية، وبينما تتخبّط في دوامة الظلمة، بدا لها كلُّ شيء كانت على يقين منه حتى ذلك الحين، كلُّ شيء مهما كان، من أصغر الأشياء إلى أضخمها، عديمَ المعنى. كانت تعلم أن كل الأشياء في الأرديّة -وهي اللغة الوحيدة التي تعرفها- وليس الأشياء الحية فقط، بل كل الأشياء -السجاجيد والثياب والكتب والأقلام والآلات الموسيقية- لها جنس ما. كلُّ شيء إما أن يكون مذكّرًا أو مؤنّثًا، رجلاً أو امرأةً. كلُّ شيء عدا وليدها. كانت تعلم بالطبع أن لأمثاله كلمة تطلق عليهم هي هيجرا، بل هما كلمتان في واقع الأمر، هيجرا وكينّار. ولكن ما من لغة تقوم على كلمتين اثنتين.

وهل لحياة أن تقوم خارج اللغة؟ مؤكدٌ أن هذا السؤال لم يكشف لها عن نفسه في كلمات، أو حتى في جملة واحدة ناصعة الوضوح. بل تجلّى لها في عواء بدائيّ أخرس.

كان سادس ردّ فعل لها أن نظّفت نفسها وعقدت العزم على أن تكتم الأمر حتى حين فلا تطلع عليه أحدًا. ولا زوجها نفسه. وسابع ردٍّ فعل أن استلقت بجوار آفتاب تستريح. تمامًا مثلما فعل إله المسيحيين بعدما خلق السماء والأرض. لم يكن من فارق إلا أنه استراح بعدما فصّل العالم الذي أبدعه ووعاه، أما الست جهان آرا فاستراحت بعدما خلخل ما خلقته كلّ وعي لها بالعالم.

مضت تحدث نفسها بأنه ليس فرْجًا حقيقيًّا في نهاية المطاف. فقناته غير مفتوحة (وقد تحقّقت من ذلك). إن هو إلا زائدة، شيء طفولي. ولعله ينغلق، أو يشفى، أو يختفي بطريقة أو بأخرى. ستقصد كل ضريح تعرفه وتتضرّع إلى العليّ القدير أن يُنزل رحمته، وإنه لمُنزلها. تعلم أنه مُنزلها. ولعله أنزل رحمته فلم تدركها هي أو تتبيّنها.

يوم أن وجدت في نفسها القدرة على الخروج من البيت، حملت الست جهان آرا وليدها آفتاب إلى ضريح حضرة سرمد الشهيد على مسيرة عشر دقائق يسيرة من بيتها. لم تكن تعرف آنذاك قصة حضرة سرمد الشهيد، ولا كانت تدري ما الذي ساق خطاها بذلك اليقين باتجاه مقامه. لعله هو الذي ناداها. أو ربما جذبها إليه الأغرابُ الذين كانوا يضربون خيامهم لديه فتراهم وهي في طريقها إلى سوق مينا بازار، فلم تكن تتنازل في ما مضى من حياتها وتلقي عليهم ولو نظرة إلا لو قطعوا طريقها. وها هم على حين غرة يبدون لها أهم الناس في العالم.

لم يكن جميع زوار ضريح حضرة سرمد الشهيد يعرفون قصته. منهم من كان يعرف أطرافًا منها، ومنهم من لم يكن يعرف منها أي شيء، ومنهم من كانوا يؤلفونها تأليفًا. أكثرهم كان يعرفه تاجرًا أرمنيًا يهوديًا شدَّ الرحال إلى دلهي وافدًا من بلاد فارس سعيًا إلى حب عمره. وقليلٌ من كانوا يعلمون أن حبَّ عمره ذلك صبيٌّ هندوسيٌّ التقى به في السند يدعى أبهي تشند. أكثرهم كان يعلم أنه كفر باليهودية واعتنق الإسلام. وقليلٌ من كانوا يعلمون أن سعيه الروحي بلغ به في نهاية المطاف أن كفر بالإسلام الصارم أيضًا. أكثرهم كان يعرف أنه عاش في شوارع شاه جهان آباد درويشًا عاريًا ثم أُعدِم على مرأى ومسمع من الناس. وقليلٌ من كانوا يعلمون أنه لم يُعدَم لفحشه وتعرّيه أمام الناس بل لردّته. إذ استدعى أورنجزيب -إمبراطور ذلك الزمان- سرمدًا إلى بلاطه وطُلِبَ منه أن يبرهن على صدق إسلامه بأن ينطق كلمة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله. فوقف سرمد عاريًا في البلاط الملكي بالقلعة الحمراء أمام جمع من القضاة والمشايخ، وقد سكنت السحب في السماء فهي لا تجري، وتجمّدت الطيور فهي فاردة أجنحتها لا تطير، وتخثّر في القلعة الهواء سميكًا لا نفاذ منه، إذ بدأ سرمد يتلو الشهادة. فما كاد يبدأ حتى توقف. وإذ به لم يقل غير لا إله، مصرًا على أنه لا يقوى على التزحزح بعد ذلك ما لم يُكمل بحثه الروحي فيخلص قلبه كله لله. وقال إن ترديد الشهادة قبل ذلك لن يكون إلا استخفافًا بها. فحينذاك أمر أورنجزيب بإعدامه، ودعمه القضاة في ما قضى به.

ومن يفترض بناءً على هذا أن من كانوا يذهبون إلى حضرة سرمد الشهيد احترامًا له وهم لا يعلمون حكايته إنما كانوا يفعلون ذلك عن جهل، ودونما اعتداد بالوقائع والتاريخ، فقد حاد عن الصواب. ففي داخل المقام، كانت روح سرمد العاصية، الحادَّة، تظهر لمن يقصدونه طالبين بركته، ملموسةً، حقيقيةً، تدنو عن حقيقتها كلُّ وقائع التاريخ. كانت تعلي (دونما أدنى وعظ) فضيلة الروحانية على القداسة، والبساطة على الكثرة والعناد، والحب الشهواني وإن جوبه بالموت. وكانت روح سرمد تضع قصته بين يدي كل آتٍ إليه ليجمل منها ما يشاء، ويحيلها إلى ما يكون في حاجة إليه.

ولمّا بات وجه الست جهان آرا مألوفًا في الضريح، سمعت قصة سرمد، لتحكي هي من بعد كيف ذُبح على درج المسجد الجامع أمام محيط حقيقي ممن أحبوه واجتمعوا لوداعه. وكيف بقي رأسه يردِّد ما كتب من أشعار الهوى حتى بعدما نُحِر عن جسده، وكيف أنه تناول رأسه الناطق ذلك، بمثل البساطة التي قد يتناول بها اليوم سائق دراجة نارية خوذته، ونزل الدرج إلى المسجد الجامع، ثم مضى بالبساطة نفسها مباشرة إلى السماء. ولذلك -مثلما كانت الست جهان آرا تقول (لكل من يُقبِل على الاستماع)- كانت الأرض في ضريح حضرة سرمد الصغير (الملتصق التصاق العلقة بقاعدة الدرج الشرقي في المسجد الجامع، وهي عين البقعة التي أريقت فيها دماؤه حتى صارت بحيرة) حمراءَ، والجدرانُ حمراءَ، والسقفُ أحمرَ. كانت تحكي أن أكثر من ثلاثمئة سنة مضت، ولم تمض دماء حضرة سرمد. وكانت تصرُّ على أنهم ما

طلوا الضريح بلون إلا استحال أحمر من تلقاء نفسه طال عليه الزمان أم قصر.

في المرة الأولى التي شقَّت فيها زحام باعة الزيوت العطرية وباعة الأحجبة، وحرّاس النعال، والمقعدين، والمتسولين، والمتشردين، والماعز المسمَّنة للذبح في العيد وحلقة الخصيان الهرمين الجالسين في هدوء تحت وقاء من المشمَّع خارج المقام، ودخلت الغرفة الحمراء الصغيرة، هدأت نفس الست جهان آرا. خفتت أصوات الشارع فكأنها آتية من عالم بعيد. جلست في ركن، ووليدها في حجرها، تشاهد الناس، مسلمين وهندوسًا، يأتون أفرادًا وأزواجًا، فيعقدون خيوطًا حمرًا، ويُعلّقون أساور حمراء، ويلصقون قصاصات ورقية في الشبكة المحيطة بالقبر، متضرِّعين إلى سرمد أن يمنّ عليهم ببركاته. ووقعت عيناها على شيخ أثيري ذي بشرة شفافة يابسة ولحية هزيلة مغزولة من النور جالسًا في الركن يتمايل إلى الأمام وإلى الوراء باكيًا بلا نشيج كأنما انفطر قلبه، فسمحت الست جهان آرا لدموعها بالانهمار. ومضت تهمس لسرمد قائلة إن هذا هو ابني آفتاب، جئت به إليك. فاشمله بعطفك. واغرس في قلبي محبته.

واستجاب لها حضرة سرمد.

*

في السنوات القليلة الأولى من حياة آفتاب، بقي سرُّ الست جهان آرا مكنونًا. إذ أبقت الولد على مقربة منها، خاضعًا لحمايتها الشرسة، وهي تنتظر أن يشفى عضوه البناتيّ. وحتى بعدما وُلد ابنها الأصغر ثاقب، لم تكن تسمح لآفتاب بالابتعاد عنها كثيرًا بمفرده. فلم ير أحد في ذلك غرابة من امرأة طال عليها ترقُّبُ الولد وانتظاره.

ولما بلغ آفتاب الخامسة التحق بمدرسة إسلامية أرديَّة هندية للبنين في تشوريولي جالي (زقاق بائع الأساور). فبات بوسعه في غضون سنة أن يتلو قدرًا لا بأس به من القرآن بالعربية، وإن لم يبدُ واضحًا إلى أيٍّ مدى يفهم ما يحفظه، ولكن ذلك كان حال جميع الأولاد أيضًا. كان آفتاب تلميذًا فوق المتوسط، وإن بدا واضحًا، حتى في طفولته الأولى، أن موهبته الحقيقية هي الموسيقى. كان له في الغناء صوتٌ صادقٌ عذبٌ قادرٌ على التقاط النغمة بمجرد الاستماع إليها. فقرَّر أبواه أن يبعثا به إلى الأستاذ حميد خان، وهو موسيقيٌّ شاب بارز كان يعلّم الموسيقى الهندية الكلاسيكية لجماعات من الأطفال في غرفته المكتظة في تشانداني محل. ولم يهمل آفتاب الصغير ولو حصة واحدة. فلم يبلغ التاسعة إلا وهو قادر على أداء نحو عشرين دقيقة من الـ "برا خيال" على راجات اليمن والدُرجا والبهيرف، جاعلاً صوته يطفو حينًا على موسيقى الرِكهب الخافت لراجَ البوريه دهناشري مثلما يتواثب حجر على سطح بحيرة. كان بوسعه أن يغني التشيتي والتهمري[٢] برسوخ واتزان مخطبة قديرة من

---

[٢] كل ما سبق هو من أشكال وأقسام وفروع الموسيقى الهندية التراثية.

لكهنو،[٣] فكان الناس في أول الأمر يطربون له ويشجعونه، ثم سرعان ما بدأت سخافة الأولاد "إنهُ ليس ـهُ بل ها. إنه ليس ـهُ أو ها. إنه ـهُ وها. ها ـهُ. ـهُ ها. ها ها ها هاااااه."

ولما تجاوزت المضايقات القدرة على الاحتمال. توقّف آفتاب عن الذهاب إلى حصص الموسيقى. فإذا بالأستاذ حميد ـالذي كان شغوفًا به أشدّ ما يكون الشغفـ يعرض التدريس له بمفرده، فاستمرّت حصص الموسيقى، ولكن آفتاب رفض الاستمرار في الذهاب إلى المدرسة. وبحلول ذلك الوقت كانت آمال الست جهان آرا قد تبدَّدت، فلم تلح في الأفق بادرة على قرب الشفاء. وكانت قد تدبَّرت إرجاء ختانه بضع سنين بسلسلة من الأعذار المبتكرة، ولكن ثاقب الصغير كان ينتظر دوره، فعلمت أن الوقت يداهمها، وفعلت أخيرًا ما كان لزامًا عليها أن تفعله. استجمعت شجاعتها وأخبرت زوجها، وهي منهارة باكية حزينة حزنًا عظيما عظمة ارتياحها بالعثور أخيرًا على من يشاركها حمل ذلك الكابوس.

كان زوجها ملاقات علي حكيمًا يعالج بالأعشاب الطبية، ومحبًّا للشعر الأرديّ والفارسيّ، قضى عمره كله يعمل لدى عائلة حكيم آخر هو الحكيم عبد المجيد، الذي اخترع مشروبًا شعبيًّا بديلاً للصودا يدعى شربات روح أفزا (ويعني بالفارسية "إكسير الروح")، وهو مصنوع من بذور الرِّجلة، والعنب، والبرتقال، والبطيخ، والنعناع، والجزر، مع

---

٣ عاصمة ولاية أوتار براديش وكبرى مدنها.

لسة من السبانخ، وبذور نجيل الهند، واللوتس، ونوعين من الزنبق، ومقطّر الورد الدمشقي. فوجد الناس أن ملء ملعقتين من ذلك الشراب الياقوتي الفوّار على كوب من اللبن البارد أو حتى على الماء ليس فقط لذيذ الطعم، لكنه فعّال أيضًا في مقاومة صيف دلهي القائظ وأنواع الحمّى الغريبة التي تأتي محمولة على رياح الصحراء. وسرعان ما تحوّل الشراب الذي بدأ علاجًا إلى أشهر مشروب صيفي في المنطقة. وأصبح روح أفزا مشروعًا مزدهرًا واسمًا رائجًا في جميع البيوت. فسيطر طوال أربعين سنة على السوق، حتى بات مقرُّ إنتاجه في المدينة القديمة يبعثه حتى أقصى الجنوب في حيدر آباد، وأقصى الغرب في أفغانستان. ثم حدث التقسيم.[4] انفجر شريان الرب على الحدود الجديدة بين الهند وباكستان ومات مليون شخص بسبب الكراهية. وإذا بالجيران في كل جانب يتحولون كأنْ لم يعرفوا بعضهم بعضًا من قبل، ولم يحضروا أعراس بعضهم بعضًا، ولم يغنِّ بعضهم أغنيات بعض. وانفتحت المدينة المسوَّرة. وفرَّت عائلات قديمة (مسلمة) ووفدت عائلات جديدة (هندوسية) فاستقرت حول أسوار المدينة. ومُني روح أفزا بانتكاسة قوية، لكنه سرعان ما استفاق وافتتح فرعًا في باكستان. وبعد ربع قرن من ذلك، وبعد وقوع الهولوكوست في باكستان الشرقية ، افتُتح فرع آخر في بلد جديد تمامًا هو بنجلاديش. وفي نهاية المطاف إذا بإكسير الروح، الذي سَلِم من حروب وثلاث ولادات دموية لثلاثة بلاد جديدة، يستسلم شأن أغلب الأشياء أمام كوكاكولا.

---

٤ سنة ١٩٤٧.

برغم أن ملاقات علي كان موضع ثقة رئيسه الحكيم عبد المجيد وتقديره، لم يكن راتبه يكفي لتلبية احتياجاته. فكان يعالج المرضى في بيته في غير ساعات العمل، وكانت الست جهان آرا تكمل دخل الأسرة بما تكسبه من قبعات غاندي القطنية البيضاء التي كانت تصنعها وتورِّد كمّيات منها لأصحاب المتاجر الهندوس في سوق تشاندني.

تعقّب ملاقات علي سلساله حتى وصل مباشرة إلى الإمبراطور المغولي جنكيز خان من خلال ابنه الثاني تشجتاي. وكانت لديه شجرة عائلة مفصَّلة على رِقّ مشقّق، وعلبة صفيحية مليئة بأوراق هشَّة مصفَّرة يؤمن أنها تثبت صحة نسبه المزعوم وتبيِّن كيف أن سلالة الشامانات في صحراء جوبي، وعبدة السماء الزرقاء الأبدية، ممن كانوا يعدّون في يوم من الأيام أعداء للإسلام، أصبحوا أسلافًا للأسرة المغولية التي حكمت الهند طوال قرون، وكيف أصبحت عائلة ملاقات علي نفسها، وهي من نسل المغول السنَّة، عائلة شيعية. وبين الحين والآخر، أو ربما كل بضع سنين، كان يفتح العلبة الصفيحية ليعرض أوراقه على صحفي زائر فلا يصغي إلى كلامه في أغلب الحالات إصغاءً حقيقيًا ولا يأخذه هو نفسَه مأخذ الجد. وفي أفضل الحالات كان الحوار الطويل يتمخض عن إشارة طريفة ضمن مادة خاصة تُنشر عن دلهي القديمة في العدد الأسبوعي. فإنْ نُشر الموضوع على صفحتين متقابلتين، فقد تُنشر صورة صغيرة لملاقات علي بجانب بعض الصور المقرَّبة للمطبخ المغولي، وصور عامة للمسلمات في براقعهن يركبن ريكاشات الدراجات التي تغصُّ بها الأزقة الضيقة الوسخة، ولا غنى طبعًا عن الصورة البانورامية

الحتمية لآلاف الرجال المسلمين إذ يعتمرون الطواقي البيضاء في صفوفهم تامّة الاستواء، وهم ساجدون في صلاتهم بالمسجد الجامع. كان بعض القراء يرون في هذه الصور دليلاً على نجاح الهند في التزامها بالعلمانية والتسامح بين العقائد، ومنهم من كان ينظر إليها بعين الارتياح إلى ما يبدو على سكان دلهي المسلمين من رضا بالجيتو الحيِّ الذي يعيشون فيه. وإن بقي آخرون يرون فيها دليلاً على أن المسلمين غير راغبين في "الاندماج"، منهمكون في تنظيم أنفسهم وتربيتها، وأنهم عمّا قريب سوف يمثّلون تهديدًا لهندوسية الهند. وكان أصحاب تلك الرؤية يزدادون نفوذًا بوتيرة منذرة بالخطر.

بغضِّ النظر عمّا كان يظهر في الجرائد أو لا يظهر فيها، كان ملاقات علي في شيخوخته يرحب بالزوار في بيته الضئيل باذلاً لهم كل ما بقي لديه من كرم رجل نبيل، حاكيًا لهم عن الماضي بإجلالٍ لا بحنين على الإطلاق، واصفًا لهم كيف أن أسلافه في القرن الثالث عشر كانوا حكامًا على إمبراطورية تمتد من بلاد تطلق على أنفسها الآن فييتنام وكوريا وصولاً إلى المجر والبلقان، ومن شمالي سيبيريا إلى سهل الدكّن في الهند، فهي أضخم إمبراطورية عرفها العالم على مرِّ الزمان. وكان كثيرًا ما يُنهي الحوار ببيتين من الشعر الأردي لأحد شعرائه المفضلين، وهو مير تقي مير:

"إن رأسًا يكلله اليوم تاج الفخار

لمنكّسٌ غدًا ها هنا في حداد."

لم يكن أغلب زواره ـ من الممثلين الوقحين للطبقة الحاكمة الجديدة ـ يدركون في غطرسة شبابهم ما يكمن من معنى في البيتين اللذين يُتليان عليهما كأنهما لقمة مذابة في رشفة شاي ثقيل مسكر في كأس صغير. كانوا يدركون بالطبع أنهما رثاء لإمبراطورية ساقطة تقلّصت حدودها الدولية حتى باتت جيتو قذرًا تحدق به أطلال أسوار المدينة القديمة. وكانوا يدركون كذلك أن ملاقات علي ينعي من خلالهما بؤس حاله. أما ما كان يغيب عنهم فهو أن البيتين لقمة لئيمة، قطعة سمبوسة غادرة، تحذير مغلف في رثاء، يتزيًا بتواضع زائف على لسان رجل واسع المعرفة شديد الاطمئنان إلى جهل مستمعيه باللغة الأردية التي كانت ـ شأن أغلب الناطقين بها ـ تنحصر رويدًا رويدًا داخل جيتو.

لم يكن شغف ملاقات علي بالشعر محض هواية منفصلة عن عمله كحكيم، بل هو إيمانٌ منه بقدرة الشعر على الشفاء، أو على قطع جزء كبير على الأقل من طريق الشفاء من كلّ داء تقريبًا. فكان يصف لمرضاه القصائد مثلما يصف غيره من الحكماء الأدوية. وكان بوسعه أن يأتي من مخزونه الهائل بأبيات تناسب بصورة مذهلة كلّ مرض وكلّ حالة وكلّ مزاج وكلّ تبدُّل يطرأ مهما يكن طفيفًا على الأجواء السياسية. فكان أن جعلت هذه العادة الحياة من حوله تبدو أشدَّ عمقًا، وفي الوقت نفسه أقلّ تميزًا مما هي في الحقيقة. فقد كانت تلك العادة تصبغ كل شيء بإحساس رهيف من السكون، إحساس بأن كل ما يجري إنما سبق أن جرى، وأن كُتب، وغُنِّي، وأدليت فيه بالآراء، ورقد في سلام داخل مستودع التاريخ. وإنه ما لجديد أن يأتي. ولعل

ذلك ما كان يجعل الشباب يفرّون منه ضاجّين بالضحكات كلما استشعروا أن بيتين في الطريق.

عندما أخبرته الست جهان آرا بأمر آفتاب، لم يجد ملاقات علي - ربما للمرة الأولى في حياته- بيتين يليقان بالمناسبة. بل إنه لم يُفقْ من الصدمة إلا بعد حين، ولما أفاق، وبّخ زوجته لأنها لم تخبره بالأمر من قبل. قال إن الزمن تغيّر. وإنهم الآن في العصر الحديث. وإنه على يقين من وجود حلّ طبيّ بسيط لمشكلة ابنهما. وإنهما سيعثران على طبيب في نيودلهي، بعيد تمام البعد عما يدور في أحياء المدينة القديمة من همس وغيمة. وقال لزوجته في شيء من الحزم إن الله في عون العبد ما كان العبد في عون نفسه.

بعد أسبوع، ارتديا أفضل ما لديهما من ثياب، وانطلقا إلى حيّ نظام الدين باستي في عربة تانجا خشبية ذات عجلتين يجرها حصان، ومعهما آفتاب الشقي وقد ارتدى سترة بنهانية رجالية رمادية كئيبة وصدرية سوداء مزركشة واعتمر طاقية وارتدى نعلاً انثنت فيه أصابع قدميه إلى أعلى انثناء جندولين في فينسيا. كان الغرض المعلن من خروجهم في ذلك اليوم هو الذهاب لتفقّد عروس محتملة لإعجاز، الابن الأصغر لقاسم، أكبر أشقاء ملاقات علي، الذي انتقل إلى باكستان بعد التقسيم فعمل في فرع روح أفزا بكراتشي. في حين كان السبب الحقيقي هو موعدهم مع دكتور غلام نبي الذي كان يطلق على نفسه لقب "عالِم الجنس".

كان دكتور نبي يباهي بكونه رجلاً مباشرًا في كلامه ميّالاً إلى الدقة علميَّ النزعة. قال بعد فحصه آفتاب إنه من وجهة النظر الطبية ليس هيجرا ـأي أنثى حبيسة جسم ذكرـ برغم أنه لأسباب عملية لا بأس من استعمال هذه الكلمة. قال إن آفتاب مثال نادر للخنثى، بسمات كل من الذكر والأنثى، برغم أن السمات الذكرية ـفي ما يبدو على المستوى الخارجيـ هي الأكثر سيطرة. قال إنه يمكن أن يقترح عليهم جرّاحًا يغلق العضو البناتي، يخيطه. وبوسعه أيضًا أن يصف بعض الأقراص. لكن المشكلة كما قال لم تكن ظاهرية فقط. ففي حين أن العلاج سوف ينفع دون أدنى شك، ستبقى "طبائع الهيجرا" ومن غير المحتمل أن تتبدّد. (واستعمل كلمة ال"فطرة" حيثما كان ينبغي أن يستعمل ال"طبائع") وإنه لا يضمن النجاح التام. ابتهج ملاقات علي، وقد تهيّأ سلفًا لأسوأ المواقف، وقال "طبائع؟ ما من مشكلة في الطبائع. لكل شخص هذه الطبيعة أو تلك.. الطبائع دومًا يمكن تدبر أمرها".

وبرغم أن زيارة دكتور نبي لم تنته بحلٍّ فوريٍّ لبلاء آفتاب كما كان يراه ملاقات علي، فقد حقّقت لملاقات علي فائدة عظيمة. إذ منحته إحداثيات يضبط على أساسها موقعه، ويوجّه وفقًا لها دفة سفينته الجانحة حتى ذلك الحين جنوحًا خطيرًا في محيط مبهم لا مكان فيه للشعر. بات بوسعه إذ ذاك أن يحيل كربه إلى مشكلة عملية ويركز انتباهه وطاقته على شيء يفهمه ويحسن فهمه: كيف يدبر من المال ما يكفي الجراحة؟

اقتطع من مصاريف البيت وأعدّ قائمة بأسماء الأهل والأشخاص الذين يمكن أن يستدين منهم. وفي الوقت نفسه، انطلق في مشروع ثقافي

لغرس الرجولة في آفتاب. نقل إليه حبه للشعر وأثناه عن غناء التهمري والتشيتي. وصار يسهر شطرًا كبيرًا من الليل يحكي له قصص الأسلاف المحاربين وبسالتهم في ميادين المعارك. فلم تكن تترك في نفس آفتاب أثرًا. لكنه لمّا سمع قصة فوز تِموجِن -أي جنكيز خان- بزوجته الجميلة بورتي خاتون، وكيف اختطفتها قبيلة منافسة فحارب تِموجِن جيشًا كاملاً بيديه العاريتين ليستردَّها وقد شغف بها حبًا، صار آفتاب يتمنى أن يكون إياها.

وفي حين كانت شقيقاته وشقيقه يذهبون إلى المدرسة، كان آفتاب يقضي الساعات في شرفة البيت الضيقة المطلة على ضريح نشيتلي، وهي العنزة الرقطاء التي قيل إنها كانت ذات قوى خارقة، وعلى الشارع المزدحم الذي يمرُّ به حتى يلتقي بسوق ماتيا محل. وسرعان ما ألف إيقاع الحي الذي لم يكن في جوهره إلا فيضًا من السباب الأردي - سأنكح أمك، اذهب فانكح أختك، وحياة قضيب أمك- يقاطعه خمس مرات في اليوم أذان الصلاة من المسجد الجامع ومن العديد من المساجد الصغيرة الأخرى في المدينة القديمة. وفي حين بقي آفتاب منتبهًا، يومًا بعد يوم، وإن لم يكن منتبهًا إلى شيء بعينه، كان الأخ جدو تاجر السمك في سوق الصباح المبكر العاتي يركن عربته بما عليها من سمك براقٍ في مركز السوق فيكون من المؤكد بمثل أن الشمس تشرق من الشرق وتغرب من الغرب أنه يتحول إلى وسيم، الطويل الدمث بائع بسكويت النان خطايي بعد الظهر الذي يصبح يونس بائع الفاكهة المسائي الضئيل النحيل، الذي ينتفخ ويتسع ويتمملق في وقت متأخر

من الليل فإذا به حسن ميَّان متين البنيان بائع أفضل برياني بلحم الضأن في ماتيا محل من إناء نحاسي هائل الحجم. وفي أحد أيام الربيع رأى آفتاب امرأة طويلة رشيقة الوركين تضع طلاء شفاه براقًا، وترتدي حذاء عالي الكعب وقميصًا وسروالاً* من الساتان الأخضر اللامع، كانت تشتري أساور من مير بائع الأساور الذي جمع إلى ذلك عمله حارسًا لمقبرة تشيتلي، فكان يخزن أساوره في القبر كل ليلة بعدما يغلق الضريح والدكان. (وكان قد راعى أن تتزامن مواعيد الضريح والدكان). لم يكن آفتاب قد رأى من قبل من يشبه تلك المرأة الطويلة ذات الطلاء على الشفتين. فسارع ينزل الدرج المنحدر إلى الشارع ويقتفي المرأة في حذر وهي تشتري سيقان الماعز، ومشابك الشعر، والجوافة، وتصلح سير صندلها.

أراد أن يكون إياها.

تبعها بطول الشارع حتى بوابة التركمان ومضى وقت طويل وهو واقف أمام الباب الأزرق الذي اختفت وراءه. ما كان يُسمح لامرأة عادية أن تمشي في شوارع شاه جهان آباد مرتدية مثل ذلك اللباس. إذ كانت نساء شاه جهان آباد العاديات يرتدين البراقع أو يغطين رؤوسهن

* salwar kameez: "شلوار قميص" أو "سلوار قميز". القميص والسروال من أكثر الملابس التقليدية شيوعًا في جنوب ووسط آسيا مع تنوع كبير في تصميماتهما، وتميز أنواعهما حسب المنطقة المبتكرة والصنعة لهما، أو المرحلة التاريخية المرتبطة بهما. والمنسوب منهما إلى بتياله هما المصنوعان في تلك المنطقة.

على الأقل وجميع أجسامهن ما عدا الأيدي والأقدام. فما كان للمرأة التي تبعها آفتاب أن تظهر بمثل ما ظهرت به من لباس وتسير هكذا طوال الطريق إلا لأنها لم تكن امرأة. ومهما تكن طبيعتها، أراد آفتاب أن يكون إياها. أراد أن يكون إياها أكثر مما أراد أن يكون بورتي خاتون. أراد أن يخطر مثلها برّاقًا أمام دكاكين الجزارين حيث تتدلّى الماعز المسلوخة هائلة كأنها جدران من اللحم، أراد أن يتصنَّع الابتسامة وهو يمرّ أمام كوافير نيو لايف ستايل للرجال حيث يحلق إلياس شعر لياقت الجزار الشاب ويضع عليه بريل كريم. أراد أن تكون له يد مطليّة الأظافر ومعصم مليء بالأساور وأن يرفع بأناقة خيشوم سمكة ليختبر مدى طزاجتها قبل أن يساوم من أجل تخفيض السعر. أراد أن يرفع طرف سرواله قليلاً وهو يعبر بركة ماء في الطريق، رفعة بسيطة، تكشف فقط عن كاحليه الفضـيين.

لم يكن عضو آفتاب البناتي هو الزائدة الوحيدة.

صار يقسِّم وقته بين حصص الموسيقى والتسكع أمام الباب الأزرق في بيت زقاق دكوتان الذي تعيش فيه المرأة. عرف أن اسمها بومبي سيلك «حرير بومبي» وأن سبعًا أخريات مثلها يعشن في البيت القديم ذي الباب الأزرق، هن "بلبل" و"رضية" و"هيرا" و"بيبي" و"نِمّو" و"ماري" و"جُريا"، وأن لهن أستاذة، أي معلمة ومرشدة، اسمها كلثوم بي هي أكبرهن جميعًا، وهي رئيسة ذلك البيت. عرف آفتاب أن منزلهن يدعى الخواب جاه، أي منزل الأحلام.

في أول الأمر طردوه، فقد كان الجميع بمن فيهم أهل الخواب جاه يعرفون ملاقات علي ولم يرد أي منهم أن يجور عليه. لكن آفتاب لم يكن يبالي بأي تحذير أو عقاب قد ينتظره، فكان يرجع إلى موقعه في عناد، يوما بعد الآخر، إذ بات ذلك هو المكان الوحيد في العالم الذي يشعر أن الهواء يفسح له مكانًا فيه. كان لا يكاد يصل إليه إلا ويشعر أنه تحوَّل، وانزاح قليلاً، كأن زميلاً في الفصل أفسح له مكانًا في المقعد. وفي غضون شهور قليلة، أدى خلالها مهامٌ لساكنات البيت، وحمل عنهن حقائبهن وآلاتهن الموسيقية وهن في جولاتهن بالمدينة، ودلَّك أقدامهن المجهدة في خواتيم أيام العمل الطوال، استطاع آفتاب أن يدسَّ نفسه في الخواب جاه. إلى أن أشرق أخيرًا فجر يوم سُمح له فيه بالدخول. فدخل ذلك البيت العادي المتداعي كمن يعبر بوابات الفردوس.

انفتح الباب الأزرق كاشفًا عن فناء مرصوف عالي الجدران في أحد أركانه مضخة ماء يدوية وفي آخره شجرة رمان، وفيه ـمن وراء شرفة واسعة ذات أعمدة للزينةـ غرفتان، تهدَّم سقف إحداهما وآلت جدرانها إلى ركام اتخذت منه عائلة قطط بيتًا لها. والغرفة التي لم تتداع كانت كبيرة ولا بأس بحالتها. تصطفُّ بجانب جدرانها المطلية بالأخضر الباهت المقشور أربع خزانات خشبية واثنتان معدنيتان من إنتاج شركة جودريج، وعليها جميعًا صور نجوم سينما. مدهوبالا، ووحيدة رحمن، ونرجس، ودليب كُمار (واسمه الحقيقي محمد يوسف خان)، وجرو دُت، وجوني ووكر الحلي (بدر الدين جمال الدين قاضي) وهو الكوميديان القادر أن يحمل أتعس أهل الأرض على الابتسام. وعلى

باب إحدى الخزانات مرآة معتمة بطوله، وفي ركن آخر تسريحة قديمة متهالكة. وتتدلّى من السقف العالي ثريا مكسورة لا ينير من مصابيحها إلا واحد، ومروحة طويلة الأذرع مسودّة لها خصال إنسانية، فهي خجولة، ومزاجية، ولا يمكن توقّع تصرفاتها. فضلاً عن لها اسمًا هو أوشا. أوشا كانت قد كبرت، وصارت كثيرًا ما تتأبّى على العمل إلا لو لقيت بعض التدليل والتحريك بمكنسة طويلة، فتدور كراقصة بطيئة ترقص على العصا. كانت الأستاذة كلثوم بي تنام في سرير البيت الوحيد برفقة ببغائها بيربَل في قفصه المعلّق فوق سريرها. وكان بيربل يصرخ كمن يتعرَّض للذبح حين لا تكون كلثوم بي قريبة منه بالليل. أما في ساعات صحوه فكان يجيد بعض الشتائم القاتلة المسبوقة دائمًا بصيحات فيها شيء من الوضاعة التقطها من رفيقاته في البيت والمقصورة على "آي هاي". كان السباب المفضل لدى بيربل هو السباب الأكثر شيوعًا في الخواب جاه: سالي رندي هيجرا (هيجرا عاهرة أخت عاهرة). وكان بيربل خبيرًا بجميع تنويعاتها. فكان يقولها في همس، وفي غنج، وفي مزاح، وفي حرقة، وفي غضب مرير حقيقي.

الباقيات كنَّ ينمن في الشرفة، فيكون فراش كلٍّ منهن مبرومًا طوال النهار كأنه وسادة عملاقة. وفي الشتاء حينما تزداد البرودة والضباب في الشرفة كنَّ يتكدسن جميعًا في غرفة كلثوم بي. كان مدخل المرحاض يمرُّ بأطلال الغرفة المنهارة، وكنَّ جميعًا يتناوبن الاستحمام في المضخّة. وكان سلّم ضيّق منحدر عبثي يفضي إلى الطابق الأول حيث المطبخ الذي يطلُّ شباكه على قبة كنيسة الثالوث الأقدس.

ماري كانت المسيحية الوحيدة بين ساكنات الخواب جاه. ولم تكن تذهب إلى الكنيسة، لكنها كانت تعلّق حول رقبتها صليبًا صغيرًا. جُريا وبلبل كانتا هندوسيتين تزوران بين الحين والآخر المعابد التي تسمح لهما بالزيارة. والبقية كنَّ مسلمات. وكنَّ يزرن المسجد الجامع والأضرحة التي كانت تسمح لهن بدخول الغرف الداخلية (فالهيجرا ـخلافًا للمرأة العادية ـ لا تعدُّ نجسة لأنها لا تحيض). غير أن الأكثر ذكورة بين أهل الخواب جاه جميعًا هي التي كانت تحيض. كانت "بسم الله" تنام في شرفة المطبخ بالطابق العلوي، وهي امرأة ضئيلة نحيلة داكنة البشرة ذات صوت شبيه بنفير الأتوبيس. وكانت قبل سنوات قليلة قد اعتنقت الإسلام وانتقلت إلى الخواب جاه (بدون أن يرتبط أي من الأمرين بالآخر) بعد أن طردها زوجها سائق أتوبيس شركة دلهي للنقل العام من البيت لعدم إنجابها طفلاً له. وبالطبع لم يخطر له قط أن يكون هو السبب في عدم الإنجاب. باتت بسم الله (وكان اسمها من قبل بيملا) مسؤولة عن إدارة المطبخ وحماية الخواب جاه من المتطفلين بضراوة وبلا رحمة وبحرفية بلطجي من شيكاغو. ما كان للشباب أن يدخلوا الخواب جاه دون إذنها. بل لقد كان لزامًا على الزبائن العاديين ـومن بينهم زبون أنجم في المستقبل وهو الرجل الذي يجيد الإنجليزية ـ أن يرتِّبوا دخولهم وإلا فإنهم يبعدون أيضًا. كانت رفيقة بسم الله في الشرفة هي رضية التي فقدت عقلها وذاكرتها فلم تعد تعرف من هي أو من أين جاءت. ورضية لم تكن هيجرا، بل كانت رجلاً يحب أن يرتدي ثياب النساء. ومع ذلك، لم تكن تحب أن يتصوَّرها أحد امرأة، بل رجلاً يحب أن يكون امرأة.

وقد مضى أمد طويل منذ أن توقفت عن توضيح الفارق للناس (عن فيهم الهيجرات). كانت رضية تقضي أيامها في إطعام الحمام على السطح وتوجيه دفّة أيٍّ حديث إلى برنامج حكومي سريٍّ عدم القيمة اكتشفت أنه مخصَّص للهيجرات ولمن كانوا في مثل حالتها من الناس (وكانت تطلق عليه اسم المناورة). بموجب هذا البرنامج، يعيش أولئك جميعًا في مستعمرة خاصة ويحصلن على رواتب من الحكومة فلا تضطر أيٌّ منهن إلى كسب لقمة عيشها من ممارسة ما تصفه بـ **البادتميزي** ـ أي "قلة الأدب". والبرنامج الآخر الذي كانت تتكلم عنه رضية هو برنامج الرواتب الحكومية المخصَّص للقطط الضالة. ولسبب ما، كان عقلها عديم الذكريات عديم المراسي يجنح دومًا خطأً إلى البرامج الحكومية.

أول صديقة حقيقية لآفتاب في الخواب جاه كانت نِمّو الجوركهبورية، وهي أصغرهن جميعًا، والوحيدة بينهن التي أكملت دراستها الثانوية. كانت نِمّو قد هربت من بيتها في جوركهبور التي كان يعمل فيها أبوها موظفًا كبيرًا في مكتب البريد الرئيسي. وبرغم أنها كانت في مظهرها تبدو أكبر كثيرًا، فلم تكن في واقع الأمر أكبر من آفتاب إلا بست سنوات أو سبع. كانت قصيرة ممتلئة ذات شعر متماوج كثيف وحاجبين فاتنين كأنهما سيفان معقوفان، ورموش كثيفة بصورة نادرة. كان يمكن أن تكون جميلة لولا شعر وجهها سريع النمو الذي كان يجعل وجنتيها تبدوان زرقاوين تحت مساحيقها حتى حين تحلقهما. كانت نِمّو مفتونة بالموضة النسائية الغربية وكانت لديها مجموعة من مجلات الموضة اكتنزتها من باعة الكتب القديمة في سوق كتب الأحد

على رصيف دَرياجنج الواقع على مسافة خمس دقائق من الخواب جاه. كان أحد باعة الكتب ويدعى ناوشاد يشتري كتبه ومجلاته من جامعي القمامة الذين يخدمون السفارات الأجنبية في شانتيباث ويدخر تلك المجلات ليبيعها لنِمّو بتخفيض ضخم.

سألت نِمّو آفتاب ذات مرة وهي تتصفح نسخة رديئة من عدد صدر سنة ١٩٦٧ من مجلة فوج متمعّنة في الشقراوات عاريات السيقان اللاتي كنّ يفتنّها "هل تعرف لم خلق الله الهيجرات؟"

"لا، لماذا؟"

"كانت تجربة. قرّر الرب أن يخلق شيئًا، كائنًا حيًّا، بلا قدرة على السعادة. فخلقنا".

كان لكلماتها وقع لطمة فعلية على آفتاب، فقال في ذعر متعاظم "كيف تقولين هذا؟ كلكنّ هنا سعيدات! هذا هو الخواب جاه!".

قالت نِمّو باقتضاب ودون أن تكلّف نفسها عناء رفع عينيها عن المجلة "من السعيد هنا؟ كله كذب وزيف. لا أحد سعيد هنا. ولا يمكن. أفِق. وفكّر في الأمر، ما الذي يتعسكم أنتم أيها الناس الطبيعيون؟ ولا أعنيك أنت بالذات، بل أمثالك من الكبار، ما الذي يجعلهم تعساء؟ ارتفاع الأسعار، قبول الأولاد في المدارس، ضرب الأزواج، خيانة الزوجات، الاضطرابات بين الهندوس والمسلمين، الصراع الهندي الباكستاني، كلها أشياء خارجية تُسوَّى في النهاية. لكن بالنسبة لنا

ارتفاع الأسعار وقبول الأولاد وضرب الأزواج وخيانة الزوجات كلها بداخلنا. الاضطرابات بداخلنا. الحرب بداخلنا. الصراع الهندي الباكستاني أيضًا بداخلنا. ولن يُسوَّى أبدًا. ولا يمكن".

كان آفتاب يرغب بشدة في أن يفنّد دعواها، وأن يقول لها إنها مخطئة تمامًا، لأنه هو سعيد، أسعد مما كان في أي لحظة مرَّت عليه من قبل. كان مثالاً حيًا على أن نِمّو الجوركهبورية مخطئة، أم ماذا؟ لكنه لم يقل شيئًا، إذ كان ليكشف بذلك أنه ليس من "الناس الطبيعيين"، وذلك ما لم يكن مستعدًا له بعد.

لم يحدث إلا حينما بلغ الرابعة عشرة ـ وكانت نِمّو قد هربت من الخواب جاه مع سائق نقل عام (تخلّى عنها بعد ذلك ورجع إلى أسرته)ـ أن فهم آفتاب تمامًا ما كانت تعنيه. كان جسمه قد أعلن بغتة الحرب عليه، إذ طال واكتسب سمتًا ذكوريًا. مشعرًا. فحاول في ذعر أن يزيل الشعر عن وجهه وجسمه مستعملاً بيرنول وهو مستحضر حارق ترك آثار اسوداد على بشرته. ثم جرَّب كريم آن فرينش لإزالة الشعر الذي اختلسه من أخواته (واكتشف أمره بسرعة بعدما فاحت رائحته كأنه مجرور مفتوح). ونتف حاجبيه الكثيفين مرقّقًا إياهما ـ بملقاط منزلي الصنع أشبه بملقاط الفحم ـ إلى هلالين غير متماثلين. وظهرت لديه تفاحة آدم ناتئة صعودًا وهبوطًا، فكان يودُّ لو يقتلعها من حلقه. ثم جاءت أسوأ الخيانات جميعًا، الخيانة التي لم يكن له من حيلة معها. اخشوشن صوته. حلَّ صوت رجل قوي عميق محلَّ صوته الحلو العالي. كان ينقهر بسببه

ويرتاع منه في كل مرة ينطق فيها. فصار يصمت ولا ينطق إلا بعدما يتعذّر كل سبيل آخر، ويستنفد كل خيار غير الكلام. كفّ عن الغناء. وإذ يسمع الموسيقى، بصير بوسع أي شخص منتبه أن يسمع ما يشبه طنين حشرة عاليًا مسموعًا يبدو كأنه منبعث من ثقب في أعلى رأسه. ولم يعد لأي محاولة للإقناع، وإن بذلها الأستاذ حميد نفسه، أن تستميل آفتاب فيغني ولو أغنية واحدة. لم يغنِّ بعد ذلك أبدًا، إلا على سبيل السخرية من أغنيات الأفلام الهندية في قعدات الهيجرات البذيئة، أو حينما يحللن (بقدراتهن المهنية) على احتفالات الناس العاديين في الأعراس وأعياد الميلاد وحفلات سكنى البيوت الجديدة فيرقصن ويغنين بأصواتهن البرية الخشنة، مانحين البركة ومهدِّدين أصحاب البيت بالفضيحة (بكشفهن عن أعضائهن الجنسية المشوهة) وتخريب الحفل بالسباب والفحش إذا لم يؤجرن. (وهذا ما كانت تعنيه رضية بـ قلة الأدب وما كانت تقصده نِمّو الجوركهبورية حينما قالت "ما نحن إلا بنات آوي تعيش على سعادة الآخرين، نحن صيادات سعادة". خوشي-خور، ذلك هو التعبير الذي استعملته).

ما كادت الموسيقى تهجر آفتاب حتى عدِم أي سبب لمواصلة الحياة في ما كان يراه أغلب الناس العاديين بالعالم الحقيقي، وتسميه الهيجرات بـ الدنيا. فذات ليلة سرق نقودًا، وثيابًا جميلة من أخواته، وذهب ليعيش في الخواب جاه. واندفعت الست جهان آرا -التي لم يعرف عنها الحياء قط- تريد أن تستردّه، فرفض الرحيل معها. وأخيرًا ذهبت، بعدما

استنطقت الأستاذة كلثوم بي وعدًا بأن تُلبس آفتاب -في الإجازات الأسبوعية على الأقل- ثياب الأولاد الطبيعيين وتبعثه إلى البيت. وحاولت أستاذة كلثوم بي أن تفي بوعدها، فلم يدُمْ ذلك الاتفاق إلا شهورًا قليلة.

وهكذا، في سن الخامسة عشرة، وعلى بعد مئة ياردة من الموضع الذي عاش فيه أهله منذ قرون، خطا آفتاب عبر باب عادي إلى كون آخر. في الليلة الأولى التي صار فيها ساكنًا دائمًا من سكان الخواب جاه، رقص في الفناء على الأغنية المفضلة لدى الجميع من فيلم "المغولي الأعظم" المفضل لدى الجميع "بيار كيا تو درنا كيا". وفي الليلة التالية قدَّمته في حفل صغير مرتديًا شال الخواب جاه النسائيّ الأخضر مستهلاً القواعد والطقوس التي جعلت منه رسميًا أحد أعضاء مجتمع الهيجرا. آفتاب أصبح أنجم، تلميذة الأستاذة كلثوم بي من فرقة جهرانة دلهي،[٦] وهي واحدة من فرق الهيجرات السبع الإقليمية في البلد، وكان لكلّ فرقة منها ناياك، أي رئيس، ولهم جميعًا رئيس أعلى.

برغم أن الست جهان آرا لم تزره هناك مرة أخرى، فقد استمرّت طوال سنين تبعث كلّ يوم وجبة ساخنة إلى الخواب جاه. وكان المكان الوحيد الذي تلتقي فيه بأنجم هو ضريح حضرة سرمد الشهيد. فتجلسان هنالك معًا لبعض الوقت، وقد طالت قامة أنجم فبلغت ستة أقدام، وغطّت رأسها في احتشام بشال يلمع بالترتر، بينما يختفي شعر

---

٦ Gharana: هي مدرسة متخصصة في الموسيقى والرقص التراثي.

الست جهان آرا ـالذي بدأ يشيب ـ تحت خمارها الأسود. وفي بعض الأحيان كانت إحداهما تمسك يد الأخرى خلسة. أما ملاقات علي فكان أقل قدرة على القبول بذلك الوضع. فلم يبرأ قط قلبه المفطور. ومع أنه واصل الإدلاء بحواراته، لم يأت سرًا أو جهرًا على ذكر ذلك البلاء الذي حلّ بأسرة جنكيز خان. رأى أن يقطع جميع الروابط مع ابنه. فلم يقابل أنجم ولم يتكلم معها مرة أخرى. وكانا يلتقيان بين الحين والآخر عرضًا في الشارع فيتبادلان النظرات لا التحيات. مطلقًا.

بمرور السنين أصبحت أنجم أشهر هيجرا في دلهي. تصارع عليها السينمائيون، وتكالبت المنظمات غير الحكومية، وكان المراسلون الأجانب يتهادون برقم هاتفها معتبرين إياه معروفا مهنيًا، تمامًا كما يفعلون بأرقام هواتف مستشفى الطيور، وهولن ديفي قاطعة الطريق التائبة المعروفة بـ"ملكة قُطّاع الطرق"، والمرأة التي تصرّ أنها ملكة أوْده[7] وتعيش في طلل قديم بغابات أخدود دلهي مع خدمها وثريّاتها محتفظة بحقّها في مملكة لم يعد لها وجود. كانوا في الحوارات يشجعون أنجم أن تتكلم عمّا حاق بها من أذى وما ذاقته من قسوة على أيدي والديها وإخوتها وجيرانها المسلمين التقليديين قبل أن ترحل عن بيتها ـ حسبما يفترض محاوروها. وكلّ مرة كان يخيب رجاؤهم حينما تحكي لهم كيف أحبّتها أمها وأبوها حبًا عظيمًا وكيف كانت القسوة منها هي عليهم. كانت تقول لهم إن "لدى الأخريات حكايات رهيبة من التي يحب

---

٧ ظلت ولاية أوْده Oudh أو مملكة أوده قائمة ومستقلة في شمال الهند في ما بين ١٧٣٢ و١٨٠١ ، ثم انتقلت تبعيتها لشركة الهند الشرقية حتى عام ١٨٥٨.

أمثالكم الكتابة عنها. فلم لا تكلموهن؟" لكن الصحف بالطبع لم تكن تعمل بتلك الطريقة. كانت هي المختارة. كان ينبغي أن يكون الحوار معها، وإن تحتَّم إدخال تغييرات طفيفة على قصتها بحيث تشبع رغبات القراء وتوقعاتهم.

بمجرد أن أصبحت أنجم مقيمة دائمة في الخواب جاه، صار بوسعها أخيرًا أن ترتدي الثياب التي تاقت طويلاً إلى ارتدائها: الكُرتات اللامعة والشفافة، وسراويل بَتياله الفضفاضة المتثنية، والشرارات، والغرارات[8]، والخلاخيل الفضية، وأساور القدم الزجاجية، والأقراط الطويلة. ثقبت أنفها ووضعت فيه قرطًا أنيقًا مرصّعًا بحجر كريم، وحدَّدت عينيها بالكحل وظللتهما بالأزرق، ومنحت نفسها فمًا زكيًا مقوّسًا مطليًّا بأحمر براقٍ كفم مدهوبالا نجمة السينما. لم يكن شعرها بطول كثيرًا، لكنه كان طويلاً بما يكفي لإرجاعه ووصله بضفائر مستعارة. كانت ذات وجه قوي منحوت، وأنف جميل معقوف كأنف أبيها. لم تكن جميلة جمال بومبي سيلك، لكنها كانت أكثر إثارة، وإغواء، وكان لها من الوسامة ما قد يتوافر في بعض النساء. وبتلك المظاهر، مع إصرارها على الالتزام بأنوثة عارمة مغالى فيها، أصبحت نساء الحي البيولوجيات -حتى ممن لا يرتدين البراقع- يبدون بالقياس إليها شاحبات منطفئات. تعلمت كيف تغالي في التثنّي بوركيها وهي تسير، وكيف تتواصل بتصفيقة الهيجرات بالأصابع المتفرقة التي تتعالى

---

[8] الكُرتا kurta: قميص طويل وفضفاض بلا ياقة ولا أساور، والشراره sharara، والغراره gharara تصميمان مميزان من الشلوارات والقمصان النسائية التقليدية في شبه القارة الهندية.

فتكون أشبه بالطلقات، وقد تعني أي شيء، نعم ولا ويمكن وإيه! يا قضيب أختك ويا ابن الزانية، فما لأحد إلا هيجرا غيرها أن تفكَّ شفرتها وتعرف المعنى المحدَّد المقصود من التصفيقة المحددة في تلك اللحظة المحددة.

في عيد ميلاد أنجم الثامن عشر أقامت لها كلثوم بي حفلاً في الخواب جاه. تجمعت الهيجرات من شتى أرجاء المدينة، بل منهن من جئن من خارجها. وللمرة الأولى في حياتها لبست أنجم الساري، فكان أحمر، مع قميص مكشوف الظهر. في تلك الليلة حلمت أنها عروس في ليلة زفافها. استيقظت مُغتمّة حينما تبيّن لها أن لذتها الجنسية تلك عبّرت عن نفسها في ثوبها الجديد الجميل تعبير الرجال. لم تكن تلك هي المرة الأولى، لكن المذلّة التي شعرت بها هذه المرة كانت هائلة، ربما بسبب الساري. جلست في الفناء تعوي عواء ذئبة، وتلطم نفسها على رأسها وفي ما بين ساقيها، وهي تصرخ من الألم الذي تنزله على نفسها. وجاءت الأستاذة كلثوم بي، ولم تكن غريبة عليها تلك المبالغات المسرحية، فأعطتها مُهدِّئًا وأخذتها إلى غرفتها.

وحينما هدأت أنجم تكلمت معها الأستاذة كلثوم بي بهدوء لم يُعهد منها من قبل. قالت لها الأستاذة كلثوم إنه ما من داعٍ للخجل على الإطلاق من أي شيء، فالهيجرات قوم اصطفاهم الله وأحبهم. كلمة الهيجرا تعني الجسد الذي تعيش فيه الروح المقدسة. وفي الساعات التالية عرفت أنجم أن الأرواح المقدسة أقدار متباينة، وأن عالم الخواب جاه

معقد مثل الدنيا إن لم يكن أكثر تعقيدًا. فالهندوسيّتان بلبل وجوديا تعرضتا لشعيرة الإخصاء الدينية الرسمية (شديدة الإيلام) في بومباي قبل مجيئهما إلى الخواب جاه. أما بومبي سيلك وهيرا فكانتا تودّان أن تفعلا مثل ذلك، لكنهما مسلمتان وتؤمنان أن الإسلام يحرِّم عليهما تبديل الجنس الذي خلقهما الله عليه، فتدبَّرتا أمرهما في هذه الحدود. وبيبي كانت رجلاً وأرادت مثل رضية أن تبقى رجلاً وتكون امرأة بكل سبيل ممكن. أما أستاذة كلثوم بي فقالت إنها لم توافق بومبي سيلك وهيرا على فهمهما للإسلام. فأجرت الجراحة هي ونِمّو الجوركهبورية ـ وكلٌّ منهما من جيل. قالت إنها تعرف دكتور مختار، وهو رجل كتوم وأهل للثقة، فهو لا يثرثر بأمور مرضاه في كل زقاق وحارة بدلهي القديمة. قالت لأنجم إن عليها أن تفكر في الأمر وتقرِّر ما الذي تريد أن تفعله. وفي غضون ثلاث دقائق اتخذت أنجم قرارها.

كان دكتور مختار أبعث للطمأنينة من دكتور نبي. قال إن بوسعه أن يزيل عضوها الذكري ويحاول تحسين فرجها الأنثوي. قال أيضا إن بوسعه أن يصف أقراصًا ترقّق صوتها وتساعد على نمو ثدييها. وبتخفيضٍ، أصرّت كلثوم بي. وبتخفيضٍ، وافق دكتور مختار. دفعت كلثوم بي أجر الجراحة وثمن الهرمونات، وسدّدت أنجم على مدار السنين، أضعافًا مضاعفة.

كانت الجراحة صعبة، والتعافي منها أشدَّ صعوبة، لكن الارتياح تحقّق في النهاية. شعرت أنجم كأن غُمّة انزاحت عن دمها وباتت تقدر أخيرًا أن تفكر تفكيرًا صافيًا. أما فَرْجُ دكتور مختار فتبيَّن أنه كذبة.

صحيح أنه نجح، لكن ليس بالطريقة التي تكلم عنها، حتى بعد جراحتين تصحيحيتين. ومع ذلك لم يعرض أن يردّ النقود، لا كلها ولا بعضها. بل مضى على العكس من ذلك يعيش حياة رغدة من بيع أعضاء معية كاذبة لليائسين. ومات ثريًّا، عنده بيتان في لاكشمي نَجَر، كلٌ لواحد من ولديه، تاركًا ابنته زوجة لمقاول عقارات ثريٍّ في رامبور.

برغم أن أنجم صارت عشيقة مطلوبة، وخبيرة في منح اللذة، فقد كان الأورجازم الذي نالته وهي لابسةٌ الساري الأحمر آخر أورجازم في حياتها. وبرغم أن "الطبائع" التي حذَّر دكتور نبي أباها منها قد استمرَّت، فإن أقراص دكتور مختار رقّقت صوتها بالفعل، لكنها حدَّدت نطاقه، وأضفت على جرسه خشونة، وجعلت له سمتًا مزعجًا مميزًا، ليبدو في بعض الأحيان وكأنه صوتان يتشاجران أيّهما يزيح الآخر. فكان يخيف الآخرين وإن لم يخف صاحبته بقدر الصوت الذي منحها الله إياه. ولا كان يرضيها.

عاشت أنجم في الخواب جاه بجسدها المرقّع وأحلامها نصف المتحققة لما يزيد على ثلاثين سنة.

وكان عمرها ستًّا وأربعين سنة حينما أعلنت أنها تريد الرحيل. حينها، كان ملاقات علي قد مات. وكانت الست جهان آرا طريحة الفراش لدى ثاقب وأسرته بقسم من البيت القديم في ضريح تشيلتي (بينما القسم الآخر مؤجَّر لشاب غريب مختلف يعيش وسط أبراج من الكتب الإنجليزية المستعملة المتراكمة على الأرض، وعلى السرير،

وعلى كل سطح أفقي متاح). كانوا يرحبون بزيارة أنجم بين الحين والآخر، لا بإقامتها. صار الخواب جاه بيتًا لجيل جديد من السكان، فلم يبق من القديمات إلا أستاذة كلثوم بي وبومبي سيلك ورضية وبسم الله وماري.

ولم يكن لأنجم مكان تمضي إليه.

*

ربما لهذا السبب، لم يأخذ أحد إعلانها مأخذ الجد.

كانت إعلانات الرحيل والانتحار المسرحية ردود فعل روتينية معتادة في مواجهة الغيرة الجامحة، والمكائد اللا نهائية، والولاءات المتبدّلة، وبقية تفاصيل الحياة اليومية المعتادة في الخواب جاه. ومرة أخرى أوصى الجميع بالأطباء والأدوية. قلن لها إن أقراص دكتور بهجت تشفي من كل شيء. والجميع يتعاطينها. قالت أنجم "لست الجميع" فأطلق ذلك موجة جديدة من الهمسات (مع أنجم وضدها) عن مزالق الكِبْر، وماذا تظن نفسها؟

وفعلاً، ماذا كانت تظن نفسها؟ لم تكن تظن في نفسها الكثير، أو الكثير للغاية، الأمر يتوقف على زاوية النظر إليه. كانت لديها طموحات، صحيح. وطموحاتها تهاوت إلى نقطة الصفر. وباتت تريد الرجوع إلى الدنيا وتعيش كأي شخص عادي. كانت تريد أن تكون أمًّا، تستيقظ في بيتها، تُلبس زينب زي المدرسة وتبعثها بالكتب وعلبة

الطعام. ولكن السؤال: هل مثل هذه الطموحات، في حالة شخص مثلها، معقولة أم غير معقولة؟

كانت زينب هي الحب الوحيد في حياة أنجم. عثرت عليها قبل ثلاث سنوات، في عصر يوم عاصف من تلك الأيام التي تتطاير فيها طواقي المصلين في صلاتهم، وتميل بالونات بائعي البالونات. كانت وحيدة تبكي على درج المسجد الجامع، فأرة نحيلة توجع القلب، ذات عينين كبيرتين مذعورتين. قدَّرت أنجم أن تكون في الثالثة من العمر. كانت ترتدي سروالاً وقميصًا أخضرين سقيمين وطرحة بيضاء وسخة. حينما انحنت عليها أنجم ومدَّت لها إصبعًا تمسكه، رفعت عينيها لوهلة، فتشبَّثت به وواصلت البكاء الزاعق دون أن تتوقف. لم تكن تلك الفأرة المحجبة تدري أي عاصفة أطلقتها إيماءة الثقة تلك في نفس صاحبة الإصبع التي أمسكته. تجاهل تلك المخلوقة الصغيرة لها بدلاً من الذعر منها أسكت (ولو لوهلة على الأقل) الصراع الهندي الباكستاني بتعبير نَمّو الجوركهبورية شديد الدقة شديد القِدَم. لوهلة سكنت الفصائل المتحاربة في نفس أنجم. وشعر جسمها أنه بيت كريم مضياف لا ساحة قتال. أكان ذلك الإحساس شبيهًا بالموت، أم بالولادة؟ لم تدر أنجم. كان له في خيالها من الامتلاء، والإحساس بالكمال، ما يجعله يليق بأيٍّ من الاثنين. انحنت وحملت الفأرة ومضت تهدهدها بين ذراعيها، وهي تهمس لها طول الوقت بصوتيها المتشاجرين. وحتى ذلك لم يروِّع الطفلة أو يلهها عن مشروعها البكائي. لوهلة اكتفت أنجم بالوقوف هناك، مبتسمة في ابتهاج، بينما المخلوقة تبكي بين ذراعيها. ثم أجلستها على

الدرج، واشترت لها غزل البنات الوردي اللامع وحاولت أن تلهيها بثرثرة لا تتوقف في أمور لا تخصّ إلا الكبار، راجية أن يمرّ الوقت ويأتي ذوو الطفلة أيًّا كانوا فيأخذونها. وتبيّن أنه حديث من اتجاه واحد، فلم يبد أن الفأرة تعرف من هي، ولا حتى اسمها، ولم يبدُ أنها تريد الكلام. ولما انتهت من غزل البنات (أو انتهى هو منها) كانت لها لحية وردية لامعة وأصابع دبقة. خفت البكاء إلى نهنهات ثم إلى صمت في نهاية المطاف. وبقيت أنجم معها على الدرج لساعات، في انتظار أن يأتي إليها أحد، سائلة المارة إن كانوا يعرفون من ضاع منه طفل. ولما حلّ المساء وأُغلِقَت أبواب المسجد الجامع الخشبية، رفعت أنجم الطفلة على كتفيها وحملتها إلى الخواب جاه. وهناك وبّخنها وقلن لها إن التصرف السليم في هذه الحالة هو أن تبلغ إدارة المسجد أنها عثرت على طفلة تائهة. ففعلت ذلك في اليوم التالي. (ولا بد أن نقول إنها فعلته على مضض، وهي تجرّ قدميها جرًّا، مُقاوِمةً رغبتها الحقيقية، ذلك أن أنجم كانت قد وقعت في الحب بلا أمل).

على مدار الأسبوع التالي كانت الإعلانات تذاع في مساجد عديدة مرّات ومرّات كلّ يوم. ولم يأت من يطالب بالفأرة. ومرّت الأسابيع ولم يأت من يسأل. فبقيت زينب -وهو الاسم الذي سمّتها به أنجم- في الخواب جاه، منعّمة بحب أمّهات (وآباء أيضًا في الحقيقة) يفوق ما يحلم به أي طفل آخر. لم تستغرق وقتًا طويلاً كي تستقرّ في حياتها الجديدة، بما يشي بأنها لم تكن متعلّقة بحياتها القديمة كثيرًا. فباتت أنجم على قناعة بأنها لم تكن تائهة حينما عثر عليها بل متروكة.

في غضون أسابيع قليلة بدأت تنادي أنجم بمامّي (فذلك ما بدأت أنجم تطلقه على نفسها)، وبتلقين من أنجم باتت كلٌّ من ساكنات البيت "آبا" (أي "خالتي" بالأردية) أما ماري، لكونها مسيحية، فهي طانط ماري. وأستاذة كلثوم بي وبسم الله صارتا "بري ناني" و"تشهوتي ناني" أي الجدة الكبرى والجدة الصغرى. مضت الفأرة تمتصّ الحب في شره الرمل إذ يمتص البحر. وسرعان ما تحولت إلى فتاة صغيرة جريئة صاخبة ذات ميول فئرانية واضحة (توشك أن تستعصي على الاحتواء).

في الوقت نفسه، صارت مامّي أكثر تشوّشًا في أثناء النهار. وقد بوغتت بحقيقة أنه يمكن فعليًا أن يحب إنسان إنسانًا آخر كلٌّ هذا الحب، بكلّ هذا الكمال. في بداية الأمر، وهي في أول عهدها بالتربية، لم تكن تستطيع التعبير عن مشاعرها إلا بطريقة حماسية زاعقة، كأنها طفل يعتني بأول حيوان أليف في حياته. اشترت لزينب كمية لا داعي لها من الألعاب والثياب (معطفًا تافهًا مبطّن الكمّين وحذاء صُنع في الصين يصدر أصواتًا وأضواء) وكانت تُحمّمها وتُلبِسها وتغيّر لها ثيابها مرّات كثيرة بلا داع، وتضع على شعرها الزيت وتضفّره وتحلُّ ضفائره، وتربط لها أشرطة وتفكها بألوان متماشية ومتنافرة كانت تجمعها ملفوفة في علبة صفيحية قديمة. كانت تفرط في إطعامها، وتصطحبها للمشي في الحر، ولمّا رأت أن زينب مشدودة بطبيعتها إلى الحيوانات اشترت لها أرنبًا ـقتلته قطة في أول ليلة له في الخواب جاهـ وتيسًا بلحية مشيخية كان يعيش في الفناء وبين الحين والآخر يرتسم على وجهه تعبير مثير للإعجاب وهو يطلق حبات روثه اللامعة منسابة في كل اتجاه.

كان وضع الخواب جاه في ذلك الوقت أفضل مما كان عليه طوال سنوات. فالغرفة المتداعية تجدّدت، وزِيد البيت غرفة فوقها في الطابق الأول تقاسمتها أنجم وماري. فكانت أنجم وزينب تفترشان حشية على الأرض، إذ يلتف جسمها الطويل حاميًا البنت الصغيرة كأنه سور محدق بمدينة. كانت تغني لها بالليل إلى أن تنام في هدوء، في أداء أقرب إلى الهمس منه إلى الغناء. ولما كبرت زينب وبدأت تعقل، أخذت أنجم تحكي لها حواديت قبل النوم. فكانت القصص جميعًا في البداية غير ملائمة على الإطلاق لطفلة صغيرة، بل هي محاولات خرقاء بعض الشيء من أنجم لتعويض ما ضاع من زمن، وإقحام نفسها في ذاكرة زينب ووعيها، وكشف حقيقتها لها بغير خداع، لتنتمي كلٌّ منهما إلى الأخرى تمام الانتماء. وهكذا جعلت من زينب مرفأ تُفرغ عليه حمولات أفراحها وأتراحها، ومنعطفات حياتها الهادئة. وبدلاً من أن تسلمها للنوم الهانئ، كانت قصص كثيرة من تلك القصص إما تسلمها للكوابيس أو تبقيها خائفة مضطربة غير قادرة على النوم لساعات. بل لقد كانت أنجم نفسها تبكي في بعض الأحيان وهي تحكي تلك القصص، فباتت زينب ترهب موعد النوم وتغمض عينيها بإحكام، متظاهرة بالنوم لكي لا تستمع إلى حكاية أخرى. غير أن أنجم بمرور الوقت (وبإرشادات من الخالات الكبيرات) توصّلت إلى نهج تهذيبي للقصص. فتوافقت القصص بنجاح مع الطفلة، وبدأت زينب أخيرًا تنتظر في شوق طقس ما قبل النوم.

كانت القصة الأثيرة لديها هي قصة الجسر، إذ تحكي أنجم كيف سارت وصديقاتها في وقت متأخر من الليل قاطعات الطريق الطويل من

حي "مستعمرة ديفنس" الراقي في جنوبي دلهي راجعات إلى بوابة التركمان. كنَّ خمسًا أو ستًا، في أفضل ثيابهن، فاتنات بعد ليلة عربدة قضينها في بيت نبيل ثري يقع في المنطقة دال. كنَّ قد قرَّرن بعدما انتهى الحفل أن يمشين قليلاً يتنفسن الهواء النقي. وفي تلك الأيام، كما حكت أنجم لزينب، كان لذلك الشيء المعروف بالهواء النقي وجود في المدينة. ولمّا صرن في منتصف جسر مستعمرة ديفنس ـوهو جسر المدينة الوحيد في ذلك الزمنـ بدأ المطر ينهمر. وماذا تفعل الواحدة حينما ينهمر المطر وهي فوق جسر؟

قالت زينب بنبرة عاقلة أكبر من سنها "عليها أن تستمر في المشي".

قالت أنجم "بالضبط، صح يا زينب، فواصلنا المشي. وماذا بعد؟"

"وبعدها أردتِ أن تتبولي!"
"صح، وبعد ذلك أردتُ أن أتبول".
"ولم يكن يمكن أن تتوقّفي!"
"لم يكن يمكن أن أتوقّف".
"كان لا بد أن تستمرّي في المشي".
"كان لا بد أن أستمرّ في المشي".

وصاحت زينب "فتبولنا في ثيابنا". فقد كانت في السنّ الذي يحتلُ فيه كلُ ما يتعلّق بالتبرز والتبول والضراط المكانة العليا، بل ربما المكانة الوحيدة والغاية من كل القصص.

قالت أنجم "هذا صحيح. وكان أجمل إحساس في العالم، أن يغرقك المطر على ذلك الجسر الكبير الخاوي وأنت تسيرين أسفل إعلان ضخم فيه امرأة مبلولة تجفف نفسها بمنشفة من إنتاج شركة بومباي داينج".

"وتلك المنشفة كانت ضخمة كالسجادة".

"ضخمة كالسجادة، صح".

"وطلبتِ من تلك المرأة أن تعيرك منشفتها لتجفّفي نفسك".

"فماذا قالت المرأة؟"

قالت "نهين! نهين! نهين!"

قالت "نهين! نهين! نهين! فبقينا مبلولات، وواصلنا المشي ..."

"والبول جارام جارام (دافئًا دافئًا) يسيل على سيقانكن الثاندا الثاندا (الباردة الباردة)".

وعند ذلك كان النوم يغلب زينب، وهي مبتسمة. كان لا بد من اقتطاع كل إشارة إلى الشدّة أو الشقاء من قصص أنجم. كان يحلو لأنجم أن تجعل من نفسها سيرينة جنسية شابة تعيش حياة موسيقى ورقص وضّاءة، وتلبس من الثياب أبهاها، وتطلي أظافرها، وسط زحام من المعجبين.

وهكذا في تلك الأيام، لأجل عيون زينب، بدأت أنجم كتابة حياتها من جديد، سعيدة وبسيطة. فكان أن جعلت تلك الكتابة الجديدة من أنجم بالفعل شخصًا أكثر بساطة وسعادة.

فالمحذوف مثلاً من قصة الجسر واقعة حقيقية حدثت في عام ١٩٦٧، في ذروة حالة الطوارئ التي فرضتها إنديرا غاندي واستمرّت واحدًا وعشرين شهرًا. كان ابنها الصغير المدلل سانجاي غاندي رئيس مؤتمر الشباب (أي جناح الشباب في الحزب الحاكم)، وكان هو الذي يدير البلد عمليًا، ويتعامل معه باعتباره لعبته الخاصة. تعطّلت الحقوق المدنية، وروقبت الصحف، وباسم تحديد النسل سيق آلاف الرجال (من المسلمين في الغالب) إلى معسكرات أُرغِموا فيها على التعقيم. وسمح قانون جديد ـ هو قانون صيانة الأمن الداخلي ـ للحكومة باعتقال أي شخص على هواها. فامتلأت السجون، وانطلقت زمرة صغيرة من أتباع سانجاي غاندي على الناس يُعملون فيهم أوامره.

في ليلة قصة الجسر، كان الحفل الذي حضرته أنجم وزميلاتها عبارة عن عرس انفضّ بمداهمة الشرطة واعتقالها صاحبَ العرس وثلاثةً من ضيوفه واقتيادهم إلى شاحناتها. ولم يعرف أحد السبب. حاول السائق عارف الذي جاء بأنجم وفرقتها أن يشحن ركابه في السيارة ويهرب بهن. وبسبب وقاحته تلك سُحقت مفاصل أصابع يده اليسرى وركبته اليمنى. ثم جُرجرت الراكبات من السيارة الماتادور ورُكلن على مؤخراتهن كأنهن بهلوانات في السيرك، وأُمرن بالانصراف والجري حتى البيت وإلا اعتُقلن بتهمة الفسق والفجور. فجرين في هلع أعمى، كالغولات، في العتمة والمطر المنهمر، ومساحيق وجوههن تجري عليها أسرع مما تجري سيقانهن التي تعوقها ثيابهن الشفافة المبتلة إذ تحدّ خطواتهن وتعطّل سرعتهن. ولم يكن ذلك غير مذلة مما اعتادتها

المهجرات، لا شذوذ فيها عن المألوف، ولا شيء فيها يضاهي ما عاناه غيرهن خلال تلك الشهور الرهيبة.

لم يكن ذلك شيئًا يُذكر، لكنه مع ذلك، كان شيئًا يُذكر.

وبرغم ذلك، بقيت في نسخة أنجم المحرَّرة من قصة الجسر عناصر من الحقيقة. منها مثلاً أن المطر انهمر فعلاً في تلك الليلة. وأن أنجم بالت في ثيابها وهي تجري. وأن جسر مستعمرة ديفنس كان عليه بالفعل إعلان عن مناشف بومباي داينج. وأن امرأة الإعلان رفضت بالفعل رفضًا قاطعًا أن تقاسمهن منشفتها.

*

قبل سنة من بلوغ زينب السنّ اللازمَ لدخول المدرسة، بدأت مامّي التجهيز للحدث. زارت بيتها القديم، وأحضرت إلى الخواب جاه -بعد استئذان أخيها ثاقب- مجموعة كتب ملاقات علي. وكثيرًا ما صارت تُرَى متربِّعة أمام كتاب مفتوح (ليس القرآن الكريم) تحرِّك شفتيها بينما يتتبَّع إصبعها سطرًا في الصفحة، أو تتمايل إلى الأمام وإلى الوراء مغمضة تفكر في ما قرأته للتو، أو لعلها تخوض في مستنقعات ذاكرتها باعثة الحياة في شيء عرفته في يوم من الأيام.

حينما بلغت زينب الخامسة، أخذتها أنجم إلى أستاذ حميد لتبدأ دروس الغناء. وكان واضحًا منذ البداية أن الموسيقى ليست موهبتها. كانت تتململ في ضيق أثناء حصص الموسيقى، وتخطئ بلا هوادة في

المقامات فكأنها مهارة في ذاتها. ويهزّ أستاذ حميد الصبور طيب القلب رأسه كأن ذبابة تناوشه ويملأ فمه بشاي دافئ مواصلاً الضغط على المفاتيح التي يلمسها من الأرغن فيعني ذلك أن على تلميذته أن تحاول من جديد. وفي الحالة النادرة التي كانت تتمكّن فيها زينب من الاقتراب من النغمة، كان يطرق في سعادة ويقول "هذا هو بطلي"، وهي عبارة التقطها من توم وجيري في قناة الكارتون التي كان يحب مشاهدتها مع أحفاده (تلاميذ المدرسة الإعدادية الإنجليزية). كان ذلك أعلى ما لديه من ثناء، بغضّ النظر عن جنس تلميذه. وما كان يمنحه لزينب لأنها تستحقه، بل إكرامًا لذكرى أنجم وغنائها الجميل (أو هو غناؤه الجميل فقد كانت لا تزال آفتاب). وكانت أنجم تجلس طوال تلك الحصص، وطنينها الحشري الزاعق يعاود الظهور، فيكون في هذه المرة دليلاً خافتًا يحاول تهذيب صوت زينب العنيد وردّه إلى طبيعته الصادقة. ولم يكن لذلك من جدوى. فالفأرة لم تكن قادرة على الغناء.

تبيّن أن ولع زينب الحقيقي منصبٌّ على الحيوانات. كانت البنت رعبًا في شوارع المدينة القديمة، تريد أن تطلق سراح جميع الدجاج الأبيض شبه المنتوف شبه الميت المحشور فوق بعضه بعضًا في أقفاص قذرة أمام محلات الجزارين، وأن تكلم كلّ قطة تمرق في طريقها، وأن تأخذ إلى البيت كلّ الكلاب الضالة التي تصادفها وهي تخوض في الدماء والفضلات الفائضة من البالوعات المفتوحة. لم تكن تعير أذنًا لمن يقول لها إن الكلاب نجس لا ينبغي أن يلمسها المسلمون. ولا تجفل من الجرذان الكبيرة الشائكة التي تجري في الشارع الذي تسير فيه كل يوم،

ولا يبدو أنها اعتادت منظر حزم مخالب الدجاج الصفراء وسيقان الماعز المقطوعة وأهرام رؤوس التيوس بأعينها الزرق العمياء المحملقة وأمخاخها البيضاء اللؤلؤية وهي ترتعش كالهلام في الطسوت المعدنية الكبيرة.

علاوة على تيسها الذي كان لها الفضل في نجاته غير ذبيح من ثلاثة أعياد أضحى، أتتها أنجم بديك جميل كان ردّه على عناق الترحاب من سيدته الجديدة نقرة شريرة. فعلا بكاء زينب، وقد أوجعها انفطار القلب أكثر مما أوجعها الألم. أوجعتها النقرة، ولكن محبتها للطائر بقيت كما هي لم تقلّ. وكلما كان الديك "محبة" يأتي إليها، كانت تلفّ ذراعيها حول ساقي أنجم وتقبل قبلات زاعقة ركبتي مامّي، ناظرة بشوق وحبّ إلى الديك بين قبلة وقبلة بحيث لا يكون لدى من يتلقى مشاعرها ومن تستقبل قبلاتها أدنى شك في المقصود بالمحبة المعنيُّ بالقبلات. من بعض النواحي، كان انشغال أنجم بزينب ينعكس بصورة غير متناسبة في انشغال زينب بالحيوانات. غير أن كل حنانها ذلك على الحيوانات لم يعترض قط نهمها في أكل اللحم. وكانت أنجم تصطحبها مرتين على الأقل كل عام إلى حديقة الحيوان في القلعة القديمة بپوراما كيلا لتزور حيوانات الكركدن وفرس النهر وشخصيتها المفضلة وهي قرد بورنيو الصغير.

بعد شهور قليلة من قبولها في الكي جي بيه (وهو اختصار القسم "ب" في روضة الأطفال) في حضانة البراعم الصغيرة بجي دَرياجانج - حيث سُجِّل ثاقب وزوجته كأبوين لها في الأوراق الرسمية- إذا بصحة

الفأرة النشيطة في العادة تتدهور. لم يكن الأمر خطيرًا، ولكنه كان مُطّردًا، فكان كل مرض يوهن الصغيرة ويهيئها للمرض التالي. الملاريا أعقبت الإنفلونزا التي أعقبت نوبتين منفصلتين من الحمى الجرثومية، إحداهما كانت معتدلة، والأخرى مثيرة للقلق. وكان قلق أنجم عليها يتخذ أشكالاً لا نفع فيها، ولا يلتفت إلى تذمُّر الخواب جاه من إهمالها واجباتها وانصرافها عنها (ولم تكن الواجبات في ذلك الوقت تعدو بعض الشؤون الإدارية والإشرافية)، فكانت تُمرّض الفأرة ليل نهار بما يشبه الهوس الكامن المتزايد. كانت قد أصبحت على يقين من أن شخصًا ما قد سحر حظها السعيد (حظ أنجم نفسها) فانصبّت اللعنة على زينب. واتجهت إبرة شكوكها بلا اهتزاز إلى سعيدة، الوافدة الجديدة نسبيًا على الخواب جاه. كانت سعيدة أصغر بكثير من أنجم، وكانت التالية لأنجم مباشرة في حب زينب. كانت جامعية تجيد الإنجليزية، وأهم من ذلك أنها كانت تجيد اللغة الجديدة، ويمكنها أن ترطن بالاصطلاحات الجديدة التي شاعت في وصف المخنثين، بل وتصف نفسها في الحوارات الصحفية بالترانسبيرسُن. فكانت أنجم في المقابل تسخر مما أطلقت عليه شغل الترانس فرانس وتصرّ في عناد على وصف نفسها بالهيجرا.

شأن كثيرات من أبناء الأجيال الجديدة، كانت سعيدة تتنقل بسلاسة بين السروال والقميص التراثيين والأزياء الغربية كالجينز والجيبات والفساتين ذات الحمالات التي تلتف حول الرقبة فتكشف ظهرها القوي الجميل الممتد. وكانت تعوّض كل ما ينقصها من النكهة المحلية والجاذبية القديمة بفهم حديث ومعرفة بالقانون وانخراط مع

جماعات الحقوق الجندرية (بل إنها ألقت كلمتين في مؤتمرين)، فوضعها ذلك كله في مرتبة مختلفة عن أنجم. كما أن سعيدة أزاحت أنجم عن المرتبة الأولى في الإعلام. فقد آثرت الصحف الأجنبية ممثلة الجيل الجديد على الغرائبية العجوز، حين لم تعد الغرائبية ملائمة لصورة الهند الجديدة كقوة نووية ومقصد ناشئ للتمويلات الدولية. ولم يكن شيء من رياح التغيير تلك خافيًا عن الذئبة العجوز المكّارة الأستاذة كلثوم بي، بل كانت تفطن إلى ما فيها من منفعة متراكمة للخواب جاه. هكذا صارت سعيدة -وإن افتقرت إلى الأقدمية- في منافسة محتدمة مع أنجم على تولي أستاذية الخواب جاه عندما تقرِّر أستاذة كلثوم بي التخلي عن منصبها، وهو ما لم تكن أستاذة كلثوم -شأن ملكة إنجلترا- متلهفة على القيام به.

كانت أستاذة كلثوم بي لم تزل مركز صناعة القرار في الخواب جاه، لكنها لم تكن منخرطة كثيرًا في شؤونه اليومية. كان التهاب المفاصل يشتدُّ عليها في الصباح فتستلقي على سرير الجاربائي المجدول من سعف النخيل والقماش في الفناء المشمس بجانب برطمانات مخللات الليمون والمانجو ودقيق القمح المفروش على الجرائد لتخليصه من السوس. فحين تشتد حرارة الشمس يرجعونها إلى الداخل لتدليك قدميها وتجاعيدها بزيت الخردل. كانت قد صارت ترتدي ثياب رجل، قميص كُرتا أصفر -وهو أصفر لأنها من مريدي حضرة نظام الدين أولياء- وإزارًا مصبوغًا بالمربعات، وتلف شعرها الأشيب الذي لا يكاد يستر جلد رأسها في كعكة صغيرة في مؤخرة رأسها. وفي بعض الأيام كان صديقها القديم حاجي ميان بائع السجائر والبان في الشارع يأتي ومعه شريط كاسيت فيه

فيلمهما المفضل على الإطلاق وهو "المغولي الأعظم". كان الاثنان يحفظان عن ظهر قلب كل أغنية وكل جملة في حوار الفيلم، فكانا يغنيان ويتكلمان بينما يدور الشريط. وما كان أيٌّ منهما يعتقد أن أحدًا سوف يكتب مثل هذه اللغة الأردية ثانية، أو أن ممثلاً قد يباري في يوم من الأيام أسلوب دِليب كُمار في الأداء والإلقاء. في بعض الأحيان كانت أستاذة كلثوم بي تلعب دور الإمبراطور أكبر وابنه الأمير سليم بطل الفيلم، بينما يمثل حاجي ميان الجارية أناركالي (التي لعبت دورها مدهوبالا) التي وقع في غرامها الأمير سليم. وأحيانًا كانا يتبادلان الأدوار. والحقيقة أن أداءهما المشترك ذلك كان في المقام الأول رثاءً لمجد غابر ولغة تحتضر.

وذات مساء كانت أنجم في غرفتها بالطابق العلوي وقد وضعت كَمَّادات باردة على جبين الفأرة الساخن، حينما سمعت في الفناء جلبة أصوات تعلو وأقدام تجري وناس تتصايح. فأول ما تصوَّرته بالغريزة أن حريقًا نشب، وكان ذلك كثيرًا ما يحدث لأن خليطًا ضخمًا من الأسلاك الكهربائية العارية المُعلَّقة في الشارع كان قد درج على الانفجار من تلقاء نفسه لتعلو فيه ألسنة اللهب. حملت زينب وسارعت تجري نازلة السلم، فوجدت الجميع متحلقين أمام التليفزيون في غرفة أستاذة كلثوم بي ووجوههم مضاءة بوهج الشاشة. اقتحمت طائرة تجارية مبنى عاليًا، وكان نصفها لا يزال ناتئًا منه، مُعلَّقًا في الهواء، كأنه دمية مكسورة متقلقلة. وفي غضون ثوان اقتحمت طائرة ثانية مبنى ثانيًا واستحالت كرة من نيران. كان دأب سكان الخواب جاه الثرثرة، لكنهم هذه المرة أخذوا يشاهدون البرجين في صمت الموتى إذ يتداعيان كأنهما

عمودان من رمل، فيعلو الدخان والغبار الأبيض في كل مكان. حتى الغبار بدا مختلفًا، بدا نظيفًا وأجنبيًا. أخذ بشر صغار يقفزون من المبنيين الشاهقين ويطفون في الهواء كأنهم ندف من الرماد.

قال الناس في التليفزيون إنه لم يكن فيلمًا. كان أمرًا يحدث بالفعل. في أمريكا. في مدينة اسمها نيويورك.

وأخيرًا انكسرت أطول فترة صمت في تاريخ الخواب جاء بسؤال عميق.

أرادت بسم الله أن تعرف "هل يتكلمون الأرديّة هناك؟"

لم يجب أحد.

تسرَّب ذهول الغرفة إلى زينب فتململت من حلمها المحموم لتتهاوى إلى آخر. لم تكن معتادة على الإعادات التليفزيونية، فأحصت عشر طائرات تقتحم عشرة مبان.

وأعلنت في انتباه بإنجليزيتها الجديدة الواردة من حضانة البراعم الصغيرة "كلها عشرة". ثم أعادت خدّها الريّان المحموم إلى مستراحه مرة أخرة بين رقبة أنجم وكتفها.

السحر الذي أصاب زينب أصاب العالم بأسره بالمرض. لقد كان عملاً سفليًّا قويًّا. اختلست أنجم نظرة جانبية طويلة إلى سعيدة لترى إن كانت تحتفل بنجاحها في صفاقة أم تتكلّف البراءة، فرأت القحبة اللئيمة تتصنَّع ذهولاً كالمرتسم على وجوه الجميع.

بحلول ديسمبر، فاض على دلهي القديمة طوفانٌ من الأسر الأفغانية الهاربة من الطائرات الحربية التي صارت تئزُّ في سماواتهم أزيز البعوض في غير موسمه، والقنابل التي ظلّت تنهمر عليهم مطرًا من حديد مذاب. وبطبيعة الحال كان كبار السياسيين (ومنهم في المدينة القديمة كلُّ صاحب متجر أو شيخ مسجد) قد توصلوا إلى نظرياتهم. أما بقية الناس فلم يكن أحد منهم يفهم صلة أولئك البائسين الفقراء بالضبط ببرجي أمريكا. وكيف كان لهم أن يفهموا؟ ومن غير أنجم كان يعلم أن العقل المدبر لتلك الهولوكوست كلها لم يكن الإرهابي أسامة بن لادن أو رئيس الولايات المتحدة الأمريكية جورج دبليو بوش، بل قوة أشد خفاء وبأسًا تدعى سعيدة (المولودة باسم جُل محمد) المقيمة في الخواب جاه، زقاق دكونان، دلهي ١١٠٠٠٦، الهند.

من أجل مزيد من الفهم لسياسة الدنيا التي تكبر الفأرة فيها، ولإبطال الأعمال السفلية التي تدبرها سعيدة المتعلمة، أو للوقاية منها على أقل تقدير، بدأت مامّي تقرأ الصحف بعناية وتتابع الأخبار في التليفزيون (حينما تسمح لها الأخريات بتغيير قنوات المسلسلات).

هاتان الطائرتان اللتان اقتحمتا مبنيي أمريكا العاليين كانتا فضلاً ونعمة على الكثيرين في الهند. فرئيس وزراء البلد كان شاعرًا ينتمي هو والعديد من كبار وزرائه إلى منظمة قديمة تؤمن أن الهند في جوهرها أمة هندوسية، وأن عليها أن تعلن نفسها هندوسية مثلما أعلنت باكستان

نفسها جمهورية إسلامية. وكان بعض مؤدلجي تلك الجماعة وأنصارها يجهرون بإعجابهم بهتلر، ويقارنون مسلمي الهند بيهود ألمانيا. والآن صارت المداوة تتعاظم بغتة للمسلمين، وباتت المنظمة ترى أن العالم كله واقف في صفّها. ألقى رئيس الوزراء الشاعر خطبة لثغاء بليغة، لولا طولها ولولا وقفاته الغاضبة كلما أفلت منه خيط أفكاره، وهو ما تكرّر كثيرًا. كان رجلاً كبيرًا في السن، يهزّ رأسه وهو يتكلم على طريقة الشباب ونجوم سينما بومباي في الستينيات. قال بالهندوسية الشعرية إن "المسلمان (المسلم)، لا يحب الآخر". وتمهل طويلاً، حتى وفقًا لمعاييره "عقيدته، يريد أن يفرضها بالإرهاب". كان قد ارتجل البيتين ارتجالاً، فبات سعيدًا بنفسه سعادة فائقة، فكلما قال المسلم أو المسلمان بدت لثغته محببة كأنما من طفل صغير. كان وفقًا للمعايير السائدة يُعدُّ من جملة المعتدلين. حذّر من أن ما جرى في أمريكا يسهل أن يجري في الهند، وقال إنه آن الأوان لأن تصدر الحكومة قوانين جديدة لمكافحة الإرهاب كإجراء احترازي تأميني.

صارت أنجم، الجديدة على عالم الأخبار، تتابع كلّ يوم التقارير التليفزيونية عن انفجار القنابل والهجمات الإرهابية التي استشرت فجأة كالملاريا. كانت الجرائد الأرديّة تنشر أخبار مقتل شباب المسلمين وصبيتهم ضمن ما تصفه الشرطة بـ"المواجهات"، أو اعتقالهم متلبسين بالتخطيط لهجمات إرهابية. وصدر قانون جديد يسمح باحتجاز المشتبه فيهم لشهور دون محاكمة. فلم يمض وقت يُذكر حتى امتلأت السجون

بشباب المسلمين. وشكرت أنجم الله أن زينب فتاة. كان ذلك خيرًا لها وأكثر أمانًا بكثير.

مع بداية الشتاء، أصيبت الفأرة بسعال صدري عميق. كانت أنجم تعطيها ملء ملاعق صغيرة من اللبن الدافئ والكركم وتسهر الليل كله منصتة إلى صفير الربو، شاعرة أن لا حول لها ولا قوة. زارت ضريح حضرة "نظام الدين أولياء" وتكلمت مع واحد من أقل الخدم جشعًا كان على دراية معقولة بمرض زينب، سائلة إياه كيف تبطل عمل سعيدة السفلي. قالت له إن الأمور خرجت عن السيطرة وباتت الآن أكبر كثيرًا من أمر فتاة صغيرة، وإنها، أي أنجم، الوحيدة التي تعلم طبيعة المشكلة الحقيقية، ومن ثم فإن عليها مسؤولية. قالت إنها مستعدة لأن تعمل أي شيء يلزم عمله. مستعدة لدفع أي ثمن ولو استدعى الأمر تعليقها على المشانق. فلم يكن من بديل عن إيقاف سعيدة. وهي بحاجة إلى مباركة من الخادم. وعلا صوتها واحتدّ فبدأ الناس يلتفتون وصار على الخادم أن يهدّئ روعها. سألها إن كانت قد زارت ضريح حضرة غريب نواز في أجمير منذ أن دخلت زينب حياتها. ولما قالت إنها لسبب أو لآخر لم تتمكّن من ذلك، قال لها إن تلك هي المشكلة، وليس أي عمل سفلي من أي شخص. واشتدّ عليها قليلاً في أمر إيمانها بالسحر والشعوذة في حين أن حضرة غريب نواز موجود لحمايتها. ومع أن أنجم لم تقتنع تمام الاقتناع فقد وافقته على أن عدم زيارة شريف أجمير لثلاث سنين كان سقطة كبيرة من جانبها.

وفي أواخر فبراير برئت زينب بقدر أشعر أنجم أن بوسعها أن تتركها لأيام قليلة. وافق ذاكر ميان، صاحب ومدير محلّ "الزهرة الممتازة" على السفر مع أنجم. وكان ذاكر ميان صديقًا لملاقات علي ويعرف أنجم منذ ميلادها. كان في ذلك الوقت قد بلغ منتصف السبعينيات من عمره، وصار أكبر من أن يتحرَّج من السفر بصحبة هيجرا. لم يكن متجره "الزهرة الممتازة" أكثر من رصيف أسمنتي بارتفاع ساق، ومساحة متر مربع، يقع أسفل بلكونة بيت أنجم القديم في الركن الذي ينفتح فيه زقاق ضريح تشيلتي على سوق ماتيا محل. وكان ذاكر ميان يستأجر ذلك المحل من ملاقات علي -ثم من ثاقب- وظل يديره في موقعه ذلك لما يزيد عن خمسين سنة، جالسًا طوال النهار على قطعة من الخيش يعد أكاليل الورد الأحمر ويطوي عملات ورقية جديدة صانعًا منها مراوح منمنمة أو عصافير صغيرة ليتزين بها العرسان في يوم النكاح. وكان ولا يزال أكبر التحديات التي تواجهه هو أن يحافظ على نضارة الورد وصلابة العملات الورقية في حيز محله الصغير. قال ذاكر ميان إنه يريد الذهاب إلى أجمير ثم إلى أحمد آباد في الجُجرات لأن له أعمالاً فيها مع أهل زوجته. وتهيَّأت أنجم للسفر بصحبته إلى أحمد آباد خشية أن تتعرض لخطر التحرش والمذلة (مذلة أن يراها الناس ومذلة ألا يراها الناس) إن هي سافرت وحدها راجعة من أجمير. أما ذاكر ميان فكان قد وهن في ذلك الوقت وصار يسعده أن يجد من يعينه في حمل أمتعته. فاقترحا أن يقوما وهما في أحمد آباد بالتبرك بزيارة ضريح ولي الدكني شاعر القرن السابع عشر الأردي المعروف بـ شاعر الحب، والذي كان

ملاقات علي كلِفًا به أيما كلف. ثم إنهما ختما على خطة سفرهما ذلك وهما يضحكان ببيتين من شعره كان ملاقات علي يكن لهما محبة خاصة:

"من يصبه سهم العشق
تثقل الحياة عليه، أليس كذلك؟"

بعد أيام قليلة انطلقا بالقطار. قضيا يومين لدى شريف أجمير. شقّت أنجم طريقها وسط تدافع المريدين واشترت باسم زينب شادورا أخضر ذهبيًا بألف روبية قربانًا لحضرة غريب نواز. واتصلت بالخواب جاه من هاتف عمومي في كلا اليومين. وفي اليوم الثالث، بسبب قلقها على زينب، اتصلت من محطة السكة الحديدية في أجمير قبل أن تركب القطار السريع من غريب نواز إلى أحمد آباد. وبعد ذلك لم يُعرف عنها خبر هي أو ذاكر ميان. حتى أن ابنه حينما اتصل بأهل أمه في أحمد آباد، لم يلق من هاتفهم غير صمت الموت.

*

برغم أنهم لم تصلهم أخبار عن أنجم، كانت أخبار الجُجرات نفسها مريعة. شبَّ حريق في عربة قطار بفعل فاعلين وصفتهم الجرائد بـ"الأشقياء". والنتيجة أن ستين حاجًا هندوسيًا احترقوا أحياءً وهم

عائدون من رحلة إلى أيودهيا،[٩] شاركوا خلالها في شعيرة وضع حجارة في أساسات معبد هندوسي عظيم أرادوا أن يقيموه في موضع كان قائمًا فيه ذات يوم مسجد قديم. وكان ذلك المسجد، وهو المسجد البابري، قد هُدم قبل عشر سنوات على أيدي حشد زاعق من الغوغاء. وقد صرَّح أحد كبار الوزراء (وكان آنذاك في المعارضة، وشاهد الغوغاء وهم يهدمون المسجد) بأن إحراق القطار يبدو بالقطع شبيهًا بأعمال الإرهابيين الباكستانيين. اعتقلت الشرطة بموجب قانون الإرهاب الجديد مئات المسلمين من أهالي محيط السكة الحديدية ـ وكانت الشرطة ترى أنهم ساعدوا الباكستانيين، فزجّت بهم في السجن. وكان رئيس وزراء الجُجرات ـ وهو من أعضاء المنظمة المخلصين (شأن وزير الداخلية ورئيس الوزراء)ـ يستعد في ذلك الوقت لدخول الانتخابات مرة أخرى. فظهر على شاشة التليفزيون مرتديًا قميص كُرتا زعفرانيًا عاقدًا حول رأسه شريطًا قرمزيًا، وبعينين باردتين برود الموت أمر أن يؤتى بجثث الهندوس المحروقة إلى أحمد آباد، عاصمة الولاية، لتعرض على الملأ، حتى يبدي لها الجمهور احترامه. وبصفة غير رسمية، أعلن "متحدث غير مسؤول" وغير بريء أن كلّ عمل سوف يقابل بردّ فعل مماثل له في القوة ومضاد له في الاتجاه. وطبعًا لم ينسب الفضل إلى نيوتن، فقد كان

[٩] Ayodhya: تعرف أيضا بساكيتا، وهي مدينة عتيقة في الهند يعتقد أنها التي شهدت ميلاد الإله راما وجرت فيها سيرة حياته المعروفة بـ الرامايانا، وقد شهدت أيودهيا أيضًا أحداثًا دامية قُتل فيها الآلاف في مختلف أرجاء الهند سنة ١٩٩٢، بعدما هدم فيها متطرفون هندوس مسجدًا تاريخيًا هو المسجد البابري، ظنًا منهم أنه مبني على أنقاض معبد رام أو مسقط رأسه.

الموقف الرسمي السائد آنذاك يرى أن قدامى الهندوس هم الذين اخترعوا العلم كلّه.

ولكن "ردّ الفعل" -إن صحّ أن يقال فيه ذلك أصلاً- لم يكن مساويًا أو مضادًا. إذ استمرّ القتل لأسابيع، ولم يقتصر على المدن فقط. كان الغوغاء حشودًا مسلحة بسيوف ورماح مثلثة النصال عاقدين على جباههم أشرطة زعفرانية. وكانوا مزودين بكشوف الممتلكات الرسمية التي تُحدِّد بيوت المسلمين، وأعمالهم، ومحلاتهم. كان معهم مخزون من أنابيب الغاز (وهو ما يفسر نقص الغاز في الأسابيع القليلة السابقة)، ولمّا كان المصابون يؤخذون إلى المستشفيات، فقد هاجم الغوغاء المستشفيات. ولم تسجل الشرطة قضايا قتل بدعوى أنهم لا بد أن يروا الجثث أولاً، وهو ما لا يخلو من منطق. والأمر أن الشرطة كانت في الغالب جزءًا من الغوغاء، فلم ينته الغوغاء من مهمتهم، إلا وقد باتت الجثث بعيدة الشبه بالجثث.

لم يعارض أحد سعيدة (التي كانت تحب أنجم ولا تدرك مطلقًا شكوكها فيها) حينما اقترحت تغيير قناة المسلسل إلى قناة الأخبار وإبقاءها مفتوحة تحسّبًا لأيّ احتمال، عسى أن يلتقطن خيطًا يدلهنّ على ما قد يكون وقع لأنجم وذاكر ميان. وكان المذيعون موفورو الصحة متورِّدو الخدود يصيحون بتقاريرهم أمام الكاميرا من مخيمات اللاجئين التي بات يعيش فيها عشرات الآلاف من مسلمي الجُجرات، فيكتم سكان الخواب جاه الصوت ويمسحون الصورة الخلفية راجين أن يلمحوا أنجم وذاكر واقفين في صفوف الغذاء أو البطاطين أو ضمن

المتكدّسين في خيمة من الخيام. وفي ثنايا ذلك علموا أن ضريح ولي الدكني قد سُوّي بالأرض وأقيم فوقه طريق ممهد بالقطران طمس كل أثر يدلّ على وجود له في يوم من الأيام. (ولم تستطع الشرطة أو الغوغاء أو رئيس الوزراء أن يفعلوا أي شيء لأولئك الذين استمرّوا يضعون الزهور في منتصف الطريق الجديد الممهّد بالقطران حيثما كان الضريح. فلما كانت السيارات تدهس الزهور لتلتصق في إطاراتها كالعجين، كانت زهور جديدة تظهر. وما الذي بوسع أحد، أيِّ أحدٍ، أن يفعله في صلة نشأت بين عجين الزهور وقصائد الشعر؟) اتصلت سعيدة بكل من تعرف من الصحفيين والعاملين في المنظمات غير الحكومية متوسلة إليهم أن يساعدوها. فلم يأتِ أحدهم بخبر. ومضت الأسابيع بلا خبر. تعافت زينب من نوبة مرضها ورجعت إلى المدرسة، ولم يكن ينتهي يومها المدرسي إلا لتتشبث بسعيدة باكية شاكية ليل نهار.

*

مضى شهران. وعندما ندر القتل وقارب على الانتهاء، ذهب منصور، أكبر أبناء ذاكر ميان، للمرة الثالثة إلى أحمد آباد ليبحث عن أبيه. وعلى سبيل الاحتياط حلق لحيته ولفّ على معصمه خيوط العبادة الحمراء راجيًا أن يبدو بمظهر الهندوس. ولم يعثر قط على أبيه، وإن علم ما الذي جرى له. فقد قاده البحث إلى مخيَّم صغير للاجئين داخل مسجد في ضواحي أحمد آباد عثر فيه على أنجم في قسم الرجال، فعاد بها إلى الخواب جاه.

كانت قد قصّت شعرها. فلم يبق منه على رأسها إلا ما يشبه خوذة لا ينقصها غطاءا الأذنين. كانت تلبس ثياب صغار الموظفين، بنطالاً بُنيًّا غامقًا من القطن الوبري، وقميصَ مربعاتٍ خفيفًا بنصف كم، وقد فقدت الكثير من وزنها.

لوهلة انتاب زينب شيءٌ من الفزع من منظر أنجم الرجالي الجديد، لكنها قهرت خوفها ودفعت نفسها بين ذراعيها صارخة في فرح. احتضنتها أنجم بقوة، ولكنها لم تقابل دموع الآخرين وأسئلتهم وأحضانهم بدفء، وكأنما ترحابهم ذلك لم يكن غير ورطة عليها أن تحتملها. أحزنهن ذلك البرود، وأصابهن بشيء من الخوف، لكنهن بقين على ما بأنفسهن من تعاطف معها وانشغال عليها.

صعدت أنجم بأسرع ما في وسعها إلى غرفتها. ولم تخرج إلا بعد ساعات، في ثيابها المعتادة، وقد طلت شفتيها ووضعت في شعرها قليلاً من المشابك الجميلة. وسرعان ما اتضح أنها غير راغبة في الكلام عمّا جرى. ولم تكن تجيب سؤالاً عن ذاكر ميان بأكثر من قولها "كانت مشيئة الله".

في غياب أنجم، بدأت زينب تنام في الطابق السفلي مع سعيدة. فلمّا رجعت أنجم، رجعت إلى النوم معها، ولكن أنجم لاحظت أنها بدأت تنادي سعيدة أيضًا بمامّي.

وبعد أيام قليلة سألت أنجم زينب "إذا كانت هي مامّي، فمن أنا؟ ليس لأحد والدتان".

قالت زينب "بري مامّي" مامّي الكبيرة.

أصدرت أستاذة كلثوم بي تعليمات بأن تُترك أنجم في سلام لتفعل ما تريد ولأي وقت تريد.

وما كانت تريده أنجم هو أن تُترك وشأنها.

كانت هادئة، هدوءاً مثيرًا للقلق، وتقضي أغلب وقتها بصحبة كتبها. وعلى مدار أسبوع أخذت تعلم زينب أن تنشد شيئًا لم يكن أحد من أهل الخواب جاه يفهمه. قالت أنجم إنه ترنيمة سنسكريتية، تعرف بـ ورِدْ جايَتري، وإنها تعلمتها وهي في مخيم الجُجرات. كان الناس هناك يقولون إن في معرفته نفعًا، فهم يرددونه كلما ظهر الغوغاء للإيحاء بأنهم من الهندوس. وبرغم أنها وأنجم أيضًا كانتا لا تعرفان له معنى، فقد التقطته زينب بسرعة وصارت تنشده في سعادة عشرين مرة على الأقل كلّ يوم، وهي تلبس زي المدرسة، وهي تجهز حقيبتها، وهي تطعم تيسها:

أوم بهُور بُهُفَ سفَه
تَت سفيتُر فَرِنيَم
بَهرجو ديفَ سيه دِهي مَهي
دِهيو يو نه رَتشوديات

ذات صباح خرجت أنجم من البيت، مصطحبة معها زينب. فلما رجعت كانت بصحبتها فأرة جديدة تمامًا. شعرها قصير وترتدي ثياب ولد، سترة أطفال بتهانية وصدرية مطرزة، وحذاءً مرفوعًا عند إصبع القدم الكبير كالجندول.

قالت أنجم على سبيل التفسير "هذا أكثر أمنًا. سوف نسميه مهدي. فقد تأتي الحُجرات إلى دلهي في أي يوم".

كان بكاء زينب يتعالى طوال سيرهما في الشارع، فتسمعه الدجاجات في أقفاصها والجراء في بالوعاتها.

عُقد اجتماع طارئ. تحدَّد موعده خلال ساعتي انقطاع الكهرباء المعتاد لكي لا يتذمّر أحد من ضياع حلقة من المسلسل التليفزيوني. بُعثت زينب لقضاء الأمسية مع أحفاد حسن ميان. وكان ديكها يقضي قيلولته المعتادة على رفٍّ بجوار التليفزيون. خاطبت أستاذة كلثوم بي المجتمعين وقد اعتدلت على سريرها مستندة بظهرها على لحاف رَضايي مبروم. والبقية جلسوا على الأرض. بينما توارت أنجم في الطرقة في كآبة. وتحت هسيس الضوء الأزرق من قنديل كيروسين بيتروماكس، بدا وجه كلثوم بي كأنه قاع نهر جاف، وشعرها الناحل الأبيض جليدًا متراجعًا كان النهر ينبع منه في يوم من الأيام. كانت بتلك المناسبة قد وضعت طاقم أسنانها الجديد الذي لم تكن تستريح إليه. تكلمت بإحساس السلطة، وكثير من الافتعال المسرحي. بدا أن كلماتها موجهة

إلى الوافدات الجديدات اللاتي انضممن إلى الخواب جاه للتوّ، لكن المقصود من نبرة تلك الكلمات لم يكن إلا أنجم.

قالت إن "هذا المنزل، هذا البيت، له تاريخ متصل من عمر هذه المدينة الكسيرة. هذه الجدران المقشورة، وهذا السقف المثقوب، وهذا الفناء المشمس، كل هذا كان جميلاً في يوم من الأيام. هذه الأرضيات كانت مكسوّة بالسجاجيد الواردة رأسًا من أصفهان، وهذه الأسقف كانت مزينة بالمرايا. حينما أقام الإمبراطور شاه جهان القلعة الحمراء والمسجد الجامع، حينما أقام هذه المدينة المُسوّرة، أقام كذلك قصرنا الصغير هذا. بناه لنا. تذكروا دومًا أننا لسن أي هيجرات من أي مكان. نحن هيجرات شاه جهان آباد، أولانا حكامنا ثقتهم إلى حدٍّ أن عهدوا إلينا برعاية زوجاتهم وأمهاتهم. كنا في يوم من الأيام نتحرك كيف نشاء في أجنحتهم، في مخادعهم، في حريمهم، داخل القلعة الحمراء. مضى أولئك جميعًا الآن، أولئك الأباطرة العظماء وزوجاتهم الملكات. أما نحن فلا نزال هنا. فكروا في هذا واسألوا أنفسكم كيف أمكن هذا".

كان للقلعة الحمراء دائمًا دور كبير في سرد أستاذة كلثوم بي لتاريخ الخواب جاه. في الأيام الخوالي، حينما كان جسمها يسعفها، كانت تجعل من زيارة القلعة ومشاهدة عرض الصوت والضوء فيها جزءاً إلزاميًا من طقوس ضم الوافدات الجديدات. كنَّ يذهبن جماعة، مرتديات أفضل ما لديهن من ثياب، وقد وضعن الزهر في شعورهن، وأمسكن أيدي بعضهن بعضًا مُخاطِرات بأنفسهن وهن يخضن وسط

المرور في سوق تشاندني بجنون سياراته وأتوبيساته وريكاشاته وتانجاته إذ يسوقها البارعون في التهور مهما كان المرور بطيئًا إلى حد الإيلام.

كانت القلعة تشرف على المدينة القديمة، هضبةً هائلة من الحجر الرملي، جزءًا شديد الضخامة من الأفق لدرجة أن أهل المنطقة ما عادوا يلحظونه. ولولا إصرار أستاذة كلثوم بي، ربما ما كان أحد من أهل الخواب جاه ليجشّم نفسه عناء الذهاب مطلقًا، ولا أنجم نفسها، وهي التي ولدت ونشأت في ظل القلعة. كن لا يكدن يعبرن الخندق المحيط بالقلعة -المليء بالنفايات والبعوض- ويعبرن المدخل المهيب، حتى ينعدم أي وجود للمدينة. كانت القِرَدَة ذات العيون الصغيرة المجنونة تستعرض قفزها على المتاريس الحجرية الشاهقة المشيدة بضخامة وجمال لا يمكن أن يخطرا للعقل الحديث. وكانت القلعة من الداخل عالمًا مختلفًا، وزمانًا مختلفًا، وهواءً مختلفًا (تفوح فيه تحديدًا رائحة الماريجوانا) وسماء مختلفة - ليست شريطًا ضيِّقًا بعرض الشارع يكافح كي يُرى وسط كتلة أسلاك الكهرباء، بل سماء بلا نهاية تطوف بها الطائرات الورقية، شاهقة وساكنة، متعالية في الوهج.

كان عرض الصوت والضوء عبارة عن نسخة قديمة حكومية (فلم تكن الحكومة الجديدة قد فرضت يدها عليه بعد) من تاريخ القلعة الحمراء والأباطرة الذين حكموها لأكثر من مئتي سنة، بدءًا بشاه جهان الذي أقامها، ووصولاً إلى بهادُر شاه ظفر آخر المغول الذي نفاه البريطانيون بعد ثورة ١٨٥٧ الفاشلة. كان ذلك هو التاريخ الرسمي الوحيد الذي تعرفه أستاذة كلثوم بي، وإن يكن تفسيرها له أقلّ صرامة

مما أراد كاتبوه. كانت تبقى هي وفريقها الصغير في أثناء زياراتهم مع بقية الجمهور، وأغلبه سياح وتلاميذ، في صفوف من المقاعد الخشبية تعيش تحتها غيوم من البعوض. وتفاديًا للّسعات كان لزامًا على الجمهور أن يجلس في وضعية من الثبات القهري مع أرجحة السيقان عند تتويج كل ملك، ونشوب كل حرب، وقيام كل مذبحة، وبلوغ كل نهاية، نصرًا كانت أو هزيمة.

كانت الحقبة الأهم للأستاذة كلثوم بي هي منتصف القرن الثامن عشر، عصر الإمبراطور محمد شاه رنجيلا، عاشق المتعة الأسطوري المغرم بالموسيقى والرسم، وأكثر حكام المغول نزوعًا إلى المرح. كانت تنبِّه حوارييها لكي يولين سنة ١٧٣٩ انتباهًا خاصًّا. كانت تبدأ بهزيم حوافر الخيول الآتي من وراء الجمهور متقدمًا باتجاه القلعة، في صوت كالرعد يبدأ خافتًا ثم يعلو ويعلو ويعلو. ذلك هو الفارس نادر شاه ممتطيًا صهوة حصانه قاطعًا الطريق الطويل من فارس، عابرًا غزنة وكابُل وقندهار وبشاور ولاهور وسيرهيند، مغتنمًا المدينة تلو المدينة وهو يمضي قُدُمًا صوب دلهي. ويحذِّر الإمبراطورَ محمد صلاح قادتُه من الكارثة الوشيكة. فيأمر في ثباتٍ بأن تعزف الموسيقى، وفي هذه اللحظة تتوهج المصابيح في الديوان الخاص، أي قاعة الجمهور الخاص، بأضواء أرجوانية وحمراء وخضراء، وبيضاء الحريم بالوردي (طبعًا) وتتردَّد أصداء ضحكات النساء، وحفيف الحرير، وجلجلة الخلاخل تَشَهَن تَشَهَن تَشَهَن. وبغتة، في غمار هذه الأصوات الرغدة اللينة المنعمة، تتعالى رنانةً عميقةً فريدةً واعدةً غنجةً، تتعالى ضحكةُ خصيِّ البلاط.

وشأن عالمة حشرات مزهوة بالنصر وقد وقعت عيناها على فراشة نادرة، تقول أستاذة كلثوم بي "ها هو". تقول "سمعتنّ هذا؟ هذا نحن. هذا من أسلافنا، تاريخنا، حكايتنا. لم نكن قط من عوام الناس، أترون، كنا بعض أهل القصر الملكي".

مرت اللحظة مرور خفقة قلب. لكن سرعة المرور لا تعني أي شيء. المهم أن اللحظة نفسها موجودة. الوجود في التاريخ، ولو بضحكة لا أكثر، دنيا، والغياب عنه، وعن كل كلمة مدونة فيه، دنيا أخرى تمامًا. فبوسع ضحكة في النهاية أن تكون موطئ قدم في جدار المستقبل الشفاف.

كانت أستاذة كلثوم بي تهتاج غاضبة إن مرَّت الضحكة فلم يسمعها أيٌّ منهنَّ بعد كل الجهد الذي بذلته للتنبيه إليها. غضب مستعر، كان يمكن أن يتحول إلى فرجة على الملأ، فكان تجنُّب ذلك يستوجب من القديمات في الخواب جاه أن ينصحن الوافدات الجديدات أن يتظاهرن أنهن سمعن الضحكة وإن لم يسمعنها.

حاولت جوديا أن تخبرها مرة بأن الهيجرات يحظين في الأساطير الهندوسية بمكانة خاصة من المحبة والاحترام. فحكت لكلثوم بي قصة عن الإله راما وزوجته سيتا وأخيه الصغير لاكشمن، وكيف نُفي ثلاثتهم أربعة عشر عامًا عن مملكتهم ورعيتهم التي كانت مغرمة بملكها وتتبعه في خطاه وتدين له بالولاء والمضي إلى حيثما يمضي. لما بلغ الثلاثة أطراف أيودهيا، وكانوا على مشارف الغابة، التفت رام إلى شعبه وقال

"أريدكم جميعًا، رجالاً ونساءً، أن ترجعوا إلى الوطن وتنتظروا هناك إلى حين رجوعي". وما كان لأيٍّ منهم أن يعصى أمرًا للملك، فارتدُّوا رجالاً ونساءً راجعين، ولم يبق مخلصًا له غير الهيجرات عند حافة الغابة طوال أربعة عشر عامًا، لأنه نسي في خطابه إلى الشعب أن يذكرهن.

قالت أستاذة كلثوم بي "فنحن إذن مذكورون بالنسيان؟ واه واه".

كانت ذكرى أنجم لزيارتها الأولى إلى القلعة الحمراء ناصعة في ذهنها لأسباب تخصها، إذ كانت أول خروج لها بعد جراحة الدكتور مختار، ولما اصطففن لقطع التذاكر كان أغلب الناس ينظرون في بلاهة إلى السياح الأجانب الذين تخصَّص لهم صفوف خاصة وتذاكر أغلى، في حين كان السياح الأجانب ينظرون في بلاهة إلى الهيجرات، وإلى أنجم بصفة خاصة. كان بينهم شاب، هيبي نافذ النظرة يسوعي اللحية، ينظر إليها في وله. وهي كانت تنظر إليه. صار في خيالها حضرة سرمد الشهيد، تصوَّرته واقفًا في عري وعزَّة، نحيلاً، واهي القوام، أمام هيئة من القضاة الناقمين، لا يجفل حتى حينما يحكمون عليه بالموت. أما هي فجفلت قليلاً حينما تقدم السائح باتجاهها.

قال "أنت جميلة للغاية. صورة؟ تسمحين لي؟"

تلك كانت المرة الأولى التي يطلب فيها أحد تصويرها. في رضا ألقت ضفيرتها ذات الشريطة الحمراء على كتفها بخفر، ونظرت إلى أستاذة كلثوم بي تستأذنها. وأذِنت لها. فتهيَّأت للتصوير، مستندة في

خرق إلى المتاريس الحجرية، وقد مال كتفاها إلى الوراء، وارتفع ذقنها، في مزيج من الجرأة والخوف معًا.

قال الشاب بإنجليزية متواضعة "شكرًا. شكرًا جدًّا لك".

لم ترها قط، لكنها كانت بشارة بشيء ما، تلك الصورة.

أين هي الآن؟ لا يعلم إلا الله.

ارتدّ عقل أنجم السابح إلى اجتماع غرفة الأستاذة كلثوم بي.

أخذت الأستاذة تقول إن انحطاط حكامنا ونزقهم هو الذي جلب الخراب على إمبراطورية المغول، الأمراء في عهرهم مع الجواري، والأباطرة العراة في أنحاء قصورهم يعيشون الترف، بينما شعبهم جائع، كيف كان لإمبراطورية كتلك أن ترجو البقاء؟ ولِمَ كان ينبغي أن تبقى أصلاً؟ (وما كان ليخطر لأحد سمعها وهي تمثل دور الأمير سليم في المغولي الأعظم أنها ناقمة عليه كلّ هذه النقمة. ولا كان لأحد قط أن يشك وهو يرى اعتزازها العظيم بعتاقة الخواب جاه وقربه من الحكام أن في نفسها غضبًا اشتراكيًا عتيدًا على تهتك حكام المغول وعوز شعبهم). ثم إنها مضت من ذلك إلى القطع بضرورة العيش المنضبط وفق نظام حديدي، فهذا في رأيها هو سمة الخواب جاه الأكيدة، وسر قوته وبقائه عبر العصور، بينما كانت تختفي من حوله أشياء أقوى وأعظم.

أهل الدنيا العاديون، ماذا يعرف هؤلاء عما تقتضيه حياة الهيجرا؟ ما الذي يعلمونه عن القواعد والانضباط والتضحيات؟ مَنْ يعرفُ اليومَ

أن زمنًا مضى كان عليهن فيه، وهي مثلهن، أستاذة كلثوم بي نفسها، أن يتسولن في إشارات المرور، وأنهن بنين أنفسهن، حجرًا بعد حجر، ومذلة بعد مذلة، مرتقيات من ذلك الذي كنَّ عليه؟ ما سُمِّي الخواب جاه بالخواب جاه إلا لتفرّد أهله، لأنهم مباركون، حققوا أحلامهم التي لا يمكن تحقيقها في دنيا الناس. في الخواب جاه، تتحرَّر الأرواح المقدسة من الأجساد الخطأ. (ولم تتعرَّض قط لمسألة أن تكون الروح المقدسة الحبيسة هي روح رجل في جسم امرأة).

ولكن أستاذة كلثوم بي قالت "ولكن"... (والسكتة التي أعقبتها كانت جديرة برئيس الوزراء الشاعر الألثغ) "ولكن المرسوم الأساسي في الخواب جاه هو منظوري. الرضا. الناس في الدنيا يروجون شائعات مغرضة عن الهيجرات بأنهن يخطفن الصبية الصغار ويخصينهم. وهي من ناحيتها لا تعرف ولا يمكنها أن تقطع هل يحدث مثل ذلك أم لا يحدث في أماكن أخرى، ولكن في الخواب جاه، والله تعالى شاهد، لم يحدث شيء بغير منظوري.

ثم انتقلت إلى موضوع الاجتماع المحدّد. قالت "إن الله تعالى ردَّ إلينا أنجمنا. وهي لم تخبرنا بما جرى لها وذاكر ميان في الجُجرات، ولا يمكن أن نرغمها على ذلك. ليس بأيدينا إلا الظن. والتعاطف. لكننا في تعاطفنا هذا لا يمكن أن نسمح بالتنازل عن مبادئنا. وإرغام فتاة على أن تعيش عيش صبي برغم إرادتها، ولو كان ذلك من أجل أمانها، فذلك

استعباد لها وليس تحريرًا. لا مجال لحدوث شيء كهذا في الخواب جاه. لا مجال على الإطلاق".

قالت أنجم "هي طفلتي أنا. وأنا التي سأقرّر. يمكن أن أترك هذا المكان وأرحل معها وقتما أشاء".

لم يثر ذلك القول قلقًا في نفس أحد على الإطلاق، بل أثار ارتياحًا في واقع الأمر، إذ رأين بادرة على أن ملكة الدراما العجوز الكامنة في أنجم لم تزل حية وبخير. ولم يكن من داع للقلق على الإطلاق، وهن يعرفن تمامًا أنه ما من مكان آخر يمكن أن تذهب إليه.

قالت أستاذة كلثوم بي "يمكنك أن تفعلي ما يحلو لك، لكن الطفلة سوف تبقى هنا".

قالت أنجم "كل هذا الكلام عن منظوري وتريدين الآن أن تقرِّري بالنيابة عنها. فلنسألها. وسوف ترغب زينب في المجيء معي".

كان الرد على أستاذة كلثوم بي بتلك الطريقة يعدُّ غير مقبول، حتى من شخص نجا لتوّه من مذبحة. فانتظر الجميع ردَّ الفعل؟

أغمضت أستاذة كلثوم بي قليلاً وطلبت رفع لحاف رَضايي المبروم من ورائها. حلّ عليها التعب بغتة، فاستدارت إلى الجدار والتفت على نفسها متوسدة ذراعها. وبعينين مغمضتين وصوت هادر كأنه قادم من البعيد، أمرت أنجم أن تذهب إلى دكتور بهجت وأن تحرص على تناول الأدوية التي سيصفها لها.

انفضّ الاجتماع. وتفرّق أهل البيت. انتقل قنديل بيتروماكس من الغرفة وهسيسه يتعالى كأنه قطة تتنمّر.

*

لم تكن أنجم تقصد ما قالته، لكنها وقد قالته، مضت فكرة الرحيل تلتف عليها التفاف الأصلة.

رفضت الذهاب إلى دكتور بهجت، فناب عنها في ذلك وفدٌ صغير على رأسه سعيدة. كان دكتور بهجت رجلاً ضئيل الحجم ذا شارب عسكري محفوف تفوح منه بقوة رائحة بودرة تلك دريمفلاور بوندز. وكان فيه سمت الطيور وسرعتهم، ودأب على مقاطعة حالاته بل ومقاطعة نفسه كل بضع دقائق بنشقة عصبية جافة مصحوبة بثلاث نقرات متقطعة من قلمه على سطح الطاولة. شعر ساعديه أسود كثيف ولكن رأسه تقريبًا عديم الشعر. وكان قد حلق قطاعًا عريضًا من شعر معصمه الأيسر ولبس عليه منشفة من مناشف لاعبي التنس جعل من حولها ساعته الذهبية الثقيلة بحيث تتاح له دائمًا رؤية للزمن واضحة لا تحتمل اللبس. في ذلك الصباح كان قد ارتدى ما يرتديه كل يوم: سترة سفاري قطنية بيضاء وبَرِيَّة تامة النظافة وصندلاً أبيض لامعًا. ووضع على مسند كرسيه الخلفي منشفة بيضاء نظيفة، فبرغم أن عيادته كانت تقع في حي ينضح بالقذارة، كان هو نفسه رجلاً شديد الاعتناء بالنظافة. وكان كذلك رجلاً طيبًا.

اكتمل نصاب الوفد في العيادة وجلس أعضاؤه على الكراسي المتاحة، فمنهن من اقتعدن أذرع كراسي الأخريات. وكان دكتور بهجت يألف رؤية حالاته من الخواب جاه أزواجًا وثلاثات (فلم تكن منهن من تأتي بمفردها قط)، ولكنه جفل لما رأى عِظَم الحشد الذي حلّ عليه في ذلك الصباح.

"أيّكن الحالة؟"

"ليست أيّنا يا سيادة الدكتور."

كانت المتحدثة باسم الوفد هي سعيدة، مع بعض الإيضاحات والشروح من الباقيات، فوصفت بقدر ما أمكنها من الحذر ما طرأ من تغير على سلوك أنجم: الشرود، والوقاحة، والقراءة، والتمرد وهو أخطر ما في الأمر. حكت للطبيب عن مرض زينب وقلق أنجم. (ولم يكن لديها علم طبعًا بنظرية أنجم عن الأعمال السفلية ودورها هي فيها). وكان الوفد قد قرّر بعد مشاورات تفصيلية بينهن ألا يذكرن مسألة الحُجرات:

(أ) لأنهن لا يعلمن ما جرى لأنجم هناك إن كان قد جرى لها شيء.
(ب) لأن على طاولة دكتور بهجت تمثالاً ضخمًا من الفضة (أو لعله مطلي بالفضة لا أكثر) للإله جانيش[10] فضلاً عن دخان دائم يلتف حول جذعه من بخور طازج.

---

١٠ إله هندوسي له رأس فيل، وهو إله الحكمة والحظ السعيد، والتعلم، وإزالة العثرات.

من المؤكد أنه ما كان يمكن استخلاص شيء قاطع من هذه المعلومة الأخيرة، لكنها جعلتهن غير مطمئنات إلى آرائه بشأن ما وقع في الجُجرات. فقرَّرن أن يلزمن أقصى درجات الحذر.

أما دكتور بهجت (الذي كان شأن ملايين المؤمنين من الهندوس فزعًا مما تؤول إليه الأحداث في الجُجرات) فقد استمع بدقة، وتنشّق، وطرق بقلمه على الطاولة، واتسعت عيناه الضيقتان البراقتان بسبب عدساته السميكة المحاطة بإطار ذهبي. قطب جبينه وفكر لدقيقة في ما قيل له ثم سأل إن كانت رغبة أنجم في الرحيل عن الخواب جاه أدت إلى القراءة أم أن القراءة هي التي أدت إلى الرغبة في الرحيل. فانقسم الوفد في هذا الأمر. قالت مِهر -وهي من الصغيرات في الوفد- إن أنجم أخبرتها أنها تريد الرجوع إلى دنيا الناس لمساعدة الفقراء. فأثارت بقولها ذلك عاصفة من المرح. ودون أن يبتسم، سأل دكتور بهجت عما يضحكهن في هذا.

قالت مِهر "ما هذا الكلام يا سيادة الدكتور؟ أيُّ فقراء أولئك الذين سيرغبون أن نساعدهم نحن؟" ومضين جميعًا يضحكن من فكرة تخويف الفقراء المساكين بعرضهن المساعدة عليهم.

كتب دكتور بهجت في دفتر وصفاته بخط منمنم، ومنتظم: حالة سبق أن اتسمت بالودّ والطاعة والطبيعة المرحة، بدأت تُظهِر شخصية فيها سمت العصيان والتمرد.

طلب منهن ألا يتخوفن. وكتب لهن وصفة. أقراص (هي التي يصفها لجميع حالاته) قال إنها ستهدئها، وتوفر لها بضع ليال من النوم الهادئ، على أن يراها بعد ذلك شخصيًا.

رفضت أنجم تناول الأقراص رفضًا باتًا.

وبمرور الأيام، تبدد هدوؤها أمام شيء جديد، شيء عصبي وقلق. بات يسري في شرايينها كأنه ثورة غادرة، كأنه عصيان مسلح مجنون، كأنه خروج على سلطان عمرٍ كاملٍ من السعادة الزائفة تشعر أنها فرضت عليها.

أضافت وصفة الدكتور بهجت إلى ما كدَّسته من أشياء في الفناء، الأشياء التي كانت تعُدُّها في يوم من الأيام بعض كنوزها، وأشعلت فيها عود ثقاب. كان بين تلك الأشياء:

ثلاثة أفلام تسجيلية (عنها).
كتابان مصوران مطبوعان على ورق مصقول (عنها).
سبعة مواضيع مصورة في مجلات أجنبية (عنها).
دفتر قصاصات صحفية من جرائد أجنبية بأكثر من ثلاث عشرة لغة بينها نيويورك تايمز ولندن تايمز وجارديان وبوسطن جلوب وجلوب آند ميل ولوموند وكوريرا ديلا سيرا ولاستامبا ودي تسايت (عنها).

ارتفع دخان النار حتى سعل بسببه الجميع بمن فيهم التيس. ولما برد الرماد، دعكت به وجهها وشعرها. وفي تلك الليلة نقلت زينبُ ثيابها وأحذيتها وحقيبة المدرسة ومقلمة على شكل صاروخ إلى خزانة سعيدة. ورفضت أن تنام ثانية مع أنجم.

"مامّي لا تشعر مطلقًا بالسعادة". ذلك كان سبب زينب الدقيق، والقاسي.

مفطورة القلب، أفرغت أنجم خزانتها الجودريج المعدنية وجمعت ملابسها -من الغرارات الساتان والسواري المزينة بالترتر وأقراط الجُهُمكا والخلاخيل والأساور الزجاجية- في علب صفيح. كانت قد حاكت بنفسها بذلتين بتهانيتين إحداهما رمادية يمامِيَّة والأخرى بنية باهتة، واشترت معطفًا بلاستيكيًا مستعملاً وحذاءً رجاليًا ارتدته بلا جورب. ووصلت سيارة تيمبو متهالكة شحنت فيها الخزانة والعلب الصفيحية. ورحلت دون أن تقول إلى أين هي ذاهبة.

وحتى في ذلك الحين، لم يتعامل أحد مع الأمر بجدية. كنّ واثقات أنها سوف ترجع.

*

عشر دقائق فقط في السيارة التيمبو من الخواب جاه، ودخلت أنجم مرة أخرى إلى عالم آخر.

كانت مقابر منفرة، متهالكة، ليست شديدة الضخامة، ولا تُستعمل إلا لمامًا. يحاذيها من الشمال مستشفى حكومي ومشرحة تؤول إليها جثث متشردي المدينة وموتاها المجهولين إلى أن تقرِّر الشرطة كيف تتخلَّص منها. فكان أغلبها ينتهي إلى محرقة الجثث في المدينة، إلا لو تبيَّن أنها جثث مسلمين فكانت تُدفن في مقابر بلا شواهد تختفي بمرور الوقت وتسهم في خصوبة التربة ونضارة الشجر القديم الاستثنائية.

كانت المقابر المُرخَّص رسميًا بإقامتها لا تتجاوز مئتي مقبرة، أقدمها هي أكثرها اتساعًا، وهي ذات الشواهد الرخامية المنحوتة، أما الأحدث فهي الأكثر بدائية. أجيال عديدة من عائلة أنجم دفنت هناك: ملاقات علي، وأبوه وأمه، وجده وجدته. أخت ملاقات علي؛ أي الست زينَت كوثر (عمة أنجم) مدفونة بجواره. كانت قد انتقلت إلى لاهور بعد التقسيم. وبعد أن عاشت هناك عشر سنين تركت زوجها وأبناءها ورجعت إلى دلهي قائلة إنها لم تعد تستطيع أن تعيش في أي مكان إلا على مقربة من مسجد دلهي الجامع وفي جواره الأقرب. (فلسبب ما لم يصلح مسجد بادشاهي في لاهور بديلاً كافيًا). وبعدما نجت من ثلاث محاولات شرطية لترحيلها بوصفها جاسوسة باكستانية، استقرت الست زينَت كوثر في شاه جهان آباد في غرفة ضيقة ملحق بها مطبخ صغير ولها إطلالة على مسجدها الحبيب. كانت تشاركها فيها أرملة في مثل سنها تقريبًا. وكانت تكسب لقمة عيشها من توريد القورمه[١١] بلحم الضأن

١١ وجبة مشهورة في شبه القارة الهندية ولها أصناف عديدة بأنواع اللحوم المختلفة أو الدجاج أو الأسماك أو الخضروات، وتتميز بالتوابل الحارة، والمرق السميك.

إلى مطعم في المدينة القديمة تقصده جماعات السياح لتذوق الطعام المحلي.
ظلت ثلاثين سنة تقلب كل يوم إناءً ثابتًا وتشم رائحة القورمه مثلما
تشم غيرها من النساء رائحة العطور. وحتى بعدما فارقتها الحياة، دُفنت
في مقبرة رائحتها أشبه برائحة أكلة لذيذة من أكلات دلهي القديمة.
وبجوار الست زينَت كوثر كان رفات بيبي عائشة، شقيقة أنجم الكبرى
التي ماتت بالسل، وغير بعيد منهم جميعًا كانت مقبرة أحلام باجي
القابلة التي ساعدت في ميلاد أنجم. كانت أحلام باجي في السنوات
السابقة على رحيلها قد فقدت عقلها وزاد وزنها، فصارت تهيم في
شوارع المدينة القديمة كأنها ملكة قذرة وقد التفَّ شعرها المتلبد في منشفة
وسخة كأنما خرجت للتو من حمام اغتسلت فيه بحليب جحش. كانت
دائمًا ما تسير حاملة جوالاً مهترئًا من أجولة سماد كريسان يوريا ممتلئًا
بزجاجات مياه معدنية فارغة، وطائرات ورقية ممزقة، وملصقات
ورايات مطوية بعناية من بقايا مسيرات سياسية حاشدة أقيمت في
ساحات مهرجانات رام ليلا المجاورة. في أيامها العصبية كانت أحلام
باجي تبادر الكائنات التي ساعدت في الإتيان بها إلى العالم، وقد صار
أغلبهم راشدين وراشدات لديهم أبناؤهم، فتنهال عليهم بأقذع الشتائم
لاعنة اليوم الذي وُلدوا فيه. لم يستأ أحد قط من شتائمها، بل كان
الناس في العادة يبتسمون في حرج ابتسامات من يُدعوْن إلى المسرح
للمشاركة في عروض السحر. ودائمًا ما كانت أحلام باجي تحصل على
الطعام، ودائمًا ما كان يُعرض عليها المأوى، فكانت تقبل الطعام في
تقزز كمن يمنّ ويتفضل، وترفض المأوى. كانت تصر على البقاء

بالخارج مهما يكن قيظ الصيف أو زمهرير الشتاء. إلى أن عُثر عليها ميتة في صباح أحد الأيام، وهي جالسة منتصبة تمامًا خارج منجر ألِفْ زِد للأدوات المكتبية وآلات التصوير، وقد عقدت ذراعيها على جوال كيسان يوريا. أصرت الست جهان آرا على دفنها في مقبرة العائلة، ورتبت لها الغسل والكفن والإمام الذي صلى عليها الصلاة الأخيرة. فقد كانت أحلام باجي في نهاية المطاف هي التي أولدتها أبناءها الخمسة.

بجوار مقبرة أحلام باجي مقبرة امرأة كُتب على شاهدتها (بالإنجليزية) "الست مدام ريناتا ممتاز". وكانت الست ريناتا راقصة شرقية من رومانيا نشأت في بوخارست وهي تحلم بالهند والرقصات الكلاسيكية الهندية. فلما بلغت التاسعة عشرة من عمرها سافرت عبر القارة متطفلة على السيارات إلى أن وصلت إلى دلهي فعثرت على أحد مدربي رقص الكتهك[١٢] المتوسطين فاستغلها جنسيًا ولم يعلمها من الرقص إلا أقل القليل. ولكي تجد قوت يومها بدأت ترقص في كباريه وبار روزباد في حديقة الورد التي يعرفها أهل المنطقة بـ **حديقة اللاورد**، في أطلال فيروز شاه كوتلا، وهي المدينة الخامسة من مدن دلهي السبعة العتيقة. كان اسم ريناتا في الكباريه هو ممتاز. وماتت صغيرة بعدما وقعت في غرام نصاب محترف اختفى من حياتها هو ومدخراتها، وبقيت ريناتا تشتاق إليه برغم معرفتها أنه خدعها. أصابها الذهول، وتعبت من الاستعانة بالسحر واستحضار الأرواح. وبدأت تغيب في نوبات طويلة

---

١٢ Kathak ضرب من الرقص الكلاسيكي.

من الشرود تتفجر خلالها الدمامل في جلدها ويخشوشن صوتها كأنه صوت رجل. ولم تُعرف بدقة ظروف وفاتها، وإن افترض الجميع أنها ماتت منتحرة. وكان روشان لال، كبير النُدُل الصموت في بار روزباد، والمسؤول الفظ عن تأديب الراقصات وضبطهن (وموضع جميع نكاتهن)، هو الذي فاجأ نفسه أول من فاجأ بترتيب جنازتها وزيارة مقبرتها بالزهور مرة، ومرتين، ثم إذا به يقوم بهذه الزيارة دون أن يلحظ كلَّ ثلاثاء (وذلك يوم إجازته). وكان هو من رتَّب شاهدة القبر فأشرف على كتابة اسمها ومن حرص بعد ذلك على "المواظبة"، بحسب تعبيره. وكان هو من أضاف لقبي "الست" و"مدام" إلى اسمها، بل اسميها. ومضت سبع عشرة سنة على وفاة ريناتا ممتاز، وامتلأت ربلتا ساقي روشان لال النحيلتين بالدوالي البدينة وفقد السمع بإحدى أذنيه، ومع ذلك ظل يأتي إلى المقبرة مصلصلاً بدراجته السوداء القديمة حاملاً الزهر النديّ، من الجازانيا، والورد البلدي حين يكون مخفضًا، وحينما تُعوِزه النقود كان يأتي بفروع من الياسمين يشتريها من الصبية في إشارات المرور.

باستثناء المقابر الرئيسية، كان قليل من المقابر هو المختَلَف على منشئه. ومن هذه مثلاً مقبرة غير مكتوب عليها أكثر من "بادشاه"، فمن الناس من يصرّ أن بادشاه كان أميرًا مغوليًا مغمورًا شنقه البريطانيون بعد تمرد عام ١٨٥٧، في حين كان آخرون يعتقدون أنه شاعر صوفي من أفغانستان. ومقبرة أخرى لم تكن تحمل غير اسم "إصلاحي"، فبعض الناس يقولون إنه كان جنرالاً في جيش الإمبراطور شاه علم الثاني،

وغيرهم يصرون أنه كان قوادًا في المنطقة وذبحته في الستينيات عاهرة خدعها. وكالعادة كان كل امرئ يصدق ما يريد أن يصدق.

في ليلتها الأولى بالمقابر، وبعد جولة استطلاعية سريعة، وضعت أنجم خزانتها المعدنية الجودريج وممتلكاتها القليلة بجوار مقبرة ملاقات علي وفردت سجادتها وفراشها بين مقبرتي أحلام باجي والست مدام ريناتا ممتاز. وليس مدهشًا أنها لم تنم في ليلتها تلك. وليس ذلك لأن أحدًا في المقابر أزعجها، فلم يصل جنيٌّ ليتعرف عليها، ولم تهدِّد أشباح بتلبُّسها. كان مدمنو الهيروين عند طرف المقابر الشمالي -الذي يبدو غارقًا في ظلال أشد دكنة من الليل نفسه- متحلقين حول تلال نفاية المستشفى في بحر من الضمادات والمحاقن المستعملة، ولم يبدُ أنهم لاحظوا وجودها على الإطلاق. وفي الجهة الجنوبية، تكتَّل المشردون جلوسًا حول نيران أضرموها ليطبخوا وجباتهم الهزيلة المعبأة بالدخان، بينما جلست الكلاب الضالة، وقد بدت في صحة دونها صحة البشر، على مسافة لائقة في انتظار فتات الفتات.

في ذلك المنظر كان الطبيعي أن تكون أنجم عرضة لشيء من الخطر. لولا أن حماها الأسى، وقد انطلق أخيرًا من قيود العرف الاجتماعي، فانتصب من حولها بكل ما له من جلال، حصنًا ذا متاريس وأبراج وسراديب خفية وأسوار مدمدمًا كأنه حشد يتقدم، ومضت هي تصلصل في حجراته الذهبية كأنها هاربة تفر من نفسها فرارًا. مضت تحاول أن تصرف عن ذهنها صورة موكب الرجال ذوي الأزياء الزعفرانية والابتسامات الزعفرانية الذين طاردوها حاملين أطفالاً

مخوزقين على رماحهم الزعفرانية، فلم ينصرف من ذلك شيء عنها. حاولت أن توصد الباب على ذاكر ميان، الراقد في عرض الشارع، منضبطًا في موته كأنه أحد طيوره النقدية اليابسة. لكنه ظل يتبعها، مسربلاً عبر الأبواب المغلقة، مفترشًا بساطه السحري. حاولت أن تنسى النظرة التي أطلت عليها من عينيه قبل أن يخبو فيهما النور، فلم يسمح لها بنسيانها.

حاولت أن تقول له إنها قاومت في بسالة وهم ينتزعونها من فوق جسمه الخالي من الحياة.

لكنها كانت تعلم علم اليقين أنها لم تقاوم.

حاولت أن تنتزع من نفسها معرفتها بما فعلوه بالآخرين جميعًا، كيف أنهم سربلوا الرجال وعرّوا النساء. وكيف أنهم في نهاية المطاف مزقوا أوصالهم، واقتلعوا أطرافهم، وأضرموا فيهم النار.

لكنها كانت تعرف تمامًا أنها عرفت.

هم.

هم، من يكونون؟

جيش نيوتن، المنتشر للقيام بردّ فعل مساوٍ في القوة مضاد في الاتجاه. ثلاثون ألف ببغاء زعفراني ذوي مخالب من حديد ومناقير ملطخة بالدم، يصرخون صرخة واحدة:

"مُسلمان كا إيك هي أستهان! قبرستان يا باكستان!"

(ما للمسلمين إلا مكانان، المقبرة أو باكستان!)

ارتمت أنجم، مدعية الموت، مفرودة الأطراف، على ذاكر ميان. جثة زائفة لامرأة زائفة. لكن البيغاوات، مع كونها أو زعمها أنها نباتية تمامًا (وكان ذلك هو الحد الأدنى من المؤهلات اللازمة لقبول تجنيدهم)، كانوا يختبرون التنفس بحرفية كلاب الشرطة، فعثروا عليها بطبيعة الحال، وإذا بثلاثين ألف صوت تتناغم معًا، محاكية بيربل ببغاء الأستاذة كلثوم بي "آي هاي! سالاي راندي هيجرا!" ("هيجرا عاهرة أخت عاهرة. هيجرا عاهرة أخت عاهرة مسلمة").

وعلا صوت زاعقًا وخائفًا، من ببغاء آخر:

" لا يا أخي، لا تقتلها، قتل الهيجرات يجلب النحس. "

النحس.

لم يكن يُفزِع أولئك القتلةَ مثلُ نحس محتمل. فكان اتقاء النحس في نهاية المطاف هو الذي جعل أصابعهم الخانقة وسيوفهم الباترة وخناجرهم البارقة وخواتمهم الذهبية الضخمة تُرصَّع وتُطعَّم جميعًا بأحجار الحظ. واتقاء النحس هو الذي جعل أيادي تسدِّد رماحًا من حديد فتجندل الناس أمواتًا تتزيَّن بخيوط العبادة الحمراء الجميلة التي عقدتها حول المعاصم أمهات محبات. وفي ظل كل تلك الاحتياطات، ما كان من معنى لاستجلابهم النحس على أنفسهم عامدين.

هكذا تحلَّقوا حولها وأرغموها أن تهتف بشعاراتهم.

بهارت ماتا كي جي! فندي ماترم!

ففعلت. باكية، مرتعشة، ذليلة ذلاً لم تره حتى في أبشع كوابيسها.

النصر لأمنا الهند! لأمنا الهند التحية!

تركوها حية. لا قتيلة، ولا مصابة. لا مسربلة ولا متعرية. هي دون غيرها. عسى أن ينعموا هم بالحظ السعيد.

حظّ الجزّارين.

ذلك كان شأنها. كلما طال عيشها، جلبت عليهم من الحظ السعيد المزيد.

حاولت وهي تتخبّط في حصنها الخاص أن تقتلع تلك التفصيلة الصغيرة كأن لم تعرفها. لكنها فشلت. كانت تعرف تمامًا أنها تعرف تمامًا أنها تعرف تمامًا.

ويمضي رئيس الوزراء ذو العينين الباردتين والجبهة القرمزية ليفوز بالانتخابات التالية. حتى بعدما وقعت حكومة رئيس الوزراء الشاعر في الوسط، فاز هو بالانتخابات تلو الانتخابات في الجُجرات. وبرغم اعتقاد البعض أنه ينبغي أن يتحمل مسؤولية المذبحة، أطلق عليه ناخبوه لقب الجُجرات كا لالّا. حبيب الجُجرات.

*

عاشت أنجم شهورًا في المقابر، شبحًا هالكًا متوحشًا، يفزع منه كلُّ ساكن من الجان والأرواح، كامنًا للعائلات الثكلى إذ تجيء لدفن أعزائها، يترصَّدهم بحزن جارف طليق يفوق أحزانهم. توقفت عن التجمُّل، وعن صبغ شعرها، فابيضَّ بياض الموت عند جذوره ليستحيل في منتصف الطريق أسود فاحمًا، مضفيًا عليها منظرًا غريبًا.. لنقل إنه مخطَّط. أما شعر وجهها الذي كان في غابر الأيام شيئًا تخشاه أكثر مما تخشى أي شيء عداه تقريبًا، فظهر على ذقنها ووجنتيها كأنه بعض الصقيع (ورحمةً بها أنْ منعه الحقن الهرموني الرخيص طوال عمرها من التحول إلى لحية مكتملة). وتخلخلت من أسنانها الأمامية سنٌّ اصطبغت بالأحمر الداكن بأثر من مضغ البان، فكانت إن تكلمت أو ابتسمت، ونادرًا ما كانت تفعل هذا أو ذاك، تحركت السن إلى أعلى وإلى أسفل باعثة الفزع، كأنها وترٌ يعزف لحنه الخاص. وكان لذلك المظهر المفزع محاسنه، فقد كان يروِّع الناس، وينفِّر الصغار الأشقياء قاذفي الحجارة.

كان السيد دي دي جُبتا زبونًا قديمًا من زبائن أنجم، وقد مضى زمان بعيد منذ أن تخفَّف ولعه بها من أي رغبة دنيوية، فاقتفى أثرها وبات يزورها في المقبرة. كان مقاول بناء من حي قرول باغ التجاري يعمل في مواد البناء، من حديد وأسمنت وحجر وطوب. فجاء بحمولة بسيطة من الطوب وألواح الإسبستوس من موقع بناء زبون ثري وساعد أنجم في بناء سقيفة مؤقتة صغيرة، فلم تكن على أي قدر من الأناقة، بل مجرد مخزن صغير تضع فيه أغراضها إن لزمها ذلك. وكان السيد

جُبتا يزورها بين الحين والآخر ليطمئن أن شيئًا لا ينقصها وأنها لم تؤذ نفسها. ولمّا سافر إلى بغداد بعد الغزو الأمريكي للعراق (ليستفيد من ارتفاع الطلب على مصدّات الخرسانة الواقية من التفجيرات) طلب من زوجته أن ترسل سائقهم إلى أنجم بوجبة ساخنة ثلاث مرات على الأقل كلّ أسبوع. وكانت السيدة جُبتا -وإن اعتبرت نفسها جوبي، أي من عاشقات الإله كرِشنا- تعيش بحسب ما قال لها قارئ الكف الدورة السابعة والأخيرة من ميلادها الجديد. فكانت تلك رخصة لها لكي تفعل ما يعنُّ لها دونما قلق من أن تدفع ثمن خطاياها في حياة تالية. فكانت لها غرامياتها الملتهبة، برغم إصرارها أنها كلما وصلت إلى الذروة الجنسية فإن ما تشعر به حينها إنما هو شعور تجاه كيان إلهي لا تجاه عشيق بشري. وكانت شديدة الغرام بزوجها ولكنها كانت سعيدة أن خوى صحنها من شهواته الجسدية، فسعدت أيما سعادة بأن تسدي له هذا المعروف الصغير.

اشترى السيد جُبتا لأنجم قبل رحيله هاتفًا محمولاً صغيرًا وعلّمها كيف تردُّ (وكانت المكالمات الواردة مجانية)، وكيف تبعث إليه ما وصفه بـ"المكالمة الفائتة" إذا ما أرادت أن تكلمه. فضاع منها في غضون أسبوع واحد. ولمّا اتصل السيد جُبتا من بغداد ردَّ عليه سكران يبكي يريد أن يكلم أمه.

وبجانب طيبة القلب تلك، كانت أنجم تستقبل زوارًا آخرين أيضًا. فجاءت سعيدة مرات قلائل بزينب التي كانت في ظاهر أمرها عديمة القلب، لكنها في الحقيقة كانت مصدومة للغاية. (ولما اتضح لسعيدة أن

تلك الزيارات تؤلم كلاً من أنجم وزينب ألمًا شديدًا توقفت عن اصطحابها)، وكان ثاقب أخو أنجم يأتي مرة كل أسبوع. بل إن أستاذة كلثوم بي نفسها، كانت تأتي على ريكاشة بصحبة صديقها حاج ميان وبسم الله في بعض الأحيان. وحرصت على أن تنال أنجم معاشًا بسيطًا من الخواب جاه يقدَّم إليها نقدًا في مظروف يصلها مطلع كل شهر.

أما الزائر الأكثر انتظامًا فكان أستاذ حميد. وكان يأتي في جميع الأيام، ما عدا الأربعاء والأحد، إما عند الفجر أو عند الشفق، فيجلس على مقبرة من المقابر ومعه أرغن أنجم ويبدأ دندنة رياض، راجا لاليت في الصباح، راجا شوده كليان في المساء[١٣] - "توم بين كاون خبر موري لايت؟" من غيرك يسأل عن أخباري؟ وكان يُعرض دائمًا عن مطالبات الجمهور البذيء بأغنيات بوليود الناجحة أو القوالي[١٤] الشعبية (ولم تكن تخرج في الغالبية الكاسحة من الحالات عن "دَمادَم مَسْت قَلَنْدَر")[١٥] إذ يصيح المتشردون والمتسكعون المحتشدون خارج الحدود غير المرئية للمنطقة التي بات معروفًا بالإجماع أنها منطقة أنجم. وفي بعض

---

١٣ Raga الراجا: قالب موسيقي هندي، ترتبط كل راجا بتوقيت ما من اليوم.

١٤ Qawwali قوالي (قَوّالي): ضرب من الشعر أو الغناء أو الموسيقى الصوفية في جنوب آسيا، ولفظه مشتق من "قول" العربية. ومن أشهر مطربيه عالميًا المطرب الباكستاني: نصرت فاتح علي خان.

١٥ Dum-a-Dum Mast Qalandar: (دُم باستمرار أيها القلندر المجذوب) تعتبر أشهر أغنية قوالي في شبه القارة الهندية على الإطلاق، وكُتبت في الأساس لتكريم الشيخ الصوفي السندي الكبير لعل شهباز قلندر السيهوني، وغناها جميع كبار مطربي القوالي تقريبًا.

الأحيان كانت الأشباح التعيسة على حافة المقبرة تقف على أقدامها في غلالة حالمة من أثر الشراب أو الهيروين وتنطلق في رقصة بطيئة على إيقاع يخصها. وفيما كان الضوء يذوي (أو يولد) مضى صوت أستاذ حميد الرقيق يجوب الأفق الطَللي وسكانه الطَلليين. وتجلس أنجم متربّعة مدبرة ظهرها لأستاذ حميد الجالس على مقبرة الست مدام رينانا ممتاز. لم تكن تكلمه أو تنظر إليه. ولم يكن يبالي. كان يعرف من سكون كتفيها أنها تنصت إلى غنائه. لقد سبق له كثيرًا أن نفذ إليها، وبات يؤمن، أن الموسيقى قد تنفذ إليها أيضًا، إن لم يعد هو قادرًا على النفاذ إليها.

لكن لا الطيبة ولا القسوة كانت لتلين أنجم وتغريها بالرجوع إلى حياتها القديمة في الخواب جاه. كان لا بد أن تمرَّ سنوات قبل أن ينحسر مدُّ الحزن والخوف. كانت زيارات الإمام ضياء الدين اليومية، ومشاجراتهما البسيطة (والعميقة في بعض الأحيان) وطلبه أن تقرأ له أنجم الصحف كل صباح، هي التي ساعدت على اجتذاب أنجم مرة أخرى إلى الدنيا. ورويدًا رويدًا تضاءل حصن الأسى حتى أمسى سَكنًا يمكن احتمال حجمه. أمسى لها بيتًا، مكانَ حزنٍ معروفًا مطمئنًا، قد يكون رهيبًا، لكن يمكن الركون إليه. أغمد رجال الزعفران سيوفهم، وأنزلوا رماحهم ورجعوا في دعة إلى حياتهم وأشغالهم، يستجيبون للأجراس، وينصاعون للأوامر، ويضربون زوجاتهم، وينفقون أوقاتهم في انتظار الخروج الدموي التالي. سحبت الببغاوات الزعفرانية مناقيرها وآبت إلى الخضرة، تتخفّى وسط أغصان شجر التين التي غابت عنها النسور بيضاء الظهور والعصافير. وتناقصت زيارات الرجال المسربلين

والنساء المتعريات. وذاكر ميان، المسربل تمامًا، هو الوحيد الذي لم ينصرف. ولكنه بمرور الوقت، عدل عن اتّباعها أينما تكون، وصار يصحبها، رفيقًا دائمًا لكنه غير مزعج.

عادت أنجم تتجمّل من جديد. صبغت شعرها بالحنّاء، فبات لونه برتقاليًا متوهجًا. أزالت شعر وجهها، وخلعت سنها المخلخلة واستبدلت بها أخرى صناعية. فباتت تظهر الآن سِنٌّ ناصعة البياض لامعة كالناب وسط قواعد داكنة الحمرة تنوب عن الأسنان. وبالإجمال بدا الترتيب الجديد أقلّ قليلاً في إفزاعه من السابق. فقد بقيت ترتدي البذلات البتهانية لكنها صارت ذات ألوان أرقّ، فهي زرقاء فاتحة ووردية، تماشت مع طرحها الدوباتا القديمة المشجّرة المزينة بالترتر. وازداد وزنها قليلاً فملأت ثيابها الجديدة على نحو جذاب ومريح.

لكن أنجم لم تنس قط أنها لم تكن أكثر من تميمة حظ الجزارين. وطوال ما بقي من حياتها، كانت علاقتها مضطربة طائشة بـ"الباقي من حياتها"، حتى حينما كان يبدو الأمر مناقضًا لذلك.

وفيما تضاءل حصن الأسى، تعاظمت سقيفة أنجم الصفيح. كبرت أول ما كبرت فصارت تتسع لسرير صغير، ثم صارت بيتًا صغيرًا فيه مطبخ صغير. ولكي لا تلفت ما لا داعي له من الأنظار، تركت الجدران الخارجية غير مكتملة بملاط، لكنها طلتها من الداخل بالفوشيا غير المعتاد في طلاء الجدران. وضعت سقفًا من الحجر الرملي على دعائم حديدية، فصارت لديها شرفة تضع فيها كرسيًا بلاستيكيًا في

الشتاء لتجلس فتجفف شعرها وتعرض للشمس ربلتيها المشققتين المقشورتين وهي مشرفة على عالم الموتى. أما عن أبوابها وشبابيكها فاختارت لها اللون الفزدقي الفاتح. وبدأت الفأرة تزورها من جديد وقد مضت الآن في طريقها إلى أن تكون سيدة شابة. ودائمًا كانت تحضر مع سعيدة، ولم يحدث أن باتت الليل عندها قط، وأنجم من جانبها لم تكن تطلب ذلك أو تلحّ عليه، بل ولم تكن تسمح لمشاعرها بالظهور. لكن ألم ذلك الجرح بالذات لم يمت، ولم يتضاءل، ففي هذا الأمر دون غيره استعصى قلبها تمامًا على الشفاء.

وكلُّ بضعة أشهر قليلة كانت البلدية تلصق على باب أنجم الأمامي إشعارًا بأنه ممنوع منعًا باتًا إقامة واضعي الأيدي في المقابر وأن أي بناء دون ترخيص سوف يُهدَم في غضون أسبوع. فكانت تخبرهم بأنها لا تعيش في المقابر، بل تموت فيها، فلا داعي لتصريح من البلدية بما أن لديها تصريحًا من الله شخصيًا.

ولم يكن من مسؤولي البلدية الذين تردّدوا عليها رجل حقيقي فيمضي في الأمر قُدُمًا ويخاطر بإحراج نفسه وجعلها عرضة لقدرات أنجم الأسطورية. كما أنهم كانوا، شأن غيرهم من الناس، يخشون أن تحلّ عليهم لعنة الهيجرا. فآثروا جميعًا المداهنة والابتزاز التافه، قانعين بمبلغ غير تافه تمامًا يحصلون عليه، فضلاً عن الوجبة غير النباتية كل خريف في مهرجان الأنوار المعروف بالديوالي، وفي العيد، مهدّدين بأن أي توسعة للبيت سوف تعني زيادة للمبلغ تتناسب مع نسبة التوسع نفسها.

وبمرور الزمن بدأت أنجم تحيط مقابر أقاربها وتقيم حولها غرفًا، فكان في كل غرفة قبر (أو اثنان) وسرير، أو اثنان. كما أقامت حمامًا منفصلاً ومرحاضًا له مصرفه الخاص. واستعانت على الماء بالمضخة العمومية. ولمّا كان الإمام ضياء الدين يلقى معاملة سيئة من ولده وكنّته، فسرعان ما بات نزيلاً دائمًا. فلم يعد يرجع إلى بيته إلا لمامًا. وبدأت أنجم تؤجر غرفتين لفقراء المسافرين (ولم يُعرف ذلك الأمر إلا بانتقال الخبر من شخص لشخص). وبالقطع لم يكن يأتي إليها كثير من المستأجرين، لأن المنظر والإطلالة، ناهيكم عن المالكة نفسها، لم تكن لتلائم ذوق الجميع. ولا يجب أن نُغفل أيضًا أنه لم يكن جميع المستأجرين يروقون لذوق المالكة. فقد كانت أنجم هوائية للغاية وبعيدة كل البعد عن العقلانية في اختيار المستأجرين أو طردهم في أكثر الحالات بلا إنذار وبوقاحة قصوى منافية للمنطق وتشارف على الإيذاء (**من بعثك إلى هنا؟ روح انكح نفسك في مؤخرتك**)، وفي بعض الحالات كان تفعل ذلك بزئير همجي غريب.

ميزة نزل ضيوف المقابر ذلك أنه كان -خلافًا لأي حيٍّ في المدينة ودون استثناء أرقى الأحياء- لا يتعرض لانقطاع الكهرباء، حتى في الصيف. وذلك لأن أنجم كانت تسرق الكهرباء من المشرحة التي تحتاج إلى تبريد على مدار الساعة (فكان فقراء المدينة الراقدون فيها ينعمون في موتهم بروعة الهواء المكيف الذي لم يعرفوا له مثيلاً في حياتهم). أطلقت أنجم على نزلها الضيافي اسم جنّة. وكانت تُبقي التليفزيون مفتوحًا فيه ليل نهار، وتقول إنها تحتاج إلى الضوضاء لكي تزن عقلها. صارت

تحرص على متابعة الأخبار حتى صارت داهية في التحليل السياسي. كما كانت تتابع المسلسلات الهندية وقنوات الأفلام الإنجليزية، ولكنها كانت تجد أكبر المتعة في أفلام مصاصي الدماء البوليودية من الدرجة الثانية فتعيد مشاهدتها المرة تلو المرة دونما ملل. وبالطبع لم تكن تفهم الحوار، لكنها لم تكن بحاجة إلى ذلك لكونها تفهم بدرجة معقولة جدًا مصاصي الدماء أنفسهم.

وشيئًا فشيئًا أصبح نزل جنة للضيافة مركزًا للهيجرات، من خرج منهن أو طرد لسبب أو لآخر من شبكة جهرانات الهيجرات ذات الإدارات المتشددة. وذاع خبر نزل المقبرة الجديد، فعاود أصدقاء الماضي الظهور، وأبرز أولئك نِمّو الجوركهبورية. حينما التقتا للمرة الأولى، تعانقت هي وأنجم وانطلقتا تبكيان بكاء حبيبين باعدت بينهما الأقدار وطال عليهما الفراق. صارت نِمّو تتردَّد على النزل بانتظام، فتقضي في أكثر الأحيان يومين أو ثلاثة مع أنجم. كانت قد صارت شخصية لامعة، عظيمة، مزيّنة بالجواهر، مضمَّخة بالعطور، كاملة الزينة. وكانت لديها سيارتها الخاصة، ماروتي ٨٠٠، تأتي بها من ميوات التي تمتلك فيها شقتين ومزرعة وتقع على بعد ساعتين بالسيارة من دلهي. كانت قد أصبحت تاجرة ماعز، تبيع التيوس الجميلة بأثمان باهظة لأثرياء المسلمين في دلهي وبومباي لينحروها في عيد الأضحى، وكانت تضحك ملء شدقيها وهي تحكي لصديقتها حيل التجارة وتصف طرق الاحتيال لتسمين الماعز بين عشية وضحاها وسياسات تسعيرها في سوق ما قبل العيد. قالت إن تجارتها سوف تنتقل إلى الإنترنت اعتبارًا من

السنة التالية. ووافقت أنجم إكرامًا للأيام الخوالي على أن يحتفلا بعيد الأضحى التالي معًا في المقابر بذبح أفضل التيوس في حظائر نِمّو. عرضت على أنجم صور الماعز في هاتفها المحمول الأنيق الجديد. كانت مفتونة بالماعز مثلما كانت من قبل مفتونة بالموضة النسائية الغربية. علّمت أنجم كيف تفرق الجمنبري من البربري والإيتاوا من السوجات. ثم أرتها إحدى رسائل الوسائط المتعددة وفيها ديك بدا أنه يقول "يا الله" كلما خفق بجناحيه، فذهلت أنجم. حتى الديك البسيط يعلم! ومنذ ذلك اليوم تعمّق إيمانها.

وبرًا بوعدها، أهدت نِمّو الجوركهبورية لأنجم كبشًا صغيرًا ذا قرون إنجيلية معقوفة قالت نِمّو إنه من نفس عينة الكبش الذي ضحى به حضرة إبراهيم على الجبل بدلاً من ولده الوحيد إسماعيل، باستثناء أن كبشهما كان أبيض. خصصت أنجم للكبش غرفة خاصة (بمقبرة خاصة) ورعته بمحبة. حاولت أن تحبه بقدر ما أحب إبراهيم إسماعيل. فالحب، وحده، هو الذي يميز التضحية عن الجزارة اليومية المعهودة. حاكت له لفاحًا لامعًا وعلّقت في كواحله أجراسًا، فبادلها حبًا بحب، وصار يتبعها أينما ذهبت. (وكانت تحرص أن تنزع عنه أجراسه وتخفيه عن زينب في زياراتها وقد عرفت ما الذي قد ينتهي إليه لولا ذلك). ولمّا حان العيد في ذلك العام، صارت المدينة تغصُّ بالجِمال الشائخة باهتة الوشوم، وبالجاموس، وتيوس في ضخامة الخيول، تنتظر جميعًا الذبح. وكان كبش أنجم قد اكتمل بنيانًا، فبات ارتفاعه يناهز أربعة أقدام من

لحم طيب وعضل متين، وعينين صفراوين مائلتين، حتى صار الناس يفدون على المقابر لمجرد أن يروه.

وحجزت أنجم موعدًا مع عمران قريشي، النجم الصاعد في فرقة جديدة من شباب الجزارين في شاه جهان آباد ليوم الأضحية. كانت لديه مواعيد عديدة فقال إنه لن يستطيع الحضور قبل آخر العصر. ولما كان فجر يوم عيد الأضحى، علمت أنجم أنها لو لم تذهب إلى المدينة القديمة وتحضره بنفسها، فسوف يتخاطفه المتطفلون على موعدها. لبست بذلة بنهانية رجالية مكوية ونظيفة، وقضت الصباح كله تتعقب عمران من بيت إلى بيت، ومن منعطف شارع إلى منعطف شارع، وهو ينتقل من عمل إلى عمل. وكان آخر مواعيده مع سياسي، عضو سابق في الجمعية التشريعية، خسر في الانتخابات السابقة بفارق فضائحي في الأصوات. ولكي يخفّف من عظم الهزيمة ويُظهر لدائرته أنه لا يزال يستعد للجولة التالية، قرر أن يقوم بعمل مبهر يستعرض به تقواه. فسيقت جاموسة بدينة ملساء يلمع جلدها بالزيت عبر الشوارع الضيقة التي امتلأت تمامًا بالجاموسة حتى وصلت إلى تقاطع فيه فسحة قليلة للمناورة. وهناك أوقفوها بصورة قطرية، وقيّدوها إلى عمود النور، وقد وثّقوا قدميها الأماميتين، فملأت التقاطع المزعوم تمامًا. وازدحم الناس في إثارة كبيرة، وقد لبسوا ثيابهم الجديدة، ووقفوا في مداخل البيوت وشبابيكها وشرفاتها الصغيرة يشاهدون عمران يذبح الأضحية. ووصل عمران، فشقَّ طريقه وسط الزحام، نحيلاً، هادئًا، متواضعًا. ولمّا تعالت همهمة المزدحمين جفل جلد الجاموسة ودارت عيناها في محجريهما. وبدأ رأسها

الضخم بقرنيه الملتويين إلى الخلف في قوس كبير يتمايل إلى الوراء وإلى الأمام كأنما أخذتها الجلالة في حفل موسيقى كلاسيكي. وبحركة جودو رشيقة أوقع عمران ومساعده الجاموسة على جنبها، فلم تمض لحظة إلا وقد نحر عنقها وانزاح من مسار نافورة الدم التي انطلقت في الهواء بإيقاع قلبها إذ يتوانى خفقانه. تناثر الدم حتى أغرق أبواب المحلات، ووجوه الساسة المبتسمة في الملصقات المهترئة على الجدران، وفاض في الشارع محاذيًا الدراجات النارية والسكوترز والريكاشات والدراجات المركونة. صرخت البنات الصغيرات ذوات النعال المطرزة وتنحين عن مسار الدم، وتظاهر الصبية أنهم لا يكترثون وأكثرهم شقاوة بلّلوا نعال أحذيتهم في برك الدم وأخذوا يطبعونها معجبين بأشكالها. ومرّ بعض الوقت قبل أن تنزف الجاموسة حتى الموت، فلمّا ماتت، شقّها عمران وطرح في الشارع أعضاءها، القلب والطحال والمعدة والكبد والأمعاء، وكان الشارع منحدرًا، فأخذت الأعضاء تنزلق انزلاق قوارب عجيبة الأشكال في نهر من الدم، ولم ينقذها إلا صبي عمران إذ التقطها ووضعها على قطعة أكثر استواء من أرض الشارع، وكان أمر السلخ والتقطيع يوكل إلى فريق مساعد، فمسح النجم ساطوره بقماشة، واستعرض جمهوره، فرأى بينهم أنجم وأومأ لها إيماءة غير ملحوظة، وانسلّ وسط الزحام مبتعدًا. لحقت به أنجم عند ساحة السوق التالية. كانت الشوارع مزدحمة، وجلود التيوس وقرون التيوس وجماجم التيوس وأمخاخ التيوس وفضلات التيوس تُجمَع وتقسَّم وتكدَّس، ويُفصَل الروث عن المصارين التي تؤخذ بعد ذلك لتُغسَل كما ينبغي

وئسلَق في الصابون والغراء، بينما تفر القطط بغنائمها مبتهجة، فلا يضيع أي شيء هدرًا.

سار عمران وأنجم حتى بوابة التركمان، ومن هناك أقلتهما ريكاشة بمحرّك إلى المقابر.

رفعت أنجم، فهي رجل البيت مؤقتًا، سكّينًا على كبشها الحبيب وتلت دعاءً، ونحر عمران عنقه، وظلّ يشُبّه وهو يرتعش والدم يتدفق منه، ولم تمض عشرون دقيقة إلا والكبش مسلوخ، ومقطّع إلى قطع معقولة، وعمران قد ذهب. قسّمت أنجم الضأن قطعًا صغيرة لتوزّع الأضحية حسب المكتوب: فثلث للأهل، وثلث للجيران والأحباب، وثلث للفقراء. كان روشان لال قد وصل في صباح ذلك اليوم ليهنئها بالعيد فأعطته اللسان وقطعة من الفخذ في كيس بلاستيكي. وادّخرت أفضل القطع لزينب التي كانت قد بلغت الثانية عشرة قبل فترة وجيزة، ولأستاذ حميد.

أكل المدمنون وشبعوا في تلك الليلة. وجلست أنجم ونِمّو الجوركهبورية والإمام ضياء الدين في الشرفة يأكلون وليمة من ثلاثة أطباق مختلفة من الضأن وجبل من رز البرياني. أهدت نِمّو لأنجم هاتفًا محمولاً عليه رسالة الديك. فعانقتها أنجم وقالت لها إنها الآن تشعر أن لديها خطًا مباشرًا مع الله. شاهدتا الرسالة المصورة بضع مرات أخرى. ووصفتا الفيديو بالتفصيل للإمام ضياء الدين الذي كان ينصت إليهما بعينيه وإن لم يُبدِ مثل حماسهما لقيمتها كدليل. ثم وضعت أنجم هاتفها

الجديد في أمان صدرها. فلم يضِعْ هذا منها. وفي غضون أسابيع قليلة حصل دي دي جُبنا على رقمها الجديد ـمن خلال المساعي الحميدة لسائقه الذي كان لا يزال يجلب رسائل رئيسه إلى أنجم. وعاد يتواصل معها من العراق الذي يبدو أنه قرَّر الإقامة فيه.

في الصباح التالي لعيد الأضحى، وصل إلى نزل جنة ثاني سكانه الدائمين، شاب يطلق على نفسه اسم صدام حسين. كانت أنجم تعرفه منذ أن كان صبيًّا، وتحبه كثيرًا، فعرضت عليه غرفة بأقل سعر ممكن، أقل مما كانت لتكلفه أي غرفة يستأجرها في المدينة القديمة.

حينما التقت أنجم بصدام للمرة الأولى كان يعمل في المشرحة، واحدًا من قرابة عشرة شبان مهمتهم التعامل مع الجثث. فالأطباء الهندوس المكلفون بإجراء التشريح كانوا يرون أنهم من طبقة أعلى ولا يقبلون أن يمسوا الجثث خشية أن تلوث طهرهم. فكان الرجال الذين يتعاملون حقًّا مع الجثث ويجرون التشريح هم المعيَّنين للتنظيف المنتمين إلى طبقة الكناسين وعمال الجلود الذين كانوا معروفين بالتشمار.[١٦] وكان الأطباء، شأن غالبية الهندوس، يتعالون عليهم ويعدونهم منبوذين يُحظر لمسهم. فكان الأطباء يقفون عن بعد وقد وضعوا مناديلهم على أنوفهم ويصيحون مصدرين التعليمات للفريق بمواضع الشق وعما ينبغي

---

١٦ Chamars: من طوائف المنبوذين أو الداليت Dalits المصنفين حاليًا ضمن الطبقة المُجدولة الخاضعة حاليًا لحماية الحكومة.

عمله في الأحشاء والأعضاء. وكان صدام هو المسلم الوحيد بين أولئك العمال الموظفين في المشرحة. ومثلهم صار هو الآخر أشبه بجرّاح هاو.

كانت لصدام ابتسامة خافتة ورموش كأنها تأسّست في الجيم. وكان دائما يحيّي أنجم بمحبة ويؤدي لها بعض المهام، فيشتري لها البيض والسجائر (ولم تكن تأتمن غيره على شراء الخضراوات لها) أو يحضر إليها دلو ماء من المضخة في الأيام التي يؤلمها فيها ظهرها. وبين الحين والآخر حين لا يكون العمل كثيفًا في المشرحة (وذلك عادة في الفترة من سبتمبر إلى نوفمبر حين لا يموت الناس في الشوارع موت الذباب بسبب الحر أو البرد أو حمى الضنك)، كان صدام يمرُّ بأنجم فتعد له الشاي ويتقاسمان سيجارة. وذات يوم اختفى بدون أن يترك خبرًا. فلمّا سألت عنه زملاءه قالوا لها إن شجارًا نشب بينه وبين الأطباء ففصلوه. ولّما عاد إلى الظهور في صباح غداة العيد، بعد سنة كاملة، بدا على شيء من النحول والإنهاك وبرفقته فرس في مثل نحوله وإنهاكه قال إن اسمها بايال. كان يرتدي لباسًا أنيقًا: بنطالاً من الجينز وتي شيرت أحمر مكتوب عليه بالإنجليزية عندك أم عندي؟ وكان يحتفظ بنظارته الشمسية حتى وهو بالداخل. ابتسم لأنجم حينما سخرت من ذلك وقال إنه ما من علاقة للنظارة بالتأنق. وحكى لها قصة غريبة عن عينيه اللتين أحرقتهما شجرة.

قال صدام إنه ظلّ بعد فصله من المشرحة يتنقّل من وظيفة إلى وظيفة. عمل صبيًا في متجر، ومحصّل تذاكر في أتوبيس، وبائع جرائد في محطة سكك حديد نيودلهي، وأخيرًا، وبعد يأس، عمل في موقع

بناء. وأصبح أحد أفراد أمن الموقع صديقًا له فاصطحبه لمقابلة رئيسته مدام سَنجيتا على أمل أن تلحقه بوظيفة. وكانت مدام سَنجيتا أرملة ممتلئة الجسم، مرحة، ولكنها ـبعيدًا عن طبيعتها المرحة ومحبتها الجارفة لأغنيات بوليوودـ مديرة عمال قاسية القلب تسيطر شركتها "شركة الأمن والأمان لخدمات الحراسة" على كيان مؤلف من خمسمئة فرد أمن. وكان مكتبها يقع في قبو مصنع زجاجات داخل الحزام الصناعي الذي نشأ في ضواحي دلهي. كان الرجال في شركتها يعملون اثنتي عشرة ساعة في اليوم، لستة أيام في الأسبوع. وكانت عمولة مدام سَنجيتا هي ستين في المئة من رواتبهم، فلا يبقى لهم إلا ما يكفي طعامهم وسقفًا فوق رؤوسهم. ومع ذلك كانوا يتوافدون عليها بالآلاف، من الجنود المتقاعدين والعمال المفصولين، ومِلء قطارات من القرويين اليائسين الواصلين توًا إلى المدينة، والمتعلمين، والأميين، والآكلين، والجائعين. قال صدام لأنجم إن "شركات أمن كثيرة جدًا تقع مقارُها بجوار بعضها بعضًا، فيكون مشهد هائل حينما نذهب في أول كلّ شهر لقبض رواتبنا، آلاف مؤلفة.. تشعرين أن في هذه المدينة ثلاثة أنواع من البشر، أفراد أمن، وأفراد بحاجة إلى أفراد أمن، ولصوص".

كانت مدام سنجيتا تُعدُ من أفضل دافعي الأجور، فكانت تنتقي من الرجال، ولا تعيّن منهم إلا الأقل نسبيًا في المعاناة من سوء التغذية، فتدرّبهم على الأساسيات لمدة نصف يوم، تعلّمهم فيها كيف يقفون منتصبي القامات، وكيف يؤدّون التحية، وكيف يقولون "نعم يا سيدي" و"لا يا سيدي" و"صباح الخير يا سيدي" و"تصبح على خير يا سيدي"،

وتزود الواحد منهم بقبعة وربطة عنق ذات عقدة ثابتة في أنشوطة مطاطية، وطاقمين من الزي الموحد المغزول على كتفيه اسم الشركة مختصرًا (وكان عليهم أن يدفعوا مبلغ تأمين يفوق ثمن طاقمي الزي تحسبًا لهربهم دون إعادتهما). ونشرت جيشها الصغير في المدينة. كانوا يحرسون البيوت والمدارس والمزارع والبنوك وآلات الصرف الآلي والمتاجر والمراكز التجارية وقاعات السينما وبوابات المجمعات السكنية والفنادق والمطاعم والسفارات والمفوضيات العليا للدول الفقيرة. قال صدام لمدام سنجيتا إن اسمه دياتشند (لأن أي أحمق كان يعلم أن من التناقض في ظل المناخ السائد أن يكون شخص ما فرد أمن ويحمل اسمَ مسلمٍ في الآن نفسه). ولما كان يجيد القراءة والكتابة، وشكله مقبولاً، وصحته جيدة، فقد حصل على الوظيفة بسهولة. وقالت له مدام سنجيتا في يومه الأول وهي تنظر إليه في إعجاب من رأسه حتى أخمص قدميه "ستكون عيني عليك. لو أثبتَّ نفسك، سأجعل منك مشرفًا في غضون ثلاثة أشهر". وبعثته ضمن فريق من اثني عشر شخصًا إلى القاعة الوطنية للفن الحديث التي كانت تستضيف معرضًا منفردًا لأحد أشهر فناني الهند المعاصرين، وهو رجل من بلدة صغيرة حقَّق نجومية عالمية. وكانت مهمة تأمين المعرض قد أوكلت من الباطن إلى شركة الأمن والأمان.

كانت المعروضات عبارة عن أدوات يومية مصنوعة من الحديد الصلب. فهي صهاريج حديدية، دراجات نارية حديدية، وموازين حديدية في إحدى كفاتها ثمار حديدية وفي الأخرى أثقال حديدية وخزائن حديدية مليئة بثياب حديدية، ومائدة طعام حديدية عليها

أطباق حديدية وطعام حديدي وسيارة أجرة حديدية فيها أمتعة حديدية على شبكة أمتعة حديدية، وكل ذلك كان استثنائي الدقة، معروضًا في إضاءة جيدة في غرف كثيرة من القاعة، وكل قاعة كان عليها حارسان من حرس شركة الأمن والأمان. قال صدام إن أرخص تلك المعروضات كان بثمن شقة من غرفتين وصالة من شقق الفاء ميم دال (فئة محدودي الدخل). فتصبح المعروضات مجتمعة، وفقًا لحسبته، بمثل ثمن مجمع سكني كامل. وكانت مجلة **الفن أولاً** المتخصصة في شؤون الفن المعاصر المملوكة لأحد أقطاب صناعة الصلب هي راعية المعرض.

كان من نصيب صدام (دياتشند) أن يحرس منفردًا المعروض الرئيسي، وهو عبارة عن شجرة تين من الحديد الصلب، قد يكون حجمها نصف الحجم الحقيقي، لكنها بديعة الإتقان، تكاد تدبُّ فيها الحياة، بجذور سطحية من الحديد الصلب ممتدة حتى الأرض صانعة أجمة من الحديد. كانت الشجرة قد جاءت في صندوق خشبي هائل مشحونة من قاعة عرض في نيويورك، ورآها صدام وهي تُستخرج من صندوقها وتوضع على العشب في فناء القاعة الوطنية مثبتة بأوتاد تحت الأرض. وكان مُعلّقًا إلى أغصانها دلاءٌ من الحديد الصلب، وأعمدة طعام من الحديد الصلب وآنية وطاسات من الحديد الصلب (وكأنما علّق عمال حديديون عليها وجبات غدائهم الحديدية بينما يحرثون حقولاً حديدية أو يبذرون بذورًا حديدية).

قال صدام لأنجم "هذا الجزء لم أفهمه".

فسألته أنجم ضاحكة "كأنك فهمت الباقي؟"

كان الفنان المقيم في برلين قد بعث تعليمات صارمة بعدم إقامة سياج وقائي أو حاجز من أي نوع حول الشجرة، فقد كان حريصًا على أن يتواصل المشاهدون مع العمل تواصلاً مباشرًا دون أي عائق. كان مسموحًا للمشاهدين بلمسها والتجول وسط أجمة الجذور إن شاؤوا. وقال صدام إن أغلبهم كانوا يريدون ذلك ويفعلونه إلا حينما كانت الشمس ترتفع وتشتدّ فيلتهب الحديد ويستعصي لسخونته على اللمس. كانت مهمة صدام أن يحرص على ألا يحفر أحد اسمه على الشجرة أو يخدشها أو يلحق بها أي أذى. وكانت مسؤوليته أيضًا أن يحافظ على نظافة الشجرة ويزيل بصمات مئات الأيدي التي تمسها. ومن أجل تلك المهمة أعطوه سلمًا مُصمَّمًا لها خصيصًا، وعلبًا من زيت جونسن للأطفال وقطع قماش ليِّن من سوارٍ قديمة. فبدت له الطريقة مستحيلة، لكنها نجحت. ولم يكن تنظيف الشجرة المشكلة. ولكن المشكلة كما قال هي أن يبقي عينيه مفتوحتين عندما تنعكس عليها الشمس. كان ذلك أشبه بأن يؤمر شخص بفتح عينيه على الشمس نفسها. بعد أول يومين طلب صدام من مدام سنجيتا أن تسمح له بارتداء نظارة شمسية، فرفضت طلبه، وقالت إن منظره سوف يبدو غير لائق وإن إدارة المتحف سوف تستاء من ذلك. فاتَّبع صدام تكنيكًا آخر، وهو أن ينظر إلى الشجرة لدقيقتين ثم يبعد عنها عينيه. فلما مرَّت سبعة اسابيع وأعيد وضع الشجرة في صندوقها لتشحن إلى أمستردام للمشاركة في المعرض التالي للفنان، كانت عينا صدام قد احترقتا جزئيًا.

وصارتا دامعتين ملتهبتين طول الوقت، فاستحال عليه أن يبقيهما مفتوحتين في ضوء النهار ما لم يكن مرتديًا نظارة شمسية. وفُصل من شركة الأمن والأمان للحراسة، فما كان أحدٌ ليريد لفرد أمن عادي أن يكون له مظهر حارس خاص في فيلم بوليودي. وقالت له مدام سنجيتا إنه خيَّب رجاءها أشد الخيبة وخذل توقعاتها أكبر الخذلان، فما كان منه إلا أن أسمعها من السباب ما لم تسمع مثله من قبل، فرُمي رميًا خارج مكتبها.

ضحكت أنجم ملء شدقيها حين سمعت السباب الذي قاله لها، وأعطته غرفة كانت قد أقامتها حول مقبرة أختها بيي عائشة.

أقام صدام إصطبلاً مؤقتا لبايال بجوار الحمام صارت تقف فيه طيلة الليل، تحمحم أو تتنفس بصوت مسموع، فرسًا ليلية شاحبة في المقابر. وفي النهار تتحول إلى شريك لصدام في العمل. فكان صدام وهي يذهبان في جولات على المستشفيات الكبيرة في المدينة. فيتوقف قرب بوابة المستشفى وينهمك في إصلاح حافر من حوافرها، يدقّه في قلق بمطرقة صغيرة، متظاهرًا أنه يعيد تركيب حدوته، وبايال تجاريه في التمثيلية، وحينما يقترب من صدام أقارب المرضى ذوي الحالات الخطيرة، وهم على ما يكونون فيه من قلق، يوافق على مضض أن ينفصل عن حدوة فرسه القديمة ويتركها لهم لتجلب لهم بعض الحظ الطيب. مقابل ثمن. كما كان لديه مخزون من الأدوية ـمما يشيع وصفه من مضادات حيوية، وعقار كروسين، وأدوية سعال ومجموعة من العلاجات العشبيةـ يبيعها لمن يتوافدون على المستشفيات الحكومية من القرى المحيطة بدلهي، وكان

أغلبهم يقيمون خيامًا في أرض المستشفى أو في الشوارع القريبة وقد بلغوا من الفقر أنهم لا يستطيعون تدبُّر سكن في المدينة من أي نوع. وفي الليل يمتطي صدام بايال راجعًا إلى البيت عبر الشوارع الخاوية كأنه أمير. وكان لديه في غرفته جوال مليء بحدوات الخيول، أعطى أنجم إحداها لتعلّقها على جدارها قرب نبلتها القديمة. كما كانت لصدام أنواع أخرى من الشغل، إذ كان يبيع أكل الحمام في مواضع معينة بالمدينة يتوقف فيها قادة الدراجات النارية راغبين في بركة سريعة ينالونها بإطعامهم مخلوقات الرب. كان صدام في غير أيام المستشفى يتوجه إلى هذه المواضع ومعه أكياس من الحبوب ومخزون من العملات الصغيرة. ولا يكاد قائد الدراجة النارية يمضي مسرعًا حتى يعمد في أكثر الأحيان إلى تكدير الحمام بأن يكنس الحبوب وينقيها ويردها إلى الكيس متهيئًا للزبون التالي. وكان كل ذلك الاستغلال للحمام ولأقارب المرضى عملاً مضنيًا، لا سيما في الصيف، ودخله لم يكن مضمونًا. ولكنه جميعا لم يكن يرغمه على التعامل مع رئيس، وكان هذا أهم شيء.

لم يمضِ وقت يُذكر على انتقال صدام إلى جنة حتى بدأ هو وأنجم بمشاركة من الإمام ضياء الدين مشروعًا آخر. بدأ ذلك بالصدفة ثم تطور من تلقاء نفسه. ففي أصيل أحد الأيام، جاء إلى المقابر أنور باهي، وهو صاحب ماخور قريب في طريق جي بي،[17] ومعه جثة بنت شابة من بناته ماتت فجأة بانفجار الزائدة الدودية. جاء وبصحبته ثماني نساء

---

[17] شارع الدعارة في دلهي الجديدة.

مبرقعات، ومن ورائهن ولد في الثالثة من العمر هو ابن أنور بهابي من إحداهن. كانوا جميعًا حزانى وغاضبين، لا لموت روبينه وحده، بل لأن جسمها خرج إليهم من المستشفى بغير العينين. قالوا في المستشفى إن الجرذان وصلت إليهما في المشرحة. ولكن أنور بهابي وزميلات روبينه كانوا يعتقدون أن شخصًا ما سرق عيني روبينه مُستبعدًا على شرذمة من العاهرات وقوادهن أن يبلغوا عنه الشرطة. وكما لو أن ذلك لم يكن كافيًا، فلم يستطع أنور بهابي بسبب العنوان المسجَّل في شهادة الوفاة (وهو طريق جي بي) أن يجد حمَّامًا يقبل تغسيل جسم روبينه، أو مقبرة لدفنها، أو إمامًا للصلاة عليها.

قال لهم صدام إنهم جاءوا إلى المكان الصحيح. وطلب منهم الجلوس وجاءهم بشراب بارد ثم ذهب فأقام وراء نزل الضيافة سياجًا بأربعة من عيدان البامبو غرسها في الأرض وأحاطها ببعض طُرَح أنجم القديمة، وبداخلها جاء بلوح من خشب الأبلكاش فرفعه على قليل من الطوب، وفرش عليه مفرشًا من البلاستيك وطلب من النساء أن يضعن عليه جثمان روبينه. وجاء هو وأنور بهابي بالماء من المضخة في دلوين وبضع علب طلاء قديمة وأفرغوها بسرعة في حوض الاستحمام المرتجل. كانت الجثة قد تخشَّبت بالفعل، فلزم قطع ثياب روبينه (ومن أجل ذلك أبرز صدام نصل موسى). وفي محبة أحاطت النسوة جسمها كأنهن سرب غربان، ومضين يغسلنها، داعكين بالصابون رقبتها، وأذنيها، وأصابع قدميها. وبمثل تلك المحبة كان انتباههنَ لكي لا تنزلق أيٌّ منهن فتسلب روبينه سوارها أو خاتم قدمها أو قرطها الجميل (فالجواهر جميعًا، ما كان

منها أصيلاً أو زائفًا، لا بد أن تُسلِّم لأنور بهابي). قالت ميهرونيسا إن الماء أبرد مما ينبغي. وأصرّت زليخة أن روبينه فتحت عينيها وأغمضتهما ثانية (وأن بريقًا من نور الجنة سطع من موضع العينين). وزينَت ذهبت لشراء الكفن. وبينما كان يجري تجهيز روبينه لرحلتها الأخيرة، كان ولد أنور بهابي الصغير، بعفريتة من الجينز وطاقية الصلاة، يسير جيئة وذهابًا في مشية عسكرية كأنه من حرس الكريملين، مستعرضًا نعل كروكس (المُقلّد) البنفسجي المزين بالزهور. كما كان يصدر جلبة صاخبة بمضغه مقرمشات كيركيور من كيس أعطته إياه أنجم. وبين الحين والآخر كان يتلصّص على السياج ليرى ما الذي تفعله أمه وخالاته (اللاتي لم يرهنّ مبرقعات طوال حياته القصيرة).

ولما غُسل الجسد، وجُفّف، وعُطّر، ولُفَّ في كفنه، كان صدام قد انتهى بمعاونة اثنين من المدمنين من حفر مقبرة عميقة لائقة. فأدى الإمام ضياء الدين الصلاة ودفن جسد روبينه. وفي ارتياح وامتنان، دسّ أنور بهابي خمسمئة روبية في يد أنجم. فرفضتها. ورفضها صدام أيضًا. ولكنه لم يكن بالذي يضيّع فرصة عمل.

في غضون أسبوع بدأ نزل جنة للضيافة يعمل كدار جنائزية، فيها حمام لائق ذو سقف من الإسبستوس، ومنضدة إسمنتية توضع عليها الجثث، ولم يكن من نقص مطلقًا في القبور والأكفان وصلصال مولتاني المعطر (الذي كان أغلب الناس يفضلونه على الصابون) والمياه في الدلاء. بل وكان في المكان إمام مقيم مستعد للعمل ليل نهار. وكانت

القواعد بالنسبة للموتى (كما للأحياء في نزل الضيافة) مكتومة غير معلنة، فإما ابتسامة ترحيب دافئة، أو زمجرة رفض غير مفهومة، بحسب معيار لم يعرفه أحد قط. لم يكن من معيار واضح إلا أن جنة للخدمات الجنائزية لا تقبل إلا دفن من أغلقت في وجوههم أبواب مقابر الدنيا وأعرض عنهم أئمتها. كان بعض الأيام يمر بغير جنازات، وبعضها يزدحم بالموتى. وكان رقمهم الأكبر هو خمسة في يوم واحد. بل لقد حدث في بعض الأحيان أن جاءت الشرطة ـوهي أيضًا جهة لا تقل قواعدها شذوذًا عن قواعد أنجمـ ببعض الجثث.

عندما ماتت أستاذة كلثوم بي وهي نائمة دُفنت في جنازة مهيبة في خانقاه الهيجرات بحي ميهراولي. أما بومبي سيلك فدُفنت في مقبرة أنجم. وكذلك هيجرات كثيرات من شتى أرجاء دلهي.

(وبتلك الطريقة وجد الإمام ضياء الدين أخيرًا إجابة لسؤاله: أخبرني، أمثالكم من الناس حينما تموتون، أين يدفنونكم؟ من يغسل الجثامين؟ من يتلو الصلوات؟)

شيئًا فشيئًا أصبح نزل جنة للضيافة والخدمات الجنائزية جزءًا أصيلاً من المشهد، فلم يعد أحد يتساءل عن منشئه أو حقه في الوجود. كان موجودًا وحسب. موجودًا وهذا هو الوضع. ولما ماتت الست جهان آرا عن سبعة وثمانين عامًا، صلى عليها الإمام ضياء الدين. ودُفنت بجوار ملاقات علي. ودفنت بسم الله حينما ماتت في مقبرة أنجم أيضًا. وكذلك تيس زينب الذي كان جديرًا بدخول موسوعة جينيس للأرقام القياسية

لتحقيقه رقمًا قياسيًا في النجاة من النحر (وهو أمر عظيم لتيس)، إذ مات لأسباب طبيعية (إثر إصابته بالمغص) بعدما نجا من ستة عشر عيد أضحى في شاه جهان آباد. ولكن الفضل في مساره ذلك لا يرجع إليه بالطبع، بل إلى سيدته الضارية الصغيرة. لولا أن موسوعة جينيس تخلو طبعًا من فئة مناسبة لذلك.

برغم أن أنجم وصدام كانا يعيشان في بيت واحد (ومقبرة واحدة) فقد كانا نادرًا ما يقضيان وقتهما معًا. فأنجم كان يطيب لها التراخي، بينما صدام موزَّع على مشاريعه الكثيرة (حتى بعدما باع عمله في إطعام الحمام لكونه الأقل إدرارًا للربح) فلم يكن لديه وقت يضيِّعه، وكان يكره مشاهدة التليفزيون. وفي صباح استثنائي من الفراغ القسري، جلست أنجم وإياه على أريكة حمراء -كانت تخصُّ سيارة أجرة وجعلا منها أريكة منزلية- يشربان الشاي ويشاهدان التليفزيون. كان ذلك في يوم الاستقلال، الخامس عشر من أغسطس، وكان رئيس الوزراء الضئيل الجبان الذي حلَّ محل رئيس الوزراء الشاعر الألثغ (فالحزب الذي ينتمي إليه لم يُعرب رسميًا عن اعتقاده بهندوسية الهند) كان يخاطب الأمة من وسط متاريس القلعة الحمراء. فكان ذلك من الأيام التي تتعرَّض فيها جزيرة المدينة المسوّرة لغزو من بقية دلهي. نظَّم الحزب الحاكم حشودًا ضخمة ملأت ساحات مهرجانات رام ليلا، وارتدى خمسة آلاف من تلاميذ المدارس ثيابًا ملونة بألوان العلم الوطني وأدوا عرض الزهور.

وجاء باعة النفوذ وصغار البشر الراغبون في الظهور على الشاشات فجعلوا أنفسهم في أوائل الصفوف لكي يحوّلوا قربهم البادي من السلطة إلى صفقات تجارية. قبل سنوات قليلة، حينما خسر رئيس الوزراء الشاعر الألثغ وحزبه المتعصب وخرجوا من السلطة، ابتهجت أنجم وشعرت بما يقارب العشق لعالم الاقتصاد السيخي أزرق العمامة الجبان الذي حلّ محله. أما كونه لا يحظى بنصيب من الكاريزما السياسية إلا كالذي يحظى به أرنب محبوس فلم يزدها إلا ولهًا به. لكنها قرّرت بعد وقت طويل أنه بالفعل كما قال عنه الناس، مجرد دمية تحركها خيوط في أيدي آخرين. كان في عجزه قوة لقوى الظلام التي بدأت تتجمّع في الأفق وتجوب الشوارع من جديد. كان لالّا حبيب الجُجرات لا يزال رئيس وزراء الجُجرات، وقد بات يختال ويُكثر الكلام عن الثأر من قرون من حكم المسلمين، ويجد مجالاً في كل خطبة للإشارة إلى قياس صدره (وهو ستة وخمسون بوصة)، ولسبب عجيب كان ذلك يثير إعجاب الناس. وثارت شائعات بأنه يستعد للقيام بـ "مسيرة إلى دلهي". وفي مسألة لالاّ الجُجرات كانت أنجم وصدام متناغمين أتمّ ما يكون التناغم.

أخذت أنجم تشاهد الأرنب المحبوس -عديم الصدر تقريبًا- وهو واقف في حيّز مضاد للرصاص من ورائه القلعة الحمراء، يتلو إحصاءات عن الواردات والصادرات على أسماع حشد ضجر لا يفقه شيئًا مما يتكلم عنه. كان يتكلم كدمية فعلاً. لا يتحرك فيه إلا فكه السفلي. ولا شيء غيره. بدا دغلا حاجبيه الأبيضين وكأنهما متصلان بنظارته لا بوجهه الذي لم يتبدل التعبير المرتسم عليه. وفي نهاية الكلمة

رفع يده في تحية عرجاء واختتم بقوله الجاهز جاي هند (النصر للهند). واستلّ جندي تصل قامته إلى قرابة سبعة أقدام وله شارب منتفش كأنه جناحا قطرس صغير سيفه من غمده وصاح بتحية لرئيس الوزراء الصغير، فبدا وكأنما ترتعد فرائصه. وفيما كان يمضي، لم تتحرك فيه إلا ساقاه. وفي اشمئزاز أغلقت أنجم التليفزيون.

سارع صدام يقول "هيا نصعد إلى السطح" وقد استشعر قرب حالة من الحالات المزاجية التي لا تنتاب أنجم إلا وتنزل المتاعب على كل من يقع في نطاق نصف كيلو متر منها.

ومضى من فوره يُخرج بساطًا قديمًا وبضع وسائد قديمة متصلبة ذات أكياس مشجرة يفوح منها جميعًا زنخ زيت الشعر. كان في الجو نسيم خفيف وقد انطلقت في السماء طائرات يوم الاستقلال الورقية، والمقابر أيضًا كان في سمائها بعض الطائرات الورقية، ولم يكن أداؤها شديد الرداءة. وصلت أنجم وفي يدها فنجان شاي ساخن طازج وترانزستور. واستلقى صدام وإياها، ناظرين إلى أعلى (وصدام لابس نظارته الشمسية) حيث تتناثر في السماء الوسخة طائرات ورقية ساطعة الألوان. وكان مستلقيًا بجوارهما، وكأنما قرّر هو الآخر أن يأخذ اليوم إجازة بعد أسبوع عمل شاق، بيرو (ويطلق عليه روبي في بعض الأحيان)، وهو كلب عثر عليه صدام بهيم على رصيف في طريق مزدحم، هائجًا وتائهًا، وتتدلى منه شبكة من الأنابيب الشفافة. كان بيرو كلب صيد، وإما أنه هرب من مختبر أدوية أو استُنفد الغرض منه

فأطلق سراحه. بدا عليه الإرهاق والشحوب، كأنه رسمة حاول شخص ما محوها. فإذا بالأسود الفاحم والأبيض الحائل المعهودين في نوعه من الكلاب قد بهتا إلى رمادي دخاني بالٍ قد لا تكون له علاقة طبعًا بالعقاقير التي اختُبرت عليه. حينما جاء بيرو للمرة الأولى ليعيش في نزل جنة كان يعاني نوبات صرع متواترة من الشهقات، فكأنها عطسات معكوسة متوانية. وكان كلما تعافى من إنهاك إحدى هذه النوبات، يخرج منها بشخصية مختلفة، فهو في حين ودود، وفي حين شبق، وفي حين ناعس، وفي حين مزمجر أو كسلان، على نحو منافٍ للمنطق ولا يمكن التنبؤ به، شأنه شأن سيدته التي تبنّته. وبمرور الوقت تناقصت نوباته واستقرّ حاله وأصبح بصورة شبه دائمة مجرد صورة لكلب كسول. في حين تواصلت العطسات العكسية.

صبّت له أنجم قليلاً من الشاي في طبق ومضت تنفخ فيه ليبرد، فسارع بشربه محدثًا صوتًا عاليًا. كان يشرب كلّ ما تشربه أنجم، ويأكل كل ما تأكله من برياني وقورمه وسمبوسة وحلوى وفلودا وفيرني وزمزم ومانجو في الصيف وبرتقال في الشتاء، وكان ذلك وبالاً على بطنه، ولكنه كان ممتازًا لروحه.

وبعد برهة اشتدّ النسيم وتعالت الطائرات، ثم بدأت حصة رذاذ يوم الاستقلال الإجبارية، فزمجرت أنجم كأن أمامها نزيلاً غير مرغوب فيه ـ آي هاي! المطر الملعون ابن القحبة! وضحك صدام، وإن لم يتحرك منهما أحد، في انتظار أن يريا أهو مطر كثيف أم خفيف. وتبيّن أنه

خفيف سرعان ما توقف. وبدأت أنجم تدلّك في شرود رقبة بيرو وتزيل عنه حبات الصقيع الصغيرة من قطرات المطر. ذكّرها بلل المطر بزينب فابتسمت لنفسها. وعلى غير العادة، بدأت تحكي لصدام قصة الجسر (في نسختها المُعدَّلة) وكيف كانت الفأرة وهي بنت صغيرة تعشقها عشقًا. ومضت في ابتهاج تحكي له طرائف زينب، وحبها للحيوانات، وكيف التقطت الإنجليزية بسرعة في المدرسة. وعلى حين غرة، ولحظة أن وصلت ذكرياتها إلى أكثرها بهجة، تحشرج صوت أنجم (بل صوتاها)، وفاضت عيناها بالدموع.

قالت وسط نشيجها "لقد ولدت لأكون أمًّا. انظر إليّ. يومًا ما سوف يمنحني الله طفلاً. أعرف هذا تمامًا".

قال صدام "وكيف يكون هذا ممكنًا؟" كان سؤالاً منطقيًا تمامًا، غافلاً كل الغفلة عن وطئه أرضًا زلقة. "حقيقت بهي كوبي تشيز هوتي هاي". هناك في نهاية المطاف شيء اسمه الحقيقة الواقعية.

اعتدلت أنجم جالسة ونظرت في عينيه "وما المانع؟ وما المانع بحق الجحيم؟"

"كل ما أقوله هو... قصدي أنه واقعيًا ..."

"لو أن بوسعك أن تكون صدام حسين، فبوسعي أن أكون أمًّا". لم تقل أنجم ذلك بعنف، بل قالته وهي تبتسم، وتتدلل، وتتحسّس بشفتيها سنَّها الجديدة وأسنانها الحمرْة. ولكنه دلال ينطوي على شيء فولاذي.

في حذر، لا في قلق، نظر إليها صدام متسائلاً عن هذا الذي تعرفه.

قالت أنجم "بمجرد أن تقع عن الحافة مثلما حدث لنا جميعًا، دون استثناء بيرو، فإنك لا تتوقف عن الوقوع. وفيما تقع فإنك تتشبَّث في الواقعين أمثالك. وكلما فهمت ذلك أسرع كان خيرًا لك. هذا المكان الذي نعيش فيه، وجعلنا منه بيتًا لنا، مكان الواقعين. لا وجود هنا لـ الحقيقَت. حتى أنا وأنت لسنا حقيقيين. لسنا موجودين في الحقيقة".

لم يقل صدام شيئًا. كان قد أحب أنجم أكثر مما أحب أي شخص في العالم. أحب الطريقة التي تتكلم بها، والكلمات التي تنتقيها، والطريقة التي تحرك بها فمها، والطريقة التي تتحرك بها شفتاها الحمراوان بأثر من البان على أسنانها التالفة. أحب سنَّها الأمامية البلهاء وقدرتها على إلقاء أبيات كاملة من الشعر الأردي وإن لم يفهم أغلبها، بل وإن لم يفهمها كلها. لم يكن صدام يعرف الشعر، ولا يعرف من الأردية إلا القليل. ولكنه كان يعرف أشياء أخرى. كان يعرف أسرع طريقة لسلخ بقرة أو جاموسة دون أن يتلف جلدها. كان يعرف كيف يملّح جلد الحيوان وينقعه في محلول ماء الجير ومادة التانين إلى أن يتمدَّد وييبس ويتحوَّل إلى جلد قابل للاستعمال. كان يعرف كيف يقيس درجة ملحية المحلول الملحي بتذوقه، وكيف يكحت الجلد ويخلصه من الشعر والدهون، وكيف يغسله بالصابون، ويجلوه، ويصقله، ويلمِّعه ويشمِّمه إلى أن يتألَّق. كان يعرف أيضًا أن الجسد البشري المتوسط يحوي ما بين أربعة وخمسة لترات من الدم. فقد شاهد الدم يندفع ببطء أمام

نقطة شرطة دولينا على الطريق السريع بين دلهي وجُرجاون. والغريب أن أوضح ما بقي في ذاكرته من ذلك كله هو صف السيارات الباهظة الثمن والحشرات السابحة في أشعة أضواء مصابيحها. وأن أحدًا لم يخرج من تلك السيارات ليمدّ يد العون.

كان يعرف أن مجيئه إلى قصر الواقعين ليس نتاج مخطط، وليس مصادفة عمياء. إنما هو تيار.

سألته أنجم "من الذي تحاول استغفاله؟"

"الله وحده"، قال صدام مبتسمًا "وليس أنت".

"ردِّد الكلمة ..."، قالتها أنجم آمرة وكأنها الإمبراطور أورنجزيب نفسه.

قال صدام "لا إله ...". ثم توقف مثل حضرة سرمد. "لا أعرف البقية. لا زلت أحاول أن أعرف البقية".

"أنت تشمار مثل كل الصبية الذين كنت تعمل معهم في المشرحة. أنت لم تكن تكذب على مدام سنجيتا القحبة بنت الحرام في اسمك، بل كنت تكذب عليّ أنا ولا أعرف لماذا، وأنا لا يعنيني من أنت.. مسلم أم هندوسي، رجل أم امرأة، من هذه الطبقة أو من تلك الطبقة، أو أن تكون حتى خرم مؤخرة جمل. لكن لماذا تسمي نفسك صدام حسين؟ أتعرف أنه كان وغدًا؟"

استعملت أنجم كلمة تشمار لا كلمة دالبت، وهي الكلمة الأحدث والمقبولة في وصف من يعتبرهم الهندوس "منبوذين" بمثل ما كانت ترفض أن تصف نفسها بأي كلمة أخرى غير الهيجرا. لم تكن تعرف ما المشكلة في الهيجرات أو التشمار.

بقيا لفترة راقدين، جنبًا إلى جنب، وصامتين. ثم قرّر صدام أن يأتمن أنجم على القصة التي لم يحكها لأحد من قبل، قصة البيغاوات الزعفرانية والبقرة الميتة. قصته هو الآخر قصة حظ، ربما لا يكون حظ جزارين، لكنه لا يختلف كثيرًا.

قال لأنجم إن عندها حق. لقد كذب عليها وقال الحقيقة لـ مدام سنجيتا القحبة بنت الحرام. كان صدام حسين هو الاسم الذي اختاره لنفسه، وليس اسمه الحقيقي. اسمه الحقيقي هو دياتَشَند. ولد لأسرة من التشمار ـ الدباغين ـ في قرية بادشاه بور بإقليم هَريان، على بعد ساعتين فقط بالأتوبيس من دلهي.

وذات يوم، إثر مكالمة هاتفية، استأجر هو وأبوه وثلاثة رجال آخرين سيارة تيمبو وذهبوا بها إلى قرية مجاورة لجلب جثمان بقرة نفقت في مزرعة.

قال صدام "ذلك كان عمل أهلي. كلما نفقت بقرة، يتصل بنا أصحاب المزارع من أبناء الطبقات العليا لأخذ جثمانها، لأنهم لا يستطيعون تلويث أنفسهم بلمسها".

قالت أنجم "نعم نعم، أعرف هذا". بنبرة فيها من الإعجاب شبه باعث على الارتياب.. "بعضهم شديدو النظام والنظافة. لا يأكلون البصل والثوم واللحم ..."

تجاهل صدام مقاطعتها.

"فكنا نذهب ونأخذ الجثث، لنسلخها، ونحولها إلى جلد... أنا أكلمك عن سنة ٢٠٠٢. أيامها كنت لا أزال في المدرسة. وتعرفين أفضل مني ما كان يجري أنذاك... كيف كان الحال... حكايتك حصلت في فبراير، وحكايتي في نوفمبر. في يوم عيد الدَسَهْرا.[١٨] ونحن راجعون بالبقرة مررنا بساحة مهرجانات رام ليلا وقد أقيمت فيها تماثيل هائلة للشياطين رافن وميجهناد وكُمبه كرن بارتفاع ثلاثة طوابق استعدادًا لنسفها عند حلول المساء".

ما كان لمسلمة من دلهي القديمة حاجةٌ إلى درس عن مهرجان الدَسَهْرا الهندوسي، إذ كان يُحتفل به كل سنة في ساحة المهرجانات خارج بوابة التركمان. وفي كل سنة كانت تماثيل رافن ملك لنكا وإله الشر ذي الرؤوس العشر، وأخيه كُمبه كرن وابنه ميجهناد تعلو وتعلو وتحشى بالمتفجرات. وفي كل عام كانت الرام ليلا، وهي قصة انتصار الإله رام ملك أيودهيا على رافن في معركة لنكا، وهي القصة التي يؤمن الهندوس أنها قصة انتصار الخير على الشر، تمثّل بمزيد من العدوان

---

١٨ Dussehra عاشر أيام مهرجان نافاراتري Navatratri الذي يحتفل بانتصار الإله راما على آلهة الشر المشار إليها لاحقًا في النص، ويحتفل به عادة في أكتوبر.

والتمويل السخي. وكان قليل من الباحثين الجسورين قد بدأوا يقترحون أن تكون الرام ليلا تاريخًا تحوّل إلى أسطورة، وأن آلهة الشر كانت في حقيقة الأمر من الدرافيديين ذوي البشرة الداكنة ـ والدرافيديون هم الحكام من أبناء البلد ـ وأن الآلهة الهندوسية التي غلبتهم (وأحالتهم إلى "منبوذين" وطبقات مقهورة أخرى تقضي حياتها في خدمة الحكام الجدد) كانوا غزاة آريين. وأشاروا إلى طقوس في قرى يعبد أهلها آلهة تُعدُّ في الهندوسية آلهة للشر ـ من بينها رافن. أما في الشريعة الجديدة، فلم يعد الناس العاديون بحاجة إلى أن يكونوا باحثين ليعلموا، وإن لم يتسنَّ لهم الجهر بذلك، أنه مع صعود رايخ البيغاوات المتواصل، وبغض النظر عن مقصد النصوص نفسه، فإن آلهة الشر في عرف البيغاوات ليسوا فقط أبناء البلد الأصليين، وإنما هم كلُّ من ليسوا من الهندوس، ومن أولئك بطبيعة الحال مواطنو شاه جهان آباد.

حين كانت التماثيل العملاقة تُنسَف، كان صوت انفجارها يتردَّد مدوِّيًا في الأزقة الضيقة بالمدينة القديمة. وأكثر الناس كانوا على يقين مما ينبغي أن يعنيه ذلك.

في كل سنة، غداة انتصار الخير على الشر، كانت أحلام باجي، القابلة التي استحالت إلى ملكة جوالة وسخة الشعر تذهب إلى أرض الساحة، وتنخل الحطام فتعود بنبال وأسهم، وفي بعض الأحيان بشارب كامل كثٍّ، أو عين محملقة، أو ذراع، أو سيف ناتئ من جوال السماد.

فلمّا تكلم صدام عن الدَسَهْرا فهمته أنجم وفهمت كل معاني كلامه.

قال صدام "عثرنا على البقرة النافقة بسهولة. دائمًا نعثر عليها بسهولة، كلّ ما عليك هو أن تجيدي فن المشي مباشرة باتجاه رائحة النتن. وضعنا الجثة في التيمبو وبدأنا نتحرك إلى القرية. وفي الطريق أوقفتنا نقطة شرطة دولينا لندفع حصة ضابط النقطة، وكان اسمه سهراوت. كانت حصة معلومة من قبل، في مقابل كل بقرة. لكنه طلب المزيد في ذلك اليوم. وليته طلب زيادة معقولة، بل طلب ثلاثة أمثال المعلوم. وكان معنى ذلك أننا كان ينبغي أن ندفع من جيوبنا لنسلخ تلك البقرة. كنّا نعرفه تمام المعرفة، سهراوت ذلك. لا أعرف ماذا دهاه في ذلك اليوم، ربما كان يريد نقودًا ليشتري خمرًا لسهرته في تلك الليلة، احتفالاً بالدَسَهْرا، أو ربما كان مدينًا ويجب أن يسدِّد، لا أعرف. لعله فقط كان يحاول أن يستغل المناخ السياسي في ذلك الوقت. جرَّب أبي وأصدقاؤه أن يتوسَّلوا إليه، فلم يصغ إلى توسلاتهم. غضب حينما أخبروه أنهم لا يمتلكون كل تلك النقود. واعتقلهم بتهمة "ذبح بقرة" ورماهم في الحجز. وتركني بالخارج. لم يبدُ على أبي القلق حينما دخل الحجز، فلم أشعر أنا بالقلق. انتظرت متصورًا أنهم يجرون بعض المفاوضات الصعبة وأنهم سرعان ما سيتوصلون إلى اتفاق. ومرَّت ساعتان. ومرَّ بالنقطة جمعٌ من الناس في طريقهم لمشاهدة الألعاب النارية المسائية. فكان منهم من يلبس أزياء الآلهة رام ولَكشمَن وهانومان، وأطفال صغار يحملون نبالاً وسهامًا، والبعض يُعلِّقون ذيول قردة وقد

دهنوا وجوههم بالأحمر، والبعض شياطين سود الوجوه، ليشاركوا جميعًا في الرام ليلا. فلما مرُّوا بشاحنتنا، سدُّوا جميعًا أنوفهم بسبب رائحة النتن. عند الغروب سمعت انفجارات التماثيل عند نسفها وصياحات المشاهدين. وحزنت أن كلّ تلك البهجة ضاعت مني. وبعد فترة بدأ الناس يرجعون إلى بيوتهم. ولم تظهر بعد إشارة عن وضع أبي وأصحابه. ثم لا أعرف كيف حدث ما حدث، ربما نشرت الشرطة الشائعة، أو أجرت بعض الاتصالات الهاتفية، وإذا بحشد من الناس يتجمع خارج نقطة الشرطة مطالبين بتسليمهم 'قتلة البقرة'. وكانت البقرة في الشاحنة تعبّئ المنطقة كلها بالنتن دليلاً كافيًا بالنسبة لهم. بدأ الناس يقطعون الطريق. لم أدرِ ماذا أفعل، أو أين أختبئ، فامتزجت بالحشد. وبدأ بعض الناس يصيحون، **جاي شري رام! وفاندي ماتارام!** وانضمّ إليهم المزيد والمزيد وتحول الحشد إلى السعار. ودخل قليل من الرجال نقطة الشرطة فجاؤوا بأبي وأصحابه الثلاثة إلى الخارج. وبدأوا يضربونهم، بقبضاتهم فقط في البداية، وبالأحذية. ثم جاء أحدهم بعتلة، وآخر برافعة. ولم أستطع أن أرى الكثير، ولكن حينما هوت أولى الضربات، سمعت صرخاتهم..."

التفت صدام إلى أنجم.

"لم أسمع في حياتي صوتًا كذلك، كان صوتًا غريبًا، عاليًا، غير بشري. ولكن جعير الجموع طغا عليه. لا داعي لأن أحكي لك.

تعرفين ..." وهوى صوت صدام حتى بات همسًا "كان الجميع يشاهدون. لم يوقفهم أحد".

وصف كيف أضاءت السيارات كشافاتها ـبمجرد انتهاء الحشد من المهمةـ كلّها في وقت واحد، كأنها قافلة عسكرية. وكيف خاضت السيارات بركَ دماء أبيه كأنها تخوض بركًا من ماء المطر، وكيف بدا الطريق أشبه بشارع مزدحم في المدينة القديمة يوم عيد الأضحى.

قال صدام "كنت جزءًا من الحشد الذي قتل أبي".

هدّد حصن الأسى بأسواره المهمهمة وسراديبه السرية بأن يقوم مرة أخرى حول أنجم. وكادت هي وصدام أن يسمع أحدهما خفقان قلب الآخر. لم تستطع أن تحمل نفسها على قول أي شيء، ولا أن تنطق بكلمة تعاطف. لكن صدام كان يعلم أنها أنصتت. ومضت فترة قبل أن يعاود الكلام.

"بعد شهور قليلة من ذلك كله، ماتت أمي، وكانت أصلاً معتلة الصحة. وأصبحت في رعاية عمي وجدتي. تركت المدرسة، وسرقت بعض النقود من عمي وجئت إلى دلهي. وصلت إلى دلهي وليس معي غير قليل من المال وما عليّ من ثياب. وطموح واحد، أن أقتل الوغد سهراوت. ويومًا ما سوف أقتله. نمت في الشوارع، وعملت في تنظيف الشاحنات، بل وعملت شهورًا قليلة في تنظيف المجاري. إلى أن جاء صديقي نيرَج، وهو من قريتي، ويعمل الآن في البلدية، وأنت التقيت به".

قالت أنجم "نعم، ذلك الولد الطويل جميل الشكل".

"نعم هو. حاول أن يدخل مجال الإعلانات لكن لم يستطع.. فحتى في هذا عليك أن تدفعي لقوّاد ما. هو الآن يسوق شاحنة تابعة لشركة البلدية. على أي حال، ساعدني نيرَج في الحصول على وظيفة هنا، في المشرحة التي التقينا فيها للمرة الأولى.. بعد سنوات قليلة من المجيء إلى دلهي كنت أمرُّ بمعرض لبيع التليفزيونات، وكان أحدها يعرض أخبار المساء. وتلك كانت المرة الأولى التي رأيت فيها فيديو شنق صدام حسين. لم أكن أعرف عنه أي شيء، ولكن أعجبتني كثيرًا شجاعة ذلك الرجل وكبرياؤه في مواجهة الموت. حينما اشتريت أول هاتف محمول طلبت من البائع أن يعثر على ذلك الفيديو ويضعه لي عليه. وشاهدته مرة أخرى، ومرة أخرى. أردت أن أكون مثله. قرّرت أن أصبح مسلمًا وأن أتسمّى باسمه. شعرت أن ذلك سوف يمدّني بالشجاعة فأفعل ما عليّ أن أفعله في مواجهة العواقب مهما تكن، مثله".

قالت أنجم "صدام حسين هذا كان وغدًا. قتل كثيرًا جدًا من الناس".

"جائز. لكنه كان شجاعًا.. شوفي.. انظري إلى هذا".

وأخرج صدام هاتفه الذكي الخلاب الجديد بشاشته الكبيرة الفاتنة ووصل إلى الفيديو. ظلّل على الشاشة بيديه ليحول دون الوهج. كان مقطعًا تليفزيونيًا يبدأ بإعلان عن مرطّب فازلين للرعاية الفائقة تدهن فيه فتاة جميلة مرفقيها وركبتيها وتبدو في غاية السعادة بالنتائج. وبعده إعلان

من وزارة السياحة في جامّو وكشمير، تظهر فيه آفاق مكسوة بالجليد وبشر سعداء في ثياب دافئة جالسين على مزالج. ويقول التعليق الصوتي "جامّو وكشمير. منتهى البياض. منتهى الجمال. منتهى الإثارة". ثم قال مذيع تليفزيوني شيئًا ما بالإنجليزية وظهر صدام حسين، رئيس العراق السابق، أنيقًا، ذا لحية شيباء، في معطف أسود وقميص أبيض، عليًا وسط جمع من الرجال يهمهمون مرتدين أقنعة الجلادين السوداء المدببة، يحيطون به، وينظرون إليه عبر فتحات الأعين. كانت يداه موثقتين وراء ظهره. وقف ساكنًا بينما أحد الرجال يلف حول عنقه منديلاً أسود، مومئًا بأن المنديل سوف يمنع احتكاك حبل المشنقة ببشرة عنقه. فما عُقد المنديل إلا وبدا صدام حسين أكثر أناقة. محاطًا بالثرثرة، والمقنعين، سار إلى المشنقة. وضعت الأنشوطة حول رأسه، وضيِّقت على رقبته. تلا صلاته. وكان آخر تعبير ارتسم على وجهه قبل أن يسقط عبر الفتحة السفلية تعبير احتقار مطلق لجلاديه.

قال صدام "أريد أن أكون وغدًا من هذا النوع. أريد أن أفعل ما لا بد أن أفعل، ثم إذا تحتّم أن أدفع الثمن أريد أن أدفعه هكذا".

قالت أنجم "لي صديق يعيش في العراق". وقد بدا أنها أكثر إعجابًا بهاتف صدام منها بفيديو الإعدام. "جُبنا جي. يبعث لي صورًا من العراق". وأخرجت هاتفها المحمول وعرضت على صدام الصور التي دأب دي دي جُبنا على إرسالها ـ جُبنا جي في شقته في بغداد، جُبنا جي وعشيقته المراقبة في نزهة، وسلسلة من الصور لجدران المتاريس التي

أقامها جُبتا جي في شتى أرجاء العراق لحساب جيش الولايات المتحدة. بعضها كان جديدًا وبعضها كان يحمل بالفعل ثقوب رصاصات وتعلوه رسوم جرافيتي. وعلى أحدها كتب شخص ما كلمات اشتهرت عن جنرال أمريكي: **كونوا محترفين، كونوا مهذبين، خطِّطوا لقتل كل شخص يصادفكم.**

لم تكن أنجم تجيد قراءة الإنجليزية، خلافًا لصدام الذي كان يجيد قراءتها إن بذل الانتباه الكافي. وفي هذه الحالة لم يفعل.

أنهت أنجم الشاي ثم استلقت على ظهرها واضعة ساعديها على عينيها. بدا أنها نعست، لكنها لم تنعس. كانت قلقة.

فبعد فترة قالت وكأنها تكمل حوارًا، والحقيقة أنها كانت تكمل حوارًا بالفعل، لولا أنه حوار كانت تجريه بينها وبين نفسها "وفي حالة إذا لم تكن تعرف. دعني أقل لك إننا كمسلمين أبناء قحاب أيضًا، شأن غيرنا بالضبط. لكن يخيل إليّ أن قاتلاً إضافيًا لن يلوث سمعة قومنا السيئة أصلاً، فسمعتنا أصلاً في الوحل. عمومًا، خذ وقتك، لا تتعجَّل في عمل أي شيء".

"طبعا. لكن سهراوت لا بد أن يموت".

خلع صدام نظارته وأغمض عينيه دون الضوء. أدار أغنية هندية قديمة في هاتفه وبدأ يغني شاردًا عن اللحن وواثقًا في الأداء. تجرَّع بيرو بقايا الشاي البارد في الطبق وقام يهرول وقد التصق ورق الشاي بأنفه.

لما اشتدت حرارة الشمس، نزلا إلى البيت ومضيا يطفوان في حياتيهما كأنهما رائدا فضاء خارج الجاذبية لا يحدُّهما في طفوهما غير الجدران الفوشيا في سفينتهما الفضائية ذات الأبواب الفزدقية الفاتحة.

لا يعني هذا أنهما كانا يفتقران إلى الخطط.

فأنجم كانت تنتظر أن تموت.

وصدام كان ينتظر أن يقتل.

وعلى بعد أميال، في غابة مضطربة، كانت طفلة تنتظر أن تولد...

"في أيّ لغة ينهمر المطر..

على مدن معذَّبة؟"

بابلو نيرودا

٣

الميــــلاد

كان وقت سلام. أو هكذا قالوا.

ظلت ريح ساخنة تجلد شوارع المدينة طيلة الصباح، دافعة أمامها ورق السنفرة وأغطية زجاجات الصودا وأعقاب السجائر، مطيحة بها في زجاج السيارات وأعين سائقي الدراجات النارية. فلمّا هدأت الرياح، كانت الشمس قد ارتفعت في السماء، واضطرمت عبر الضباب، ومرة أخرى ارتفعت الحرارة وصارت تومض في الشوارع كأنها راقصة شرقية. وانتظر الناس وابل المطر الرعدي الذي يعقب دائمًا العاصفة الترابية، فلم يصل قط. واستعرت النار في أكواخ متكدسة على ضفة النهر فقضت على ألفين منها في غمضة عين.

ومع ذلك بقيت زهور الأملتاس متفتحة، مشرقة، صفراء، جسورة. وذلك دأبها في كل صيف لاهب، أن ترتقي في وجه السماء الحارة البنية، وتهمس في أذنها: **عليك اللعنة.**

ظهرت بغتة، بعد منتصف الليل بقليل. لم تُغنِّ ملائكة، ولا جاء حكماء بهدايا، ولكن مليون نجمة بزغت في المشرق ترحابًا بمقدمها. في لحظة لم يكن لها وجود، وفي اللحظة التالية ها هي ظهرت على الرصيف الخرساني في صفيحة قمامة: ورق علب سجائر فضي وأكياس بلاستيكية قليلة وأكياس أنكل شيبسي فارغة. كانت مستلقية في بحيرة من النور، أسفل عمود من البعوض الحائم المضاء بالنيون، عريانة، ذات بشرة سوداء مزرقة، ملساء مثل فقمة وليدة. كانت صاحية، لكنها هادئة تمام الهدوء، وهو أمر غير معهود في شخص بهذه الضآلة. فلعلها تعلمت، في تلك الشهور القصيرة الأولى من حياتها، أن لا طائل من الدموع، دموعها هي على الأقل.

كان حصان نحيل أبيض مقيدًا إلى السور الحديدي، وكلب صغير أجرب وسحلية بلون الخرسانة وسنجابان مستيقظان في وقت نومهما، وعنكبوتة منتفخة بالبيوض تطل عليها من مجثمها الخفي. وباستثناء تلك الكائنات، بدت وحيدة تمام الوحدة.

كانت المدينة تمتد من حولها لأميال في كل اتجاه. ساحرة عمرها ألف عام، ناعسة، لكنها غير نائمة، حتى في هذه الساعة. تتلوّى جسور رمادية من جمجمتها الميدوسية، تتشابك وتنفكُّ في ضباب الصوديوم الأصفر، وقد اصطفّت أجساد المتشردين النائمة على أرصفتها الضيقة العالية، برأس فقدمين، ورأس فقدمين، ورأس فقدمين، متتالية حتى البعيد. مضت الأسرار القديمة تنطوي في تعاريج بشرتها الرقيقة الرخوة،

ففي كل تعريجة شارع، وفي كل شارع كرنفال. وفي كل مفصل ملتهب فُتات مسرحٍ شهد قرونًا من قصص الحب والجنون والغباء والبهجة والقسوة الغاشمة. لكن هذا اليوم كان يوم انبعاثها. أراد سادتها الجدد أن يكتموا شرايينها العليلة المتعرقة أسفل جوارب شبكية مستوردة، ويحشروا ثدييها الذابلين في حاملات صدر لينة مبطنة، ويدفنوا قدميها الموجوعتين في حذاء مدبب ذي كعب عال. أرادوها أن تتمايل بفخذيها العجوزين المتيبسين وأن تغيِّر مسار حواف تقطيبتها محيلة إياها إلى ابتسامة خاوية جامدة. في ذلك الصيف تحولت الجدة إلى بغي.

كان مُقدَّرًا لها في ذلك الصيف أن تصبح عاصمة كبرى للقوة العظمى الجديدة المفضلة لدى العالم. **الهند! الهند!** تعالى الشعار في برامج التليفزيون، والفيديوهات الموسيقية، والصحف والمجلات الأجنبية، والمؤتمرات التجارية، ومعارض السلاح، والاجتماعات الاقتصادية، والقمم البيئية، ومعارض الكتب، ومسابقات الجمال. **الهند! الهند! الهند!**

وفي شتى أرجاء المدينة انتشرت لافتات برعاية مشتركة من صحيفة إنجليزية وأحدث منتج لتفتيح البشرة (يباع بالطن) وقد كُتب عليها: **وقتنا الآن**. كان كيه مارت قادمًا، ووول مارت وستاربكس قادمين. وفي إعلان الطيران البريطاني في التليفزيون، كان أهل العالم (من بيض وبنيين وسود وصفر) يترنمون جميعًا قائلين:

يا رب، أنت مانح الحياة

أنت صارف الألم والحزن

أنت واهب السعادة

أنت خالق الكون

أنعِمْ علينا بالنور محطم الخطايا

واهدِ عقلنا إلى الطريق القويم.

(واجعل كل الناس ركابًا في الطيران البريطاني)

ولَمّا انتهوا من الترنُّم، انحنى أهل العالم وقد ضمَّ كلٌّ منهم راحتيه محيِّيا وقائلاً بلكنته الغريبة ناماستي[19]، مبتسمًا كأنه بوّاب معمَّم له شارب مهراجا ممن يرحبون بالضيوف الأجانب في فنادق النجوم الخمس. وبذلك، في هذا الإعلان على الأقل، انقلب التاريخ رأسًا على عقب (إذ من الذي ينحني الآن؟ ومن الذي يبتسم؟ من المتضرِّع؟ ومن المتضرَّع إليه؟) وفي نومهم ردَّ مواطنو الهند المفضَّلون الابتسامة بمثلها. **الهند! الهند!** كانوا يترنَّمون بها في أحلامهم شأن الجماهير في مباريات الكريكيت. طغت الطبول على الإيقاع... **الهند! الهند!** وقف العالم على قدميه، يزأر بالإعجاب. ظهرت ناطحات السحاب ومصانع الصلب

---

١٩ تحية احترام يقولها المرء وهو يؤدي الناسكار Namaskar وهي إيماءة تتلاصق فيها اليدان مفرودتين.

حيثما كانت الغابات في يوم من الأيام، عُبّئت الأنهار في زجاجات وبيعت في المتاجر، وعُلّبت الأسماك، واستُخرجت معادن الجبال فصُيِّرت صواريخ لامعة. وأضاءت السدود الهائلة المدن كأنها شجر الكريسماس. وعمّت الفرحة الجميع.

وبعيدًا عن الأضواء والإعلانات، أفرغت القرى. والمدن أيضًا. رُحّل ملايين الناس فلم يدرِ أحد إلى أين كان ترحيلهم.

وقال قاض في المحكمة العليا "من لا يملكون أسباب العيش في المدن، لا ينبغي أن يأتوا إلى هنا". وأمر بإخلاء المدينة فورًا من الفقراء. وقال نائب الحاكم إن "باريس كانت منطقة قذرة قبل ١٨٧٠ عندما أزيلت العشوائيات"، ومضى يصفّف البقية الباقية من فضلات شعره على قرعته من اليمين إلى اليسار (وكان يذهب للسباحة في المساء فتسبح فضلة شعره بجواره في كلور مسبح نادي تشيلمسفورد)، وقال "انظروا أين باريس الآن".

هكذا صدر الحظر على فائض الناس.

إضافة إلى الشرطة العادية، انتشرت في الأحياء الفقيرة كتائب عديدة من قوات الاستجابة السريعة في زي مموّه سماويّ غريب (لعله يستهدف إرباك الطيور).

وقاوم أهالي الأحياء العشوائية، والأحياء المقامة بوضع اليد، ومخيمات الإيواء المرخصة و"غير المرخصة". فحفروا الطرق المفضية إلى

بيوتهم أو أغلقوها بالحجارة والركام من أي شيء. وصار الشباب والشيوخ والأطفال والأمّهات والجدّات يتسلحون بالعصي والحجارة وينتظمون في دوريات عند مداخل أحيائهم. وفي أحد الطرق التي اصطفت عندها الشرطة والبلدوزرات استعدادًا لهجمة نهائية كُتب بالطباشير شعار نصه "بظر أمّ الحكومة".

وتساءل فائض الناس "إلى أين نذهب؟ اقتلونا إن شئتم لكننا لن نرحل".

وكان العدد المعروض للقتل كبيرًا للغاية.

فبدلاً من القتل، كان على بيوتهم وأبوابهم وشبابيكهم وأسقفهم المؤقتة وأوانيهم وطاساتهم وأطباقهم وملاعقهم وشهاداتهم الدراسية وبطاقاتهم التموينية وقسائم زواجهم ومدارس أبنائهم وأعمالهم طول أعمارهم وتعبيرات عيونهم أن تسوّى بالأرض تحت بلدوزرات مستوردة من أستراليا. (كان يُطلق عليها الديتش ويتش) كانت آلات من أحدث الأنواع، قادرة على دك التاريخ نفسه دكًا مثلما تُدَكُّ مواد البناء.

وعلى هذه الحال، قُضي على الجلدة، في سنة انبعاثها، أن تنكسر.

كانت القنوات التليفزيونية تغطي -في منافستها الضارية- أخبار تحطيم المدينة ضمن فئة "أخبار الساعة"، دون أن تلاحظ أي منها المفارقة في أن الساعة تعني القيامة أيضًا. أطلقت القنوات مراسليها الشبان عديمي التدريب ممتازي الأشكال فانتشروا في المدينة كالطفح

الجلدي يطرحون أسئلة عاجلة وفارغة، كانوا يسألون الفقراء عن إحساسهم بالفقر والجياع عن إحساسهم بالجوع المُشرَّدين عن إحساسهم بالتشرُّد. قل لي يا أخي ما إحساسك وأنت...؟ ولم تعدم تلك القنوات رعاة يدعمون نقلها اليأس على الهواء مباشرة. ولا عدمت اليأس.

وكان الخبراء يذيعون أحدث آرائهم مقابل أجر: فكانوا يقولون، عن خبرة، إن أحداً ما ينبغي أن يدفع ثمن التقدم.

مُنع التسول. وجُمع آلاف المتسولين واحتُجزوا في حظائر قبل أن يشحنوا جماعاتٍ في سفن مضت بهم إلى خارج المدينة. وفُرض على مشغليهم أن يدفعوا أموالاً غير قليلة ثمنًا لشحنهم.

بعث الأب جون شفيع الضعفاء رسالة تقول إنه وفقًا لسجلات الشرطة تم العثور على قرابة ثلاثة آلاف جثة (بشرية) غير معروفة في شوارع المدينة خلال العام الماضي. ولم يردَّ أحد.

ولكن متاجر الطعام كانت تغصّ بالطعام. ومتاجر الكتب بالكتب. ومتاجر الأحذية بالأحذية. والناس (المحسوبون في عداد الناس) كانوا يقولون لبعضهم بعضًا "لم يعد لزامًا عليك أن تسافر للتسوق بالخارج، فالبضائع المستوردة متاحة هنا الآن. فكما أن بومباي هي نيويورك الهندية، فدلهي هي واشنطن الهندية وكشمير هي سويسرا الهندية. الأمر رائع حقًا يا صاح".

صارت طرقات المدينة مخنوقة طول النهار بالمرور. وحديثو العهد بالتشرد، ممن صاروا يعيشون في شقوق المدينة وصدوعها، ظهروا يحومون حول السيارات محكومة المناخ، يبيعون فراشي الثياب، وشواحن الهواتف المحمولة، ونماذج الطائرات، والمجلات التجارية، وكتب الإدارة المقرصنة (**كيف تكسب أول مليون؟ ما الذي تريده الهند الفتاة حقًا؟**)، وأدلة الخبراء، ومجلات الديكور ذات الصور الملونة للبيوت الريفية في بروفانس، وأدلة التصليح السريع للأرواح (**أنت المسؤول عن سعادتك**... أو: **كيف تصبح أفضل صديق لنفسك؟**). وفي يوم الاستقلال كانوا يبيعون المسدسات اللعبة والأعلام الوطنية المثبتة على حوامل وقد كُتب عليها "**هندنا عظيمة**". كان الركاب يطلون من شبابيك سياراتهم فلا يرون إلا الشقة الجديدة التي خططوا لشرائها، والجاكوزي الذي ركّبوه للتو، والحبر الذي لم يجف بعد على الصفقة الحبيبة التي أبرموها للتو. كانوا هادئين بسبب دروس التأمل مفعمين بالطاقة بسبب ممارسة اليوجا.

في ضواحي المدينة الصناعية، في أميال المستنقعات الساطعة المكدسة بالنفايات والأكياس البلاستيكية الملونة، التي "أعيد إيواء" المطرودين فيها، كان الهواء ملوثًا بالمواد الكيميائية، والماء كان مسمّما. وكانت غيوم البعوض تتعالى من البرك الخضراء الكثيفة، وفائض الأمهات يجثمن كالعصافير على ركام ما كان في يوم من الأيام بيوتًا لهن يغنين لأبنائهن فائض الأغنيات إلى أن ينمن.

نم يا حبيبي نم، قبل أن يأتي العفريت
قميصك الجديد من القرية يأتي
خالك وخالتك، راقصين يأتيان.
خلخالك وأساورك، معهما تأتي

فكان فائض الأطفال ينامون حالمين بالبلدوزرات الصفر.

وفوق الدخان، وهدير المدينة الميكانيكي، كان الليل ما يزال شاسعًا وجميلاً. والسماء ما تزال غابة من النجوم. والطائرات النفاثة تنطلق كالنيازك البطيئة الباكية. ومنها ما يحلّق، عشرة تتكدس فوق مطار إنديرا غاندي الدولي الغائب وسط الدخان، في انتظار الإذن بالهبوط.

*

أسفل ذلك، على الرصيف، على حافة جَنْتر مَنْتر، أي المرصد القديم الذي حدث عنده ظهور وليدتنا، كان ثمة شيءٌ من الزحام حتّى في ساعة الصباح. حيث يتحرك الشيوعيون والمحرضون والانشقاقيون والثوريون والحالمون والمتسكعون والمدمنون والعمال المستقلون من كل لون وشكل، والحكماء الذين ما عادوا يملكون شراء هدايا للمواليد الجدد. على مدار الأيام العشرة الماضية أزاحهم جميعًا أحدث عرض في المدينة وأبعدهم عن المكان الذي كان من قبل أرضهم، والموضع الوحيد

في المدينة الذي كان مسموحًا لهم بالتلاقي فيه. كان أكثر من عشرين فريقًا تليفزيونيًا بكاميراتهم المحمولة على روافع صفراء يراقبون على مدار الساعة، نجمهم الساطع الجديد، وهو رجلٌ غانديٌّ هرم بدين تحول من جندي إلى عامل اجتماعي قروي، ثم أعلن عن صيام حتى الموت تحقيقًا لحلمه بهند خالية من الفساد. كان يستلقي بدينًا على ظهره في سمت قديس عليل ومن ورائه صورة أمّنا الهند ـوهي إلهة كثيرة الأذرع يتخذ جسمها شكل خريطة الهند (الهند مثلما لم تقسمها بريطانيا طبعًا، محتوية باكستان وبنجلاديش). فكانت كل تنهيدة منه أو كل توجيه هامس منه لأحد المحبطين به يُبَثّ على الهواء في الليل.

كان الشيخ قد عزم أمره على شيء ما. وكان صيف انبعاث المدينة ذلك صيف الفضائح أيضًا: فضائح الفحم وفضائح خام الحديد وفضائح الإسكان وفضائح التأمين وفضائح ورق التمغة وفضائح رخصة الهاتف وفضائح الأرض وفضائح السد وفضائح الري وفضائح السلاح والذخيرة وفضائح مضخة النفط وفضائح مصل شلل الأطفال وفضائح فواتير الكهرباء وفضائح الكتب المدرسية وفضائح الكهنة وفضائح الجفاف وفضائح لوحات أرقام السيارات وفضائح قوائم المقترعين وفضائح بطاقات الهوية، هذه الفضائح التي نهب فيها الساسة ورجال الأعمال والساسة رجال الأعمال ورجال الأعمال الساسة كميات لا يتصورها خيال من أموال الدولة.

ومثل مُنقِّب عن الذهب، لمس الشيخ طبقة معدنية ثرية، طبقة من مخزون الغضب العام، فصار أقرب إلى معبود للناس بين عشية

وضحاها، حتى اندهش هو نفسه من ذلك. كان حلمه بمجتمع خالٍ من الفساد أشبه بسهل سعيد يمكن للجميع، بمن فيهم الأشد فسادًا، أن يرعوا فيه لفسحة من الزمن. وإذا بالذين لا يجتمعون في الظروف الطبيعية على شيء (كأهل اليسار وأهل اليمين وأهل اللا شيء) يتوافدون جميعًا عليه. جاء ظهوره المفاجئ، وكأنما من العدم، بغرض مفقود وإلهام جديد لجيل جديد نافد الصبر من شباب كانوا حتى ذلك الحين أبرياء من التاريخ والسياسة. جاءوا إليه بالجينزات والتيشيرتات والجيتارات يقاومون الفساد بأغنيات ألّفوها بأنفسهم. جاءوا بلافتاتهم وإعلاناتهم وشعارات من قبيل "كفى كفى" و"اقضوا على الفساد فوراً". وشكّل فريق من شباب المحامين والمحاسبين ومبرمجي الكمبيوتر لجنة لإدارة الحدث. فجمعوا المال ونظموا الخيمة الهائلة وزودوها بالدعامات (وصورة أمنا الهند والأعلام الوطنية وطواقي غاندي واللافتات) وأقاموا حملة إعلامية رقمية كذلك. فراجت بلاغة الشيخ الريفية وأمثلته البسيطة في تويتر وأغرقت فيسبوك. ولم تكن كاميرات التليفزيون تشبع منه. وانضم إليه موظفون متقاعدون وضباط سابقون في الشرطة والجيش، وتضخم الحشد.

نجومية فورية أثارت الشيخ، وحفزته على شيء من الجرأة، والتخلي عن الحرص، فبدأ يشعر أن الاكتفاء بموضوع الفساد وحده يضيِّق عليه ويحدُّ من جاذبيته. ففكر أن أقلّ ما يستطيع فعله هو أن ينقل إلى أتباعه طرفًا من جوهره، من ذاته الحقة، وحكمته الشخصية الريفية. وهكذا بدأ السيرك. أعلن الرجل أنه يقود نضال الهند الثاني إلى الحرية،

وألقى خطبًا مؤثرة بصوته الطفولي الهرم الواهن الذي بدا أنه يمسُّ روح الأمة العميقة كلها ـوإن شابَهَ صوت بالونتين تحتكان. ومثل ساحر في حفلة عيد ميلاد طفل، أخذ يعرض خُدَعَه ويخرج من الهواء هداياه للناس. وكان لديه لكل امرئ شيء. فأثار الشوفينيين الهندوس (الذين كانوا مهتاجين أصلاً على صورة أمنا الهند) بصيحتهم الحربية القديمة الانشقاقية عاشت الأم. فلمّا استاء نفر من المسلمين، نظمت اللجنة زيارة من نجم سينمائي مسلم في بومباي فجلس بجوار الشيخ لنحو ساعة مرتديًا طاقية الصلاة الإسلامية (وهو ما لم يكن معتادًا عليه قبل ذلك على الإطلاق) لتأكيد رسالة الوحدة في التنوع. ومن أجل التقليديين استشهد الشيخ بغاندي. فقال إن في نظام الطبقات خلاص الهند. "على كل طبقة أن تؤدي العمل الذي ولدت لأدائه، ولكن كل العمل جدير بالاحترام". فلما اهتاج الدَلِت غاضبين، جيء بابنة كنّاس في البلدية وقد ألبست ثوبًا جديدًا فجلست بجواره ومعها زجاجة ماء أخذ الشيخ يرتشف منها بين الحين والآخر. وللدعاة الفضيلة المتزمتين رفع الشيخ شعار "لا بد من قطع أيدي اللصوص! لا بد من شنق الإرهابيين". وللقوميين من مختلف المشارب زأر بقوله "اطلبوا الحليب، نعطكم القشدة. اطلبوا كشمير نمزقكم إربًا إربًا".

كان يبتسم في حواراته ابتسامة الطفل الإعلاني اللزجة على علبة فيريكس بيبي، ويصف مسرّات عفافه وحياته البسيطة في غرفته الملحقة بمعبد القرية، وشرح كيف أن الممارسة الغاندية للراتي سدهانا ـأي

حبس المنيّ- ساعدته في الاحتفاظ بقوته أثناء صيامه. ولكي يبيّن هذا، قام في اليوم الثالث لصيامه، من سريره، وأخذ يهرول حول المنصة في زيه الأبيض المؤلف من قميص كُرتا وإزار، مبرزًا قوة عضلات ذراعيه، فضحك الناس وصاحوا وجاؤوا بأبنائهم إليه تبركًا به.

بلغت نسب مشاهدة التليفزيون عنان السماء. وتوالت الإعلانات. حالة اهتياج لم يرَ أحد مثيلاً لها، منذ عشرين سنة على الأقل، حينما تردّد في يوم معجزة التزامن أن تماثيل الإله جانيش في معابد العالم كله بدأت تشرب الحليب في لحظة واحدة.

ولكن الآن وقد وصل صيام الرجل إلى يومه التاسع، وبرغم احتياطي المنيّ المحبوس لديه، بات وهنه ملحوظًا. وتردّدت في المدينة في عصر ذلك اليوم شائعات عن ارتفاع مستويات الكرياتينين وتدهور الكليتين. اصطف النجوم جنب سريره لتُلتقَط لهم الصور وهم يمسكون يده ويشجعونه ألا يموت (وإن لم يعتقد أحد أن الأمر سوف يصل إلى ذلك الحد). تبرّع رجال الصناعة الذين ذاعت أخبار فضائحهم بأموال لحركة الشيخ وأثنوا على التزامه الصارم بعدم اللجوء إلى العنف. (أمّا كلامه عن قطع الأيدي والشنق والبقْر فقد اعتُبر من قبيل التحذيرات المقبولة).

كان الأثرياء نسبيًا من معجبي الشيخ، ممن ينعمون باحتياجات الحياة الأساسية، وإن لم يجربوا قط فورة الأدرينالين ومذاق الغضب النبيل المصاحب للمشاركة في مظاهرة حاشدة، يأتون بالسيارات

والدراجات النارية، ملوحين بالأعلام الوطنية، منشدين الأغنيات الحماسية. وأصيبت بالشلل حكومة الأرنب المحبوس بعدما كانت في يوم من الأيام تُعدُّ بمثابة المسيح المخلّص لمعجزة الهند الاقتصادية.

وفي الجُجرات البعيدة، رأى رئيس الوزراء في ظهور الشيخ ذي الوجه الطفولي علامة من الآلهة. فعجَّل بغريزة حيوان مفترس لا تخيب بـ مسيرة دلهي. فلما كان اليوم الخامس من صيام الشيخ، كان رئيس الوزراء (على سبيل الاستعارة) قد ضرب خيامه خارج بوابات المدينة. وانصبّ على ميدان جَنْتر مَنْتر طوفان جنكشاريته المقاتلين، غامرين الشيخ بالتأييد الصاخب، رافعين راياتٍ أكبرَ ومنشدين أغنياتٍ أصخبَ من بقية الرايات والأغنيات. أقاموا موائد ووزّعوا طعامًا بالمجان على الفقراء. (بطوفان من التمويلات المقدمة من الكهنة المليونيرات المؤيدين لرئيس الوزراء الحبيب). وكانت تعليمات صارمة قد صدرت لهم بعدم ارتداء عصابات الرؤوس الزعفرانية المميزة لهم، أو رفع الرايات الزعفرانية، أو الإشارة، ولو عرضًا، إلى لالاآحبيب الجُجرات بأي شكل من الأشكال. ونجح ذلك. ففي غضون أيام كانوا قد نفذوا انقلابًا في القصر. وإذا بالشباب الذين تعبوا كثيرًا حتى حققوا الشهرة للشيخ قد أزيحوا من أماكنهم قبل أن يفهموا أو يفهم هو نفسه ما جرى. وانهار السهل السعيد. ولم يدرك ذلك أحد. كان الأرنب المحبوس قد بات جثة هامدة. وسرعان ما يركب الالاآ مُتجهًا إلى دلهي، محمولاً على أعناق قومه وقد ارتدوا أقنعة ورقية تحمل صوره هاتفين باسمه لالاآ! لالاآ!

لالأ! حبيب!! حبيب!! حبيب!! واضعينه على العرش. فينظر أينما ينظر فلا يرى غير نفسه. هو الإمبراطور الجديد على هندستان. هو المحيط. هو اللا نهاية. هو الإنسانية نفسها. ولكن ذلك كله كان لا يزال على بعد عام.

أما الآن، في جَنْتر مَنْتر، فكان أنصاره يستنفدون أنفسهم في صباح مبحوح ضد فساد الحكومة. (يسقط! يسقط! يسقط! يسقط!). وفي الليل يسارعون بالرجوع إلى البيوت ليشاهدوا أنفسهم على شاشات التليفزيون. وإلى أن يرجعوا في الصباح يكون الشيخ و"المجموعة القريبة" من أنصاره في غاية البؤس داخل الخيمة البيضاء الضخمة التي تتسع للآلاف.

بجوار خيمة مناهضة الفساد مباشرة، وفي موضع متاخم أسفل الغصون الممتدة من شجرة التمر الهندي العجوز، كانت ناشطة غاندية شهيرة أخرى قد ألزمت نفسها بالصيام حتى الموت بالنيابة عن آلاف المزارعين وأبناء القبائل الأصليين ممن استولت الحكومة على أراضيهم وخصَّصتها لشركة بتروكيماويات تقيم فيها منجم فحم ومحطة طاقة حرارية في البنغال. كان ذلك إضرابها التاسع عشر عن الطعام على مدار مسيرتها العملية. وبرغم أنها كانت امرأة جميلة الشكل ذات ضفيرة رائعة من شعر طويل، فقد كانت أقلّ شعبية لدى كاميرات التليفزيون من الشيخ. ولم يكن سبب ذلك خفيًا. فقد كانت شركة البتروكيماويات تمتلك أغلب المحطات التليفزيونية وتعلن بقوة في بقية المحطات. فكان

المُعلّقون الغاضبون يحلّون ضيوفًا على استديوهات التليفزيون ليدينوها ويلمحوا إلى أنها مموّلة من "قوة أجنبية". وكان عدد لا بأس به من المُعلّقين والصحفيين مسجَّلين في قوائم الرواتب لدى الشركة، ومن ثم فهم يبذلون أقصى ما في وسعهم لصالح رؤسائهم. ولكن على الرصيف، كان الناس المحيطون بها يحبونها. فكان شيوخ المزارعين يهشون عن وجهها البعوض. والفلاحات متينات البنيان يدلّكن قدميها وينظرن إليها بمحبة جارفة. وشباب الناشطين، وبعضهم طلبة شباب من أوربا وأمريكا يرتدون ثيابًا هيبية فضفاضة، يكتبون لها بياناتها الصحفية المعقدة على كمبيوتراتهم المحمولة. وكثير من المثقفين والمواطنين المهمومين يجلسون على الرصيف يشرحون حقوق الفلاحين لفلاحين يقاتلون منذ سنين مطالبين بحقوقهم. وكان طلبة الدكتوراه في الجامعات الأجنبية ممن يعملون على الحركات الاجتماعية (وهو موضوع عليه طلب فائق الحد) يُجرون حوارات مع الفلاحين، سعداء أن جاءهم بحثهم الميداني بنفسه إلى المدينة بدلاً من اضطرارهم إلى قطع الطريق الطويل إلى الريف حيث تنعدم المراحيض ويتعذّر الحصول على المياه المنقّاة.

كان نحو دزينة من الرجال البدناء ذوي الثياب المدنية وقصّات الشعر غير المدنية (القصيرة من الخلف والجنبين) والجوارب غير المدنية (فهي كاكية في أحذية بنية) قد نشروا أنفسهم وسط الجمع، يسترقون السمع بلا تخفٍّ. فمنهم من تظاهروا أنهم صحفيون وصوّروا الحوارات

بكاميرات صغيرة. وكانوا يبدون اهتمامًا خاصًا بالأجانب الشبان (الذين سيجد أكثرهم عمًا قريب أن تأشيرته قد ألغيت).

زادت كشّافات الإضاءة التليفزيونية الهواء الساخن سخونة، فمضت الفراشات الانتحارية تنفجر في الفوهات الشمسية لتفوح في الليل رائحة تفحّم الحشرات. وكان خمسة عشر شخصًا من المعاقين قد أخذوا -بعد تسوّل منهك كئيب طوال يوم حار- يحومون في العتمة خارج دائرة الإضاءة، مريحين ظهورهم الملتوية وأطرافهم الضائعة على ريكاشات يدوية من إنتاج الحكومة. وكان الفلاحون المشرّدون وزعيمتهم الشهيرة قد أزاحوهم عن مكانهم البارد الظليل في الرصيف الذي كانوا في العادة يعيشون فيه. فكان تعاطفهم كله منصبًا على صناعة البتروكيماويات، إذ يريدون أن ينتهي غضب الفلاحين بأسرع ما يمكن عساهم يستردون مكانهم مرة أخرى.

وعلى مسافةٍ كان رجلٌ عاري الصدر، يلصق ليمونًا أصفر على جسمه كله يشرب عصير مانجو ثقيلاً بصوت مرتفع من علبة ورقية. رفض أن يقول لماذا لصق الليمون بجلده أو لماذا كان يشرب عصير المانجو برغم أنه في ظاهر الأمر يروِّج لليمون، بل لقد كان يستاء من أي سائل. في حين كان يهيم وسط الجموع شخص يطلق على نفسه صفة "الفنان الأدائي" مرتديًا بذلة وربطة عنق وقبعة إنجليزية نصف كروية، ويبدو من بعيد أنه طبع على بذلته صورة كفتة الكباب، في حين يكشف النظر إليها من قريب أنها غائط محكم الأشكال. وكانت الوردة الحمراء المثبّتة في عروته قد اسودّت، ومن جيب سترته العلوي يظهر مثلث

منديل أبيض. ولما سئل عن رسالته، إذا به ـ في تناقض صارخ مع وقاحة رجل الليمون ـ يشرح في صبر أن جسمه هو آلته، وأنه يريد العالم مزعوم "التحضر" أن يفقد قرفه من الغائط ويتقبّل حقيقة أن الغائط ما هو إلا طعام معالج على نحو معين. والعكس صحيح. كما أوضح أنه يريد أن يخرج الفن من المتاحف ويأخذه إلى الناس.

جلست أنجم وصدام حسين وأستاذ حميد بجوار رجل الليمون (الذي أعرض عنهم كلّ الإعراض)، وبصحبتهم هيجرا صغيرة مذهلة الشكل اسمها عشرت، كانت قد حلّت ضيفة على نزل جنة قادمة للزيارة من مدينة إندور «في الغرب الأوسط من الهند». وطبعًا كانت أنجم هي التي اقترحت ـ بدافع من رغبتها القديمة في "مساعدة الفقراء" ـ مجيئهم إلى جَنْتر مَنْتر ليروا بأنفسهم ما حكاية "نضال الحرية الثاني" التي لا تكف قنوات التليفزيون عن بثّ أخباره. ولم ترق الفكرة لصدام فقال "ليس عليك قطع كل ذلك الطريق لتعرفي. أنا أقول لك الآن ـ إنه فضيحة الفضائح". لكن أنجم أصرّت، وبالطبع ما كان صدام ليتركها تذهب بمفردها. فكوّنوا فريقًا صغيرًا، من أنجم وصدام (ولم يزل مرتديًا نظارته الشمسية) ونِمّو الجوركهبورية. وسيق أستاذ حميد ـ الذي كان قد جاء لزيارة أنجم ـ إلى الحملة، وكذلك الشابة عشرت. قرروا أن يذهبوا في الليل حين يقلّ الزحام نسبيًّا. لبست أنجم إحدى سترتيها البتهانيتين الفاتحتين، وإن لم تقاوم وضع مشبك في شعرها وارتداء طرحة عليه وإضافة لمسة من طلاء الشفاه. أما عشرت فلبست وكأنها تلبس لزفافها، قميص كُرتا ورديًا فاقعًا مرصعًا بالترتر على سروال بتاليا أخضر.

وتجاهلت كل النصائح فوضعت طلاء شفاه ورديًا لامعًا وارتدت من الحلي ما يكفي ليضيء بريقه ظلام الليل. مضت نِمّو بأنجم وعشرت وأستاذ حميد في سيارتها. واتفق معهم صدام على أن يقابلهم هناك، وذهب إلى جَنْتر مَنْتر ممتطيًا بايال ثم ربطها في سور غير بعيد (ووعد صبيًا صغيرًا ممتلئ الخدّين يعمل في تلميع الأحذية بقطعتي شوكولاته وعشر روبيات إن هو أبقى عينيه عليها). أحسَّ صدام بضيق نِمّو الجوركهبورية فحاول التسرية عنها بفيديوهات الحيوانات على هاتفه ـ بعضها من تصويره لكلاب وقطط وأبقار ضالّة صادفها في رحلاته اليومية عبر المدينة، ومقاطع أخرى بعثها له أصدقاؤه عبر واتساب: **انظري، هذا الأخ اسمه السيد تشادها. لا ينبح مطلقًا. كلُّ يوم في تمام الرابعة عصراً يأتي إلى هذه الحديقة ليلاعب صاحبته. وهذه البقرة تعشق الطماطم. فآخذ لها بعضًا منها كلَّ يوم. وهذه عندها حالة هرش مستعصية. وهل رأيت هذا الأسد وهو واقف على ساقيه الخلفيتين يقبِّل هذه المرأة؟ صحيح، هي امرأة. وستعرفين هذا حينما تستدير** ... ولَمّا لم يكن في تلك المقاطع شيء عن التيوس أو الموضة النسائية الغربية، لم ينجح أيٌّ منها في التسرية عن نِمّو الجوركهبورية أو تبديد ضجرها فسرعان ما استأذنت للانصراف. أما أنجم في المقابل ففتنها الصخب واللافتات ونتف الحوارات التي كانت تصل إليها. فأصرّت على بقائهم لكي "يتعلموا شيئًا". فاستقرّ جمعهم الصغير على الرصيف شأن غيرهم. ومن مقرهم هنالك بعثت أنجم رسولها ـصاحب السعادة والسلطان المطلق صدام حسينـ بتنقّل من مجموعة إلى أخرى ليتلقط أخبارها،

فيعرف من أين هم، وعلام يحتجون، وما مطالبهم. ومضى صدام مطيعًا من كشك إلى كشك كأنما يتسوّق من سوق السياسة المستعملة، راجعًا بين الحين والآخر ومعه تقرير سريع إلى أنجم بما جمع من أفكار، بينما جلست هي متربّعة على الأرض، مائلة إلى الأمام، مصغية باهتمام، مومئة، مبتسمة ابتسامة خفيفة، وغير ناظرة إلى صدام وهو يتكلم وقد مضى رأسها يتلفّت، فتتوقف عيناها اللامعتان على كل مجموعة يكون كلامه عنها. ولم يكن لدى الأستاذ حميد أدنى اهتمام بما يجلبه صدام من معلومات، لكن الحملة كلها كانت تغييرًا محبّبًا لروتينه اليومي فرضي أن يكون جزءًا منها وبقي يدندن لنفسه وهو يتلفت حوله شارد الذهن. في حين بقيت عشرت -بلباسها النافر وزهوها العبثي- تلتقط صورًا لنفسها من زوايا عديدة وعلى خلفيّات متنوعة. ومع أن أحدًا لم يلتفت إليها كثيرًا (فلم يكن من منافسة بينها وبين الطفل الشبح)، فقد حرصت ألا تنأى كثيرًا عن قاعدتهم. وفي لحظة ما غرقت هي والأستاذ حميد في نوبة قهقهات أليق ببنات الثانوي. ولما سألتهما أنجم عما يضحكهما، قال أستاذ حميد إنهما يضحكان من أحفاده الذين علموا جدتهم أن تناديه (وهو زوجها) بقولها "بلادي فاكنج بيتش" "قحبتي الدموية اللعينة" قائلين لها إن ذلك نداء تدليل ومحبة في الإنجليزية.

قال أستاذ حميد ضاحكًا "لم تكن لديها فكرة عما تقوله، لكنها بدت شديدة العذوبة وهي تقولها. بلادي فاكنج بيتش. هكذا تناديني الست الآن".

سألت أنجم "وما معنى ذلك؟" (كانت تعرف أن بيتش تعني قحبة، لكنها لم تكن تعرف معنى بلادي وفاكنج). وقبل أن يتسنى للأستاذ حميد أن يشرح لها (وإن كان هو نفسه غير واثق تمام الثقة من المعنى، فكلّ ما كان يعرفه أنها قول سيئ)، قاطعه شابٌ ملتحٍ طويل الشعر يرتدي ثيابًا خفيفة ورثّةً وشابةٌ لا تقل ثيابها رثاثة ذات شعر رائع جامح تركته محلولاً. كانا يصوِّران فيلمًا تسجيليًا عن المظاهرة والمقاومة، حسبما قالا، وكان من الثيمات المتكررة في الفيلم أن يطلبا من المتظاهرين أن يقولوا بأي لغة يجيدونها "هناك عالم آخر ممكن"، فلو أن لغتهم هي الهندية على سبيل المثال أو الأردية، فبوسعهم أن يقولوا "دوسري دنيا ممكن هاي...". وضعا الكاميرا وهما يتكلمان وطلبا من أنجم أن تنظر مباشرة إلى العدسة وهي تتكلم. كانا لا يعرفان ما الذي تعنيه "الدنيا" في معجم أنجم. وأنجم من جانبها لم تفهمهما مطلقًا، فنظرت إلى الكاميرا وقالت بتأن شديد "هوم دوسري دنيا سي آيي هاين". وشرحت في صبر معنى ذلك "نحن آتون أصلاً من هناك... من العالم الآخر".

كانت أمام السينمائيين ليلة طويلة من العمل الشاق، فتبادلا النظر وقرَّرا أن ينصرفا عنها بدلاً من أن يشرحا ماذا يعنيان خشية أن يستغرق ذلك وقتًا طويلاً. فشكرا أنجم وانتقلا إلى الرصيف المقابل وما عليه من جماعات أخرى وخيام.

وعلى مقربة من الرجال الصلع، في جزء مهم من الرصيف، كان يوجد خمسون ممثلاً لآلاف البشر الذين تشوهوا في تسريب غاز بونيون

كارباید سنة ١٩٨٤ في بهوبال. كانوا على الرصيف منذ أسبوعين. سبعة منهم في إضراب مفتوح عن الطعام وحالتهم تتدهور باطّراد. كانوا قد قطعوا الطريق الطويل من بهوبال إلى دلهي سيرا على الأقدام، أي مئات الكيلومترات تحت لظى شمس الصيف، ليطالبوا بالتعويض: بالمياه النظيفة والرعاية الطبية لهم ولأجيال من الأطفال المشوهين الذين احترقوا من جراء تسريب الغاز. كان الأرنب المحبوس قد رفض مقابلة أهل بهوبال، ولم تكن أطقم القنوات التليفزيونية مهتمة بهم، إذ كان كفاحهم قديمًا ومن ثم غير صالح لتصدر الأخبار. وكانت صور الأطفال المشوهين والأجنة المجهضة المشوهة في زجاجات الفورمالديهايد والآلاف ممن تعرضوا للموت أو الإعاقة أو العمى في تسريب الغاز، مُعلّقة في خيوط على الأسوار الحديدية. وعلى شاشة تليفزيونية صغيرة (أوصلوها بالكهرباء من كنيسة مجاورة) تعرض بلا توقف مشاهد قديمة ضعيفة الجودة: الشاب الأنيق وارن أندرسن الرئيس التنفيذي الأمريكي لشركة يونيون كارباید يصل إلى مطار دلهي بعد أيام من الكارثة، يقول للصحفيين المتدافعين "أنا وصلت الآن فقط، ولست على علم بالتفاصيل حتى الآن، فماذا؟ ماذا تريدونني أن أقول؟" ثم ينظر مباشرة إلى كاميرات التليفزيون ويقول "هاي ماما".

ومرة بعد الأخرى طوال الليل مضى يقول "هاي ماما، هاي ماما، هاي ماما، هاي ماما، هاي ماما..."

وعلى لافتة قديمة بهتت إثر عقود من الاستعمال كُتب "وارن أندرسن مجرم حرب". بينما لافتة أحدث تقول إن "وارن أندرسن قتل من الناس أكثر ممن قتلهم أسامة بن لادن".

وبجوار أهل بهوبال كان اتحاد دلهي لمدوِّري القمامة واتحاد عمال المجاري، يحتجّون على خصخصة القمامة والمجاري في المدينة. وكانت الشركة التي تقدمت بالعطاء وفازت بالتعاقد هي الشركة التي حصلت على أراضي الفلاحين لتقيم عليها محطة توليد الطاقة. وهي الشركة التي كانت تدير بالفعل توزيع المياه والكهرباء في المدينة. فباتت الآن تمتلك أيضًا نظام التخلص من غائط المدينة ونفايتها.

وبجوار مدوِّري القمامة وعمال المجاري بالضبط، كان الجزء المخملي من الرصيف: مرحاض عام متألق بمرايا وأرضية لامعة من الجرانيت. كانت مصابيح المرحاض تبقى مضاءة ليل نهار. كانت رسومه روبية للتبول، وروبيتين للتغوط، وثلاثة للاستحمام. ولم يكن بوسع الكثيرين على الرصيف أن يتحملوا تلك التكلفة. فكان كثيرون يتبولون خارج المرحاض، أمام الجدار. وهكذا برغم أن الحمام كان شديد النظافة من الداخل، فقد كانت له من الخارج رائحة دخانية حارقة لا تليق إلا بمبولة عامة. ولم تبال بذلك إدارة المرحاض، إذ كان عائده يأتي من مكان آخر، فجداره الخارجي كان عبارة عن مساحة إعلانية تعلن كلَّ أسبوع عن شيء جديد.

في هذا الأسبوع كان الإعلان عن سيارة هوندا الفارهة الجديدة. واللافتة الإعلانية كان لها حارسها الخاص، جولابيا فيتشانيا الذي يعيش أسفل وقاء بلاستيكي أزرق مجاور للافتة. فكانت سكناه هناك نقلة متقدمة عن المكان الذي بدأ منه. فحينما وصل جولابيا إلى المدينة للمرة الأولى، فرارًا من الرعب الدنيء والحاجة أيضًا، عاش في شجرة. وها هو بانت لديه وظيفة وما يشبه المأوى. وكان اسم شركة الأمن التي يعمل لحسابها منقوشًا على كتفي قميصه الأزرق المبقع: ت س ج س للأمن (وهي شركة منافسة لشركة س س ج س المملوكة لـ مدام سنجهنا القحبة بنت الحرام). كانت وظيفته بالدرجة الأساسية هي منع التخريب والمساعي المتكررة من بعض الأوغاد للتبول على اللافتة مباشرة. كان يعمل سبعة أيام في الأسبوع، لاثنتي عشرة ساعة في اليوم. وفي تلك الليلة كان جولابيا سكران فغلبه النوم، وجاء من كتب برذاذ الطلاء على هوندا سيتي الفضية "انقلاب زندبادا" أي "تحيا الثورة"، ثم جاء من كتب تحت ذلك قصيدة:

أنتم خطفتم لقمة الفقراء..

وفرضتم رسمًا على المحصور..

لن يحلَّ الصباح إلا ويفقد جولابيا وظيفته، ليصطفَّ آلاف من أمثاله راجين أن يحلوا محله (ولعل من بينهم الشاعر الذي كتب القصيدة

شخصيًا). أما الآن فجولابيا مستغرق في النوم العميق ويحلم، وفي حلمه لديه من المال ما يكفي طعامه ويفيض فيبعث قليلاً من النقود لأهله في القرية، فالقرية في حلمه لم تزل موجودة، وليست في قاع بحيرة وراء سدّ، يعوم السمك عبر شبابيك بيته، والتماسيح لا تنهش الغصون العالية في شجر القطن الحريري، والسياح لا يمخرون حقوله بالقوارب تاركين في السماء غيومًا قزحية من عوادم الديزل، وفي حلمه لم يكن شقيقه لواريا مرشدًا سياحيًا في الموقع يستعرض المعجزات التي أحدثها السد، ولا تعمل أمه خدامة في بيت مهندس بالسد أقيم على أرض كانت ملكًا لها في يوم من الأيام، ولا هي مضطرة أن تسرق ثمار المانجو من أشجارها، ولا تعيش داخل مخيم إيواء في كوخ صفيح ذي جدران صفيحية وسقف صفيحي يكاد من فرط سخونته يصلح لقلي البصل. وفي حلم جولابيا كان نهره لم يزل يتدفق، لم يزل على قيد الحياة، والأطفال يجلسون عراة على صخوره، يعزفون على النايات ويغطسون في الماء سابحين وسط الجاموس عندما تشتد حرارة الشمس، وفي غابة شجر السال التي تكسو التلال المحيطة بالقرية فهد وأيل ودب كسول، ويأتي أهله في أوقات الاحتفالات فيجتمعون بطبولهم ليشربوا ويرقصوا طوال أيام وأيام.

كل ما بقي له الآن من حياته القديمة ذكرياته، ونايه، وقرطه الذي ليس مسموحًا له بارتدائه خلال ساعات العمل.

خلافًا لجولابيا فيتشانيا عديم الإحساس بالمسؤولية، الذي أخفق في القيام بواجب حماية هوندا سيتي الفضية، كان جاناك لال شارما، عامل

المرحاض، مفنجل العينين، مجتهدًا في العمل. محدِّثًا سجله مثني الصفحات، مرتِّبا النقود في محفظته بحرص، وفقًا لفئاتها، فضلاً عن جراب منفصل للعملات المعدنية. وكان يضيف إلى راتبه بأن يسمح للنشطاء والصحفيين ومصوري التليفزيون بشحن هواتفهم وكمبيوتراتهم وبطاريات الكاميرات من كهرباء المرحاض بثمن ستة استحمامات وتغوط (أي بعشرين روبية)، فضلاً عن سماحه في بعض الأحيان للناس أن يتغوطوا بثمن التبول دون أن يسجل ذلك في دفتره. وكان في أول الأمر حريصًا بعض الشيء مع النشطاء المناهضين للفساد. (لم يكن يصعب تمييزهم، إذ كانوا أقلّ فقرًا وأكثر عدوانية من غيرهم. ومع أن أغلبهم كانوا على شيء من الأناقة يرتدون الجينز والتيشيرت، فقد كان معظمهم يرتدون طاقية غاندي البيضاء وقد طُبعت عليها صورة ذهبية لوجه الطفل الشيخ بابتسامة طفل فيريكس الإعلاني). كان جاناك لال شارما يحرص أن يطلب منهم الأثمان الدقيقة ويسجل طبيعة النشاط الذي يقوم به كل منهم داخل المرحاض بدقة وحرص. ولكن البعض منهم، لا سيما الدفعة الثانية من الوافدين الجدد ممن كانوا أكثر عدوانية حتى من الدفعة الأولى، استاؤوا من دفعهم أكثر من الآخرين. فسرعان ما طُبِّقت عليهم أيضًا أعراف العمل المعتادة. وبدخله الإضافي أمكنه أن يوكل مهام تنظيف المرحاض -التي لم يكن معقولاً أن يقوم بها رجل من طبقته وهو البرهمي- إلى سوريش بالميكي الذي كان ينتمي كما هو واضح من اسمه إلى من يعتبرهم الهندوس علنًا ونعتبرهم الحكومة سرًا طبقة منظِّفي الغائط. ومع تزايد الاضطراب في البلد، واستمرار

الفيضان اللا نهائي من المتظاهرين الوافدين على الرصيف، وازدياد التغطية التليفزيونية، كان بإمكان جاناك لال -برغم ما يدفعه لسوريش بالميكي- أن يدخر ما يكفي لمقدم شقة من شقق الفاء ميم دال.

أمام المرحاض، رجوعًا إلى جانب الطريق الذي يحتله الفريق التليفزيوني (وإن يكن على مسافة أيديولوجية واضحة) ما أطلق عليه الناس الحد: هنالك قَوْمِيُّو مانيبوري يطالبون بإلغاء قانون السلطات الخاصة للقوات المسلحة الذي شرّع للجيش الهندي القتل بـ"الاشتباه"، وهناك لاجئو التبت المنادون بحرية التبت، وهناك الأكثر استثنائية (والأكثر خطورة عليهم) أي اتحاد أمهات المختفين الذين فُقِد أثر أبنائهن -وهم بالآلاف- أثناء الحرب من أجل حرية كشمير. (فكان أمرًا مثيرًا للتوتر من ثم أن يذاع طول الوقت صوت يقول "هاي ماما! هاي ماما! هاي ماما!" لولا أن أمهات المختفين لم ينتبهن لتلك الجلبة إذ لم يكنّ يعرفن أنفسهنّ بماما بل بـ مُوج، أي ماما في لغة كشمير).

تلك كانت زيارة الاتحاد الأولى إلى العاصمة الكبرى. لم يكنّ جميعًا أمّهات، فقد جاءت كذلك زوجات للمختفين وأخوات وبضع بنات صغيرات. وكلٌّ منهنّ تحمل صورة للمختفي، ولدًا كان أو أخًا أو زوجًا. ولافتتهن كانت تقول:

قصة كشمير

موتى = ٦٨٠٠٠

أهذا بلد ديموقراطي أم شيطانقراطي؟

لم تُشِرْ كاميرا تليفزيونية إلى اللافتة، ولو عن طريق الخطأ. فأغلب المشتركين في نضال الهند الثاني من أجل الحرية ما كانوا يشعرون بأقلّ من الغضب العارم على فكرة حرية كشمير واجتراء نساء كشمير.

كان الإنهاك قد نال من بعض الأمّهات، شأن ضحايا تسريب الغاز في بهوبال. فقد حكين حكاياتهن في اجتماعات لا نهاية لها وفي محاكم أقيمت في دكاكين الحزن الدولية، بجانب ضحايا آخرين في حروب أخرى وبلاد أخرى. بكين على مرأى من الناس، دون أن يثمر ذلك في أغلب الحالات عن أي شيء، حتى تحولت الأهوال التي مررن بها إلى صَدَفَة مريرة صلبة.

تبيَّن أن رحلة دلهي تجربة تعيسة أخرى للاتحاد. فقد جوبهت النساء بأسئلة مزعجة وتهديدات في المؤتمر الصحفي الذي عقدنه على قارعة الطريق عند العصر حتى اضطُرت الشرطة إلى التدخل وتطويق المكان حول الأمهات. صاح جنكشارية متنكرون من فيلق لالاً الجُجرات قائلين إن "الإرهابيين المسلمين لا يستحقون حقوق الإنسان! لقد رأينا على أيديكم الإبادة الجماعية! لقد واجهنا منكم التطهير العرقي! أهلنا يعيشون بسببكم لاجئين منذ عشرين سنة!". وبصق بعض الشباب على

صور الموتى والمفقودين من رجال كشمير. كان المقصود من "الإبادة الجماعية" و"التطهير العرقي" هو النزوح الجماعي للبراهمة من وادي كشمير حينما تحول نضال الحرية إلى عمل عسكري في تسعينيات القرن العشرين وتحول بعض المقاتلين المسلمين إلى مهاجمة أقلية السكان الهندوس. تعرّض المئات والمئات من الهندوس لمذابح رهيبة، فلما أعلنت الحكومة أنها غير قادرة على ضمان أمنهم إذا بجميع هندوس كشمير تقريبًا، وهم نحو مئتي ألف شخص، يهربون من الوادي متنقلين إلى مخيمات اللاجئين في سهول جامّو التي لا يزال كثير منهم مقيمين فيها إلى الآن. وكان عدد قليل من جنكشارية **لالأ** على الرصيف في ذلك اليوم من هندوس كشمير الذين فقدوا بيوتهم وعائلاتهم وكلّ ما كانوا يعرفونه.

ولعل الأكثر إيذاءً للأمهات من مناوشات الباصقين هن البنات الثلاث، الجامعيات المتأنقات النحيلات نحول أقلام الرصاص، اللاتي مررن بهن في صباح ذلك اليوم وهن في طريقهن للتسوق من كونو بالاس. "أوه، واو، كشمير! يا إلهي! الظاهر أن الوضع هناك الآن طبيعي تمامًا، نعم، وآمن للسياح. لم لا نذهب؟ يقولون إنها مذهلة".

كان قرار اتحاد الأمهات هو أن يمضين الليلة على أي نحو ثم لا يرجعن إلى دلهي بعدها أبدًا. كان النوم في الشوارع تجربة جديدة عليهن. فلديهن جميعًا في وطنهن بيوت جميلة وحدائق خلفية يزرعن فيها خضراواتهن، تناولن في تلك الليلة وجبة هزيلة (وكانت تلك أيضًا

تجربة جديدة عليهن)، وبرمن لافتهن، وحاولن أن ينمن في انتظار طلوع النهار، متلهفات على بدء رحلتهن إلى واديهن الجميل، الذي مزقته الحرب.

ولقد حدث هناك، بجوار أمهات المختفين مباشرة، أن ظهرت طفلتنا الهادئة. مرَّ وقت قبل أن تلاحظها الأمهات، فقد كان لها مثل لون الليل. كانت غيابًا مرسومًا بدقة وسط الظلال الممتدة أسفل مصباح الشارع. عشرون عامًا وأكثر من الملاحقات الأمنية وعمليات التطويق والتفتيش وطرق الأبواب في جنح الليل (عملية النمر، عملية دهس الأفعوان، عملية القنص والقتل) كانت قد علّمت أولئك الأمهات أن يقرأن الظلام. ولكن حينما كان الأمر يتعلّق بالأطفال، ما كانت أولئك الأمهات يألفن غير نوع واحد منهم، نوع الأطفال الشبيهين ببراعم اللوز ذوي الخدود التفاحية. فلم تدر أمهات الغائبين ماذا هن فاعلات بطفلة ظهرت ذلك الظهور.

خاصة أن الطفلة طفلة سوداء.

كروهون كال.

خاصة أنها بنت سوداء.

كروهون كال هيش.

خاصة أنها ملفوفة في قماط

من نفايات القماش.

تنقّلت الهمسة على الرصيف كأنها طرد. وتحوّل السؤال إلى إعلان: "ابنة من هذه؟"

صمت.

ثم قالت قائلة إنها رأت الأم تتقيأ في الحديقة عند العصر. وقالت أخرى "أوه، لا، تلك كانت واحدة أخرى".

قالت امرأة إنها كانت متسولة. وقالت أخرى إنها ضحية اغتصاب (وكانت تلك مجرد مفردة من مفردات لغة الحياة اليومية).

وقالت امرأة إنها كانت مع المجموعة التي جاءت في أول اليوم لجمع توقيعات من أجل إطلاق سراح المساجين السياسيين. وأشيع أنها منظمة تعمل بمثابة جبهة للحزب الماوي الذي كان يخوض حرب عصابات في غابات وسط الهند. وقالت أخرى "أوه، لا، تلك لم تكن هي. فهي كانت وحدها. وكانت هنا منذ بضعة أيام".

وقالت امرأة إنها كانت عشيقة سابقة لسياسي طردها بعد أن حملت.

وأجمع الكل على أن رجال السياسة كلهم أبناء قحاب. ولكنه إجماع لم يسهم في حل المشكلة:

أخيرًا، بدأت الطفلة الهادئة تصيح، ربما لأنها أدركت أنها باتت مركز الاهتمام، أو لأنها شعرت بالخوف. حملتها امرأة (قيل عنها لاحقًا إنها كانت طويلة، وقصيرة، وسوداء، وبيضاء، وجميلة، وقبيحة، وعجوزًا، وشابة، وغريبة، ومألوفة الوجه في جَنْتر مَنْتر). كانت ورقة مطوية طيات كثيرة حتى باتت مُكعبًا، ولصقت من أحد جوانبها، وخيطت بخيط أسود سميك ربط حول وسط الصغيرة. فتحت المرأة (الجميلة، القبيحة، الطويلة، القصيرة) الورقة وأعطتها لمن يقرأها. كانت فيها رسالة مكتوبة بالإنجليزية ولا لبس فيها: **لا أستطيع رعاية هذه الطفلة. لذلك أتركها هنا.**

وأخيرًا، بعد كثير من الهمهمات والمشاورات، قرَّر الناس في تردّد وحزن وعلى مضض أن أمر الطفلة يخص الشرطة.

وقبل أن يتمكن صدام من إيقاف أنجم، كانت هذه قد قامت وبدأت تمشي بسرعة نحو الجمع الذي تحول في ما يبدو إلى **اللجنة العفوية من أجل سلامة الطفلة**. كانت أطول برأس من أغلب الناس، فلم يكن تتبعها صعبًا. وفيما هي سائرة وسط الجمع، كانت الجلاجل حول كاحليها، وإن اختفت وراء سروالها الخفيف الفضفاض، تجلجل تَشَهَن

تَشَهَن تَشَهَن، فصار صدام الذي ارتاع بغتة يسمع تلك التَشَهَن تَشَهَن تَشَهَن كأنها طلقات رصاص. أضاء مصباح الشارع الأزرق ظل شعر اللحية الأبيض الخفيف النابت في بشرة أنجم الداكنة المنقورة وقد باتت تلمع بفعل العرق. في حين كانت أرنبة أنفها العظيم تلمع هي الأخرى منحنية انحناءة منقار طائر جارح. بدا أن فيها شيئًا انفك إساره، غير ملموس، وأكيد الحضور مع ذلك، شيئًا كأنه إحساس بالمصير.

بصوتيها معًا، منفصلين ومتحدين في آن واحد، بالخشن منهما والعميق، متمايزين ومنصهرين، قالت أنجم "الشرطة؟ هل نعطيها نحن للشرطة؟" وبدا نابها الأبيض لامعًا براقًا وسط بقايا أسنانها المحمرّة من مضغ التنبول.

كان في قولها "نحن" تضامن وعناق. وقوبل بالطبع بإساءة فورية.

قال ظريفٌ من المجتمعين "لماذا؟ ما الذي سوف يفعله مثلك بها؟ ليس بوسعكم أن تحيلوها إلى واحدة منكن، أم ماذا؟ التكنولوجيا الحديثة فعلت الكثير من المعجزات، لكنها لم تصل إلى ذلك الحد بعد ...". كان يقصد اليقين المنتشر بين أكثر الناس بأن الهيجرات يختطفن الأطفال الذكور ويخصينهم. وأثارت دعابته دوامة رخوة من الضحك.

لم تهتز أنجم أمام سوقية التعليق. تكلمت بقوة لها وضوحُ الجوع والحاجة.

"إنها هبة من الرب. أعطوها لي. وأنا أمنحها من الحب ما تحتاج إليه. غاية ما ستفعله الشرطة هو أن ترميها إلى ملجأ حكومي، وسوف تموت فيه".

في بعض الأحيان قد ينال وضوح شخص واحد من تخبط حشد بأكمله. وفي هذه الحالة، ذلك ما فعلته أنجم. فالذين فهموا كلامها شعروا بشيء من الخوف من فصاحة لغتها الأردية التي رأوا أنها تتعارض مع الطبقة التي افترضوا أنها تنتمي إليها.

"أمها لم تتركها هنا إلا وهي تظن مثلما أظن أن هذا هو كربلاء زماننا، هو ساحة معركة من أجل العدل، معركة الخير ضد الشر. لا بد أنها حدثت نفسها بأن 'هؤلاء الناس مقاتلون، وهم خير مقاتلي العالم، وأحدهم سوف يعتني بالطفلة التي لا أقدر أنا على الاعتناء بها' وتريدون أنتم استدعاء الشرطة؟". ومع أنها كانت غاضبة، ومع أن قامتها كانت بطول ستة أقدام، وأن لها كتفين عريضين قويين، فقد كان في حديثها دلال مفرط، وفي إشارات يديها غنج لا يليقان بغير محظية في مدينة لوكناو في ثلاثينيات القرن العشرين.

كان صدام حسين يتأهب لشجار. وعشرت وأستاذ حميد جاءا ليفعلا ما في وسعهما.

"من أعطى أولئك المهجرات الإذن بالجلوس هنا؟ إلى أيٍّ من هذه النضالات ينتمون؟"

كان السيد أجاروال رجلاً نحيلاً في منتصف العمر ذا شارب محفوف، يرتدي قميص سفاري، وبنطالاً من القطن الوبري، وطاقية غاندية مشجرة كتب عليها أنا ضدّ الفساد فماذا عنك؟ وفيه جفاف وسلطة ينمّان عن موظف عتيد، وذلك بالفعل ما كانه حتى وقت قريب. إذ كان قد قضى أغلب حياته الوظيفية في مصلحة العوائد إلى أن جاء يوم ونالت منه نزوة بعدما سئم نخْر السوس في عظام النظام، فاستقال من وظيفته الحكومية من أجل "خدمة الأمة". وانشغل لسنوات قليلة بإصلاح أهداب أعمال الخير والخدمات الاجتماعية، لكنه الآن، بوصفه الرجل الثاني في حركة الغاندي القصير اليدين، حظي بشيء من الأهمية وأخذت صورته تظهر في الجرائد كلّ يوم. وكان الكثيرون يعتقدون (عن حقّ) أن السلطة الحقيقية لديه هو، وأن الشيخ لا يعدو تميمة كاريزما، أو أجيرًا ملائمًا لمتطلبات الوظيفة، وأنه بدأ الآن يتجاوز حدود اختصاصاته. فأخذ أصحاب نظرية المؤامرة المقيمون على حواف جميع الحركات السياسية يتهامسون بأن ثمة من يتعمّد تشجيع الشيخ على إبراز نفسه، وتلوينها حتى يقع في شرّ أعماله وتأخذه العزّة بالإثم فيمنعه كبرياؤه من التراجع. ومضت الشائعات تقول إنه إذا مات الشيخ جوعًا، وعلى الهواء مباشرة، فسوف يكون للحركة شهيد، وتكون تلك انطلاقة لا نظير لها للمسيرة السياسية لمستر أجاروال. كانت شائعة كريهة وكاذبة. فقد كان مستر أجاروال حقًّا هو الرجل الواقف وراء الحركة، لكن حتى هو فزع من الاهتياج الذي تسبّب فيه الشيخ الغاندي، وهو وإن ركب الموجة، لم يتآمر من أجل انتحار مدبَّر على

مرأى ومسمع من الناس. في غضون شهور قليلة سوف يتخلص من تميمته ويمضي ليصبح واحدًا من الساسة الرسميين الذين يظهر فيهم من السمات ما كان ينبذه في يوم من الأيام، ويصبح خصمًا هائلاً للالاً الجُجرات.

كانت ميزة مستر أجاروال الفريدة كسياسيٍّ ناشئ هي عدم تفرده في شكله، إذ كان شبيها بكثير من الناس، فكلُّ ما فيه، من طريقة لبسه، وطريقة كلامه، وطريقة تفكيره، منتظم منضبط مرتب أنيق. كان جهير الصوت، ذا أسلوب واقعي مبسّط إلا حينما يواجه الميكروفون. فعندئذ كان يتحوّل إلى إعصار غاضب جامح من الإيمان المخيف بصواب رأيه. وكان يرجو من تدخله في أمر الطفلة أن يجهض شجارًا عامًا آخر (كذلك الذي نشب بين أمهات كشمير وفيلق الباصقين) من شأنه أن يحرف انتباه الإعلام عن القضايا الحقيقية من وجهة نظره. فقال منذرًا الجمهور المتزايد بسرعة "إن هذا نضالنا الثاني من أجل الحرية. بلدنا على شفا الثورة. لقد تجمع الآلاف هنا بعدما جعل الساسة الفاسدون حياتنا لا تطاق. ولو حلَلْنا مشكلة الفساد لصار بوسعنا أن نمضي ببلدنا إلى ذرى جديدة، بل إلى قمة العالم مباشرة. هذا مكان للسياسة الجادة وليس حلبة سيرك". ووجَّه كلامه إلى أنجم دون أن ينظر إليها "هل لديك تصريح من الشرطة بالوجود هنا؟ كل شخص لا بد أن يحصل على تصريح لكي يوجد هنا". فنظرت إليه من عليائها، ولم يكن لرفضه النظر إلى عينيها من معنى إلا أنه يخاطب نهديها مباشرة.

أخطأ السيد أجاروال تمامًا في تقدير الجوّ، وأساء تقييم الوضع أشدَّ الإساءة. فلم يكن أيٌّ من المجتمعين متعاطفًا معه على الإطلاق. فكثير منهم كانوا يمقتون استيلاء نضاله من أجل الحرية على كل الاهتمام الإعلامي بما يقضي على نضالاتهم جميعًا. وأنجم، من جانبها، كانت لاهية عن الحشد كله أصلاً. فلم يكن يعنيها على من ينصبّ التعاطف. كان شيء ما قد اشتعل بداخلها وملأها شجاعة وتصميمًا.

"تصريح الشرطة؟" ما كان لكلمتين أن تنطقا بمثل ذلك القدر من القرف. "هذه طفلة، وليست اعتداء غير قانوني على أرض أبيك. الجأ أنت إلى الشرطة أيها السيد. أما نحن فنسلك الطريق الأقصر ونلجأ مباشرة إلى العليّ القدير". كان ثمة وقت، قبل ترسيم خطوط المعركة، ليهمس فيه صدام بصلاة شكر لاستعمالها كلمة عامة هي خودا -أي إله- في الإشارة إلى الرب بدلاً من "ربنا الله" الخاصة المحددة.

تأهّب الخصمان.

أنجم والمحاسب.

ويا لها من مواجهة!

المفارقة أن كلاً منهما في تلك الليلة كان على الرصيف هاربًا من ماضيه ومن كل ما طوّق حياته حتى ذلك الحين. ومع ذلك، ومن أجل التسلح للمعركة، لاذ كل واحد منهما بما كان يسعى إلى الهرب منه، بما كان يألف، بما كان إياه.

هو، الثوري حبيس عقل الحاسب. وهي، المرأة، حبيسة جسد الرجل. هو الغاضب على عالم مختل السجلات. وهي الغاضبة على غددها وأعضائها وبشرتها ونسيج شعرها، وعرض كتفيها، ونبرة صوتها. هو، المقاتل لفرض السلامة المالية على نظام منخور. وهي الراغبة في اقتلاع نجوم السماء ودقّها وطحنها وإحالتها ترياقًا يهبها ما يليق بها من نهدين وردفين، وشعر طويل كثيف سارح متمايل من جنب إلى جنب وهي تمشي. والشيء الذي كانت تتوق إليه أكثر مما تتوق إلى أي شيء، الشيء الأكثر حضورًا في مخزون السباب في مدينة دلهي، شتيمة الشتائم، كانت تتوق إلى ما كي تشوت، إلى السباب بفرج الأم. هو الذي قضى عمره يتعقب المتهربين من الضرائب، ويحارب التربح وصفقات المحاسيب. وهي التي عاشت سنين طويلة في المقابر العتيقة عيش شجرة، تتوافد عليها في الصباحات الفارغة والمساءات المتأخرة أرواح الشعراء القدامى الذين تحبهم، غالب ومير وذوق، فيلقون أشعارهم، ويشربون، ويتجادلون، ويقامرون. هو الذي يملأ الاستمارات ويضع العلامات في الخانات. وهي التي لم تدْرِ قط في أي الخانتين تضع العلامة، وفي أي الصفين تقف، وفي أي المرحاضين العموميين تدخل (الملوك أم الملكات؟ السادة أم السيدات؟ الرجال أم النساء؟). هو الذي آمن دائمًا بصوابه. وهي التي علمت أنها دائمًا وأبدًا على خطأ. هو الذي يقلّصه يقينه. وهي التي يُرْبيها غموضها. هو الراغب في القانون. وهي الراغبة في طفلة.

تحلّق حولهما الناس: غاضبين، فضوليين، مقيّمين للخصمين، متحزّبين بينهما. لا يهم. أي محاسب غاندي متغطرس له نصيب من الحظ في جحيم مواجهة علنية ثنائية أمام هيجرا دهية عجوز؟

انحنت أنجم جاعلة وجهها على مسافة قبلة من وجه مستر أجاروال.

"آي هاي، ما لك غاضب هكذا يا حبيبي؟ ألن تنظر إليّ؟"

شدَّ صدام حسين على قبضتيه. أمسكت به عشرت. وتنفست بعمق ثم نزلت الحلبة لتتدخل تدخل المتمرّسات، بالطريقة التي لا تعرفها إلا الهيجرات حينما يكون عليهنّ أن يحمين بعضهن بعضًا، فيعلنّ الحرب والسلام في الآن نفسه. وإذا بلباسها الذي بدا عبثيًا قبل سويعات قليلة هو أنسب ما كانت تحتاج إليه في تلك اللحظة. بدأت تصفيقة الهيجرات بالكفوف منفرجة الأصابع وانطلقت ترقص وتحرك ردفيها بفحش وتدير طرحتها، موجهة طبيعتها الفاحشة العدوانية إلى إهانة السيد أجاروال الذي لم يخض طوال عمره معركة شوارع حقيقية. فظهرت مناطق بليلة في إبطي قميصه.

انطلقت عشرت في أغنية تعرف أن الحاضرين يعرفونها - من فيلم عنوانه الملكة المحبوبة، خلّدته الممثلة الجميلة ريخا.

لماذا قلبي فقط، خذ عمري كلّه

حاول شخص أن يدفعها عن الرصيف، فانتقلت إلى منتصف الشارع الفارغ العريض مستمتعة بنفسها وقد باتت تحجل على خطوط الأسفلت البيضاء والسوداء المتقاطعة تحت مصابيح الشارع. ومن الجانب المقابل من الطريق بدأ شخص يعزف الإيقاع على طبلة دفلي، وانضمّ الناس مشاركين في الغناء. نعم، كان عندها حق، الناس جميعًا يعرفون الأغنية.

لكن حقّق لي هذه المرة فقط أمنيتي يا حبيبي

كان يمكن أن تكون أغنية المحظيات تلك، أو ذلك البيت وحده على الأقل، نشيدًا وطنيًا لكل شخص تقريبًا من الحاضرين في ذلك اليوم بجَنْتر مَنْتر. فكلُّ من كانوا هناك ما كانوا هناك إلا لاعتقادهم أن ثمة من يهتم، ومن ينصت. أن شخصًا ما سوف يمنُّ عليهم بالإنصات.

. . .

واندلع شجار. ربما لأن شخصًا قال قولاً فاحشًا. ربما ضربه صدام حسين. ما حدث ليس واضحًا تمام الوضوح.

هبَّ أفراد الشرطة المسؤولون عن الرصيف من نومهم وانهالوا بعصيهم على كل من طالته. ووصلت سيارات الدورية الجيب التابعة للشرطة (معكم، ولكم، دائمًا) بأضوائها الساطعة وصيحات شرطة دلهي

الخاصة: مادير تشود بيهين تشود ما كي تشوت بيهين كا لاودا، **أمك قحبة أختك قحبة قضيب أمك قضيب أختك.**

تزاحمت كاميرات التليفزيون. ووجدت الناشطة التي وصلت إلى يوم صيامها التاسع عشر الفرصة سانحة لها. اخترقت الجمع والتفتت إلى الكاميرات بعلامتها المميزة، وقبضتها المتنمِّرة، وحصافتها السياسية التي لا تخيب واستولت على العصي من أجل أهلها.

سنحتمل العصي والرصاص!

وردَّ أهلها:

بنضالنا نبقى

لم تستغرق الشرطة وقتًا طويلاً كي تستعيد النظام. وكان بين من جرى اعتقالهم واقتيادهم إلى شاحنات الشرطة السيد أجاروال وأنجم والأستاذ حميد المرتعش والعمل الفني الأدائي الحي ذو البدلة البرازية (وكان رجل الليمون قد أخفى نفسه تمامًا). وتمَّ الإفراج عنهم في الصباح التالي دون توجيه تهم لأيٍّ منهم.

وفي ذلك الوقت كان شخصٌ ما قد تذكّر كيف بدأ كل ذلك الأمر. والطفلة كانت اختفت.

٤

دكتور آزاد بهارتيا

آخر شخص رأى الطفلة هو دكتور آزاد بهارتيا الذي كان قد بدأ للتو، وفقًا لحساباته الشخصية، العام الحادي عشر والشهر الثالث واليوم السابع من إضرابه عن الطعام. بات دكتور بهارتيا شديد النحول حتى ليوشك أن يعدَّ ثنائي الأبعاد. غارت وجنتاه، وتهدّلت بشرته الداكنة المسفوعة على عظام وجهه والغضاريف البارزة في رقبته المصوصة الطويلة وعلى ترقوته. وأخذت عيناه الباحثتان المحمومتان تحملقان في العالم من أعماق محجريهما المظلمين. كان أحد ذراعيه ملفوفًا من الكتف إلى المعصم في جبيرة وسخة من الجبس الأبيض وقد رفع إلى عنقه بشريط ملفوف وأخذ كمٌّ وسخ فارغ يتدلى من قميصه المقلم مرفرفًا بجواره كأنه علم كئيب لبلد مهزوم. جلس وراء لافتة قديمة من الورق المقوى مكسوة بالبلاستيك المعتم المزق، وقد كتب عليها:

اسمي بالكامل:

دكتور آزاد بهارتيا (الترجمة: الهندي الحر)

عنوان منزلي:
دكتور آزاد بهارتيا
قرب محطة قطارات لكهي سراي
لكهي سراي بستي
كوكر
بِهار
عنواني الحالي:
دكتور آزاد بهارتيا
جَتْر مَنْزر
نيو دلهي

مؤهلاتي: ماجستير اللغة الهندية، ماجستير اللغة الأردية (في المرتبة الأولى)، بكالوريوس التاريخ، أساسيات اللغة البنجابية، ماجستير اللغة البنجابية ح ل ر (حضر لكن رسب)، دكتوراه (منتظرة)، جامعة دلهي (دراسات البوذية والأديان المقارنة)، محاضر، غازي آباد، اتحاد الباحثين، جامعة جواهرلال نهرو، نيو دلهي، عضو مؤسس فِشو سماجوادي إستهابنا (المنتدي الشعبي العالمي) والحزب الديمقراطي الاشتراكي الهندي (ضد رفع الأسعار).

أصوم اعتراضًا على القضايا التالية: أعارض الإمبراطورية الرأسمالية، إضافة إلى الرأسمالية الأمريكية، وإرهاب الدولة الهندية والأمريكية، وجميع أنواع الأسلحة والجرائم النووية، إضافة إلى نظام التعليم السيء/

الفساد/ العنف/ الإضرار بالبيئة، وبقية الشرور الأخرى. أعارض أيضًا البطالة. وأصوم أيضًا من أجل التحرير الكامل للطبقة البرجوازية بالكامل. أتذكر كل يوم فقراء العالم/ العمال/ الفلاحين/ أبناء القبائل/ الدَلِت/ والمخذولين من السيدات والسادة والأطفال والمعاقين.

كان كيس متجر جيسيز ساري بالاس الأصفر البلاستيكي القابع بجواره منتصبًا كأنه شخص أصفر صغير محشو جوفه بالورق، فمنه المطبوع على الآلة الكاتبة ومنه المكتوب بخط اليد، بالإنجليزية وبالهندية. وبجواره على الرصيف كذلك كومة نسخ من وثيقة، لعلها رسالة إخبارية أو نسخ من شيء ما وقد وَضع فوقها حجارة كي لا تتطاير. قال دكتور آزاد بهارتيا إنها معروضة للبيع بسعر التكلفة للأفراد الطبيعيين وبتخفيض خاص للطلبة:

أنبائي وآرائي (نسخة مُحدثّة)

اسمي الأصلي الذي أطلقه عليّ أبواي هو إندر واي كُمار. أما دكتور آزاد بهارتيا فهو الاسم الذي أطلقته أنا على نفسي، وقد سُجِّل في المحكمة في الثالث عشر من أكتوبر سنة ١٩٩٧ هو وترجمته الإنجليزية، أي الهندي الحر/ المُحرَّر. وأرفق طيّ هذا إقرارًا خطيًّا بذلك. هو ليس أصل الإقرار، لكنه نسخة طبق الأصل مصدّق عليها من محكمة بتياله.

إذا قبلتم هذا الاسم لي، فلكم الحق حينئذ أن تقولوا لأنفسكم إن هذا ليس بالمكان الملائم لوجود شخص اسمه آزاد بهارتيا، ها هنا في هذا السجن العمومي، وفي هذا الرصيف العمومي. انظروا، إنه لا يخلو حتى من القضبان. لكم أن تفكروا أن آزاد بهارتيا ينبغي أن يكون شخصًا عصريًا يعيش في بيت عصري ولديه سيارة وكمبيوتر، أو ربما في تلك البناية العالية هناك، في ذلك الفندق ذي النجوم الخمسة. ذلك الفندق المعروف بالميريديان. لو نظرتم إلى الطابق الثاني عشر لأمكنكم أن تروا الغرفة مكيفة الهواء المزودة بالإفطار والحمّام التي أقامت فيها كلاب رئيس الولايات المتحدة الخمسة حينما جاء إلى الهند. ونحن في واقع الأمر لا ينبغي أن نطلق عليها الكلاب، فهي أفراد في الجيش الأمريكي يحمل كل منها رتبة العرّيف. ويقول بعض الناس إن بوسع هذه الكلاب أن تشمَّ القنابل المخبأة وأن تأكل بالشوكة والسكين وهي جالسة إلى المائدة. ويقال إنه على مدير الفندق أن يحيّيها عند خروجها من المصعد. ولا أعرف هل هذه المعلومة حقيقية أم كاذبة، فلم يتسنَّ لي التحقق منها. لعلكم سمعتم أن الكلاب ذهبت لزيارة نصب غاندي التذكاري في راج جهات؟ هذه معلومة أكيدة، نُشرت في الجريدة. لكنني لا أبالي. فلست معجبًا بغاندي. كان رجعيًا. كان ليفرح بالكلاب. فهي خير من كل القتلة العالميين الذين يضعون الزهور على نصبه.

لكن ما الذي يجعل هذا الدكتور آزاد بهارتيا هنا في هذا الرصيف العمومي بينما الكلاب الأمريكية في فندق ذي خمس نجوم؟ لعل هذا هو السؤال الأكثر إلحاحًا الآن على أذهانكم.

إجابة هذا أنني هنا لأنني ثوري. أنا في إضراب عن الطعام منذ أكثر من أحد عشر عامًا. والعام الحالي هو عامي الثاني عشر. كيف يمكن أن يعيش شخص اثني عشر عامًا مضربًا عن الطعام؟ الإجابة أنني توصلت إلى تكنيك علمي للصيام. آكل وجبة واحدة (خفيفة، نباتية) كل ٤٨ ساعة أو كل ٥٨ ساعة. وهذا أكثر من كافٍ بالنسبة لي. لعلكم تتساءلون كيف لآزاد بهارتيا بلا وظيفة ولا راتب أن يدبر أمر وجبة كل ٤٨ أو ٥٨ ساعة. دعوني أخبركم، ها هنا على الرصيف، لا يمر يوم دون أن يعرض شخص لا يملك شيئًا أن يقاسمني وجبته. وإن شئت، فقد كان بوسعي، وأنا جالس في مكاني هنا، أن أكون في مثل بدانة مهراجا مَيْسور. وأقسم بالله هذا أمر يسير. لكن وزني اثنان وأربعون كيلوجرام، ولا آكل إلا لأعيش، ولا أعيش إلا لأناضل.

أنا أبذل أقصى ما في وسعي لكي أقول الحقيقة، ومن ثم يجب أن أوضح أن الجزء المُتعلّق بالدكتور في اسمي لا يزال مؤجلاً، شأن الدكتوراه نفسها. وأنا أستعمل هذا اللقب قبل الأوان قليلاً لمجرد أن أقنع الناس بالإنصات لي وتصديق ما أقول. ولو لم يكن الوضع السياسي لدينا ملحًّا، لما فعلت هذا، فهو تقنيًّا، يفتقر إلى الأمانة. ولكن على المرء في السياسة أحيانًا أن يداوي الداء بالداء.

أنا جالس هنا في جَنْتر مَنْتر منذ أحد عشر عامًا. لا أترك هذا المكان في بعض الأحيان إلا لأحضر مؤتمرات أو اجتماعات في قضايا تهمني في نادي الدستور أو جبهة غاندي للسلام. فيما عدا ذلك أنا هنا

باستمرار. كل هؤلاء الناس من جميع أركان الهند يأتون إلى هنا بأحلامهم ومطالبهم. وما من أحد ينصت إليهم. ما من أحد ينصت. الشرطة تضربهم، والحكومة تُعْرِض عنهم. ولا يستطيع أولئك الفقراء أن يقيموا هنا، فهم في الغالب من القرى والعشوائيات وعليهم أن يكسبوا ليعيشوا. فيضطرون للرجوع إلى أرضهم، أو إلى أصحاب الأراضي التي يعملون فيها، وإلى مقرضيهم، وإلى أبقارهم وجاموسهم الأغلى من البشر، أو إلى أكواخ الصفيح التي يعيشون فيها. وأبقى أنا مقيمًا هنا بالنيابة عن هؤلاء الناس. أصوم مطالبًا لهم بالتقدم، مطالبًا بتحقيق مطالبهم، من أجل تحقيق أحلامهم ومن أجل أمنية بأن يأتي اليوم الذي تكون لهم فيه حكومتهم.

من أي طبقة أنا؟ ذلك سؤالكم؟ قولوا لي أنتم، في ظل هذه الأجندة السياسية الضخمة التي أتبنَّاها، من أي طبقة أكون؟ إلى أي طبقة كان ينتمي يسوع وجوتاما بوذا؟ من أي طبقة كان ماركس؟ من أي طبقة كان النبي محمد؟ ما من طبقات إلا لدى الهنود، هذا الظلم الوارد في نصوصهم المقدسة. أنا كل شيء إلا أن أكون هندوسيًّا. وبوصفي آزاد بهارتيا يمكن أن أقول لكم صراحة إنني نبذت معتقد أغلبية شعب هذا البلد بناء على هذا السبب وحده. ومن أجل ذلك فإن عائلتي لا تكلمني. لكني حتى لو كنت رئيس أمريكا، ذلك البرهمي العالمي، المنتمي إلى أعلى طبقة في العالم، لبقيت هنا مُضربًا عن الطعام من أجل الفقراء. أنا لا أريد دولارات. الرأسمالية عسل مسموم. يتقاطر عليه الناس كالنحل. ولا أذهب أنا. ومن أجل ذلك وُضعت تحت

المراقبة طوال الساعات الأربع والعشرين. أنا تحت رقابة على مدار الساعات الأربع والعشرين تديرها الحكومة الأمريكية بالريموت كونترول من بعيد. انظروا خلفكم. هل ترون الضوء الأحمر المرتعش؟ تلك إضاءة بطارية الكاميرا الخاصة بهم. وضعوا الكاميرا في إشارة المرور تلك. ولديهم غرفة للتحكم بالكاميرات في فندق المبريديان، في غرفة الكلاب. لا تزال الكلاب فيها. لم ترجع قط إلى أمريكا. تأشيراتهم تُجدَّد إلى ما لا نهاية. فالآن بسبب كثرة تردد الرئيس الأمريكي على الهند، يحتفظون بالكلاب هنا، مقيمة بصورة دائمة. بالليل حينما تضاء المصابيح أرى ظلالها وهي جالسة على حواف الشبابيك. أرى ظلالها، وأشكالها. نظري في المسافات البعيدة جيد جدًا، ويتحسَّن. كل يوم أستطيع أن أرى أبعد وأبعد. بوش وهتلر وستالين وماو وشاوشيسكو أعضاء في نادٍ من مئة قائد يتآمرون بهدف تدمير جميع حكومات العالم الجيدة. جميع الرؤساء الأمريكيين أعضاء، حتى هذا الرئيس الجديد.

الأسبوع الماضي صدمتني سيارة بيضاء، ماروتي زن د ل ٢ س ب ٤٣٦٢ تابعة لقناة تليفزيونية هندية ممولة من الأمريكان. اصطدمت بالسور الحديدي ومضت حتى صدمتني. يمكن أن تروا جزءًا من السور لم يزل مكسورًا. كنت نائمًا، لكنني كنت منتبهًا. انقلبت على جنبي مثل الكوماندوز فنجوت من تلك المحاولة التي استهدفت حياتي، لولا أن انكسر ذراعي. وهو الآن قيد التصليح. نجت بقيتي. حاول السائق أن يهرب لكن الناس أوقفوه وأرغموه أن يقلّني إلى مستشفى رام مَنوهَر لوهيا. وجاء معنا في السيارة رجلان ظلا يصفعانه طول الطريق إلى

المستشفى. وعالجني الأطباء الحكوميون علاجًا جيدًا للغاية. وفي الصباح حينما رجعت، جاءني الثوريون الذين كانوا هنا في تلك الليلة بسمبوسة وكأس من شراب اللسّي المحلّى.[20] وتركوا لي على الجبيرة توقيعاتهم أو بصمات أصابعهم. انظروا، ها هنا أبناء قبائل سنتهال من هزاري باغ الذين شرّدتهم مناجم الفحم في بريج الشرقية، وهؤلاء ضحايا غاز بونيون كاربايد الذين قطعوا على أقدامهم الطريق من بهوبال إلى هنا. استغرقت منهم الرحلة ثلاثة أسابيع. شركة تسريب الغاز تحمل الآن اسمًا جديدًا، هو داو للكيماويات. لكن هؤلاء الناس الذين دمّرتهم الشركة، هل يستطيعون أن يشتروا رئات جديدة وأعينًا جديدة؟ عليهم أن يدبّروا أمورهم بأعضائهم القديمة التي تسمّمت قبل سنوات وسنوات. ولكنّ أحدًا لا يبالي. تلك الكلاب تجلس هناك على شبابيك غرفة فندق الميريديان تشاهدنا ونحن نموت. هذا توقيع ديفي سنج سوريه فنشي، وهو مثلي لا ينتمي إلى أي جماعة. كتب أيضًا رقم هاتفه. هو يناضل ضد الفساد وخداع رجال السياسة للأمة. لا أعرف ما مطالبه الأخرى، يمكنكم الاتصال به مباشرة لسؤاله. فقد ذهب لزيارة ابنته في ناسك، ولكنه سيرجع الأسبوع القادم. هو شيخ يبلغ من العمر سبعة وثمانين عامًا، لكن الأمة تحتلّ لديه المقام الأول. وهذا اتحاد الريكاشات راشترافادي جَنَتا تِبهيا تشالك سنغ. وبصمة الإبهام هذه تخص بهول بتي من مدهيه براديش. بهول بتي سيدة طيبة للغاية. كانت تعمل في حقل باليومية، ووقع عليها عمود تابع لشركة بهارت سنتشار نِجَم المحدودة

---

٢٠ lassi شراب قوامه الزبادي والماء والتوابل وأحيانًا الفواكه.

للاتصالات الهاتفية. وتحتِّم بتر ساقها اليسرى. أعطتها نِجَم المحدودة ثمن البتر، خمسين ألف روبية، ولكن كيف تعمل الآن وليس لديها غير ساق واحدة؟ هي أرملة، فماذا تأكل؟ ومن يطعمها؟ ابنها لا يريدها عنده، فبعثها هنا لتقاوم على طريقة ستيَه جرهَ غير المنيفة التي بدأها مهاتما غاندي مطالبة بوظيفة لا تقتضي غير الجلوس. هي هنا منذ ثلاثة أشهر. لا أحد يأتي ليراها. وستموت هنا.

وهذا التوقيع بالإنجليزية هل ترونه؟ هو توقيع س تِلوتما. وهي سيدة تأتي إلى هنا وتذهب. أراها منذ سنين كثيرة. أحيانًا تأتي بالنهار. أحيانًا تأتي في آخر الليل أو في أول الصباح. وهي دائمًا وحدها. ليس لها جدول ثابت. ولها هذا الخط الجميل للغاية. وهي أيضًا سيدة طيبة للغاية.

وهؤلاء ضحايا زلزال لاتور الذين التهم الفسدةُ من الجُباة والتحصيلْدار تعويضاتهم النقدية. من ثلاثة ملايين روبية لم يصل إليهم إلا ثلاثمئة ألف روبية، ٣ في المئة. والبقية التهمها صراصير البشر في الطريق. وهم جالسون هنا منذ ١٩٩٩. هل يمكنكم أن تقرأوا الهندية؟ يمكنكم أن تروا ما كتبوه. بهارت مين جَدهي، جِده أور سور راج كرتي هين. معناه أن الهند يحكمها الحمير والنسور والخنازير.

هذه هي محاولة الاغتيال الثانية لي. في ٨ إبريل من السنة الماضية، دهستني هوندا سيتي د ل ٨ ج ٤٨٥٠. نفس السيارة التي ترونها في الإعلان المُعلّق على المرحاض، باستثناء أن سيارتي كانت حمراء لا

فضية. وكان يسوقها عميل أمريكي. في ١٧ يوليو، نُشر الخبر في قسم أخبار المدينة من صحيفة هندوستان تايمز. انكسرت ساقي اليسرى في ثلاثة مواضع. وإلى الآن يصعب عليّ المشي. أعرج في سيري. يسخر الناس مني ويقولون إنني ينبغي أن أتزوج فولباتي فيكون لدينا نحن الاثنين ساق يسرى سليمة وساق يمنى سليمة. أضحك معهم برغم أنني لا أجدها نكتة ظريفة. لكنْ مهم أحيانًا أن نضحك. أنا ضد مؤسسة الزواج. فقد اختُرِعت لقهر النساء. تزوجتُ مرة. وهربت زوجتي مع أخي. ويعتبرون ابني الآن ابنهما هما. يقول لي يا عمي. لا أراهم مطلقًا. وبعد هربهم جئت إلى هنا.

أحيانًا أعبر الطريق وأصوم في الجانب الآخر، مع أهل بهوبال. لكنْ هنا أفضل كثيرًا.

هل تعرفون ما هذا المكان، هذا الجَنْتر مَنْتر؟ كان في قديم الزمان مزولة. بناها أحد المهراجات، مهراجا نسبت اسمه، سنة ١٧٢٤. لا يزال الأجانب يأتون لمشاهدتها بصحبة المرشدين السياحيين. يمرون بنا لكنهم لا يروننا، ونحن جالسون هنا بجانب الطريق، نناضل من أجل عالم أفضل في حديقة حيوانات الديمقراطية هذه. الأجانب لا يرون إلا الذي يريدون أن يروه. في الماضي كانوا يريدون أن يروا الحواة إذ يعزفون للثعابين بالنايات، والآن يريدون أن يروا دلائل القوة العظمى، السوق الكبير. نجلس هنا كأننا حيوانات في أقفاص، وتطعمنا الحكومات بفتات لا قيمة له من الأمل تلقيه من خلال هذه الأسوار ذات القضبان

الحديدية. لا يكفي للحياة، لكنه يكفي للحيلولة دون الموت. يبعثون إلينا صحفييهم. نحكي لهم قصصنا. فتتخفف لوهلة من عبثنا. وبهذه الطريقة يسيطرون علينا. كل شيء عدا ذلك في المدينة موجود في المادة ١٤٤ من قانون الإجراءات الجنائية.

أترون هذا المرحاض الجديد الذي بنوه؟ يقولون إنه لنا. حمامان منفصلان للسيدات وللرجال. علينا أن ندفع لندخله. وحين نرى أنفسنا في مراياه الكبيرة تلك، ينتابنا الخوف.

إقرار

أشهد هنا أن جميع المعلومات الواردة أعلاه صحيح في حدود علمي، وأنه لم يتم إخفاء أي مواد مما سبق.

*

من موقعه المميز على الرصيف، كان دكتور آزاد بهارتيا قد رأى أنها كانت أبعد ما تكون عن الوحدة، وأن الطفلة التي اختفت كانت لها ثلاث أُمّهات على الرصيف في تلك الليلة، وقد خيط الثلاثة إلى بعضهن بعضًا بخيوط من نور.

والشرطة التي كانت على علم بأنه على علم بكل ما جرى في جَتِر مَتر حلّت عليه لتسأله. قضوا بعض الوقت يصفعونه، بغير جدية، فقط بحكم العادة. وكل ما أمكنه قوله هو:

ماتت في قفصها، البلبلة الصغيرة
وهذه كلمات تركتها لحارسها
أرجوك خذ حصاد الربيع
واحشره حشرًا في مؤخرتك الذهبية

ركلته الشرطة (بفعل الروتين) وصادرت جميع ما لديه من نسخ أنبائي وآرائي، وكذلك كبس متجر جيسز ساري بالاس بكل ما فيه من أوراق.

بمجرد أن ذهبت الشرطة، لم يضيّع دكتور آزاد بهارتيا لحظة. شرع على الفور في العمل، بادئًا عملية التوثيق الشاقة من الصفر.

برغم عدم وجود مشتبه به (وإن قفز أمام أعينهم في مرحلة متأخرة اسم س تِلوتما وعنوانها، وهي ناشرة أنبائي وآرائي للدكتور آزاد بهارتيا)، سجلت الشرطة القضية تحت بند ٣٦١ (اختطاف من وصاية شرعية) وبند ٣٦٢ (خطف وإكراه وقسر أو استدراج شخص من مكان) وبند ٣٦٥ (حبس جائر) وبند ٣٦٦ أ (جريمة في حق فتاة قاصر لم تبلغ ثمانية عشر عامًا)، وبند ٣٦٧ (خطف بقصد إلحاق الأذى أو الاستعباد

أو إخضاع المخطوف لشهوة غير معهودة) وبند ٣٦٩ (خطف طفل يقل عمره عن عشر سنوات بقصد السرقة).

كانت التهم جميعًا صالحة للتداول أمام محاكم الدرجة الأولى، ويمكن أن تنطوي على كفالة. وكانت العقوبة فيها هي الحبس لما لا يزيد عن سبع سنوات.

وكان في المدينة بالفعل ألف ومئة وست وأربعون قضية مماثلة في تلك السنة، السنة التي لم تكن تجاوزت شهر مايو بعد.

٥

مطاردة الممكن

في شارع خاوٍ علا وقع حوافر حصان.

كانت بايال، الفرس النهارية النحيلة، تخطر في قسم من المدينة ما لها أن تكون فيه.

وعلى صهوتها، فوق سرج قماشي أحمر ذي أهداب ذهبية راكبان، هما صدام حسين وعشرت الجميلة. في قسم من المدينة ما لهما أن يكونا فيه. ما من علامة تمنع وجودهم، لأن كلَّ شيء علامة على ذلك لا يخطئها إلا أبله: الصمت علامة، واتساع الطرق علامة، وارتفاع الأشجار علامة، والأرصفة غير المأهولة بالناس علامة، والحواجز الشجرية المشذبة علامة، والمنازل البيضاء المنخفضة التي يعيش فيها الحكام علامة. حتى النور الأصفر المنصبُّ من مصابيح الشوارع العالية بدا قابلاً للتحول إلى نقود، إلى عُمُد من ذهب سائل.

كان صدام حسين يرتدي نظارته الشمسية، فقالت عشرت إن من السخف ارتداءها بالليل.

قال صدام "أتقولين عن هذا ليل؟". قال إنه لا يرتديها متأنقا، بل لأن وهج المصابيح يؤلم عينيه، وإنه سيحكي لها قصة عينيه تلك في وقت لاحق.

أرهفت بايال أذنيها، وجفلت بشرتها، برغم عدم وجود ذباب. كانت تشعر بإثمها. لكنها أعجبت بذلك القسم من المدينة. كان فيه هواء يمكن تنفسه. وكان بوسعها أن تعدو فيها إن سمحا لها، وما كانا ليسمحا.

كانت ومن على صهوتها في مهمة غير عصيبة، هي اللحاق بريكاشة ذات محرك، بمن فيها.

بقوا على مسافة منها وهي تقعقع كأنها طفل تائه وسط الميادين الشاسعة المزدانة بالتماثيل، والنوافير، وأحواض الزهور، وفي طرق تصدّهم وفي كلٍّ منها أنواع مختلفة من الشجر، التمر الهندي والجامون والنيم والفيكس والأرجون.

قالت عشرت وهم يعبرون بميدان "انظر، إن لديهم حدائق حتى لسياراتهم".

ضحك صدام مبتهجًا في جنح الليل.

قال "لديهم سيارات لكلابهم، وحدائق لسياراتهم".

ظهر كأنما من العدم موكب سيارات مرسيدس سوداء زجاجها معتم مضاد للرصاص ومرق بهم مروق أفعوان.

مرورًا بجاردن سيتي، اقترب المطارِدون والمطارَدون من جسر وعر. (وعر على السيارات لا على الخيول). بدا صف المصابيح الممتد في المتصف أشبه بجناحي ملاك ميكانيكي فوق عمدان عالية. علا صوت الريكاشة وهي تصعد، ثم إنها غاصت في هبوطها فاختفت عن الأبصار. ومضت بايال في خبب سعيد ورقيق، حصانًا أسطوريًا يستعرض لواء الملاك.

ومن بعد الجسر بدا أن المدينة تفقد ثقتها في نفسها.

مرَّت المطاردة البطيئة بمستشفين يغصَّان بالمرض لدرجة أن برز منهما المرضى وأهلوهم وأقاموا خيامًا على الأرصفة. كان بعضهم طريح أسرَّة مرتجلة أو كراسي بعجل. كان البعض يرتدي ثياب المستشفى والبعض لديه ضمادات والبعض يعلّق محاليل. بينما ارتدى أطفال، صلع من أثر العلاج الكيميائي، أقنعة المستشفى، وتشبَّثوا بآبائهم ذوي الأعين الفارغة. واحتشد ناس حول طاولات الصيدليات المفتوحة طوال اليوم يلعبون الروليت الهندي (فاحتمال أن تكون الأدوية التي يشترونها أصلية لا مزورة هو ٦٠ إلى ٤٠). كان ثمة أسر تطبخ في الشارع، تقطّع البصل، وتسلق البطاطس المعفَّرة بالتراب على مواقد كيروسين صغيرة، وتعلّق غسيلها على الحواجز الشجرية. (لاحظ صدام حسين ذلك كله، لاعتبارات مهنية). جلست جماعة من القرويين

المهزولين منحولي الأفخاذ يرتدون المآزر في دائرة على الأرض، ووسطهم جثتْ كالطائر الجريح عجوزٌ ذابلةٌ ترتدي ساري مشجَّرًا ونظارة داكنة ضخمة تلتفُّ على حوافها خيوط قطنية، ويتدلى ترمومتر من فمها كأنه سيجارة. لم يلتفت أحد منهم للحصان الأبيض المارِّ بهم هو ومن عليه.

جسر آخر.

هذه المرَّة مضت المطاردة من تحته. وكان المكان تحته مكدَّسا بالنيام. كان رجل أصلع عاري الجسد على رأسه قشرة قرمزية من بودرة ثَلْك متكلسة، وله لحية رمادية شعثاء طويلة، يعزف إيقاعًا على طبلة خيالية متمايلاً برأسه يمنة ويسرة كأنه الأستاذ ذاكر حسين.

صاحت عليه عشرت في مرورهم قائلة "دا دا دم تي را كي تا دم". فابتسم وحيَّاها بنقرات معقدة كثيرة الزخارف. سوق مغلقة، كشك ليليٌّ لبيع خبز البارانا بالبيض. معبد للسيخ. سوق أخرى. صف محلات لإصلاح السيارات. الرجال والكلاب النيام بالخارج مغطون بشحم السيارات.

استدارت الريكاشة إلى مستعمرة سكنية. وبعدها يسارًا يمينًا يسارًا يمينًا يسارًا. زقاق. مواد بناء مكومة بطوله. البيوت جميعًا من ثلاثة طوابق أو أربعة.

توقفت الريكاشة خارج بوابة حديدية ذات قضبان مطلية بلون أرجواني باهت. توقفت بايال في العتمة، على بعد بوابات كثيرة. شبحًا

يتنفس. شبح فرس شاحبًا. أهداب سرجها الذهبية تومض في جنح الليل.

خرجت من الريكاشة امرأةٌ، دفعت ودخلت البيت. بعدما ذهبت الريكاشة، اقترب صدام حسين وعشرت الجميلة من البوابة الأرجوانية. كان بالخارج ثوران أسودان يتمايل بطناهما.

لاح نور في شباك الطابق الثاني.

قالت عشرت "سجِّلْ رقم البيت". قال صدام إنه لا داعي لذلك لأنه لا ينسى قط مكانًا ذهب إليه. وإنه لن يعجز عن العثور عليه حتى وهو نائم.

مالت عليه قائلة "أمًا رجل!"

قرصها في نهدها، فلطمت يده برقة "إياك. كلفني الكثير. لا أزال أدفع الأقساط".

أطلت المرأة التي ظهر شبحها في مستطيل النور بالطابق الثاني فرأت شخصين على حصان أبيض، رفعا رأسيهما فرأياها.

وكأنما على سبيل الاعتراف بالنظرة المتبادلة بينهم، أمالت المرأة (التي كانت جميلة، وقبيحة، وطويلة، وقصيرة) رأسها وقبَّلت البضاعة المسروقة التي كانت تحتضنها بين ذراعيها. لوَّحت لهما فلوَّحا لها. عرفت فيهما بالطبع أعضاء فريق مشاجرة جَنْتر مَنْتر. ترجَّل صدام ورفع ورقة

صغيرة مستطيلة بيضاء، هي بطاقة باسمه وعنوان نزل جنة للضيافة والخدمات الجنائزية. وأسقطها في صندوق بريد مكتوب عليه "س. تلوثما. الطابق الثاني".

كانت الطفلة مهتاجة في أغلب الطريق لكن النوم غلبها أخيرًا. خفقات قلب خافتة وخدٌّ مخمليٌّ أسود على كتف بارز المظام. أخذت المرأة تهدهدها وهي تشاهد الحصان ومن عليه يغادران الزقاق.

حاولت أن تتذكر متى شعرت بمثل هذه السعادة فلم تسعفها ذاكرتها. ليس لأن الطفلة كانت طفلتها، بل لأنها لم تكن كذلك.

٦

بضعة أسئلة لما بعد

عندما تكبر الفقمة الطفلة، فإذا بها (مثلاً) تزاحم على عربة الآيس كريم في عصر يوم حار، تلميذة وسط تلميذات كثيرات، وتصبح طالبةً قالبًا من آيس كريم البرتقال، فهل يحتمل أن تهبّ عليها بغتة نفحة عطر مدوخ من زهرة ماهوا كان قد فاح في الغابة يوم ميلادها؟ هل يتذكّر جسمها إحساس ورق الشجر اليابس على أرض الغابة، أو ملمس الفوهة المعدنية الساخنة لبندقية وضعتها أمها على جبهتها وقد حركت زر الأمان؟

أم امّحى ماضيها إلى الأبد؟

"يدخل الموت طائراً، موظفاً نحيلاً، آتياً من السهول."

أغا شهيد علي

٧

المالك

الجو بارد. يوم من أيام الشتاء القذرة المعتمة. لا تزال الصدمة تسيطر على المدينة إثر الانفجارات المتزامنة التي أتت على محطة أتوبيس ومقهى وموقف سيارات تحت الأرض في مركز تجاري صغير قبل يومين، مسفرة عن مصرع خمسة وإصابات بالغة للكثيرين. سوف يحتاج المذيعون في قنواتنا التليفزيونية وقتًا أطول قليلاً مما يحتاج الناس العاديون ليتعافوا من الصدمة. أما عني أنا، فالانفجارات تثير في نفسي جملة من المشاعر، لكن الصدمة، للأسف، ليست من بينها.

أنا الآن في الطابق العلوي، هذه الشقة الصغيرة بالطابق الثاني، أي على السطح. سقط الورق عن شجر النيم، ورحلت الببغاوات وردية المناقير في ما يبدو إلى مكان أكثر دفئًا (وأمنًا؟). الضباب طاغ على الشبابيك. تتجمع كتلة من اليمام داكن الريش في الشرفة المغطاة بالروث. وبرغم أننا في منتصف النهار، في وقت الغداء تقريبًا، فقد كان عليّ أن أضيء المصابيح. ألاحظ أن تجربتي مع الأرضية الأسمنتية الحمراء

قد فشلت. كنت أريد أرضية أرضية ذات لمعة ناعمة عميقة كأرضيات بيوت الجنوب القديمة الجميلة. أما هنا، فبمرور السنين، امتصَّت حرارة الصيف اللون من الأسمنت وقلّصه برد الشتاء منشئًا فيه صدوعًا دقيقة أشبه بشبكة العنكبوت. الشقة متربة ومتهالكة. شيء ما في سكون هذه المساحة -التي هُجرت على عجل- يجعلها تبدو أشبه بلقطة ثابتة في فيلم متحرك. لقطة كأنها تحتوي هندسة الحركة، تلخص كل ما جرى وكل ما هو آت. غياب الشخص الذي كان يعيش هنا شديد الواقعية، محسوس، حتى لكأنه حضور لا غياب.

ضوضاء الشارع مكتومة. نصال مروحة السقف مسودَّة الحواف بالسخام، أنشودة هواء دهي الشهير بقذارته. من حسن حظ رئتيّ أنني مجرد زائر. أو ذلك ما أرجوه على الأقل. فأنا مبعوث إلى الوطن في إجازة. ومع أنني لا أشعر أنني مريض، فحينما أنظر في المرآة أرى أن بشرتي مطفأة وأن شعري نحل بصورة ملحوظة. فبات جلد رأسي يلمع من خلاله (نعم يلمع). وتقريبًا لم يبق من حاجبيّ شيء. يقال لي إن هذه علامة توتر. أعترف أن شرب الخمر يبعث التوتر. اعتمدت أكثر مما ينبغي على صبر زوجتي ورئيسي ولكنني مصرٌّ الآن على استرداد نفسي. عندي حجز في مركز إعادة تأهيل للمدمنين على الشراب سأقضي فيه ستة أسابيع دون هاتف ودون إنترنت ودون اتصال من أي نوع مع العالم. كان ينبغي أن أدخل اليوم، لكنني أرجأت ذلك إلى يوم الاثنين.

أشتاق إلى الرجوع إلى كابُل، المدينة التي يرجَّح أن أموت فيها، ميتة مبتذلة عديمة البطولة، ربما وأنا أقوم بتسليم ملف إلى سفيري. يوم

ولا مزيد مني. أوشكوا مرّتين على النيل منّا، وفي المرّتين كان الحظ حليفنا. بعد المحاولة الثانية تلقّينا رسالة من مجهول بلغة الباشتو (التي أقرؤها وأتكلمها) يمكن ترجمتها (تقريبيًا): **اليوم لم يحالفنا الحظ. لكن تذكّروا أنه لا ينقصنا إلا أن يحالفنا الحظ مرة واحدة. أما أنتم فبحاجة إلى الحظ طيلة الوقت.**

شيء ما في هذه الكلمات أحيا ذكرى ما. جوجلتها. (يجوجل فعلٌ الآن، صح؟) كانت رسالتهم أقرب إلى ترجمة حرفية لما قاله الجيش الأيرلندي الحرّ بعد نجاة مارجريت تاتشر من هجومه بقنبلة على فندق جراند أوتيل في برايتن سنة ١٩٨٤. أتصوّر أن هذا نوع من العولمة أيضًا، أعني لغة الإرهاب العالمية.

كلّ يوم في كابُل معركة ذكاء وقد أدمنت ذلك.

قررت أن أستغل فترة انتظاري صدور شهادة لياقتي للخدمة في زيارة سكّاني، وتفقّد حال البيت الذي اشتريته منذ خمسة عشر عامًا فأعدت بناءه تقريبًا من جديد. ذلك على الأقل ما قلته لنفسي. لكنني عندما وصلت إلى هنا وجدت نفسي أتحاشى المدخل الرئيسي وأمضي إلى نهاية الطريق وأدور إلى الخلف لأدخل من البوابة التي تفتح على زقاق الخدمات الممتد وراء صف من المنازل.

كان زقاقًا هادئًا، في يوم من الأيام، وجميلاً. الآن يبدو أشبه بموقع بناء. مؤن البناء ـأسياخ حديد تسليح، وبلاط حجري وأكوام رملـ

تحتل الأماكن النادرة التي لا تركن فيها السيارات. ثمة بالوعتان مفتوحتان تفوح منهما رائحة منتنة لا تراعي مطلقًا أسعار العقارات الصاروخية هنا. أغلب المنازل القديمة هُدمت لتقام في مواضعها بنايات شقق مخملية. البعض منها قائم على أعمدة، حيث أخليت الطوابق الأرضية لتكون مواقف للسيارات. وهي فكرة جيدة في هذه المدينة المجنونة بالسيارات، لكنها بطريقة ما تصيبني بالحزن. ولا أعرف السبب بدقة. لعله الحنين إلى زمن أقدم وأهدأ.

جمع من الصبية المتربين، بعضهم يُجلِسون رُضّعًا على أفخاذهم، يسلُّون أنفسهم بدقّ أجراس البيوت والجري بسرعة والبهجة تتفجّر في وجوههم. ما كان آباؤهم المهزولون، إذ يحملون الأسمنت والطوب إلى الحفر العميقة لإقامة قبو جديد، ليبدون متنافرين مع موقع بناء بمصر القديمة، حيث يحملون الحجارة لبناء هرم لفرعون. يمرُّ بي حمارٌ صغير طيب العينين حاملاً الطوب في جراب ذي شقين. يخفت هنا صوت إعلانات ما بعد الانفجار التي تذاع بالإنجليزية والهندية عبر مكبرات صوت من كشك الشرطة في السوق "برجاء إبلاغ أقرب موقع للشرطة عن أي حقيبة متروكة أو أي شخص مريب...".

حتى في الشهور القليلة التي مضت منذ آخر مرة جئت فيها إلى هنا، تزايد عدد السيارات المركونة في الزقاق، وأغلبها أكبر وأكثر أناقة. السائق الجديد عند جارتي السيدة ميهرا، برأسه الملفوف تمامًا في لفاع بنّيّ ليس فيه إلا شقٌّ لعينيه، يغسل بالخرطوم سيارة تويوتا كورولا قشدية اللون كأنها جاموسة. مكتوب على مقدمتها باللون الزعفراني

بخط صغير أوم.[٢١] قبل سنة واحدة فقط كانت السيدة ميهرا ترمي قمامتها مباشرة من بلكونتها في الطابق الأول إلى الشارع. لا أعرف إن كان امتلاك تويوتا كورولا قد ارتقى قليلاً بموقفها من نظافة الحي.

أرى أغلب شقق الطابقين الثاني والثالث قد تبهرجت وأغلقت بألواح الزجاج.

الثيران السوداء التي كانت تعيش في المكان حول أعمدة الإنارة الخرسانية في مواجهة بوابتي الخلفية لسنوات طويلة، تطعمها وتدللها السيدة ميهرا وصحبتها من عبدة الأبقار لم تعد موجودة. لعلها خرجت لتتنزه.

شابتان في معطفين شتويين أنيقين تمرّان بي ناقرتين بكعبيهما، وكلتاهما تدخن سيجارة. تبدوان أشبه بعاهرتين من روسيا أو أكرانيا، من النوع الذي يمكنك استدعاؤه بالهاتف لحضور حفلة في بيت ريفي. حضرت القليلات منهن حفل وداع العزوبية الخاص الذي أقيم في ميهراولي الأسبوع الماضي لصديقي القديم بوبي سينج. كانت إحداهن تمشي بطبق تاكوس[٢٢] طوال الوقت، وكانت هي نفسها الصلصة، فقد كانت عارية الصدر تقريبًا، وسلاطة الحمص متناثرة على صدرها. ظننت في الأمر شيئًا من المبالغة، لكن بقية الضيوف بدوا مستمتعين بها.

---

٢١ OM من أقدس الرموز الروحية في الهندوسية وتعني "الروح".

٢٢ شطائر مكسيكية.

والبنت نفسها كانت تترك الانطباع بأنها مستمتعة، برغم أن ذلك قد يكون من متطلبات الوظيفة. يصعب القطع برأي في ذلك.

كان الخدم يرتدون ثياب سادتهم القديمة، فتمرُّ بهم كلاب أفضل منهم ثيابًا، لابرادور، شيفردز ألمانية، دوبرمان، بيجل، دشهند، ترتدي معاطف صوفية كتبت عليها كلمات من قبيل سوبرمان وهَوهَوو. حتى بعض كلاب الشوارع المهجنة كانت ترتدي معاطف وتبدو فيها بقايا من آثار أصولها. ربما بفعل التسريب. هاها.

يمرّ رجلان، أحدهما أبيض والآخر هندي، متشابكي الأيدي. كلبهما اللالابرادور سمين أسود يرتدي سترة صوفية لونها أحمر في أزرق ومكتوب عليها رقم ٧ مانشستر يونيتد. ومثل رجل مقدَّس رقيق يوزع بركاته، ينعم برشّات قليلة من بوله على إطارات السيارت التي يمرّ بها متهاديًا.

ثمة بوابة حديدية جديدة في مدرسة البلدية الابتدائية القريبة من حديقة الغزلان. عليها رسمة بشعة لطفل سعيد بين يدي أمه السعيدة بينما ممرضة سعيدة في ثوب أبيض وجوربين أبيضين تحقنه بتطعيم ضد شلل الأطفال. توشك الحقنة أن تكون في حجم مضرب الكريكيت. يمكنني أن أسمع أصوات الأطفال في فصولهم، تصلني من أغنيتهم نهايات أبياتها "باا باا يا خروف يا أسود"، وتحتد الأصوات إلى درجة الصراخ بـ صوف وأكياس.[٢٣]

---

٢٣ أغنية أطفال شهيرة: ماء ماء يا خروف يا أسود/ هل لديك أي صوف؟/ نعم يا سيدي، نعم يا سيدي، ملء ثلاثة أكياس.

بالمقارنة مع كابُل، أو أي مكان في أفغانستان أو باكستان، أو أي بلد آخر في المنطقة في هذا الخصوص (كسريلانكا وبنجلاديش وبورما وإيران والعراق وسوريا يا إلهي)، يصبح هذا الزقاق الخلفي الصغير الغائم -برتابته اليومية وسوقيّته ومظالمه البائسة والمقبولة أيضًا وحميره وقساواته الصغيرة- أشبه بركن صغير من الجنة. دكاكين السوق تبيع الطعام والزهور والثياب والهواتف المحمولة، لا القنابل اليدوية والرشاشات. والأطفال يلعبون بأن يدقوا أجراس البيوت، لا بأن يتحولوا إلى تفجيريين انتحاريين. لدينا مشكلاتنا، ولحظاتنا الرهيبة، هذا صحيح، لكنها مجرد انحرافات.

ينتابني الغضب من أولئك المثقفين ومحترفي المعارضة الذين لا يكفون عن القدح في هذا البلد العظيم. هؤلاء بصراحة لا يستطيعون فعل ذلك إلا لأن ثمة من يسمح لهم بذلك. وليس مسموحًا لهم بذلك إلا لأننا -برغم كل ما لدينا من نقائص- بلد ديمقراطي حقيقي. ليس لديَّ من الجسارة ما يجعلني أقول هذا كثيرًا في العلن، لكن هذا في حقيقة الأمر يشعرني بالفخر العظيم لكوني موظفًا يخدم حكومة الهند.

كانت بوابة البيت الخلفية مفتوحة مثلما توقعت. (طلاها سكان الطابق الأرضي بالأرجواني). توجهت مباشرة إلى السلم صاعدًا إلى الطابق الثاني. كان الباب مغلقًا. لم أسترح إلى مدى الخيبة التي شعرت بها بسبب ذلك. بدت بسطة السلم مهجورة، وقد تكدست بالقرب من الباب جرائد قديمة ومظاريف رسائل، ولاحظت على التراب آثار مخالب كلب.

في طريق نزولي، خرجت من المطبخ زوجة ساكن الطابق الأرضي الممتلئة، التي تدير ما يشبه شركة إنتاج للفيديو، وبادرتني بالكلام على السلم. دعتني إلى فنجان شاي (في البيت الذي كان بيتي وعشت فيه أنا وزوجتي وقت أن كنا نخدم في دلهي).

التفتت إليّ وهي تقودني إلى داخل البيت قائلة "أنا أنكيتا". كان شعرها الطويل المفرود كيميائيًا ذو الخصلات المصبوغة بالذهبي نديًا تصلني منه رائحة شامبو قوية. كانت ترتدي قرطًا من الماس وسترة صوفية بيضاء مجعدة. جيبا بنطلونها الجينز المحبوك -المعروف بـ الجيجنجز حسبما تقول ابنتي- مفرودان على كفليها السخين وقد نُقش عليهما تنّينان صينيان ملونان مشقوقا اللسانين. لو رأتها أمي فربما ما كانت لتروقها ثيابها، لكنها كانت لتثني على الامتلاء. كانت لتقول ديختي بيش روليبولي، انظر كم هي ريانة. أمي المسكينة التي عاشت كل حياتها الزوجية في دلهي تحلم بطفولتها الغابرة في كلكتا.

أثارت الكلمة في رأسي طنينًا مزعجًا. روليبولي روليبولي روليبولي.

ثلاثة من جدران الحجرة الأربعة طليت بالأحمر البطيخي. الأثاث كله بما فيه مائدة الطعام مرشوش بالأخضر، ولعل الأدق أن أقول إنه "مبتلى" به. الباب وأطر الشبابيك سوداء (فهي بذور البطيخ فيما أفترض). بدأت أندم أني أطلقت أيديهما في داخل البيت يفعلان فيه ما يحلو لهما. جلست وأنكيتا متواجهين تفصل بيننا الأريكة (أريكتي القديمة وقد أعيد تنجيدها). وعند لحظة معينة كان علينا أن نضم ركبنا ونرفع

أقدامنا لتمرَّ خادمتها من تحتها وهي تتحرَّك على كفليها كأنها بطة صغيرة، ماسحة الأرضية بشيء يفوح منه بقوة ما يشبه رائحة الأترج. هل كان صعبًا جدًّا على الريانة أن تؤجل مسح ذلك الجزء من الأرضية بعض الشيء؟ متى سيتعلم أهلنا شيئًا من أبجديات الإيتيكيت؟

كان واضحًا أن الخادمة إما من الجوند أو السنتال من جهارخاند أو تشهاتسجاره،[٢٤] أو ربما من إحدى القبائل الأصلية في ولاية أوريسا. بدت طفلة ربما في الرابعة عشرة من العمر أو الخامسة عشرة. كنت أرى من مجلسي فتحة قميصها الكُرتا وصليبًا فضيًّا صغيرًا يعشّش بين نهديها الصغيرين. لو رآها أبي -الذي كان يكنُّ عداوة غريزية للمبشِّرين بالمسيحية وأتباعهم- لأطلق عليها هاليلويا، فقد كان برغم ثقافته ينعم بقدر يفوق قليلاً الحد الأدنى من البذاءة.

معتلية عرشها وسط تلك البطيخة العملاقة، متوهجة أمامي أسفل هالة شعرها المصبوغ، قدمت لي الريانة تقريرًا هامسًا مفكّكًا عما جرى في الطابق الأعلى. قالت أكثر من مرة "لذلك أظن أنها ليست شخصًا طبيعيًّا". وللأمانة أقول إن كلامها ربما لم يكن مفكّكًا، بل أنا الذي كنت نافرًا من فكرة الإنصات إليها. قالت كلامًا عن طفلة وشرطة ("ذهلت حينما طرقت الشرطة بابنا") وجلب العار للمنزل وللحي كله. بدا الأمر كله كريهًا وشاذًا. شكرتها وانصرفت حاملاً الهدية التي وضعتها في يدي:

---

٢٤ الجوند مجتمع قبلي يوجد في غابات وسط الهند، والسنتال قبائل من عرق أديفاسي، وهو عرق تعرض له الرواية لاحقًا بشيء من التفصيل، تستوطن نيبال وبعض ولايات الهند، ومن بينها جهارخاند وتشهاتسجاره.

أسطوانة دي في دي تضمُّ آخر فيلم وثائقيّ صوّره زوجها عن بحيرة دال في كشمير لحساب وزارة السياحة.

بعد ساعة أو اثنتين، ها أنا ذا هنا. كان عليّ أن آتي من السوق بصانع مفاتيح ليصنع لي مفتاحًا. بعبارة أخرى، كان عليّ أن أقتحم الشقة. يبدو أن مستأجرة طابقي الثاني قد غادرت. ولو صدقت الريانة فقد لا تكون "غادرت" إلا مجازًا. ولكن الـ"مستأجرة" أيضًا مجاز. لا، لم نكن عشيقين. ولم يحدث في أي لحظة أن ألمحتْ لي بأنها قد تكون مستعدة لعلاقة من هذا النوع. ولو كانت، فأنا شخصيًا لا أعرف نفسي لدرجة أن أخمّن ما كان يمكن أن تؤول إليه الأمور. لأنني طوال حياتي، منذ أن قابلتها للمرة الأولى قبل كل تلك السنين ونحن لم نزل في الجامعة، أقمت نفسي حولها. ربما ليس حولها هي، بل حول ذكرى حبي لها. وهي لا تعرف هذا. ولا يعرفه أحد، اللهم إلا ناجا، وموسى، وأنا، نحن الرجال الثلاثة الذين أحبوها.

وأقول أحبوها بتساهل، ولمجرد أن معجمي لا يقوى على النهوض بمهمة وصف الطبيعة الدقيقة لتلك المتاهة، تلك الغابة من المشاعر التي ربطت ثلاثتنا إليها، وربطت في نهاية المطاف واحدنا بالآخرين.

رأيتها للمرة الأولى قبل ثلاثين عامًا على وجه التحديد، في عام ١٩٨٤ (ومن في دلهي بوسعه أن ينسى سنة ١٩٨٤؟) في بروفات مسرحية للكلية كنت أمثل فيها وعنوانها **أذلك أنت يا نورمان؟** ومن المحزن أننا بعد انهماكنا في البروفات لمدة شهرين لم نمثّل تلك المسرحية

قط. فقبل أسبوع من الموعد المحدَّد لافتتاحها، اغتيلت السيدة غ ـ أي إنديرا غاندي ـ على أيدي حرسها السيخ.

على مدار الأيام القليلة التالية لاغتيالها، قامت حشود من الغوغاء يقودها أنصار غاندي ومساعدوها باغتيال آلاف السيخ في دلهي. أُحرقت بيوت السيخ ومحلاتهم ومواقف سيارات الأجرة الخاصة بسائقيهم وأحياء كاملة يسكنونها فلم يبق منها غير الرماد. تعالت في السماء سحائب الدخان الأسود متصاعدةً من نيران مضرمة في شتى أرجاء المدينة. ومن مقعدي المجاور لشباك الأتوبيس في نهار مشرق جميل، رأيت رعاعًا يعدمون شيخًا من السيخ. انتزعوا عمامته، ومزقوا لحيته، وألبسوه على طريقة جنوب أفريقيا إطارًا محترقًا حول عنقه، بينما الناس وقوف حولهم يشجعونهم بالجمير. سارعت أرجع إلى البيت منتظرًا أن تلطمني الصدمة مما رأيت. والغريب أن ذلك لم يحدث قط. والصدمة الوحيدة التي استشعرتها هي الصدمة من ثباتي. كنت مشمئزًا مما في الأمر كله من غباء وعبث، ولكنني بطريقة ما لم أكن مصدومًا. ربما كانت لألفتي بالتاريخ الدموي للمدينة التي نشأت فيها علاقة ما بذلك. بدا كأنما الشبح الذي كنا نعي حضوره دائمًا وتمامًا قد طفا فجأة على السطح، يزمجر، قادمًا من العمق، ويفعل بالضبط ما كنا نتوقع طوال الوقت أن يفعله. فما كاد يشعر بالشبع والتخمة حتى غاص راجعًا إلى عرينه تحت الأرض تاركًا الأمور وقد رجعت إلى طبيعتها المعتادة. سحب القتلة المجانين أنيابهم ورجعوا إلى أعمالهم اليومية المعهودة موظفين وخياطين وسباكين ونجارين وأصحاب دكاكين، وعادت الحياة

سيرتها الأولى. والوضع الطبيعي المعتاد في جزئنا هذا من العالم فيه شبه ما بالبيضة المسلوقة، إذ يخفي سطحه الرتيب قلبًا من صفار العنف الفاضح. وقلقنا الدائم من ذلك العنف، وذكرياتنا عن أعماله الماضية وخوفنا من تجلياته القادمة، ذلك ما يضع القواعد التي تجعل شعبًا معقدًا ومتنوعًا مثلنا يستمر في التعايش، ويستمر في العيش المشترك، والتسامح بين بعضنا بعضًا، وقتلنا بعضنا بعضًا بين الحين والآخر. ما دام المركز خاضعًا للسيطرة، وما دام الصفار متماسكًا لا يراق، فسنكون بخير. وفي لحظات الأزمة يحسن أن نلوذ بالنظرة البعيدة.

قررنا أن نؤجل افتتاح المسرحية شهرًا على أمل أن تكون الأوضاع قد استقرّت. لكن المأساة سدّدت ضربة أخرى في مطلع ديسمبر، وهذه المرة كانت أقوى. تسرَّب من مصنع يونيون لمبيدات الكربيد في بهوبال غازٌ قاتل أدّى إلى مصرع الآلاف. وامتلأت الجرائد بحكايات الناس وهم يحاولون الهرب من السحابة السامّة التي تطاردهم، والنار في أعينهم وفي رئاتهم. كان ثمة شيء يشبه القيامة في طبيعة الفزع وحجمه. نشرت المجلات الإخبارية صور الموتى والمرضى والمحتضرين والمشوهين والمصابين بالعمى الدائم وأعينهم فاقدة الإبصار ملتفتة بغرابة إلى العدسات. وفي نهاية المطاف رأينا أن الآلهة لا تقف في جانبنا، وأن عرض مسرحية نورمان غير ملائم في الوقت الراهن، فوُضِع كلُّ شيء على الرفّ. ولو أذنتم لي في هذه الملاحظة المبتذلة بعض الشيء، فإنني أقول إن الحياة برمّتها قد تكون كذلك، أو أن ذلك ما تنتهي إليه في أغلب الوقت: بروفة لعرض لا يرى النور في نهاية المطاف. غير أنه في حالة نورمان لم

يكن يلزمنا عرض نهائي ليغير مسار حياتنا. إذ تبيّن أن البروفات نفسها كافية لذلك وأكثر.

كان ديفيد كورترمين مخرج المسرحية إنجليزيًا انتقل إلى دلهي قادمًا من ليدز. كان نحيلاً، رياضيًا، وإذا جاز لي القول، فقد كان رجلاً جميلاً بصورة مهلكة، بشعر أشقر مسترسل على كتفيه، وعينين في زرقة الياقوت الصناعي كعيني بيتر أوتول. وكان مسطولاً في أغلب الوقت، ومثليًا علنيًا، برغم أنه لم يثر ذلك قط في حديثه. كان موكب من المراهقين الداكنين -وعددهم كان بالفعل مرتفعًا- يعبرون بشقته المليئة بالكتب في منطقة مستعمرة ديفنس، فيتمدّدون على سريره أو يسترخون على كرسيه الهزّاز، ويتصفّحون مجلاته التي كان واضحًا تمامًا أنهم لا يستطيعون قراءتها (فقد كان ذوقه يميل ميلاً جانحًا إلى البروليناريا). لم نكن رأينا شيئًا مثل ذلك ولو من بعيد. ويوم اجتمعنا في شقته المؤلفة من غرفتين لأول بروفة قراءة، رأينا خادمته الكفؤة الصامتة وهي تضع طفلها الثالث في حمّامه. كنا نعيش في رهبة من ديفيد كورترمين، من ميله الجنسي الجريء، وكتبه، وتقلب مزاجه، وتحوله من التمتمة غير المفهومة إلى الصمت المفاجئ غير المفهوم أيضًا، وسائر ما كنا نفهم أنه سمات لازمة في أي فنان حقيقي. وكان بعض منا يحاولون في أوقات فراغنا محاكاة سلوكه، متخيلين أننا في طور التهيؤ لحياة سنقضيها في المسرح. اختير ناجا، أو ناجاراج هاريهاران، زميلي في الفصل، في دور نورمان. وكان ينبغي أن ألعب دور حبيبه جارسون هوبارت (في أولى البروفات كنّا نبالغ في التمثيل أكثر قليلاً مما ينبغي. أظن أننا كنا في غباء

شبابنا الأول نحاول إثبات أننا لسنا مثليين). كان كلانا ينهي ماجستير التاريخ في جامعة دلهي. ونتيجة للصداقة التي جمعت بين أبوينا (وكان أبوه يعمل في الخارجية وأبي كان جرّاح قلب كبيرًا)، فقد كنت أنا وناجا معًا منذ المدرسة وحتى الجامعة. وشأن أغلب الأبناء من أمثالنا لم نكن قط صديقين مقرّبين. لم يكن أحدنا يكره الآخر، لكن العلاقة بيننا كانت دائمًا أكثر قليلاً من علاقة خصومة.

تِلُو كانت طالبة في الفرقة الثالثة بكلية العمارة، فكانت مسؤولة تصميم الديكور والإضاءة. قدّمت نفسها لنا باسم تِلوتما. لحظة رأيتها، انشقّ عني بعضُ جسدي ليحيط بها. وإلى الآن لم يزل هناك.

ليتني عرفت أيَّ شيء فيها ذلك الذي جرّدني من أسلحتي تمامًا وجعلني أتصرف تصرفات شخص غيري. شخص ملهوف، مدفوع. لم تبدُ كأي من البنات البيضاوات الأنيقات اللاتي كنت أعرفهن في الكلية. كانت لها بشرة كالتي يمكن أن يصفها الفرنسيون بالقهوة باللبن (مع قليل جدًا من اللبن) وذلك كفيلٌ ـ في رأي أغلب الهنود ـ بأن يجرّدها فورًا من جميع مؤهلات الجمال. أما أنا فيصعب كثيرًا عليَّ أن أصف شخصًا انطبع عليّ، وعلى روحي، انطباع خاتم واضح كلَّ تلك السنين الكثيرة. أنا الذي أراها مثلما أرى عضوًا من أعضاء جسمي، مثلما أرى يدي أو قدمي. لكن لأحاول، ولو بأكثر لمسات الفرشاة اتساعًا. كانت ذات وجه صغير، جميل العظام، وأنف مستقيم له فتحتان واسعتان رقيقتان. شعرها الكثيف الطويل لم يكن مسترسلاً ولا مجعدًا، بل منكوش ومهمَل. كنت أتخيل طيورًا صغيرة تعشش فيه. كان يمكن

تمامًا أن يلعب دور الماقبل في إعلان للشامبو يقارن الماقبل بالمابعد. كانت تتركه على ظهرها في ضفيرة وأحيانا تلمّه على مؤخرة رقبتها الطويلة في كمكة تغرس فيها قلم رصاص أصفر. لم تكن تضع مساحيق ولا تفعل شيئًا -من الأشياء المبهجة التي تفعلها البنات في شعورهن وأعينهن وأفواههن- لتجميل نفسها. لم تكن طويلة، لكنها ممشوقة القوام، وكانت لها وقفة، ترتكز فيها بثقلها كله على ما وراء أصابع قدميها، وتبرز كتفيها العريضين، فتبدو ذكورية، لكنها لم تكن ذكورية قط. يوم رأيتها للمرة الأولى كانت ترتدي بيجامة قطنية بيضاء وقميصًا رجاليًّا ملوَّنًا وبشعًا -بشاعة مقصودة بطريقة ما- وكان واسعًا عليها كأنه ليس قميصها. (وكنت مخطئًا بشأن ذلك، فبعد أسابيع، حينما ازددنا معرفة ببعض، قالت لنا إنه قميصها بالفعل. وإنها اشترته بروبية من سوق الثياب المستعملة عند المسجد الجامع. قال لها ناجا -بما يليق به تمامًا- إنه يعرف من مصادر موثوق فيها أن الثياب التي تباع هناك تنزع عن جثث الموتى في حوادث القطارات. فقالت إن الأمر لا يعنيها ما دامت الثياب غير مبقعة بالدم). ولم تكن ترتدي من الحليّ إلا خاتمًا فضيًّا عريضًا في إصبعها الوسطى الطويل المبقع بالحبر، وقرطًا فضيًّا. وكانت تدخن سجائر البيدي جانيش،[٢٥] تضعها في علبة دانهيل قرمزية. وكان يحلو لها أن ترى الخيبة على وجوه من يحاولون استقطاع سيجارة أجنبية منها - حسبما يتصورون- فإذا هي سيجارة بيدي يتحرجون ألا يدخنوها، خاصة حينما تعرض أن تشعلها لهم. رأيت هذا يحدث مرات، لكن

---

٢٥ سجائر رخيصة من تبغ غير معالج ملفوف في ورق تبغ.

تعبير وجهها كان يبقى جامدًا طول الوقت، لا تبدو عليه ابتسامة قط أو حتى نظرة استمتاع تتبادلها مع صديق، فلم أعرف قط أهذا مقلب تتعمده أم أنها طريقتها العادية في الاحتفاظ بسجائرها. ذلك الانعدام التام للرغبة في إرضاء شخص أو العمل على راحته، يمكن اعتباره غطرسة، لو كان في شخص أقل حساسية وهشاشة. أما فيها هي، فقد كان ذلك يبدو نوعًا من الطيش في النأي عن الناس. فمن وراء نظارتها البسيطة غير المسايرة للموضة، كان يبدو في عينيها القططيتين المائلتين قليلاً نوع من التحفظ اللا مبالي الخاص بالميالين إلى إضرام الحرائق. كانت تعطي انطباعًا بأنها أفلتت بطريقة ما من رسنها. فكأنها تذهب بنفسها لتمشية نفسها بينما يُساق بقيتنا سوقًا إلى التمشية، شأن الحيوانات الأليفة. وكأنها تراقب في حذر، وبشيء من شرود البال، من البعد، بينما نحن مروَّضون ممتنون لمالكينا سعداء بتأبيد أغلالنا.

حاولت أن أعرف عنها المزيد، فلم تكن تبوح إلا بأقل القليل. حينما سألتها عن اسم عائلتها قالت إن اسمها هو س تِلوتما. وحينما سألتها عما يرمز إليه السين، قالت إن السين يرمز إلى السين. وراوغت أسئلتي المباشرة عن عنوان بيتها، أو مهنة أبيها. لم تكن تجيد الهندية كثيرًا في ذلك الوقت. فخمَّنتُ أن تكون من جنوب الهند. والغريب أن إنجليزيتها لم تكن ذات لكنة، باستثناء أنها تنطق الزاي سينا. خمّنتُ أن تكون من كيراله.

وتبيَّن أنني أصبت في ذلك. أما عن البقية فعرفت أنها لم تكن تراوغ، بل إنها بالفعل لم تكن تملك إجابات لأسئلة صبيَّة الجامعة

العادية تلك: من أين أنت؟ ما وظيفة أبيك؟ إلى آخر ذلك. ومن نثار الأحاديث المتفرقة استخلصت أنها ابنة أم عزباء تركها زوجها، أو هي التي تركته، أو أنه مات. الأمر كله كان غامضًا. لم يبدُ أحد قادرًا على تحديد وضعها. وكان من الشائعات ما يذهب إلى أنها طفلة متبنّاة. وشائعات تذهب إلى أنها ليست كذلك. وعلمت لاحقًا من زميل أصغر في الكلية اسمه مامين بي مامين، وهو نمّام من بلدة تِلُو، أن كلتا الشائعتين صحيحة. فأمُّها كانت بالفعل أمّها الحقيقية، لكنها تخلت عنها في البداية ثم رجعت فتبنّتها. كان في الأمر فضيحة، علاقة غرامية في بلدة صغيرة. والرجل، الذي كان ينتمي إلى إحدى طوائف "المنبوذين" (همس مامين بي مامين "كلام في سرك، من البارايا".[٢٦] همس كأنما قد يتلوث إن جهر بها)، طُرِد مثلما تفعل أحيانًا بعض أسر الطوائف العليا في الهند، وكانت الأسرة في حالته من المسيحيين السوريين في كيراله، ووفقًا للعادة المتبعة كان الطرد يحدث عند وقوع مشكلات من ذلك النوع. بُعثت أم تِلُو بعيدًا إلى أن وضعت طفلتها وأدخلت ملجأ مسيحيًا. وفي غضون شهور قليلة رجعت إلى الملجأ وتبنّت الطفلة. تبرّأت منها أسرتها. وبقيت دون زواج. ولتعول نفسها أقامت حضانة صغيرة تطوّرت بمرور السنين حتى أصبحت مدرسة ثانوية ناجحة. ولم تعلن قط -لأسباب مفهومة- أنها الأم الحقيقية. وذلك تقريبًا كل ما نما إلى علمي.

لم تكن تِلوتما ترجع إلى البيت مطلقًا في الإجازات. ولم تقل قط سبب ذلك. ولم يكن أحد يأتي ليطمئن عليها. وكانت تدفع مصاريفها

---

٢٦ Paraya من طوائف الهند الدنيا، طوائف المنبوذين.

من العمل كرسامة في مكتب معماري بعد ساعات الدراسة وفي العطلات الأسبوعية والإجازات. لم تكن تعيش في السكن الجامعي قائلة إنها لا تستطيع تدبُّر نفقاته. بل كانت تعيش في كوخ بحي عشوائي قريب مقام من الجدران الخارجية لطلل قديم، ولم يُدْعَ أيٌّ منا لزيارتها فيه.

خلال بروفات نورمان، كانت تنادي ناجا بـ ناجا، أما أنا، فلسبب ما لم تكن تخاطبني إلا بـ جارسون هوبارت. وهكذا إذن كنا أنا وناجا، الطالبان بقسم التاريخ، نسعى وراء فتاة لم يبدُ أن لها ماضيًا، أو أسرة، أو مجتمعًا، أو أهلاً، أو حتى بيتًا. والحقيقة أن ناجا لم يكن يسعى فعلاً إليها. فقد كان في تلك الأيام أكثر استغراقًا في نفسه منه في أي أحد آخر. كان قد لاحظ تِلُو فوجه إليها فتنته (غير القليلة) كما قد تفتح مصابيح سيارتك لتلفت انتباه شخص غير منتبه. وهو لم يكن معتادًا على ذلك.

لم أعرف قط على وجه اليقين طبيعة العلاقة بين موسى ـموسى يسوي ـ وتِلُو. كانا يظهران إلى حد كبير رفيقين، دون إظهار للمشاعر. في بعض الأحيان كانا يبدوان أشبه بشقيقين لا حبيبين. كانا زميلين في مدرسة العمارة. وكلاهما لديه موهبة فنان استثنائي. رأيت بعض أعمالهما. بورتريهات تِلُو المرسومة بالفحم وأقلام الشمع، ومائيات موسى التي يصوِّر فيها خرائب المدن القديمة كدلهي وطُغْلاق آباد وفيروز شاه كوتلا وبورانا كيلا، ورسوماته بالرصاص للخيول، أو أجزاء من الخيول في بعض الأحيان، كالرأس أو العين أو العرف الجامح أو

الحوافر المتقافزة. فسألته مرّة عن تلك الرسوم، هل رسمها معتمدًا على صور فوتغرافية أم نسخها من رسومات في كتب، أم كانت لديه خيول في بيته بكشمير. فقال إنه يراها في الحلم. ولم أرتح لذلك. أنا لا أدّعي أنني أعرف الكثير عن الفن، لكن تلك الرسوم، رسومه ورسوم تِلُو، كانت تبدو لعيني شخص عادي مثلي فريدة ومبهرة. أتذكر أن خطيهما أيضًا كانا متشابهين، ذلك الخط الحر كثير الزوايا الذي كان يدرّس في مدارس العمارة قبل أن يستولي الكمبيوتر على كل شيء.

لا يمكنني القول إنني عرفت موسى جيدًا. كان شخصا هادئًا، تقليديًّا في ملبسه، متين البنيان لا يكاد يتجاوز طوله طول تِلُو. ربما كان لتحفُّظه علاقة بعدم طلاقته في الحديث بالإنجليزية التي كان يتكلمها باللكنة المميزة لأهل كشمير. كان قادرًا على أن يكون وسط جمع فلا يلفت النظر إلى نفسه، وتلك كانت مهارة، لأنه كان لافت المنظر مثل كثير من رجال كشمير. وبرغم أنه لم يكن طويلاً، فقد كان عريض المنكبين، وفي متانةِ بنيانه شدّةٌ خفية. كان شعره أسود فاحمًا، وكان يبقيه شديد القصر دائمًا. وعيناه كانتا بنيتين مخضرّتين. وكان دائمًا حليق الذقن، فتتناقض بشرته الفاتحة الملساء دائمًا تناقضًا حادًّا مع بشرة تِلُو. وأتذكّر عنه شيئين بوضوح تام: سنًّا أمامية مكسورة (كانت تضفي عليه منظرًا طفوليًّا سخيفًا حينما يبتسم، ونادرًا ما كان يبتسم) ويديه المدهشتين، وما كانتا يدي فنان بأي حال، بل كانتا يدي مزارع، كبيرتين وقويتين أصابعهما قصيرة ممتلئة.

وكان في موسى دماثة وسكون أحببتهما فيه، وإن كانت هاتان السمتان هما اللتين على الأرجح قد تحوّلتا لاحقًا إلى شيء مريع. أثق أنه كان على دراية بشعوري نحو تِلُو، ولكنه لم يبدُ متحسّبًا تجاهها ولا مزهوًا بانتصاره عليّ. فأضفى ذلك عليه جلالاً عظيمًا في عينيّ. أما علاقته بناجا فأعتقد أنها كانت تحتوي قدرًا أقل من الثبات، وأرجِّح كثيرًا أن ذلك يرجع إلى ناجا أكثر مما يرجع إلى موسى. فقد كان ناجا في حضور موسى يبدو مضطربًا فقيرًا إلى الجمال.

كان التناقض بين الاثنين واضحًا. فلو أن موسى كان (أو يعطي على أقل تقدير الانطباع بأنه) صخرة صلبة يمكن الاعتماد عليها، فقد كان ناجا يبدو رخوًا زئبقيًا. لم يكن يمكن أن تشعر بالارتياح في حضوره. لم يكن ليوجد في غرفة إلا ويجذب كل الاهتمام إلى نفسه. كان استعراضيًا إلى أقصى حد، صاخبًا ظريفًا مرحًا بعض الشيء وفاجر القسوة تجاه من يختار أن يستهزئ به أمام الناس. كان لطيف الشكل، نحيلاً، صبيانيًا، ماهرًا في لعب الكريكيت ذا شعر مسترسل ونظارة، فهو إلى حد كبير يمثل نمط الرياضي المثقف الظريف. ولكن ما يفوق شكله هو جاذبيته اللئيمة التي بدا أن البنات يحببنها فيه. كن يتحلقن حوله منبهرات، ويتشبثن في كل كلمة يقولها، ويضحكن لكل نكتة من نكاته وإن لم تكن شديدة الظرف. وكان يصعب تتبع سلسال صديقاته. كان يبدو أن لديه ميزة الحرباء التي يتسم بها الممثلون البارعون، تلك المقدرة على تغيير مظهره الجسماني، بغير اصطناع، بل بصورة راديكالية تتواءم مع الشخص الذي يقرِّر أن يكون إياه في لحظة معينة من حياته.

وفي صغرنا كان ذلك كله مسليًا للغاية وممتعًا إلى أقصى حد. كان الجميع ينتظرون باشتياق ما ستكون عليه أحدث تجسدات ناجا. ولكن مع تقدمنا في العمر بات ذلك كله يبدو مضجرًا وأجوف.

بعدما تخرجا في مدرسة العمارة، بدا أن موسى وتِلُو قد افترقا. رجع هو إلى كشمير. وهي حصلت على وظيفة في شركة للتصميم المعماري مهندسةً معماريةً مبتدئة. وكانت مهمتها الأساسية في العمل، مثلما قالت لي، هي أن تتحمل اللوم عن أخطاء الآخرين. وبراتبها البسيط (وكانوا يدفعون لها بالساعة) رقّت نفسها من الحي العشوائي فاستأجرت غرفة متداعية على مقربة من ضريح حضرة نظام الدين أولياء. وهنالك زرتها بضع مرات.

في آخر تلك الزيارات جلسنا بجوار مقبرة ميرزا غالب، وسط بحيرة من أعقاب السجائر والبيدي، محاطيْن بجمع مبهر من المعاقين والمجذومين والمتشردين والمجانين ممن كانوا دائمي الاحتشاد حول الأماكن المقدسة في الهند، وشربنا شايًا ثقيلاً بشعًا.

أتذكر أنني قلت "هكذا نحن في تعاملنا مع ذكرى أعظم شعرائنا". وأنني قلت ذلك ببعض الادعاء، ففي ذلك الوقت لم أكن أعرف شيئًا عن شعر غالب. (الآن أعرف. ولا بد أن أعرف. لأسباب مهنية. لأنه ما من شيء يبعث الدفء في قلوب مسلمي شبه القارة أكثر من بضع أبيات مختارة من الشعر الأردي).

قالت "لعله هكذا أكثر سعادة".

بعدها مشينا في أزقة -يصطف على جوانبها الشحاذون- متجهين إلى الضريح لحضور إنشاد قوالي ليلة الخميس. لم تكن أفضل قوالي سمعتها، لكن السياح الأجانب كانوا مغمضين يتمايلون في نشوة.

بعد الانتهاء من آخر الأغنيات، ووضع الموسيقيين آلاتهم المتهالكة في حقائبها، سرنا في الطريق المعتم الممتد وراء الحي، بمحاذاة ضفاف مصرف الأمطار وقد فاح برائحة المجاري، وصعدنا درجات سلم ضيق متجهين إلى غرفتها. كانت شرفتها المتربة مكدسة بأثاث قديم يخص شخصًا آخر -لعله صاحب البيت نفسه- وقد ابيضّ خشبه بفعل تعرضه للشمس. كان قِطٌّ بنيٌّ يعوي في ولع جنسي طالبًا الأنثى التي تمترست بداخل عش من الخيزران المحلول من مقعدة كرسي مكسور. ربما لا أذكره بهذا الوضوح إلا لأنه ذكّرني حينها بنفسي.

كانت الغرفة ضيقة، أقرب إلى مخزن منها إلى غرفة. جرداء إلا من سرير بسيط، وإناء فخاري للماء وصندوق من الورق المقوّى للثياب وبعض الكتب. أما المطبخ فلم يزد عن سخان كهربائي موضوع على لوح من سيارة جيب قائم على بضع طوبات. كانت على جدار كامل رسمة بارعة بالطباشير هائلة الحجم لديك قزحي اللون يغلب عليه الأزرق والبنفسجي، فكان يشرف علينا بعينين صفراوين عابستين. بدا كأنما تِلُو تعوّض غياب آباء حقيقيين في حياتها بأب مرسوم يراقبها ليل نهار.

ارتحت بفرارنا من نظرة الديك الغاضبة حينما خرجنا إلى الشرفة. أخذنا ندخن بعض الحشيش ونتعرَّض للسعات البعوض ونضحك بلا توقف على لا شيء تقريبًا. كانت تِلُو تجلس متربعة، جاثمة على سور البلكونة، مطلّة على العتمة، وقد أشرق فيها قمر غائم اللون، مناقضًا بجمال من عالم آخر سواد أبخرة هذا العالم الحالكة المنبعثة من المصرف في الجهة الأخرى من الطريق. وبغتة اندفع علينا حجرٌ من الشارع فأخطأ تِلُو بقليل. سارعت تقفز من السور وإن لم يبد عليها الانزعاج.

"هذا جمهور السينما. لا بد أن يكون العرض الأخير قد انتهى".

أطللتُ فسمعت ضحكًا مكتومًا لكنني لم أرَ في العتمة أحدًا. أعترف أنني شعرت ببعض الخوف. سألتها ـ وكان سؤالاً غبيًّا ـ عن الاحتياطات التي اتخذتها لضمان أمنها، فقالت إنها لم تكذّب الشائعة التي سرت في الحي بأنها تعمل مع تاجر مخدرات معروف. فافترض الناس، حسبما قالت، أن لديها حماية.

قرَّرت أن أتجاسر وأسأل عن موسى، أين هو، وهل لا يزالان معًا، وما إذا كانا يخططان للزواج. قالت "أنا لن أتزوج أحدًا"، ولما سألتها عن سبب هذا قالت إنها تريد أن تبقى حرة فتموت بلا مسؤوليات بدون أن تَخطِر أحدًا وبلا سبب.

في البيت، غلبني النوم في تلك الليلة وأنا أفكر في الهوة الفاصلة بين حياتي وحياتها. كنت لم أزل أعيش في البيت الذي ولدت فيه. أبواي

كانا نائمين في الغرفة المجاورة. وفي أذني طنين ثلاجتنا الصاخبة. كل الأشياء ـالسجاجيد والدواليب والمقاعد في غرفة الصالون، ولوحات جاميني روي،[٢٧] والطبعات الأولى من أعمال طاغور بالبنجالية وبالإنجليزية، ومجموعة كتب أبي في تسلق الجبال (ومع أنه لم يكن متسلقًا فقد كانت تلك هوايته) وألبومات الصور العائلية، والحقائب التي نختزن فيها ثياب الشتاء، والسرير الذي كنت أنام فيه منذ صباي- كانت جميعًا حرسًا تراقبني منذ سنين كثيرة. صحيح أن حياتي بعدما كبرت كانت ممتدة أمامي، لكن الأسس التي سوف تقام عليها تلك الحياة بدت ثابتة راسخة مطمئنة منيعة إلى أقصى حدّ. في حين كانت تِلُو ـفي المقابل- أشبه بمركب ورقي في بحر عاصف. كانت وحدها تمامًا. فحتى الفقراء في بلدنا، ومهما تكن قسوة الدنيا عليهم، لديهم أسر. كيف لها هي أن تنجو؟ وكم ينقضي من الوقت قبل أن يغرق مركبها؟

بعدما التحقتُ بـ المكتب ورحلت لقضاء فترة التدريب، انقطع اتصالي بها.

وحينما رأيتها في المرة التالية كان ذلك في عرسها.

لا أعرف ما الذي جمعها مرة أخرى بموسى بعد كل تلك السنوات، ولا كيف انتهت إلى الوجود معه في عوامة سري نجر.

---

٢٧ Jaminin Roy (١٨٨٧ – ١٩٧٢) رسام هندي يرد في موقع باسمه على الإنترنت أنه جمع بين الأسلوبين الهندي التراثي والغربي، ويرد في مواقع أخرى أنه من أنجب تلاميذ طاغور؛ إذ درس على يديه في كلية الفن الحكومية بكلكتا.

في ضوء ما كنت أعرفه عنه، لم أفهم قط كيف أمكن لعاصفة الزهو الضال البليد ـ وتلك الفكرة العبثية حول إمكانية نيل كشمير لل "الحرية"ـ أن تطيح به مثلما أطاحت بجيل كامل من شباب كشمير. صحيح أنه عاش مأساة لا ينبغي أن يعيشها أحد، لكن كشمير كانت منطقة حرب آنذاك. بوسعي أن أضع يدي على قلبي وأقسم أنني لن أفكر قط ـ مهما يكن الاستفزاز ـ في القيام بمثل ما قام هو به.

لكنه في نهاية المطاف لم يكن أنا، وأنا لم أكن هو. هو فعل ما فعل. ودفع ثمنه. ومن يبذر شيئًا، يجنِ ثمره.

وفي غضون أسابيع من موت موسى، تزوجت تِلُو بناجا.

أما أنا، أنا الأقل تميُّزًا بيننا جميعًا، فأحببتها بلا فخر. وبلا أمل. بلا أمل لأنني كنت أعرف أنه حتى لو سنحت فرصة واهية وبادلتني مشاعري فإن أبوي، وهما من البراهما، لن يقبلا مطلقًا أن تنضم إلى العائلة تلك الفتاة عديمة الماضي والطبقة. وإن أصررت، فسوف يحدث اضطراب من النوع الذي لم تكن لي ـ بكل بساطة ـ طاقة عليه. فحتى في أكثر الحيوات هدوءًا، ينادى على كل واحد فينا كي يختار معركته، وتلك المعركة ببساطة لم تكن معركتي.

الآن، بعد كل تلك السنين، مات أبواي. وأنا الآن ما يعرف بـ"رب أسرة". أنا وزوجتي نتسامح تجاه أحدنا الآخر ونعشق ابنتينا. تشيترا ـ تشيتاروباـ زوجتي (نعم، زوجتي البراهمية) تعمل في الخارجية

وتخدم حاليًا في براج. ابنتانا رابيا وآنيا في السابعة عشرة والخامسة عشرة. مقيمتان مع أمهما وتدرسان في المدرسة الفرنسية. رابيا تتمنى أن تدرس الأدب الإنجليزي وآنيا الصغيرة مصرّة إصرارًا غريبًا على العمل في مجال قانون حقوق الإنسان. هو اختيار غير تقليدي. وتصميمها عليه، ورفضها النظر في أي خيارات أخرى، غريب بعض الشيء، خاصة من فتاة في هذه السن الصغيرة. ضايقني الأمر في البداية. وشككت أن تكون هذه هي طريقتها في التمرد المراهق الرقيق على أبيها. لكن لا يبدو الأمر هكذا على الإطلاق. فعلى مدار السنوات العشر الأخيرة أو نحوها بات مجال حقوق الإنسان محترمًا للغاية، بل بات مهنة مربحة. فلم أتوانَ عن تشجيعها، خاصة أنه لم يزل بيننا وبين القرار النهائي بضع سنوات على أي حال. وسوف نرى ما سيحدث. كلتا الفتاتين تلميذة ناجحة. وقد حصلت أنا وتشيترا على وعد بأن نخدم في موقع واحد قريبًا، فعسى أن يكون ذلك في بلد تلتحق فيه الفتاتان بالجامعة.

لم أتخيل قط أنني قد أفعل في يوم من الأيام أي شيء يثير الضيق لعائلتي أو يلحق بها الأذى بأي وجه من الأوجه. فلما رجعت تِلُو إلى حياتي، إذا بهذه الروابط الشرعية، وهذه المبادئ الأخلاقية النبيلة تضمُر، بل وتبدو عبثية بعض الشيء. ثم تبيّن أن قلقي كله لا مجال له، فلم يبدُ عليها أنها تلاحظ ورطتي أو أنها منتبهة إلى تعبي.

بتأجيري لها الشقة حينما احتاجت إليها، قلت لنفسي إنني أكفّر عن إثمي ببراعة وفي سرية. وأقول إثمي، لأنني شعرت دائمًا أنني خذلتها على نحو قد لا يكون واضحًا لكنه حاسم. صحيحٌ أنها لم تكن ترى

الأمر على ذلك النحو مطلقًا، لكنها في النهاية لم تكن من هذا الصنف من الناس.

لم أرها إلا على فترات متباعدة منذ أن تزوجت ناجا. بقي زفافهما في دلهي محفورًا في ذاكرتي، وليس ذلك للأسباب التي قد تبدو بديهية، كالقلب المفطور أو الحب المغدور. فقد كان ذلك في حقيقة الأمر أوهى الأسباب. كنت لأسباب منطقية سعيدًا في تلك الفترة. فلم يكن قد مضى على زواجي عامان، ومن ثم كان لا يزال بيني وبين زوجتي بعض مظاهر الشغف إن لم يكن الحب. ولم تكن المرارة التي تسم علاقتي بتشيترا حاليًا قد ظهرت بعد.

في الوقت الذي تزوج فيه ناجا بتِلُو، كان قد مرّ بالفعل بتحولاته الكثيرة من الطالب الجريء المنفلت إلى المثقف العاطل اليساري الراديكالي والنصير المتعصب للقضية الفلسطينية (وكان بطله في ذلك الوقت هو جورج حبش)، ثم إلى الصحافة الرسمية. وشأن كثير من المتطرفين الزاعقين، تنقل عبر نطاق عريض من الآراء السياسية المتطرفة. فلم يبق ثابتًا فيه طوال الوقت إلا تطرفه. الآن ناجا له من يشغّله -وإن لم ير هو الأمر على هذا النحو- في مكتب المخابرات. ففي ظل احتلاله منصبًا رفيعًا في جريدته، يُمثّل ناجا لنا في المكتب استثمارًا قيمًا.

بدأت رحلته إلى ذلك الجانب المعتم -إن أحببتم وصفه بذلك وأنا شخصيًا لا أحب- بالقضمة الصغيرة المعتادة من كعكة (هات وخذ).

كان طُعمه هو البنجاب. في ذلك الوقت كان التمرد قد انسحق تقريبًا. ولكن ناجا قضى وقته ينبش في الأخبار القديمة، فيوفر من نبشه مادة خصبة للمساخر السخيفة التي عرفت بـ"المحاكم الشعبية" وكانت تنتهي بـ"عرائض اتهام شعبية" أشد هزلية موجهة ضد الشرطة والقوات شبه العسكرية. في حين أنه لا يمكن إخضاع إدارة في مواجهة تمرُّد لا يرحم لمثل المعايير التي يجب أن تخضع لها إدارة تعمل في ظروف سلمية عادية. ولكن من ذا الذي كان يمكنه أن يوضح ذلك لصحفي مناضل يكتب وصوت التصفيق لا يغادر أذنيه؟ في إحدى إجازاته من عروضه الراديكالية الجديدة تلك، ذهب ناجا إلى ولاية جوا، وعلى طريقة ناجا المعهودة، وقع في غرام مشبوب واندفع إلى الزواج بفتاة هيبية أسترالية. ليندي، أظن ذلك كان اسمها. (أم كانت تشارلوت؟ لست متأكدًا. وليس مهمًا. سأظل على ليندي). وفي غضون سنة من زواجهما، اعتقلت ليندي في جوا للإتجار في الهيروين. وواجهت احتمال السجن لسنوات عديدة. وغضب ناجا. كان والد ناجا رجلاً ذا نفوذ يسهل عليه أن يقدم المساعدة، لكن ناجا المولود لأبيه على كبر كان دائمًا على علاقة مضطربة به، فلم يرغب أن يعرف بالأمر. اتصل بي أنا فلجأت إلى بعض المعارف. تكلم مدير عام الشرطة في بنجاب مع نظيره في جوا. وأخرجنا ليندي من الحبس وأسقطت التهم. وبمجرد الإفراج عنها، استقلت ليندي أول طائرة إلى بلدها بيرث. ولم تمض شهور قليلة إلا وقد طلقت هي وناجا رسميًا. وواصل ناجا عمله في بنجاب، وقد بات طبعًا رجلاً مهذبًا إلى حد كبير.

صرنا كلما احتجنا إلى مساعدة من صحفي في مسألة صغيرة، قضية مثلاً يثير نشطاء حقوق الإنسان جلبة عليها، برغم افتقار كثير من معلوماتهم إلى الصحة، اتصلت بناجا. وكان يساعد. وهكذا مضت الأمور. ونشأ التعاون.

وشيئًا فشيئًا بدأ ناجا يستمتع بالميزة التي صار يمتاز بها على زملائه بحصوله على المعلومات من خلالنا. كانت مفارقة هائلة: نوعًا آخر من تجارة المخدرات. لكننا هذه المرة كنا التجار وكان هو المدمن على بضاعتنا. وفي غضون سنوات قليلة علا نجمه في الصحافة وبات مطلوبًا في سماء الإعلام محلّلاً للشؤون الأمنية. ولّما باتت علاقته بـ المكتب واعدة بالتحول وتجاوز الارتباط العابر -إلى الزواج المستقر بدلاً من ليلة المتعة- رأيت من الحكمة أن أتنحّى أنا، وتولّاه بدلاً مني زميلي راء شين شارما، أو رام شاندرا شارما. توافق راء شين وناجا توافقًا ممتازًا. فقد كانا شبيهين في سخريتهما القاسية وحبهما للروك آن رول والبلوز. الشهادة الوحيدة التي أشهد لناجا بها هي أن الفلوس لا تغير النفوس. والحقُّ أنه كان ولا يزال خير مثال على صدق ذلك. وبما أن فكرته عن الاستقامة المهنية تستوجب منه أن يعيش وفقًا لما تمليه عليه مبادئه، فيبقى بذلك شخصًا مستقيمًا، فقد غيَّر مبادئه، وهو الآن مؤمن بنا أكثر تقريبًا من إيماننا نحن بأنفسنا. فيا لها من مفارقة للولد الذي كانت أحبُّ سخرية يوجِّهها إليّ هي قوله لي "يا كلب الإمبريالية الهارب" وذلك في وقت كان أغلبنا لم يزل يقرأ كتب آرتشي المصورة!

لا أعرف من أين ومِمّن تعلّم ناجا لغة اليسار النارية تلك. ربما من قريب كان شيوعيًّا. كائنًا من كان، من المؤكد أنه كان معلمًا جيدًا، أو أنها كانت معلمة جيدة، ومن المؤكد أن ناجا وظّف ما تعلّمه فأحسن توظيفه. ومضى به من فتح إلى فتح. حدث في يوم من الأيام أن شاركت أمامه في مناظرة مدرسية. لا بد أننا كنا في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة. كان موضوع المناظرة هو "هل الرب موجود؟" وكان عليَّ أن أدافع عن الوجود، ويهاجمه ناجا. تكلمت أولاً. ثم ألقى ناجا خطبة ملتهبة، فكان جسمه النحيل مشدودًا كالوتر، وصوته يرتعش بالسخط. ومضى زملاؤنا المشدوهون يدوّنون ملاحظات دقيقة من تجديفه الزاعق "إن زيف ثلاثمئة وثلاثين مليونًا من آلهتنا الخرساء، والإلهيْن الأنانييْن اللذين نطلق عليهما رام وكريشنا، لن ينجينا من الجوع والمرض والفقر. إيماننا الأحمق بالقردة والأشباح ذات رؤوس الفيلة لن يطعم جموعنا الجائعة ...". لم تبق لي فرصة. خطبة ناجا جعلت خطبتي تبدو وكأنما كتبتها خالة مسنّة متدينة. والغريب أنني أتذكر بوضوح تام شعوري بالعجز التام، لكنني لا أتذكر مطلقًا ما الذي قلته فعليًا. وعلى مدار شهور بعد ذلك كنت أتشدّق سرًّا أمام المرآة بكُفريّات ناجا "إيماننا الأحمق بالقردة والأشباح ذات رؤوس الفيلة لن يطعم جموعنا الجائعة ..." فكان رذاذ بصاقي ينصبُّ على صورتي في المرآة انصباب المطر.

وجاء أحد عروض ناجا الأساسية بعد سنوات قلائل، في فعالية ثقافية كانت تقام سنويًا في الكلية. كان قد عاد للتو برفقة اثنين من

أصدقائه من معسكر صيفي في بستار، خيّموا فيه داخل الغابة وساروا فيها عابرين بقرى تسكنها القبائل البدائية، فصعد ناجا إلى المسرح متمهلاً، طويل الشعر، حافيًا، عاري الجسم لا يرتدي إلا إزارًا، حاملاً قوسًا وجعبة أسهم على كتفيه. أدّى عرضًا عظيمًا مضغ فيه ما زعم أنه نمل أبيض على خبز توست، مستثيرًا تعبيرات تقزز وانبهار من البنات الحاضرات اللاتي كان أغلبهن يرغبن في الزواج به. وبعد أن ابتلع آخر لقمة من الخبز، توجه إلى الميكروفون وأدى أغنية "التعاطف مع الشيطان" لفريق ستونز، مدندنًا لحن الخلفية، وهو يحرك أصابعه على أوتار جيتار خيالي. كان مغنيًا جيدًا، بل ربما ممتازًا، ولكن الأمر برمته بدا لي بغيضًا، ورأيت أنه ينمّ عن احتقار عميق للسكان الأصليين وأيضا لـ ميك چاجر[٢٨] الذي كنت أعتقد في تلك الفترة من حياتي أنه لا يقل عن إله. (ليتني كنت فكّرت في ذلك في خطبتي المدافعة عن الإله في المدرسة). والحق أنني أخذت على عاتقي أن أقول له ذلك. فضحك ناجا وأصرَّ أن عرضه كان ثناء على الاثنيْن.

واليوم إذ يصعد مدُّ القومية الهندوسية الزعفراني في بلدنا صعود الصليب المعقوف ذات يوم في بلد آخر، كان من شأن الخطاب المدرسي الذي ألقاه ناجا عن "الإيمان الأحمق" أن يتسبّب في طرده من المدرسة، وإن لم يكن ذلك بقرار من إدارة المدرسة، فبحملة ما من الآباء. بل إن اقتصار الأمر على الطرد في ظل المناخ السائد اليوم سيكون في الحقيقة من قبيل الحظ السعيد. فالناس يلقون مصرعهم اليوم لأسباب أوهى.

---

٢٨ Mick Jagger مطرب مؤسس في فرقة The Rolling Stones.

وحتى زملائي في المكتب يعجزون عن التفرقة بين الإيمان الديني والوطنية. يبدو أن ما يريدونه هو نوع هندي من باكستان. أغلبهم محافظون، براهمة متخفُّون يلفُّون حول معاصمهم خيوطهم المقدسة أسفل بذلاتهم السفاري، وذيول الحصان المقدسة تتمايل داخل جماجمهم النباتية. وهم لا يتسامحون معي إلا بسبب انتمائي الطبقي (فالطبقة التي أنتمي إليها في الحقيقة هي البايدايا لكننا نعد أنفسنا براهمة[٢٩]). ولكنني مع ذلك أحتفظ بآرائي لنفسي. ناجا في المقابل تسلَّل إلى الشريعة الجديدة تسلل حية ملساء. تبدَّد طيشه فلم يخلِّف أثرًا. وإذا به في شخصيته الجديدة يرتدي سترة من التويد ويدخن السيجار. لم أقابله منذ سنين، لكنني أراه وهو يلعب دور خبير الأمن الوطني في البرامج التليفزيونية الصاخبة، ولا يبدو حتى أنه يدرك أنه مجرد دمية براقة. يصيبني الحزن أحيانًا حينما أراه مروَّضًا إلى هذا الحد. لا يكفُّ ناجا عن التجريب في شعر لحيته. فقد يلهو حينا بدوجلاس فرنسية، وفي حين بشارب مشمّع مبروم على طريقة سلفادور دالي، أحيانًا يظهر بذقن نابتة، وأحيانا يكون حليقًا تمامًا. لا يستطيع فيما يبدو أن يستقرَّ على هيئة. يبدو أن هذا هو كعب أخيل في مظهر الإحساس الأكيد بالأهمية الذي يبدو به. وتلك السمة هي التي تكشف عن جوهره. أو هذا ما أراه أنا على الأقل.

من المؤسف أنه بدأ في الفترة الأخيرة ينسى نفسه، ويستنيم إلى قوته، فبات ذلك يتحول إلى عبء. فقد حدث مرَّتين خلال عامين أن

---

٢٩ Baidya من أرفع الطبقات الهندية على أي حال وتستوي مع البراهمة.

اضطر المكتب إلى التدخل (سرًا بطبيعة الحال) لدى ملاك جريدته لتسوية شجارين بينه وبين رئيس التحرير أدّيا إلى تهوره في المرتين وتقديمه الاستقالة. حتى أننا في المرة الأخيرة منعنا انقلابًا. وأرجعناه إلى موقعه بزيادة في راتبه.

وإذا لم يكن كافيًا أننا كنا معا في الحضانة والمدرسة والجامعة وأننا مثلنا دور الحبيبين المثليين في مسرحية، فقد حدث في السنين التي خدمت فيها في سري نجر نائبًا لرئيس القسم التابع للـ المكتب أن كان ناجا مراسلاً لجريدته في كشمير. لم يكن موقعه في كشمير نفسها، لكنه كان يقيم فيها أغلب أيام الشهر، حيث كانت له غرفة دائمة في فندق أهدوس الذي كان يقيم فيه أغلب الصحفيين. كانت علاقته بالمكتب قد ترسّخت بحلول ذلك الوقت، ولكنها لم تكن واضحة وضوحها الحالي. وكان ذلك الوضع أنسب لنا. فقد بقي بالنسبة لقرّائه -بل وربما بالنسبة لنفسه- الصحفي الجريء الذي ينتظر منه فضح ما يعرف بـ"جرائم الدولة الهندية.

لا بد أن الوقت كان قد تجاوز منتصف الليل بكثير حينما جاء اتصال عبر الخط الساخن الخاص بالحاكم في استراحة فوريست للضيوف في حديقة داشيجام الوطنية التي تقع على بعد عشرين كيلومترًا تقريبًا من سري نجر. وكنت هناك ضمن الوفد المرافق لسعادته. (كنا في تلك الفترة في قلب الأزمة بالفعل، إذ كنا في عام ١٩٩٦ وكانت

الحكومة المدنية قد طردت، ووصلنا إلى العام السادس على التوالي من تولي الحاكم السلطة في الولاية).

كان صاحب السعادة ـ الذي سبق أن كان قائد الجيش الهندي ـ يحب أن ينأى عن مذابح المدينة كلما أمكنه ذلك. فكان يقضي عطلاته الأسبوعية في داشيجام، يتمشى على ضفة نهر جبليّ مندفع برفقة أهله وأصدقائه، بينما الأبناء في الحفل وبرفقة كل واحد منهم كظله حارس شخصي متحفز مسلح كثيف العتاد حصد أرواح مقاتلين وهميين (ردَّدوا وهم يموتون صيحات الله أكبر) وطارد فئرانًا طوال الذيول حتى أدخلها جحورها. كانوا في العادة يتناولون غداءً خفيفًا أثناء تنزههم، ولكن العشاء كان يقدَّم دائمًا في الاستراحة من الأرز والسلمون بالكاري، وكان السمك يأتي من مزرعة سمكية قريبة. كانت برك المزرعة مزدحمة بالسمك لدرجة أن يستطيع المرء أن يضع فيها يده ـ إن احتمل درجة البرودة القريبة من درجة التجمد ـ ويلتقط بنفسه سمكته الملونة بألوان قوس قزح.

كنا في الخريف. وكانت الغابة جميلة جمالاً يوقف القلب مما لا تملك الوصول إليه إلا غابة في الهيمالايا. كان شجر الشينار قد بدأ يغيِّر لونه، وأخذت المروج تكتسي بالذهبي النحاسي، وصار بوسع من يحالفه الحظ أن يرى دبًّا أسود أو فهدًا أو حتى غزال داشيجام الشهير المعروف بالهانغول. كنت في ذلك الوقت قد أصبحت مولعًا بالطيور ـ ولم يزل ذلك الولع لديّ إلى الآن ـ فبتُّ أميِّز نسور جريفون الهيمالايا من النسور

المنحية، وأعرف بسهولة العصفور الضاحك المخطّط، وعصفور الدغناش البرتقالي، وطائر الدخلة المغني، وطائر صائد الذباب الكشميري الذي كان مهدّدًا بالانقراض أيامها، ومن المؤكد أن يكون الآن قد انقرض. كان المزعج في الحياة بداشيجام أنها ترخي عزيمة المرء، تفضح خواء كل شيء، تبثّ في نفسي شعورًا بأن كشمير في الحقيقة تخص تلك الكائنات. وأنه ليس بيننا نحن المتصارعين عليها، من الكشميريين والهنود والباكستانيين والصينيين (وللصينيين أيضًا قطعة فيها هي أكساي تشين التي كانت جزءًا من مملكة جامّو وكشمير القديمة)، فضلاً عن البهاديس والجوجاراس والبشتون والشين واللاداخيس والبالتيس والجيلجيتيس والبوريكيس والواخيس والياشكونز والتبتيين والمغول والتتر والمون والخوارس ـ فليس بيننا جميعًا، سواء من كان قديسًا أو جنديًا، من له الحق في امتلاك ذلك المكان لنفسه بما فيه من جمال إلهي حق. ومرّة بلغ بي التأثر أن قلت هذا عرضًا لعِمران، وكان ضابط شرطة كشميريًا شابًا يؤدي لحسابنا بعض العمل السري النموذجي. فكان ردُّه أن "هذه فكرة عظيمة يا سيدي. إن لدي مثل هذا الحب للحيوانات، حتى إنني خلال أسفاري إلى الهند أشعر بمثل هذا الشعور، الشعور بأن الهند لا تخص البنجاب والبيهاريس والجوخاريتيس والمدراسيين والمسلمين والسيخ والهندوس والمسيحيين، بل تخص تلك الكائنات الجميلة، تخص الطواويس والفيلة والنمور والدببة ...".

كان مهذبًا إلى درجة الخنوع، لكنني عرفت قصده. كم كان الأمر استثنائيًا، لم يكن بوسع المرء -ولا يزال خارجًا عن قدرته- أن يثق حتى في من يفترض أن يكونوا في جانبه. حتى الشرطة اللعينة.

كان الجليد قد هطل بالفعل في أعالي الجبال، لكن الممرات الحدودية كانت ما تزال موضع تفاوض، وكانت مجموعات صغيرة من المقاتلين -من الشباب السذج الكشميريين والباكستانيين والأفغان القتلة بل وبعض السودانيين- المنتمين إلى قرابة ثلاثين من الجماعات الإرهابية المتبقية (من قرابة مئة جماعة في الأصل) لا يزالون يقومون برحلتهم اللعينة عابرين خط السيطرة فيموتون جماعات في الطريق. يموتون! ربما لا يكون ذلك هو الوصف المناسب. ما تلك الجملة العظيمة التي جاءت في فيلم القيامة الآن؟ "ينتهون من فرط الهوى". فقد كانت التعليمات الصادرة لجنودنا على خط السيطرة مماثلة إلى حد كبير.

وما الذي كان يفترض أن يفعلوه غير هذا؟ يتصلون بأمّهاتهم؟

ومن كان ينجح من المقاتلين في العبور فنادرًا ما ينجو من الموت في الوادي إلا لعامين أو ثلاثة على الأكثر. فإذا لم تعتقلهم قوات الأمن أو نقتلهم، يذبحون هم بعضهم بعضًا. وكنا نحن من يسوقهم على هذا الطريق، ولو أنهم ما كانوا بحاجة إلى عون أصلاً، وإلى الآن ليسوا بحاجة إليه. فالمؤمنون يأتون ببنادقهم، ومسابحهم، وأدلة التحطيم الذاتي الخاصة بهم.

بالأمس بعث لي صديق باكستاني رسالة متداولة عبر الهواتف المحمولة، فلعلكم رأيتموها بالفعل:

رأيت رجلاً يوشك أن يقفز من الجسر.

قلت "لا تقفز".

قال "لا أحد يحبني".

قلت "الرب يحبك. هل تؤمن بالرب؟"

قال "نعم"

قلت "هل أنت مسلم أم غير مسلم؟"

قال "مسلم".

قلت "شيعي أم سني؟"

قال "سني".

قلت "وأنا أيضًا. ديوباندي أم بريلوي؟"

قال "بريلوي".

قلت "وأنا أيضًا. تنزيهي أم تكفيري؟"

قال "تنزيهي".

قلت "وأنا أيضًا. تنزيهي أزمتي أم تنزيهي فرحتي؟"

قال "تنزيهي فرحتي".

قلت "وأنا أيضًا. تنزيهي فرحتي جامع العلوم أجر، أم تنزيهي فرحتي جامع النور ميوات؟"

قال " تتزيهي فرحتي جامع النور ميوات"
قلت له "مت إذن يا كافر" ودفعته عن الجسر.

من حسن الحظ أن بعضهم لا يزال لديه حسٌ الدعابة.

تسرّبت تلك الحماقة الأصيلة، أعني فكرة الجهاد، إلى كشمير قادمة من باكستان وأفغانستان. والآن بعد خمسة وعشرين عامًا، ومن حسن حظنا في تقديري، لدينا ثماني نسخ أو تسع من الإسلام "الصحيح" تتصارع في كشمير. لكل من هذه النسخ ملاليها ومواليها الراسخين. وبعض أكثرهم تطرفًا ـأي الذين يعادون فكرة القومية ويناصرون فكرة الأمة الإسلامية العظمى- مسجّلون فعليًا في قوائم الرواتب لدينا. أحدهم مات أخيرًا بالقرب من مسجده في انفجار دراجة مفخخة. لن يكون استبداله صعبًا. الشيء الوحيد الذي يحمي كشمير من تدمير نفسها شأن باكستان أو أفغانستان هو رأسمالية برجوازيتها الصغيرة القديمة الحميدة. فعلى الرغم من تديّن الكشميريين يبقون رجال أعمال عظامًا. ورجال الأعمال جميعًا، في نهاية المطاف، وبهذه الطريقة أو تلك، لديهم مصلحة في الوضع القائم، أو ما نطلق عليه "عملية السلام"، وإذا كان الشيء بالشيء يذكر، فإن عملية السلام فرصة تجارية مختلفة تمام الاختلاف عن السلام نفسه.

الرجال الذين يأتون كانوا شبابًا في العقد الثاني من أعمارهم، أو في مطالع العشرينيات. جيل بأكمله تقريبًا انتحر. ولم يحل عام ٩٦ إلا وتضاءل عبور الحدود حتى صار تقاطرًا محدودًا. ولكننا لم ننجح في إيقاف التيار تمامًا. كنا نحقق في بعض المعلومات المخابراتية المزعجة التي تلقيناها عن قيام جنودنا المتمركزين في أحد المواقع الأمنية الحدودية ببيع ممرات "العبور الآمن" فيغضون الطرف عن الرعاة الجوخاراس -الذين يعرفون تلك الجبال معرفتهم براحات أيديهم- وهم يرشدون تلك القوات. ولم تكن الممرات الآمنة إلا سلعة من السلع المعروضة في السوق. وكان ثمة أيضًا الديزل والكحول والرصاص والقنابل اليدوية ومؤن الجيش والأسلاك الشائكة والخشب. غابات كاملة كانت تختفي. أقيمت مناشير كهربائية داخل معسكرات الجيش. وجُنِّد العمال والنجارون الكشميريون، وصارت شاحنات الجيش التي تأتي كل يوم بالمؤن من جامّو إلى كشمير ترجع محملة بأثاث مصنوع من خشب الجوز المنحوت. فلو أن جيشنا ليس جيد العتاد، فقد كان لدينا يقينًا أفضل جيوش العالم تأثيثًا لو جاز لي أن أصوغ هذه العبارة. ومن ذا الذي بوسعه أن يدسّ أنفه في شؤون جيش منتصر؟

أما الجبال المحيطة بداشيجام فكانت هادئة نسبيًا. ومع ذلك، فضلاً عن الوحدات شبه العسكرية المتمركزة هناك بصفة دائمة، فكلما كان صاحب السعادة يأتي في زيارة، كانت دوريات السيطرة على المنطقة تصل قبله بيوم لتأمين التلال المشرفة على الطريق الذي يسلكه موكبه المسلح وكانت مدرعات استشعار الألغام الأرضية تُطهِّر الطريق. كانت الحديقة

مغلقة دائمًا دون أبناء المنطقة. ولتأمين الاستراحة، كان أكثر من مئة فرد يتشرون على السطح في أبراج حراسة محيطة بالمكان وفي دوائر متحدة المركز تتحلق أقصاها على بعد كيلومتر داخل الغابة. فما لأحد في الهند أن يصدق إلى أي مسافات كنا نضطر إلى التوغل في كشمير لكي نؤمّن لزعيمنا بعض الهواء النظيف.

كنت سهران في تلك الليلة أنهي تقريري اليومي للعرض على صاحب السعادة في صباح اليوم التالي. وقد خفّضت صوت جهاز سوني القديم، منصتًا إلى رسولان باي في أغنيتها "ياهين ثايان موتيا هيراي جالي راما". لا شك أن كيسار باي كانت أكثر مطرباتنا الهندوستانيات تحققًا، لكن رسولان كانت بلا شك أكثرهن إيروتيكية. كانت ذات صوت ذكوري عميق مبحوح، يختلف يقينًا عن الصوت العالي العذري أبدي المراهقة الذي تهيّأ له أن يسيطر على الخيال الجمعي من خلال أفلام بوليود. (كان أبي، دارس الموسيقى الكلاسيكية الهندوستانية، يرى صوت رسولان تدنيسًا. فبقي ذلك أحد خلافاتنا الدائمة). كنت أرى عقد اللؤلؤ الذي تغني عنه إذ ينفرط أثناء مطارحة الهوى، وصوتها المجهد يقتفي أثر اللآلئ المبعثرة على أرض غرفة النوم. (نعم، مرَّ علينا زمن كان بوسع محظية مسلمة فيه أن تتوسّل بإله هندوسي).

شهدت المدينة في صباح ذلك اليوم بعض الاضطرابات الجسيمة. فالحكومة كانت قد أعلنت عن إجراء الانتخابات في غضون أشهر قليلة، وكان من شأن تلك الانتخابات أن تكون الأولى منذ تسع سنين. وكان المقاتلون قد أعلنوا المقاطعة. كان واضحًا تمامًا آنذاك (خلافًا للآن

حيث تتجاوز الطوابير أمام صناديق الاقتراع جميع قدرات الخيال) أن الناس لن يتوجَّهوا إلى صناديق الاقتراع للتصويت بغير شيء من الإقناع الجاد من جانبنا. ولأن الصحافة "الحرة" ستكون حاضرة بكل حماقتها الجيدة، فسوف يكون لزامًا علينا أن نتحلّى بالحذر. وكانت ورقتنا الرابحة هي الإخوان المسلمون،[٣٠] فهم قوتنا المضادة، تلك الجماعة المسلحة الانتهازية التي استسلمت كجماعة استسلامًا تامًا. وتدريجيًا بدأت صفوفها تتوسع من خلال أفراد منفصلين بدأوا يستسلمون بالعشرات. فأعدنا تنظيمهم وتسليحهم، وأعدناهم إلى المعركة. كان الإخوان رجالاً شدادًا، أغلبهم مجرمون صغار انضموا للقتال عندما رأوا فيه مكسبًا وربحًا، ولمّا اشتدَّ القتال كانوا أول المستسلمين. كانت لديهم قدرة لا نحلم بامتلاكها على الوصول إلى المعلومات المحلية، وبمجرد أن جُنِّدوا لحسابنا، كانت لهم ميزة مجهولي الأصل التي أتاحت لهم تنفيذ عمليات لا تستطيع قواتنا ـ في حدود التفويض المخول لها ـ أن تنفذها بنفسها. في أول الأمر أثبتوا أنهم أداة عظيمة القيمة، ثم سرعان ما ازدادت صعوبة السيطرة عليهم. وكأن أكثرهم إثارة للخوف، أي أمير الظلام نفسه، رجلاً يُعرف على النطاق المحلي بـ بابا، وكان من قبل لا يعدو حارسًا على مصنع. لكنه في مهنته الجديدة ـ كواحد من الإخوان ـ قتل عشرات البشر (وأعتقد أن الرقم الآن يصل إلى مئة وثلاثة). كان الرعب الذي أثاره قد ضبط التوازن ـ في أول الأمر ـ لصالحنا، لكن بحلول عام ٩٦ كان ضرره قد بات أكبر من نفعه، فبدأنا نفكر في كبح

---

٣٠ الجماعة المذكورة هنا ليست جماعة الإخوان المسلمين المصرية.

جماحه. (هو الآن في السجن). في مارس من ذلك العام، ودون تعليمات منّا، اغتال بابا رئيس تحرير شهيرًا لجريدة يومية أردية، وأجدني مرغمًا على القول بأنها جريدة أردية غير مسؤولة (والصحف اليومية غير المسؤولة هي الصحف المغالية في معاداتها للهند التي تبالغ في أعداد القتلى وتستعين بمعلومات مغلوطة، وهي الصحف التي قضت على الإعلام المحلي وسهّلت علينا أن نلوّثها جميعًا بضربة واحدة. وأصدقكم القول فأقول إننا كنا نموّل بعضها). في مايو حاصر بابا مقبرة في بولواما، زاعمًا أنها إرث له عن أسلافه. ثم قتل معلّما محبوبًا في قرية حدودية ورمى جثته في أرض خراب كانت مزروعة بالألغام. فلم يتسنَّ الوصول إلى الجثة، ولم تتسنَّ إقامة صلاة جنازة، وصار على تلاميذ ذلك المعلم أن يشاهدوا جثة معلمهم تأكلها النسور والحدآت.

أثارت أعمال بابا الإعجاب، فبدأ إخوان آخرون في محاكاته.

وفي صباح ذلك اليوم أوقفت جماعة منهم رجلاً وامرأته من كبار السن الكشميريين عند حاجز أمني في وسط مدينة سري نجر. ولما رفض الرجل تسليمهم محفظته اختطفوه واقتادوه بعيدًا. وتجمع الناس يطاردونهم على طول الطريق إلى معسكر كان الإخوان يقيمون فيه مع قوة من حرس الحدودي. رموا الشيخ من السيارة الجيبسي خارج المعسكر. وما كادوا يدخلون المعسكر حتى -كيف أقولها؟- فقدوا عقلهم تمامًا. فألقوا قنبلة يدوية من وراء السور ثم أطلقوا رصاص مدفع رشاش على المحتشدين بالخارج. فقتل صبي وأصيب قرابة عشرة، نصفهم

بإصابات بليغة. ثم مضى الإخوان إلى القسم فهدّدوا الشرطة هناك ومنعوها من تحرير محضر. وعند العصر ترصّدوا لجنازة الصبي فسرقوا التابوت، بما يعني أن الجثة اختفت، ومن ثمَّ لم يعد من الممكن توجيه اتهام بالقتل. وبحلول المساء تحوَّل المتظاهرون إلى العنف، فأحرقت ثلاثة من أقسام الشرطة، وأطلقت قوات الأمن الرصاص على المتظاهرين فقتلت منهم أربعة عشر شخصًا آخرين. وفُرض حظر تجول في جميع المدن الكبرى، سوبوري وباراميولا وسري نجر بالطبع.

حينما سمعت رنين الهاتف الذي ردَّ عليه الياور الخاص بصاحب السعادة، تصوَّرت أن الاضطرابات خرجت عن السيطرة وأنهم يتصلون طلبًا لتعليمات جديدة. وتبيَّن أن الأمر لم يكن كذلك.

قال المتصل إنه يتكلم من مركز الاستجواب المشترك القائم في سينما شيراز.

ليس الأمر كما قد يبدو في ظاهره. نحن لم نغلق دار السينما لنحوِّلها إلى مركز تحقيقات. كانت جماعة تدعى نمور الله قد أغلقت سينما شيراز منذ سنين، مثلما أمرت بإغلاق جميع دور السينما ومحلات الخمور والحانات لتعارضها مع الإسلام ولكونها "من أدوات الغزو الثقافي الهندي". وكان ذلك الأمر قد صدر موقَّعًا من المارشال الجوي نور خان. ملأ النمور المدينة بملصقات تهديد وزرعوا قنابل في الحانات. ولما اعتقل المارشال في نهاية المطاف تبيَّن أنه مزارع شبه أميٍّ من قرية جبلية نائية لعلَّ عينه لم تقع يومًا على طائرة. كنت عضوًا حديثًا في فريق تحقيق

(وذلك قبل انتقالي إلى سري نجر) زاره هو والعديد من كبار المقاتلين في السجن على أمل تجنيدهم لحسابنا. كان يجيب أسئلتنا بشعارات يصيح بها كأنه يخاطب حشدًا من الناس في مسيرة: **كشمير التي رويناها بدمائنا، كشمير هذه كشميرنا. أو بصيحة نمور الله الحربية: لا شرقية ولا غربية، إسلامية إسلامية.**

كان المارشال الجوي رجلاً شجاعًا أوشكت أن أحسده على ما لديه من حماسة وراءها قلب صافٍ وعقل بسيط. لم يتُبْ، حتى بعد قضائه مدته في كارجو. هو الآن خارج السجن بعد فترة حبسه الطويلة. ولا تزال عيوننا عليه هو وأمثاله. يبدو أنه حريص أن ينأى بنفسه عن المشاكل. يكسب دخلاً بسيطًا من بيع أوراق التمغة خارج محكمة محلية في سري نجر. بلغني أن عقله ليس سليمًا تمامًا، ولو أنني لا أستطيع أن أقطع بذلك. لكن كارجو قد يكون مكانًا عصيًا.

قال لي الياور الذي ردَّ على الهاتف إن المتصل عرَّفه بنفسه قائلاً إنه الرائد أمريك سنج وإنه سأل عني، ولم يسأل عني بصفتي فقط، بل وباسمي أيضًا على غير المعتاد، بيبلاب داسجُبتا نائب رئيس القسم في برافو الهند (وبرافو الهند هي التسمية الشفرية لـ مكتب المخابرات في البرقيات اللاسلكية).

كنت أعرف ذلك الرجل، لا بصفة شخصية ـ فلم تقع عيني عليه قط ـ بل بسمعته. كان معروفًا باسمه ولقبه أمريك سنج "الملقاط"، وذلك

لمقدرته الغرائبية على التقاط الثعبان في العشب، المقاتل وسط المدنيين. (وهو مشهور الآن، بالمناسبة، بعد وفاته، فقد قتل نفسه أخيرًا. أطلق الرصاص على زوجته، وعلى أبنائه الثلاثة الصغار ثم أطلق رصاصة على رأسه. لا يمكنني القول إنني آسف. لكنه الخجل مما حدث لزوجته وأبنائه). كان الرائد أمريك سنج عنصرًا فاسدًا، أو كما يقال تفاحة معطوبة. لا، فلأقلها بطريقة ثانية، كان تفاحة عفنة، وكان ـ في وقت مكالمة منتصف الليل تلك ـ في قلب عاصفة عفن عاتية. فبعد شهرين من وصولي إلى سري نجر، وكان ذلك في يناير من عام ١٩٩٥، كان أمريك سنج قد اعتقل ـ ويرجَّح أن يكون ذلك بناء على أوامر ـ محاميًا شهيرًا وناشطًا في حقوق الإنسان يدعى جالب قدري عند إحدى نقاط التفتيش. كان قدري رجلاً مزعجًا، متهوِّرًا، وقحًا، لا يعرف معنى المواءمة. وفي الليلة التي اعتُقل فيها، كان ينتظر أن يسافر إلى دلهي ومنها إلى أوسلو لحضور مؤتمر دولي لحقوق الإنسان. ولم يكن الغرض من اعتقاله إلا منعه من إقامة ذلك السيرك السخيف. اعتقل أمريك سنج قدري علنًا، في حضور زوجة قدري، وإن لم يتم توثيق الاعتقال رسميًا، ولم يكن ذلك إجراءً مغايرًا كثيرًا للمألوف. وأثار "اختطاف" قدري ضجيجًا، ضجيجًا أكبر مما كنا نتوقع، فرأينا بعد أيام قليلة أن من الحكمة إطلاق سراحه. ولكننا لم نعثر له على أثر. وبدأت مطاردة هائلة. شكلنا لجنة بحث وحاولنا تهدئة التوتر. وبعد أيام قليلة ظهرت جثة قدري في جوال طاف على نهر جيلوم. كانت الجثة في حالة مزرية، فالجمجمة محطمة والعينان مقلوعتان إلى آخر ذلك. وحتى في حدود

معايير كشمير، كان ذلك زائدًا عن الحد. وتجاوزت مستويات الغضب الشعبي الحدود، وهذا طبيعي، فسُمح للشرطة المحلية أن تفتح التحقيق. وتشكلت لجنة رفيعة المستوى للنظر في المسألة برمتها. وظهر شهود على الاختطاف ممن رأوا قدري في عهدة أمريك سنج داخل معسكر الجيش، وممن شهدوا المشاحنة التي نشبت بين الرجلين فأثارت غضب أمريك سنج، وقدّم أولئك الشهود إفادات مكتوبة، في بادرة شديدة الندرة. حتى المتواطئون مع أمريك سنج ـومعظمهم إخوانـ أبدوا الاستعداد لتغيير الولاء والشهادة ضده في المحكمة. ثم بدأت جثثهم تظهر جثة بعد جثة. في الحقول والغابات وعلى قارعات الطرق... قتلهم جميعًا. وكان على الجيش والإدارة أن يتظاهرا على أقلّ تقدير بعمل أي شيء، برغم أنهما فعليًا كانا لا يقدران على التحرك ضده. فقد كان يعرف الكثير، وأوضح بلا مواربة أنه لو وقع فسوف يوقع معه أكبر عدد يستطيعه من الناس. كان ظهره للحائط، ومن هنا كان خطره. وتقرّر أن أفضل ما يمكن القيام به هو إخراجه من البلد والبحث له عن لجوء في مكان ما. وذلك ما حدث في النهاية. ولكن تنفيذه لم يكن ممكنًا على الفور. ليس والأضواء مسلّطة عليه. كان لا بد من مرور فترة تهدئة. وكخطوة أولى تم إبعاده عن العمليات الميدانية وتحويله إلى وظيفة مكتبية. في مقر مركز شيراز المشترك للاستجواب، بعيدًا عن المشاكل. أو ذلك ما ظنناه.

ذلك إذن الرجل الذي كان يتصل بي. ولا يمكنني القول إنني كنت ملهوفًا على الحديث إليه. فوباء كذلك الوباء خير له أن يبقى في الحجر الصحي.

حينما كلمته عبر الهاتف بدت في صوته الإثارة. كان يتكلم بسرعة شديدة فاحتجت بعض الوقت إلى أن أدركت أنه كان يتكلم بالإنجليزية لا البنجابية. قال إنهم اعتقلوا إرهابيًا في الفئة ألف، هو القائد جُلريز، وهو من القادة المرعبين في حزب المجاهدين، وقد اعتُقل ضمن عملية تطويق وتفتيش هائلة استهدفت عوامة.

تلك كانت كشمير، يتكلم الانفصاليون فلا ينطقون غير شعارات، ويتكلم رجالنا فلا ينطقون إلا ببيانات صحفية، فدائمًا عمليات التطويق والتفتيش توصف بـ"الهائلة"، وكل من يعتقل هو دائمًا من "المرعبين"، ونادرًا ما يكون من فئة أدنى من ألف، والمغانم التي كانوا يحققونها من أولئك المعتقلين كانت دائمًا في قيمة "غنائم الحرب". ولم يكن ذلك مدهشًا، فكل من تلك الصفات كان يناظرها حافز، مكافأة نقدية، أو خطاب شكر في الملف الوظيفي، أو وسام شجاعة، أو ترقية. لذلك، وكما لعلكم تتوقعون، لم تجعل هذه المعلومة قلبي يقفز من الإثارة.

قال إن الإرهابي قُتل في أثناء محاولته الهرب. فلم يخلّف ذلك أيضًا أثرًا كبيرًا عليّ. كان أمرًا مألوفًا ومتكرّرًا في أيّ يوم مثمر، أو غير مثمر، بحسب وجهة النظر للأمر. فلمَ يتم الاتصال بي عند منتصف الليل لنقل معلومة روتينية كتلك؟ وأيُّ علاقة لحماسته تلك بقسمي أو بي؟

كان لا يزال يتكلم بإنجليزيته حين قال إن "سيدات" اعتقلت مع القائد جُلريز، وإنها ليست كشميرية.

ذلك كان أمرًا غير معتاد. وغير مسموع بمثله من قبل.

سُلّمت "السيدات" إلى مساعدة القائد بينكي للاستجواب.

كنا جميعًا نعرف مساعدة القائد بينكي سودهي ذات البشرة المخملية والضفيرة السوداء الطويلة الملفوفة أسفل قبعتها. كان شقيقها التوأم بلبير سنج سودهي ضابط شرطة كبيرًا اغتاله المقاتلون في سوبوري وهو يمارس جريه الصباحي خارج البيت. (وتلك حماقة من ضابط كبير، حتى لو كان يتباهى بكونه "محبوبًا" من أبناء البلد أو يتوهّم ذلك مثلما تبيّن). عُيِّنت مساعدة القائد بينكي ضمن قوات الاحتياط الشرطية المركزية، على سبيل التعويض، أي تعويض العائلة عن وفاة شقيقها. لم يكن أحد قد رآها قط في غير زيها الرسمي. وبرغم شكلها الفاتن، فقد كانت محققة قاسية غالبًا ما تتجاوز حدود تكليفاتها لرغبتها في طرد شياطين تخصها وحدها. لم تكن ترقى إلى فئة أمريك سنج، ومع ذلك، كان الله في عون أي كشميري يقع بين يديها. أما الذين كانوا لا يقعون بين يديها، فكثير منهم كانوا ينشغلون بكتابة القصائد الغرامية لها، بل وبالتقدم للزواج منها. إلى هذه الدرجة كانت فتنة مساعدة القائد بينكي، فتنتها المهلكة.

قيل لي إن "السيدات" التي اعتقلوها رفضت الكشف عن اسمها. ولمّا لم تكن "السيدات" المعتقلة من كشمير، فقد تصوّرت أن تكون مساعدة القائد بينكي حَجَّمت نفسها قليلاً ولم تطلق لها العنان بالكامل. فلو كانت أطلقت العنان لنفسها لما كان بوسع "سيدات" أو "رجال" أن

يمسك معلومة عنها. ومع ذلك، أوشك صبري على النفاد. فقد كنت لا أزال عاجزًا عن التكهن بعلاقة أيٍّ من ذلك كله بي أنا.

وأخيرًا وصل أمريك سنج إلى الموضوع: في أثناء التحقيقات ورد اسمي أنا. طلبت المرأة توصيل رسالة إليَّ. قال إنه لم يفهم الرسالة، لكنها قالت إنني سوف أفهمها. وقرأ الرسالة، أو بالأحرى تهجاها، عبر الهاتف:

ج ا ر س و ن ه و ب ا ر ت

ملأ صوت رسولان رأسي، وهي لا تزال تجمع لآلئها المنثورة: **كاهان فايكا دهوندهون ري؟ دهوندهات دهوندهات باورا جالي راما. . .**

لا بد أن جارسون هوبارت بدا أشبه بشفرة سرية لهجمة ما، أو اعترافًا بتلقي شحنة أسلحة. كان الثور الهائج في الناحية الأخرى من الهاتف ينتظر تفسيرًا مني. ولم تخطر لي طريقة للبدء في ذلك.

أيحتمل أن تكون للقائد جُلريز علاقة بموسى؟ أكان هو نفسه موسى؟ كنت قد حاولت الاتصال به مرَّات عديدة منذ أن انتقلت إلى سري نجر، لرغبتي في تعزيته ومواساته بعد ما حدث لأسرته. ولم أنجح قط في الوصول إليه، وكان المعتاد في تلك الأيام أن ذلك لا يعني إلا شيئًا واحدًا، هو أنه منخرط في العمل السري.

ومع من غيره يمكن أن تكون تِلُو؟ تراهم قتلوا موسى أمام ناظريها؟ يا إلهي.

قلت لأمريك سنج بأكثر ما استطعته من الجفاء إنني سوف أعاود الاتصال به.

كان أول ما هدتني إليه الغريزة هو أن أبتعد قدر استطاعتي عن المرأة التي كنت مغرمًا بها. هل يجعلني هذا أبدو جبانًا؟ لو أنه يجعلني كذلك، فأنا على الأقل جبان صريح.

حتى لو كنت أرغب في الذهاب إليها، لم يكن ذلك ممكنًا. فقد كنت في أعماق غابة في منتصف الليل. وكان الخروج يعني إطلاق صافرات وإنذارات وتحرك ما لا يقل أربع سيارات جيب وعربة مدرعة. وكان يعني اصطحاب ستة عشر رجلاً على أقل تقدير. فقد كان ذلك هو الحد الأدنى. وما كان لمثل ذلك السيرك أن ينفع تِلُو. أو ينفعني. وكان فيه تهاون بأمن صاحب السعادة قد يفضي إلى عواقب لا تخطر على البال. كان يُحتمل أنه كمين لاستدراجي للخروج. فموسى في نهاية المطاف كان يعرف بأمر جارسون هوبارت. كان تفكيرًا ينطلق من بارانويا، ولكن في تلك الأيام لم يكن الفارق واضحًا بين الحذر والبارانويا.

لم تكن لديَّ خيارات. اتصلت بفندق أهدوس وسألت عن ناجا. ولحسن حظي أنه كان هناك. عرض أن يذهب إلى شيراز فورًا. وكلما بدا عليه الانشغال والاستعداد للمعاونة، ازددت أنا ضيقًا. كنت أسمعه فمليًا وهو يتقمَّص الدور الذي عرضته عليه، مقتنصًا الفرصة بكلتا يديه للقيام بأكثر ما كان يحب القيام به: الاستعراض. طمأنتني لهفته على التحرك، بقدر ما أشعرتني بالدونية.

اتصلت بأمريك سنج وأبلغته أن صحفيًا يدعى ناجاراج هاريهاران في الطريق إليه. رجل من رجالنا. قلت إن عليهم إذا لم يكن لديهم شيء على المرأة أن يطلقوا سراحها فورًا ويسلموها له.

وبعد سويعات اتصل ناجا ليبلغني أن تِلُو في الغرفة المجاورة لغرفته بأدهوس. اقترحت أن يضعها على متن الطائرة المتجهة في الصباح التالي إلى دلهي.

قال "ولكنها ليست شحنة، يا إوزة، وتقول إنها تعتزم حضور جنازة هذا القائد جُلريز، كائنًا من يكون هذا الجُلريز ".

إوزة! لم يخاطبني بهذا اللقب منذ أيام الكلية. في أيام الكلية، أيام تطرفه الأقصى، كان يطلق عليّ ساخرًا (ولسبب ما كان يجعلِ سخريته تلك دائمًا في لكنة ألمانية) "بيبلاب داس جوس دا" بدلا من بيبلاب داسجُبتا. أي الأخ الثوري إوزة.

لم أغفر قط لأبوي تسميتي بيلاب، باسم جدي لأبي. الدنيا تغيرت. في الوقت الذي ولدت فيه، كان البريطانيون قد خرجوا، وصرنا بلدًا حرًا. فكيف يطلقان على طفل اسمَ "نوري"؟ كيف كان يُفترض بشخص أن يمضي حياته وهو يحمل اسمًا كذلك؟ في مرحلة ما فكرت أن أغيِّر اسمي رسميًا إلى اسم أكثر سلمية مثل سيدهارتا أو جاوتام أو شيء من هذا القبيل. ولكنني تراجعت عن الأمر، وقد علمت أنه في وجود أصدقاء مثل ناجا ستبقى القصة تقعقع ورائي كأنها علبة صفيح مربوطة في ذيل قطة. فهكذا كنت، وهكذا لا أزال، بيلاب، في أعمق غرفة من غرف القلب السري في المؤسسة التي تقول إنها حكومة الهند.

سألت ناجا "أكان هو موسى؟"

قال "لن تقول. لكن من يكون غيره؟"

بحلول صباح الاثنين كان عدد الخسائر البشرية قد وصل إلى تسعة عشر: المتظاهرين الأربعة عشر المقتولين أثناء الضرب، والصبي الذي قتله الإخوان، وموسى أو القائد جُلريز أو مهما يكن الاسم الذي يطلقه على نفسه، وثلاث جثث لمقاتلين لقوا مصرعهم أثناء تبادل لإطلاق الرصاص في جاندريال. تجمع مئات الآلاف من المشيعين حاملين تلك الأكفان التسعة عشر (وبينها كفن فارغ للصبي الذي سرق جثمانه) على أكتافهم إلى مقابر الشهداء.

اتصل مكتب الحاكم ينبئنا أنه لا ينصح بأن نحاول الرجوع إلى المدينة قبل اليوم التالي. وعند العصر اتصلت سكرتيرتي:

"استمع من فضلك يا سيدي. سيدي ..."

جالسًا في شرفة في استراحة غابة داشيجام، وسط زقزقة الطيور وأزيز الصراصير، سمعت الدوي الهادر لمئة ألف صوت تصيح معًا منادية بالحرية: آزادي . . آزادي . . آزادي. مرارًا وتكرارًا. حتى عبر الهاتف كان ذلك مثيرًا للأعصاب. أمر مختلف كثيرًا عن الاستماع إلى المارشال الجوي وهو يهتف بشعاراته داخل زنزانته في السجن. بدا كأنما المدينة تتنفس عبر رئة هائلة، تنتفخ كأنها حنجرة بتلك الصرخة الهادرة الزاعقة. كان قد سبق لي أن رأيت من المظاهرات ما يكفيني، وسمعت من الهتاف بالشعارات في أجزاء أخرى من البلد أكثر مما يكفيني. ولكن هذا كان مختلفًا، هذا الهتاف الكشميري. كان أكثر من مطلب سياسي. كان نشيدًا وطنيًا، بل ترنيمة، بل دعاء. وكانت المفارقة ـ ولا تزال ـ هي أنك لو أتيت بأربعة كشميريين ووضعتهم في غرفة واحدة وسألتهم ما الذي يقصدونه على وجه التحديد بآزادي أو الحرية، ماذا تكون بالضبط حدودها الأيديولوجية والجغرافية، لانتهى الحال على الأرجح إلى نحرهم رقاب بعضهم بعضًا. مع ذلك كان من الخطأ أن يُعزى ذلك كله إلى التشوش، فمشكلتهم لم تكن التشوش، مطلقًا. بل هي أقرب إلى وضوح رهيب لا وجود لمثله في اللغة الجيوسياسية الحديثة. وجميع الشخصيات الرئيسية في مختلف أطراف الصراع، لا سيما نحن، استغلوا

ذلك الصدع بلا رحمة. فقد أتاح حربًا مثالية، حربًا لا يمكن أن تنتهي بنصر أو بهزيمة، حربًا لا يمكن أن تنتهي.

كان الهتاف الذي سمعته عبر الهاتف في ذلك الصباح إحساسًا مكثفًا، مقطّرًا وكان أعمى ومهلكًا شأن كل انفعال في العادة. في أثناء تلك الوقائع (قصيرة العمر لحسن الحظ)، حينما كانت تبلغ أشدها، كان لها من القوة ما يكفيها لأن تشق صرح التاريخ والجغرافيا، صرح المنطق والسياسة. كان لها من القوة ما يكفي ليحمل أكثرنا صلابة على التساؤل، ولو لوهلة عابرة، عما كنا نفعله حقًا في كشمير بحكمنا شعبًا يكرهنا من أعمق أعماق أحشائه.

كانت جنازات من يوصفون بـ"الشهداء" دائمًا لعبة أعصاب. فالشرطة وقوات الأمن تكون لديها أوامر باليقظة، على أن تكون خفية عن الأنظار. ولم يكن ذلك لمجرد أن الانفعال في تلك الوقائع يكون محتدمًا بطبيعته ويكون حتميًا أن تفضي أيُّ مواجهة إلى مجزرة، فهذا تعلّمناه بالتجربة المريرة. كان تفكيرنا هو أن السماح للسكان بالتنفيس عن مشاعرهم بين الحين والآخر من خلال الهتاف بالشعارات من شأنه أن يمنع تراكم ذلك الغضب والحيلولة دون وصوله إلى شفا سورة لا تحتمل. وحتى الآن، خلال صراع كشمير الذي تجاوز ربع القرن، أثمر هذا التفكير. كان أبناء كشمير يحزنون ويبكون ويهتفون بشعاراتهم، ولكنهم في النهاية كانوا يرجعون دائمًا إلى البيت. وشيئًا فشيئًا، بمرور السنين، وبينما تحوّل ذلك إلى عادة، ودورة مقبولة يمكن التنبؤ بمسارها، بدأ

أبناء كشمير يفقدون ثقتهم في أنفسهم واحترامهم لها، ولاهتياجهم المفاجئ ثم استسلامهم اليسير. وتلك منفعة لم نخطط لها وإن جنيناها.

ومع ذلك، فإن السماح لنصف مليون شخص، بل مليون في بعض الحالات، بالخروج إلى الشوارع في أي موقف، ناهيكم عن أن يكون ذلك في أثناء تمرد، هو مقامرة غير هينة.

في الصباح التالي، رجعنا إلى المدينة بمجرد تأمين الشوارع. واتجهت بسيارتي فورًا إلى أهدوس لأجد تِلُو وناجا قد سجلا مغادرتهما للفندق. لم يرجع ناجا إلى سري نجر لفترة. وقيل لي إنه رحل.

بعد أسابيع قليلة، تلقيت دعوة لحضور زفافهما. وذهبت بالطبع، وهل كان بوسعي ألا أذهب؟ كنت أشعر بمسؤوليتي عن تلك المسخرة. عن اقتيادي تِلُو إلى أحضان رجل كنت على يقين أنه لم يكن أمينًا معها. لم أفكر أنها كان يجب أن تكون على دراية بعلاقة زوجها القادم بمكتب المخابرات. لا بد أنها كانت تظن أنها تتزوج بصحفي صاحب رأي، باحث عن العدل، منتقد للمؤسسة التي قتلت حبيبها. أغضبتني تلك الخدعة، لكنني بالطبع لم أستطع أن أكون أنا من يخلصها من ذلك الوهم.

أقيم الحفل في ضوء القمر، في حديقة منزل والدي ناجا الضخم المقام على طراز آرت ديكو في الحي الدبلوماسي. كان حفلاً بسيطًا

وجميلاً، مغايرًا تمامًا للبهرجة التي باتت شائعة كثيرًا في أيامنا هذه. تناثرت الزهور البيضاء في كل مكان، زنابق وورودًا، وعقودًا منهمرة من الياسمين صممتها على أبرع نحو والدة ناجا وأخته الكبيرة اللتان لم تبدُ على أيٍّ منهما السعادة أو حتى السعادة المصطنعة. اصطفّت على جانبي المدخل ووسط أحواض الزهور مصابيح من الصلصال، وعُلِّقت في غصون الأشجار فوانيس يابانية، وامتدّت بين الغصون خيوطُ المصابيح، ومضى نُدُل العالم القديم بأزيائهم المميزة ذات الأزرار النحاسية وأحزمتهم الذهبية والحمراء وعمائمهم البيض المتطاولة يتنقّلون بصواني الطعام والشراب. ومضى بين الضيوف جمعٌ من كلاب صغيرة بفراءات كالمماسح تفوح منها رائحة العطر ودخان السجائر كأنها جيش صغير من مسّاحات الأرض الآلية الناجحة.

وعلى منصة مرتفعة مكسوة بالأقمشة البيضاء، كانت فرقة موسيقيين من بارمير، يرتدي أفرادها المآزر البيض وقمصان كُرتا الفضفاضة والعمائم فاقعة الألوان، وقد نقلونا إلى صحراء راجستان «في شمال الهند». كان اختيار موسيقيين مسلمين اختيارًا غريبًا على زفاف مثل ذلك. ولكن صديقي ناجا كان انتقائيًا، وقد اكتشفهم في رحلة قام بها إلى الصحراء. كانوا عازفين مذهلين. فتحت موسيقاهم الخام الآسرة سماء المدينة وأزالت الغبار عن النجوم. غنّى أعظمهم على الإطلاق، وهو بونجار خان، لمجيء الرياح الموسمية. بصوته العالي البرّي شبه الأنثوي، جعل من أغنية عن ظمأ الصحراء الحارق إلى المطر أغنية عن

امرأة تتوق إلى رجوع حبيبها. وبقيت ذكرياتي عن زفاف تِلُو مترعة دائمًا بتلك الأغنية.

عشر سنوات وأكثر كانت قد مضت منذ أن رأيت تِلُو ودخّنت معها سيجارة الحشيش تلك في شرفتها. كانت أنحل مما كنت أتذكرها، وعظمتا ترقوتها بارزتان كجناحين أسفل رقبتها. كان قماش الساري الذي ترتديه بلون الغروب. كان رأسها مغطى، ولكنني استطعت أن أرى عبر نسيجه الشفاف شكل جمجمتها الملساء. كانت صلعاء، أو أقرب ما تكون إلى ذلك. لم يكن شعرها إلا قطيفة نابتة. أول ما خطر لي أن صحتها معتلة وأنها تتعافى من علاج كيميائي أو مرض مريع غيره تسبَّب لها في تلك الخسارة. ولكن كثافة حاجبيها، والتفاف شعرهما على بعضه، وثقل رموشها أجهزا على تلك النظرية تمامًا. كان واضحًا تمام الوضوح أنها ليست مريضة أو معتلّة. كان وجهها خاليًا من أي أثر للمساحيق، فما من كحل حول عينيها، أو دائرة حمراء بينهما، أو حناء على يديها أو قدميها. بدت أشبه ببديلة للعروس، بديلة تقف مؤقتًا إلى حين تنتهي العروس الحقيقية من ارتداء ثيابها. بدت لي البائسة أدقّ كلمة يمكن استعمالها في وصفها. كانت تعطي الانطباع بأنها وحيدة تمامًا لا وصول إليها، حتى في ليلة عرسها. أما اللا مبالاة القديمة فقد ولّت.

حينما سرت إليها، نظرت إليّ مباشرة، ولكنني شعرت كما لو أن شخصًا آخر ينظر إليّ عبر عينيها. كنت أتوقع الغضب، فلم أصادف غير الخواء. ربما كان ذلك من وحي خيالي، لولا أن رعشة اعترتها وهي

تنظر إليّ. وللمرة رقم تسعة آلاف لاحظت مدى جمال فمها. كنت أتجمّد إذ أرى حركته. كان بوسعي أن أرى الجهد الكامن وراء تكوينها كلمة وربطها صوتها بها:

"مجرد قصة شعر".

لا بد أن قصة الشعر تلك -بل الحلاقة بالموسى- كانت فكرة مساعدة القائد بينكي سودهي. علاج وصفته الشرطية لمداواة الخيانة التي رأتها، النوم مع العدو، مع قتلة أخيها. بينكي بصفة عامة كانت تميل إلى البساطة.

لم أكن رأيت ناجا قط في مثل ارتباكه في تلك الليلة، وقلقه. ظل يمسك يد تِلُو اليمنى طيلة الليلة. كان شبح موسى مغروسًا بينهما. بل إنني كدت أراه، قصيرًا متينًا مبتسمًا كاشفًا عن أسنانه القصيرة محاطًا بهالة الهدوء التي كم أحاطت به. بدا وكأن ذلك العرس هو عرس ثلاثتهم.

ولعل ذلك ما تكشّف عنه الأمر في نهاية المطاف.

كانت العمة ميرا، أمُّ ناجا، في مركز مجموعة من السيدات الأنيقات اللاتي كنت أستطيع أن أشمّ عطورهن من طرف الحديقة الآخر. كانت العمة ميرا من عائلة ملكية في إحدى الإمارات الصغيرة في مادهايا براديش. كانت أرملة مراهقة أصيب زوجها الملكي بورم رئوي شرس ومات بعد ثلاثة شهور من زواجها به. ولمّا لم يدر أبواها ماذا

يفعلان بها، فقد بعثا بها لإنهاء دراستها في إنجلترا، فالتقت بأبي ناجا في حفلة بلندن. ما كان ليتوافر لملكة بلا مملكة وضع أفضل من أن تكون زوجة مسؤول مهذب في السلك الدبلوماسي. حوّلت نفسها إلى مضيفة مثالية، بل هي عقيلة مهراجا هندية حديثة ذات لكنة بريطانية فخمة اكتسبتها من مربية في طفولتها ولانت للسانها تمامًا في مدرسة البنات. كانت ترتدي سواري من الشيفون وتتحلّى بلآلئ وتغطي رأسها طيلة الوقت بطرحتها كما يليق بسليلة ملوك راجبوت، محاولةً أن تُبرز وجهًا شجاعًا تستر به الفجيعة التي نزلت عليها في بشرة كنّتها الداكنة. هي شخصيًا كانت لها بشرة في لون المرمر. وزوجها وإن كان من التاميل، فقد كان أيضا برهميًا، ولم يكن لون بشرته أدكن من بشرتها إلا قليلاً. وفيما كنت أمشي بالقرب منها سمعت حفيدتها من ابنتها تسأل:

"ناني، أهي عبدة؟"

"طبعًا لا يا حبيبتي. لا تكوني سخيفة. كما أننا يا حبيبتي لم نعد نستعمل كلمات مثل عبدة. هذه كلمة سيئة. الآن نقول سوداء".

"سوداء"

"شاطرة".

التفتت العمة ميرا ـمطعونةـ إلى صديقاتها وقد رسمت على وجهها ابتسامة شجاعة وقالت عن عضوة العائلة الجديدة "إنما رقبتها جميلة، أليس كذلك؟" فوافقتها الصديقات جميعًا في حماس.

"لكن شكلها يا ناني مثل الخدامة بالضبط".

عنّفت الجدة حفيدتها وبعثتها في مهمة وهمية.

أما بقية الضيوف من أصدقاء ناجا في الكلية -وكانوا أقرب إلى الأتباع منهم إلى الأصدقاء الذين لم يكن أحد منهم قد التقى بتِلُو من قبل- فتجمّعوا في الحديقة، وقد انخرطوا في النميمة والدعابة بعدما تدرّبوا على يدي ناجا حتى أجادوا منهجه الخاص في الدعابة القاسية. اقترح أحدهم نخبًا:

"في صحة جاريبالدي" (أبهيشيك هو الذي قال ذلك، وكان يعمل في شركة أبيه المتخصصة في توريد وبيع مواسير المجاري).

وضحكوا جميعًا في صخب ضحكَ الرجالِ حينما يحاولون أن يتصابوا.

"جربتم الكلام معها؟ لا تتكلم"
"جربتم الابتسام لها؟ لا تبتسم"
"في أي داهية عثر عليها؟"

كنت قد شربت كأسي الأخير وبدأت أتحرك نحو البوابة حينما ناداني والد ناجا، سعادة السفير شيفاشنكار هاريهاران "بابا".

كان ينتمي إلى زمان آخر، فنطق بابا كما قد ينطقها رجل إنجليزي، مفخمًا حروفها. (أما اسمه نفسه فكان ينطق فاءه V) لم يكن يضيِّع فرصة يعلم فيها الناس أنه خريج أوكسفورد.

"سيدي العم شيفا".

نادرًا ما يرأف التقاعد بأصحاب النفوذ من الرجال. رأيت كم شاخ فجأة. بدا نحيلاً، تائهًا بعض الشيء في سترته، مثبّتًا السيجار في طاقم أسنانه المتلألئ المبهر، وقد برزت في بشرة وجنتيه البيضاء أوردة بدينة، وبدت رقبته صغيرة في ياقة قميصه، وتحلّقت حول بؤبؤيه الداكنين دوائر ودوائر من الغبش. صافحني بمحبة لم يبدِ لي مثلها قط في الماضي. وتكلم بصوت رفيع.

"أتهرب الآن؟ تهرب وتتركنا وحدنا في هذه المناسبة السعيدة؟"

تلك هي المرة الوحيدة التي أشار فيها إلى مغامرة ولده.

"أين زوجتك الجميلة؟ وأين تخدم في هذه الأيام؟"

قلت له فتوتّر وجهه بغتة، وطرأ عليه تغيُّر يوشك أن يكون مرعبًا.

"أمسكوهم من خصياتهم يا باربر. خصياتهم أولاً ثم تأتي القلوب والعقول".

ذلك ما فعلته فينا كشمير.

بعد ذلك خرجت من حياتهما، فلم أرها منذ ذلك الحين وحتى الآن غير مرة، وبالمصادفة. كنت مع راء شين ـأعني راء شين شارماـ

وزميل آخر. كنا نسير في حدائق لودهي، نتناقش في بعض قضايا المكتب الشائكة. رأيتها من بعيد. كانت ترتدي زيًّا رياضيًّا، وتجري بأسرع ما تستطيع، وبجانبها كلب. لم أقطع أهو كلبها أم من كلاب حديقة لودهي الضالة وقد قرَّر أن يجري معها. أظن أنها رأتنا هي الأخرى، فقد أبطأت جريها وبدأت تمشي. ولما تلاقينا وجهًا لوجه، كانت غارقة في العرق ولا تزال مقطوعة النفس. لا أعرف ما الذي جرى لي. لعله الحرج من رؤيتها لي بصحبه راه شين. أو ربما هو الارتباك العادي الذي كان ينال مني وأنا معها. مهما يكن السبب وجدت أنني أقول شيئًا غبيًّا ـ شيئًا قد أقوله لزوجة زميل يتصادف أن أقابلها في مكان لطيف، شيئًا يليق بأن يقال في حفلة.

"أهلا، أين رجلك؟"

كان بوسعي أن أقتل نفسي بمجرد أن خرجت تلك الكلمات من فمي.

رفعت الرسن الذي كانت تمسكه (فقد كان الكلب كلبها) وقالت "رجلي؟ أوه، إنه يسمح لي أحيانًا بأن أسير بمفردي"

يبدو ذلك فظيعًا، لكنه لم يكن كذلك. قالت ما قالته وهي مبتسمة. ابتسامتها.

منذ أربع سنوات، وعلى غير توقع، اتصلت تسألني إن كنت أنا بيلاب داسجُبتا (وما أكثر من يحملون هذا الاسم العبثي في هذه الدنيا)

الذي أعلن في الصحف يطلب مستأجرًا لشقة في الطابق الثاني. فقلت إنني هو بالفعل. قالت إنها تعمل رسامة ومصممة جرافيك متفرغة وتحتاج إلى مكتب ويمكن أن تدفع لي الإيجار الذي أطلبه مهما يكن. قلت إن ذلك يسعدني. وبعد يومين رنّ جرس باب شقتي وكانت هي التي بالباب. كبرت كثيرًا بالطبع، لكن شيئًا أصيلاً فيها لم يتغير، بقيت على تفرُّدها. كانت ترتدي ساري أرجوانيًا وبلوزة من مربعات بيضاء وسوداء، بل قميصًا في الواقع، له ياقة وكُمّان طويلان شمّرتهما حتى منتصف ساعديها. كان شعرها أبيض تمامًا، وقصيرًا للغاية، لدرجة أنه بدا شائكًا. ولم يكن بوسعي أن أحدد، لكنها بدت إما أصغر كثيرًا من عمرها، أو أكبر منه كثيرًا.

كنت في ذلك الوقت منتدبًا إلى وزارة الدفاع، وأعيش في الطابق السفلي (الذي أصبح الآن بطيخة). كنا يوم سبت، وتشيترا والبنتان بالخارج. فكنت وحدي في البيت.

دفعتني الغريزة إلى أن أكون رسميًا أكثر من أن أكون ودودًا، وألا أستدعي الماضي. فمضيت بها مباشرة إلى الطابق العلوي لتلقي نظرة على الشقة. مضيت بها في الغرفتين، غرفة نوم صغيرة وغرفة مكتب كبيرة. كانت نقلة بالطبع بالمقارنة مع سكناها في مخزن نظام الدين، ولكنها لا تضاهي بأي حال البيت الذي عاشت فيه سنين طويلة في الحي الدبلوماسي. لم تتفقد الشقة تقريبًا قبل أن تقول إنها سوف تنتقل إليها بأسرع ما تستطيع.

تجولت في الغرفتين الخاويتين ثم جلست على النافذة، مطلة على الشارع. بدت مفتونة بما رأته، فلمّا أطللت أنا على ما كانت تطل عليه لم أفكر، ولا أعرف كيف، في أننا ننظر إلى نفس الأشياء.

لم تحاول أن تجري حوارًا معي، لكنها بدت مستكينة للصمت. كانت لا تزال ترتدي نفس الخاتم الفضي في الإصبع الوسطى من يدها اليمنى. شعرت أنها في حوار مع نفسها. وبغتة صارت عملية.

"هل أحرّر لك شيكًا؟ عربونًا يعني؟"

قلت إنه ما من داع للعجلة، وإنني سوف أحرِّر عقدًا في الأيام القليلة التالية.

سألت إن كان بوسعها أن تدخن. قلت إن بوسعها أن تفعل ذلك بالطبع، وإن المكان أصبح مكانها، فبوسعها أن تفعل فيه ما تشاء. أخرجت سيجارة وأشعلتها، محتوية اللهب بين راحتيها مثلما يفعل الرجال.

سألتها "توقفتِ عن تدخين البيدي؟"

ابتسامتها أضاءت مصابيح الغرفة.

تركتها تكمل سيجارتها، وذهبت أتفقد المصابيح، والمراوح، ووصلات المياه في المطبخ والحمام. فلمّا نهضت لتذهب قالت كأنما تكمل حوارًا كان يجري بيننا. "هناك الكثير للغاية من المعلومات، لكن لا أحد يريد فعلاً أن يعرف أي شيء. أليس كذلك؟"

لم أفهم ما الذي كانت تعنيه. ثم ذهبت. ثم ملأ غيابها الشقة، مثلما يملؤها الآن.

انتقلتْ في غضون يوم أو اثنين. لم يكن لديها أثاث تقريبًا. لم تقل لي في ذلك الوقت إنها تركت ناجا وإنها لم تكن تنوي أن تعمل وحسب، بل وأن تعيش أيضًا في شقة الطابق الثاني. كان الإيجار يودع في حسابي في اليوم الأول من كل شهر بلا أي استثناء.

دخولها حياتي، وجودها في الطابق الثاني، فتح في حياتي شيئًا كان من قبل مغلقًا.

لست مرتاحًا إلى الحديث بصيغة الماضي.

حتى النظرة العابرة إلى الغرفة ـإلى الصور الفوتوغرافية المثبتة (بما عليها من أرقام وتعليقات) على لوحات وتلال الوثائق المكدسة بانتظام على الأرض أو في صناديق ألصقت عليها أوراق تحدد محتوياتها، والورق الأصفر اللاصق المثبَّت على أرفف الكتب، والخزائن، والأبوابـ تنبئني بأن في المكان شيئًا ما غير آمن، شيئًا يحسن عدم المساس به، وتسليمه ربما لناجا، أو حتى للشرطة. لكن هل يمكن أن أجلب هذا على نفسي؟ هل لا بد أم ينبغي أم يمكن أن أقاوم هذه الدعوة إلى الحميمية، هذه الفرصة للتعرف على هذه الأسرار؟

في أقصى الغرفة لوح خشبي طويل وسميك على قوائم معدنية، فهو بمثابة منضدة. تتكدَّس فوقه الجرائد وأشرطة الفيديو وكومة من الأسطوانات المدمجة. على اللوحات أيضًا، بجوار الصور الفوتوغرافية، ملاحظات واسكتشات مثبتة بدبابيس. وبجوار كمبيوتر مكتبيّ قديم صينية مليئة بأوراق الملاحظات، وبطاقات العمل، والكتيبات والرسائل الرسمية، فلعل تلك هي تصميماتها التي كانت تكسب منها (بل التي لا تزال تكسب منها بحق الله) لقمة عيشها، وهي الأشياء الوحيدة في الغرفة التي تبدو طبيعية باعثة على الطمأنينة. ثمة مطبوعات لما يبدو نسخًا عديدة من ملصق شامبو، بخطوط مختلفة:

ناتوريل ألترا دو لتغلية الشعر

بزيت الجوز وورق الخوخ

يجمع ناتوريل ألترا دو بين خصاص التغلية في زيت الجوز
وخصائص التنعيم في ورق الخوخ في كريم بلوب فوريا في شعرك.

النتائج: سهولة التمشيط. يسترد شعرك نعومته التي لا تقاوم، دون ثقل. تغذية عميقة، استرسال شعرك ونعومته التامة.

تجربة ميهجة.

كان في كلمة "مبهجة" خطأ إملائي في جميع النسخ. في هذه المرحلة من عمرها، تصمّم ملصقات شامبو فيها أخطاء إملائية.

ماذا عن شامبو للشعر سريع الاختفاء؟

على الجدار أعلى الكمبيوتر صورتان صغيرتان في إطارين. إحداهما صورة طفلة، لعلها في الرابعة أو الخامسة. عيناها مغمضتان وجسمها ملفوف في كفن. ودم سائل من جرح في خدها يترك في القماش الأبيض بقعة على شكل وردة. الفتاة مستلقية على الجليد. وثمة يدان تحت رأسها ترفعانه قليلاً. في الطرف الأعلى من الصورة صفٌّ من الأقدام في شتى أنواع الأحذية الشتائية. يخطر لي أن الطفلة قد تكون ابنة موسى. ما أغربها صورة يختار أحد أن يؤطرها ويُعلّقها على جدار في شقته.

الصورة الأخرى أقل فجائعية. التقطت في شرفة عوامة من العوامات الصغيرة الرثة. يمكن أن تروا البحيرة مبرقشة ببضع عوامات في الخلفية ومن ورائها الجبال. هي صورة لرجل قصير القامة قصرًا غير معتاد، وملتح، ويرتدي معطف الفيران الكشميري التقليدي لكنه مهلهل تمامًا. رأسه الضخم غير متناسق مع حجم بقية جسمه. لديه باقة زهور منمنمة خلف كلٍّ من أذنيه. يضحك، عيناه الخضراوان تأتلقان وأسنانه ملتوية. شيء ما في ابتسامته السمحة الطلقة يجعل شكله طفوليًا. تربض في تجويف راحتيه الكبيرتين هرّتان صغيرتان، إحداهما ذات فراء رمادي دخاني فيه خطوط سوداء، والأخرى مضحكة على إحدى عينيها عصابة سوداء. يرفعهما بين يديه كما لو أنه يعرضهما على المصوِّر كي يلمسهما أو يربّت عليهما. تنظر الهرّتان عبر سياج أصابعه البدينة بأعين سائلة متيقظة ومترقبة.

من يكون هذا؟ لا أعرف.

أتناول ملفًا أخضر بدينًا من كومة ملفات على المنضدة وأفتحه عشوائيًا على إحدى صفحاته. فيه صورتان ملصقتان على ورقة. في الأولى، شخص على دراجة، ضبابي، خارج تركيز الصورة، يمرّ بمدخل معدني مسيّج لسور وردي يرتفع ما بين ستة أقدام وسبعة أقدام، يبدو مدخل مرحاض عام للرجال. يقع في حي مزدحم وتحيط به بنايات من الطوب من طابق أو اثنين لهما شرفات. هناك إعلان عن "ماكينات تصوير روكسي" مطبوع مباشرة على أحد الجدران بحروف خضر كبيرة. الصورة الثانية ملتقطة داخل المرحاض. الجدران الوردية الحائلة عليها خطوط من الطحالب والرطوبة وعليها كذلك أنابيب صدئة تمتدُّ أفقيةً ورأسية. هناك حوض أبيض وسخ على الجدار، وصفٌّ من ثلاث بالوعات غير مغطاة في الأرضية الخرسانية، وبجوارها أغطية معدنية ذات مقابض كأنها أغطية قدور عملاقة. يستند إلى أحد الجدران إطار شباك قديم مكسور ولوح من خشب. صورة من أغرب ما رأيت من صور في حياتي. من الذي التقطها؟ وما الذي يجعل أحدًا يلتقط مثل هذه الصور؟ وما الذي يجعل أحدًا يحتفظ بها في ملفّ بكل هذا الاعتناء؟

الصفحة التالية فيها التفسير:

قصة غفور

يُطلق على هذا المكان بازار نواب. هل رأيتم هذا المرحاض العمومي، حيث يظهر إعلان ماكينات تصوير روكسي؟ هنالك حدث ما حدث. كان ذلك في ٢٠٠٤. ولا بد أنه حدث في إبريل. كان الجو باردًا والمطر يهطل بغزارة. كنا جالسين نشرب الشاي في محل صديق، نيو إلكترونيكس، بجوار محل رفيق الخياط. أنا وطارق. كانت الساعة الثامنة مساءً تقريبًا. وفجأة سمعنا صوت فرامل. وفي الجهة الأخرى من الطريق توقفت قرابة أربع سيارات أو خمس محاصرةً المرحاض. كانت من سيارات ق ع خ. وسيارات ق ع خ كما تعلمون هي سيارات قوات العمليات الخاصة. جاء ثمانية جنود إلى المحل وأرغمونا بقوة السلاح على عبور الشارع معهم. ولما وصلنا إلى المرحاض طلبوا منا دخوله وتفتيشه. قالوا إن إرهابيًا أفغانيًا هرب واختفى في المرحاض. وكانوا يريدون منا أن ندخل ونطالبه بالاستسلام. ولم نرد الدخول وقد ظننا أن المجاهد معه سلاح. ولمّا وضع رجال قوات العمليات الخاصة البنادق على رؤوسنا، دخلنا. كان الظلام دامسًا. فلم يكن بوسعنا أن نرى أي شيء. لم يكن بالداخل أحد. خرجنا وقلنا لهم إنه ما من أحد بالداخل. طلبوا منّا أن ندخل مرة أخرى. أعطونا كشّافًا. لم نكن رأينا من قبل كشّافًا بتلك الضخامة. علّمنا أحدهم تشغيله، ففتحه وأطفأه وفتحه وأطفأه وفتحه وأطفأه. وظلّ آخر يحملق فينا، وهو يحرك زرّ الأمان في بندقيته فيفتحه ويغلقه ويفتحه ويغلقه ويفتحه ويغلقه. أعادونا إلى المرحاض بالكشاف. وجّهناه في المكان فلم نجد فيه أحدًا. صحنا ولكن أحدًا لم يردّ. كنا مبلولين تمامًا.

كان جنود قوات العمليات الخاصة قد تمركزوا في البناية المجاورة. اثنان في شرفة الطابق الأول. قالوا إنهم يرون شخصًا ما في المصرف. معقول؟ كان المكان مظلمًا للغاية، فكيف استطاعوا أن يروا أيَّ شيء من تلك المسافة؟ وجّهت الكشّاف إلى أسفل على البالوعات الثلاثة. رأيت رأس رجل. كنت في غاية الخوف. ظننت أن معه بندقية، تراجعت إلى جانب. طلب الجنود مني أن أطلب منه الخروج. همس طارق الذي كان واقفًا ورائي "إنهم يخرجون فيلمًا. افعل ما يطلبونه". لم يكن يقصد بالفيلم أنهم يخرجون فيلمًا بالفعل. كان يقصد أنهم يرتبون المشهد ليؤلفوا قصة.

طلبت من الرجل أن يخرج من البالوعة. لم يرد. كنت أرى أنه كشميري وليس أفغانيًّا. فاكتفى بالنظر إليّ. لم يكن يقوى على الكلام. وقفنا حول الرجل ومعنا كشّاف قوات العمليات الخاصة. كان المطر لا يزال يهطل، والرائحة المنبعثة من البالوعة لا تطاق. ربما مرّ نحو ساعة ونصف الساعة. لم نجرؤ على الحديث إلى بعضنا بعضًا. كنا نفتح الكشّاف ونطفئه. ثم مال رأس الرجل إلى أحد جانبيه. كان قد مات. مدفونًا في الخراء.

أعطانا رجال قوات العمليات الخاصة عتلات ورفوشًا. كان علينا أن نكسر الحواف الخرسانية المحيطة بالبالوعة لكي نشدّ الرجل. كنا جميعًا مبلولين ونرتعش وتفوح منا رائحة نتنة. حينما جذبنا الجثة تبيّن لنا أنّ ساقيه مقيّدتان معًا ومثقلتان بحجر.

ولم نعرف إلا في ما بعد ما حدث قبل ذلك في فيلم قوات العمليات الخاصة.

في البداية جاءت مجموعة منهم بهدوء في سيارة. قيدوا الرجل وحشروه في البالوعة. كان قد تعرَّض من قبل لتعذيب قاس حتى أوشك على الموت. كانوا قد عثروا حينما جاؤوا على شاب آخر في دورة مياه أخرى. فاعتقلوه ومضوا به، لعله رفض أن يفعل ما قبلنا نحن أن نفعله. ثم رجعوا في سياراتهم ورتَّبوا بقية الفيلم بالأدوار المخصَّصة لنا.

طلب منا قائدهم أن نوقِّع ورقة، ولو لم نوقِّعها لقتلونا. وقَّعناها شهودًا على واقعة تعقُّب قوات العمليات الخاصة إرهابيًا أفغانيًا مرعبًا وقتلها إيَّاه بعد محاصرته في مرحاض عام في بازار نواب. جاء ذلك في الأخبار.

الرجل الذي قتلوه كان عاملاً من بانديبورا. والشاب الذي اعتقلوه لأنه كان يتبوَّل في ساعة غريبة غير ملائمة اختفى.

وأنا وطارق خُنَّا ضميرينا.

العينان اللتان بقيتا تنظران إلينا طوال ساعة ونصف الساعة كانتا عيني غفران، ونفهُم. نحن الكشميريين لم نعد بحاجة إلى الحديث ليفهم أحدنا الآخر.

صحيح أننا نُنزل ببعضنا بعضًا أبشع الأفعال، صحيح أننا نجرح بعضنا بعضًا ونخون بعضنا بعضًا ونقتل بعضنا بعضًا، ولكن كلاً منا يفهم الآخر.

*

قصة سيئة. بشعة في الحقيقة. هذا لو صدقت. كيف يتسنّى لامرئ أن يتثبّت من أمور كتلك؟ لا يمكن الاعتماد على الناس. فهم يبالغون إلى الأبد. والكشميريون بالذات. ثم يصدّقون مبالغاتهم كأنها حقائق إلهية. لا يمكنني أن أتخيل ما الذي تفعله مدام تِلوتما بجمعها هذه المواد التافهة. ينبغي أن تركّز في ملصقات الشامبو. والأمر في النهاية ليس طريقًا ذا اتجاه واحد. فللجانب الآخر من الصورة نصيبه من الرعب أيضًا. إذ كان بعض هؤلاء المقاتلين مجانين. ولو أن على المرء أن يختار، لاخترت الأصولي الهندوسي، فهو خير طبعًا من الأصولي المسلم. صحيح أننا فعلنا، ونفعل، أشياء رهيبة في كشمير، لكن ... أقصد أن ما فعله الجيش الباكستاني في شرق باكستان، ذلك كان إبادة جماعية واضحة. لا لبس فيها. حينما حرَّر الجيش الهندي بنجلاديش، أطلق الكشميريون الكبار الصالحون على ذلك -ولا يزالون يطلقون عليه- "سقوط داكا"، سقوط عاصمة بنجلاديش. هؤلاء لا يتفهّمون آلام الآخرين. ولكن من ذا الذي يتفهّم آلام الآخرين؟ البلوش الذين قهرهم الباكستانيون لا يبالون بالكشميريين. والبنغاليون الذين حررناهم يتصيدون الهندوس. الشيوعيون القدامى الصالحون كانوا يعتبرون

معتقلات ستالين "جزءاً ضرورياً من الثورة". الأمريكيون الآن يعظون الفيتناميين في حقوق الإنسان. هذا الذي نحن بصدده مشكلة سلالة. لا ينجو منها أحد منا. وهناك أيضًا مسألة باتت ضخمة جدًا في هذه الأيام. الناس ـالمجتمعات، والطبقات، والأعراق، وحتى البلادـ يحملون تواريخهم المأساوية وتعاساتهم كأنها مفاخر، أو بضائع، تشترى وتباع في السوق المفتوح. ومن سوء حظي ـفي هذا الصددـ أنني بلا بضاعة أتاجر بها، فأنا رجل عديم المأساة. أنا ابن الطبقة العليا، والطائفة العليا، القاهر، من أي زاوية رأيتني.

نخب هذا.

وماذا أيضًا لدينا هنا؟

هناك صندوق ورقي مفتوح، صندوق سبق أن كان صندوق حاويات حبر طابعة هيوليت باكارد، مفتوح على المنضدة. يربكني أن أرى محتوياته مشرقة بعض الشيء: كيسين أصفرين للصور، على أحدهما ملصق مكتوب عليه "صور كلب البحر" وعلى الآخر "كلب البحر يقتل". ظريف. لم أكن أعرف أن لديها اهتمامًا بكلاب البحر. فجأة يجعلها ذلك ـماذا أقول؟ـ أقلَّ خطورة. تصورها وهي تسير على الشط، أو ضفة النهر، والريح في شعرها... مطمئنة مسترخية... باحثة عن كلاب البحر... تجعلني أفرح لها. أنا أحب كلاب البحر. أعتقد أنها قد تكون الكائن المفضل لديّ. في مرة من المرات قضيت أسبوعًا كاملاً أشاهدها ونحن في إجازة عائلية، في سفينة تجوب ساحل كندا الغربي.

حتى في أوقات العواصف التي تتلاطم فيها أمواج المحيط فيغدو خطِرًا، كانت هناك، تلك الكائنات الصغيرة ممتلئة الخدود، تسبح لامبالية على ظهورها، ناظرة إلى العالم كمن تقرأ جرائد الصباح.

أستخرج الصور من أحد الكيسين.

ما من صورة لكلاب البحر.

كان ينبغي أن أتوقع. أشعر كمن تعرض لخدعة.

أعلى صور الكومة صورة ملتقطة في نزهة قرب بوابة دال في سري نجر. فيها جندي سيخي داكن البشرة يرتدي سترة واقية من الرصاص ويسند سلاحه إلى فخذه. إحدى ركبتيه قائمة، والأخرى على الأرض، يقبع منتصرًا بجوار جثة شاب. واضح من وضعية جسد الشاب أنه ميت. مسنود إلى ذقنه، المثبتة على الحافة الخرسانية التي ترتفع قدمًا حول البحيرة، بينما بقية جسمه متروكة في منحنى هابط. ساقاه مائلتان، إحدى ركبتيه ملتوية بزاوية قائمة. يلبس بنطالاً وقميص بولو لونه بيج. أصيب برصاصة في رقبته. ما من دم كثير. ثمة صور ضبابية لعوامات في الخلفية. رأس الجندي محاط بالقلم بدائرة أرجوانية. واضح من ثياب الميت وسلاح الجندي أن الصورة قديمة بعض الشيء. في كل صورة من الصور الأقل دراماتيكية لجاميع الجنود الملتقطة في أسواق وأكمنة أو على طريق سريع وهم يستوقفون السيارات، وثمة علامة بالقلم الأرجواني نفسه على جندي. ما من صلة واضحة بينهم. البعض حليقو الرؤوس، والبعض سيخ، والبعض مسلمون بوضوح. المكان في جميع الصور إلا

واحدة هو كشمير. في الصورة الوحيدة المستثناة، جندي يبدو عليه الضجر جالس على مقعد بلاستيكي أزرق في ملجأ مقام من أكياس الرمل في ما يبدو أنه وسط الصحراء. خوذته على حجره ويمسك مضرب ذباب برتقاليًا وينظر إلى البعيد. في عينيه ما يلفت النظر، فيهما خواء، جمود يسترعي الانتباه. رأسه أيضًا محاط بتلك الدائرة الأرجوانية.

من هؤلاء الرجال؟

ثم إنني أفهم بمجرد أن أفرد الصور جميعًا على المنضدة. هم جميعًا جندي واحد، يبدو مختلفًا في كل صورة، باستثناء عينيه. شكله دائم التغير. لعله أحد أبنائنا في المخابرات المضادة. ما سر هذه الأنشوطة الأرجوانية حول رأسه؟

في العلبة ملفٌ مكتوب عليه "كلب البحر". الوثيقة الأولى فيه تبدو سيرة ذاتية لشخص ما. تحمل الوثيقة اسم رالف إم باور، ع ا ط م، عامل اجتماعي طبي مرخص، تلي ذلك قائمة طويلة من مؤهلاته التعليمية. فجأة وثبت كلمة في وجهي. كلوفيس. عنوان رالف باور في شارع غرب بولارد، كلوفيس، كاليفورنيا.

في كلوفيس أطلق أمريك سنج الرصاص على نفسه وعلى أسرته. في بيتهم بحي سكني صغير في ضاحية. ثم فهمت العلاقة بين الملقاط وكلب البحر. كلتا الكلمتين بالإنجليزية متشابهتان صوتيًا بدرجة كبيرة. طبعًا. الرجل الظاهر في الصور هو الملقاط أمريك سنج. لم يحدث قط أن التقيت به وجهًا لوجه في كشمير. لم أعرف كيف كان شكله في شبابه

(وتلك كانت أيام ما قبل جوجول). لا تكاد صوره تلك تحمل شبهًا بصورته في كبره، وقد بات بدينًا، حليقًا، يبدو تائهًا تمامًا، مثلما ظهر في الصور المنشورة إثر انتحاره.

تبدو شراييني كأنما يندفع فيها طوفان من الكيماويات، طوفان من شيء آخر غير الدم. كيف تيسَّرت لها حيازة تلك الوثائق؟ ولماذا؟ لماذا؟ أيُّ نفع كان لها فيها؟ وما ذلك كله؟ أكان نوعًا من خرافة الثأر السحري؟

في الصفحات الأولى من الملف ما يشبه الاستبيان، سلسلة من تلك الأسئلة النمطية التافهة شبه السيكولوجية: هل راودتك أحلام مزعجة حول الحدث؟ هل يصعب عليك الإحساس بمشاعر حزن أو حب؟ هل يصعب عليك تخيُّل عمر مديد تتحقَّق فيه الأهداف؟ وما إلى ذلك. وملصق بالاستبيان شهادتان مكتوبتان عليهما توقيع أمريك سنج وزوجته (شهادتها طويلة، وشهادته شديدة الإيجاز) ونسخ مصورة من استمارتي طلبات اللجوء إلى الولايات المتحدة بدينتين ومملوءتين بدقة، وتحملان توقيعيهما أيضًا.

أحتاج إلى الجلوس. وأحتاج إلى شراب. معي زجاجة كاردهو ما كان يجب أن أحضرها من السوق الحرة وأنا عائد من كابُل، أو أن أحضرها معي إلى هنا، خاصة وقد وعدت تشيترا أنني لن ألمس الشراب مطلقًا. ولا قطرة. خاصة وأنا أعلم أنني مهدد في وظيفتي. خاصة وأنا

أعلم أن رئيسي منحني الفرصة الأخيرة لكي "أرمّم السفينة أو أنفصل عن الأسطول" على حد تعبيره المبتذل.

أريد بعض الثلج ولا يوجد. الفريزر تحوّل بالكامل إلى كتلة من الثلج ولا بد من إذابته. الثلاجة خاوية لكن المطبخ يغص بصناديق الفاكهة. لعلها كانت تتبع، بل لعلها تتبع، واحدة من الحميات الشائعة التي لا تأكل فيها غير الفاكهة. ولعلها هناك الآن. في منتجع يوجا أو شيء من هذا القبيل.

بالطبع ليست هناك.

سيكون عليّ أن أشرب كاردهو بلا إضافات. كم هو بارد، وهذا الحمام اللعين لا بد أن يتوقف عن الهديل على إفريز الشباك. لماذا لا تتوقف؟

التاريخ: ١٦ أبريل ٢٠١٢

الموضوع: لافلين سنج ني كاور وأمريك سنج

هذا طلب بإجراء تحليل نفسي اجتماعي لأمريك سنج وزوجته لافلين سنج ني كاور لتحديد ما إذا كانا ضحيتي قمع ناجم عن الانتهاك، وفساد الشرطة والقهر الذي عانيا منه في الهند، بلدهما الأم. هل لديهما خوف حقيقي "مستوطِن" من التعرض للتعذيب أو القتل

على يد حكومتهما؟ فهما يطلبان اللجوء السياسي بناء على زعمهما بأن أمريك سنج سوف يتعرض للتعذيب أو القتل في حال رجوعه إلى الهند. في ثنايا اللقاء اختبرت **بيان أعراض الصدمة ٢، وقائمة الحالة العقلية، اضطراب الكرب التالي للصدمة وأجريت مقابلة فحص ومقياس ديفيدصن للصدمات.** وتم تناول تاريخ طويل خلال ساعتي لقاء مباشر مع كلٍّ منهما لإكمال رواية الأحداث الفعلية التي تعرَّضا لها بالفعل في كشمير بالهند.

خلفية:

يقيم كلٌّ من السيد والسيدة سنج في كلوفيس بكاليفورنيا. ولدت لافلين سنج ني كاور في كشمير بالهند، في ١٩ نوفمبر ١٩٧٢. ولد أمريك سنج في شانديجاره بالهند في ٩ يونيو ١٩٦٤. لديهما ثلاثة أبناء وُلِدَ أصغرهم في الولايات المتحدة. هرب الاثنان من الهند إلى كندا مع ابنيهما الكبيرين، ودخلا الولايات المتحدة سيرًا على الأقدام في الأول من أكتوبر سنة ٢٠٠٥. دخلا أولاً إلى بلاين في واشنطن، لكنهما الآن يعيشان في كلوفيس بكاليفورنيا حيث يعمل السيد أمريك سنج سائق شاحنة. لافلين كاور ربة بيت. لديهما قلق دائم على أمن أسرتهما.

رواية لافلين:

هذه الرواية تعتمد على إعادة صياغة للحوار مع لافلين.

كان زوجي أمريك سنج رائدًا في الجيش يخدم في سري نجر بكشمير. وفيما كان في وظيفته تلك لم أكن أعيش معه في القاعدة، بل كنت أعيش أنا وابننا في سكن خاص، في شقة بطابق ثانٍ في جواهر نجر بسري نجر. كان في الحي كثير من أسر السيخ وقليل من أسر المسلمين. في عام ١٩٩٥ تعرَّض محام يعمل في حقوق الإنسان يُدعى جالب قدري للاختطاف والقتل وألقت الشرطة المحلية اللوم في ذلك على زوجي وشعرنا أن المسلمين يضيِّقون عليه الخناق. لم يكن زوجي يقبل الرشاوى ولم يكن يحب الإرهابيين المسلمين. كان رجلاً شريفًا. وكان يقول "أنا لن أخون بلدي ولا يمكنكم أن ترشوني".

كانت صديقتي مانبريت في ذلك الوقت صحفية في سري نجر. واكتشفت هوية من يضيقون الخناق على زوجي وقتلة جالب قدري. ذهبت هي وأمي إلى قسم الشرطة لإبلاغهم بالمعلومات. فلم تصغ لها الشرطة لكونها امرأة وقريبة للمتهم. ولأن أغلب شرطة جامّو كشمير من الكشميريين المسلمين. قال رئيس محققي الشرطة "لو أردت لأحرقتكما حيَّتين هنا أيها المرأتان. عندي هذه السلطة".

بعد سنة طوقت وحدات الشرطة حي جواهر ناجار الذي كنت أقيم فيه دون زوجي لإجراء عملية تطويق وتفتيش. وطرقوا بابي بعنف ودخلوا. شدّوني من شعري وسحلوني من الطابق الثاني إلى الطابق الأول. أخذ أحد الشرطيين ابني. سرقوا جميع مجوهراتي. وطوال الوقت كانوا يركلونني ويضربونني ويقولون "هذه هي أسرة أمريك سنج الذي قتل زعيمنا". وفي قسم الشرطة قيَّدوني إلى لوح خشبيٍّ وأخذوا يركلونني

ويصفعونني ويضربونني. وكانوا يضربونني على رأسي بعصا مطاطية. قالوا لي "ستتركك تعيشين بقية حياتك بلهاء مجنونة". وركلني رجل كان يرتدي حذاء معدنيًا ودهس صدري وبطني. ثم ربطوا خشبتين بطول ساقي. ثم ربطوا أشياء غليظة حول جسمي وإبهاميّ وأخذوا يصعقونني بالكهرباء المرة تلو المرة. كانوا يريدون مني أن أشهد زورًا على زوجي. احتُجزت عندهم لمدة يومين. واحتجزوا ابني في غرفة أخرى وقالوا إنه لن يعود إليّ إلا بعد الإدلاء بشهادة الزور. وأخيرًا أطلقوا سراحي. وعندها رأيت ابني. كنا نبكي نحن الاثنين. لم أستطع المشي إليه بسبب ألم ساقيّ. أقلّنا سائق ريكاشة وأخذني إلى بيت أمي.

لم أجد طبيبًا يعالجني، فقد كان الأطباء جميعًا يخافون أن يقتلهم الإرهابيون المسلمون. خضعت أنا وزوجي لمراقبة دائمة. عشنا تحت ضغط رهيب.

تركنا كشمير بعد ثلاث سنوات وعشنا في جامّو. وفي سنة ٢٠٠٣ تركنا بلدنا إلى كندا. تقدمنا بطلب لجوء فرفض. بلا رحمة. كنا بحاجة إلى المساعدة. عرضنا عليهم جميع ما لدينا من أدلة، ومع ذلك رفضوا. في أكتوبر ٢٠٠٥ جئنا إلى سياتل. حصل زوجي على وظيفة سائق شاحنة، وفي سنة ٢٠٠٦ انتقلنا إلى كلوفيس بكاليفورنيا. ليست لدينا حماية. لا نذهب إلى أي مكان، لا نخرج ولا نعيش سعداء. وحين نخرج لا نضمن الرجوع إلى بيتنا أحياء. نشعر طوال الوقت أن الإرهابيين يراقبوننا. كلما سمعت صوتًا ظننت أنني على وشك الموت. أرتاع بسهولة فور أن أسمع أيَّ صوت عال. في السنة الماضية، ٢٠١١، حينما كان

زوجي يؤدِّب أولادنا لفظيًا، انتابني الرعب إذ ظننت أنهم جاؤوا لقتلنا. جريت إلى الهاتف واتصلت بطوارئ ٩١١. تسبَّبت لنفسي في جرح بالغ في الرأس والصدر والساقين وأنا أجري. ظننت أنني سوف أموت برغم أنه كان يؤدِّب الأولاد لفظيًا ليس أكثر. تسارع نبضي حتى شعرت أنني مجنونة. غالبًا ما يكون رد فعلي على الأصوات العالية مغالى فيه. برغم أن زوجي كان يؤدب الأولاد لفظيًا فقط اتصلت بالشرطة ولا أعرف ما الذي قلته لهم. اعتقلوا زوجي ثم أفرجوا عنه بكفالة. لا زلت لا أعرف ماذا جرى بالضبط. ونشرت الصحافة أخبارًا تقول إن زوجي كذا وكذا وخدم في كشمير. نشروا صورة زوجي وبيتنا وقالوا للجميع إننا نعيش هنا. ونُشرت هذه الأخبار على الإنترنت وفي كشمير أيضًا. ومرة أخرى بدأ الإرهابيون المسلمون يطلبون إعادة زوجي. وبعد أيام قليلة اتصل صحفي بنا وقال لنا إن كاتبًا في مجلة بالهند يبحث عنا. ولكننا علمنا أنه ليس الشخص الذي يدَّعيه. رأيته يسوق سيارة بمحاذاة بيتنا. رأيته مرات كثيرة. قلت لزوجي إننا لا بد أن نسافر. فقال "ليست لدينا نقود لنستمرَّ في التنقُّل. أنا لا أريد الهرب. بل أريد أن أعيش". الرجل يحوم حولنا طول الوقت. ورجال غيره أيضًا. كلهم إرهابيون مسلمون. وأنا أعيش في رعب دائم. أسدل جميع الستائر وأتلصَّص من وراء الستائر. يقفون في الشارع محملقين في بيتنا. لذلك أغلق كل شيء. كنت من قبل أدير صالون تجميل صغيرًا من البيت، أنمِّص الحواجب وأزيل شعر الساقين للسيدات. الآن لا آمن أن أدخل الغرباء بيتي.

سبعة عشر عامًا مضت ولا يزال الإرهابيون المسلمون الكشميريون يحيون ذكرى وفاة ذلك المحامي. ولا يزالون في الجرائد والإنترنت يلومون زوجي على وفاته. أبنائي مرعوبون. ويسألونني طول الوقت "متى سنستمتع بحياتنا يا ماما؟" فأقول لهم "إنني أحاول، لكن الأمر ليس في يدي".

*

تسبَّبت في جرح ساقيها ورأسها وصدرها وهي تجري إلى الهاتف.

هذا إنجاز. أنا شخصيًّا أتساءل ما الذي فعله زوجها ليرغمها على سحب شكواها. ربما لو لم تسحب تلك الشكوى لكانت هي وأبناؤها اليوم لا يزالون أحياء. يروق لي بصفة خاصة الجزء المُتعلّق بتطويق الشرطة المحلية حيَّ جواهر نجر بالذات من بين جميع الأماكن وقيامهم بالتفتيش ثم اعتقال زوجة رائد عامل في الجيش وتعذيبها. هذه سابقة منقطعة النظير. هذه القصة لا يمكن استقبالها في كشمير إلا ككوميديا فجّة. تفصيلة "الأطباء المذعورين" بالذات إضافة جيدة. أهم شيء الإخلاص لتفاصيل الواقع. أما عن سردها التفصيلي العليم للتعذيب، فأرجو أن يكون زوجها قد أطلعها فقط على تقنياته ولم يستعملها عليها بالفعل. تكرّر قولها إنه "كان يؤدب الأولاد لفظيًّا فقط" ثلاث مرات في فقرة واحدة، وهو أمر يبدو لي ذا معنى.

أما شهادة أمريك سنج نفسه فكانت شهادة عسكرية. وجيزة ومركزة:

خدمت في الجيش الهندي ضابطًا نظاميًا. كُلّفت بمهام عديدة في مكافحة الإرهاب وحفظ السلام داخل الهند وبالخارج. في سنة ١٩٩٥ نُقلت إلى كشمير التي كان التمرد مستمرًا فيها منذ عام ١٩٩٠. في عام ١٩٩٥ تعرّض ناشط حقوقي ـعلمت في ما بعد أنه ينتمي إلى جماعة إرهابية محظورةـ للاختطاف والقتل. تلقي الشرطة الكشميرية والحكومة الهندية اللوم في وفاته على شخصي. يستعملونني كبش فداء. لم أجد خيارًا إلا الفرار بأهلي من الهند. لو رجعت فلن يروق لحكومة الهند أن تقدّمني لمحاكمة يمكنني أن أعرض فيها روايتي. سوف أتعرّض للتعذيب والضرب والصدمات والإيهام بالغرق والحرمان من الطعام والنوم أو للقتل لكي لا يراني بعدها أحد أو يُسمع لي صوت.

مُلئت استمارات الطلب بخطّ اليد. خط أمريك سنج دقيق، بناتيّ تقريبًا، ويتّسق مع توقيع دقيق بناتيّ أيضًا. مجرد النظر إلى خطه مرعب. يبدو حميميًا على نحو غريب.

مؤكد أن هذين الاثنين كانا يعرفان كيف يدبّران أمورهما. مسكين رالف باور، ع ا ط م، لو كان عرف أن قصتهما لم تبدُ حقيقية إلا لأنها كانت حقيقية بالفعل، في ما عدا أن الضحايا والمجرمين تبادلوا المواقع. لا عجب إذن أن توصّل إلى هذه النتيجة المبهرة:

النتائج:

بناء على البيانات المقدمة عاليه، ما من شكٍّ لديّ في أن السيدة لافلين سنج والسيد أمريك سنج يعانيان بشدة من الاضطراب والكرب التالي للصدمة. من المؤكد أن هذه الدرجة من الكرب لا تتوافر إلا فيمن تعرَّض من الأفراد لأحداث مُدمِّرة صادمة مثل التعذيب ولفترات طويلة من السجن والفصل عن الأهل. وهما يشعران بخوف عميق من أن تكرُّر هذه الأحداث في حال رجوعهما إلى الهند. ما من شكٍّ في أن أشخاصًا يسعون إلى الثأر ويمارسون انتقامهم عبر مدوَّنات عديدة في الشبكة العنكبوتية.

في ضوء هذه الحقائق أوصي بشدَّة بمنح السيد والسيدة أمريك سنج وأسرتهما الحماية واللجوء هنا في الولايات المتحدة الأمريكية، بحيث يتسنَّى لهم أن يعيشوا حياة طبيعية للحدِّ الممكن بالنسبة لهم.

اقتربا إذن من الحصول عليها، السيد والسيدة سنج. أوشكا أن يصبحا مواطنين شرعيين في الولايات المتحدة. ومع ذلك، لم يمض شهران إلا ورأى أمريك سنج أن يطلق الرصاص على نفسه وعلى أسرته كلها.

ما منطق هذا؟

هل يُحتمل أن الأمر لم يكن انتحارًا؟

من ذلك الفنان الذي أشارت الزوجة في شهادتها إلى أنها رأته يسوق بمحاذاة بيتهم؟ ومن الآخرون؟

هل لم تزل للأمر كله أهمية؟

ليس بالنسبة لي.

ولا لحكومة الهند.

ولا لشرطة كاليفورنيا، طبعًا، فلا بد أنها مشغولة بأمور أخرى.

ومع ذلك أشعر بالخجل مما جرى للزوجة والأبناء.

لماذا يوجد هذا الملف لدى السيدة س تِلوتما الساكنة في بيتي؟

وأين هي أصلاً؟

يصفر هاتفي. غريب. هذ رقم لا يعرفه أحد. أنا بالنسبة للعالم كله في مرحلة تأهيل. أو في إجازة للدراسة، وهي مجرد صياغة أخرى. من الذي يبعث لي رسالة؟ أوه، إنه معمل ثايروكير، مهما يكن:

عميلنا العزيز يرجى الحضور إلى معسكرنا الصحي

فيتامين د + فيتامين ب ١٢، سكر، دهون، اختبار وظائف الكبد. اختبار وظائف الكلى، الغدة الدرقية، الحديد، كامل عناصر الدم، اختبار بول مقابل ١٨٠٠ روبية.

عزيزي معمل ثابروكير. أعتقد أنني أفضّل الموت.

شربت بالفعل ربع الزجاجة. وحان الوقت لقيلولة المصرية الممنوعة. لا تصحُّ القيلولة للرجال في أثناء العمل. لا ينبغي أن أصطحب زجاجة الكاردهو إلى غرفة النوم. لكن ما حيلتي، وهي التي تصرّ.

ما من سرير. حشية فقط على الأرض. كتب ودفاتر وقواميس مصفوفة جميعًا في أبراج منتظمة.

أضيء مصباح الأباجورة الأرضية الطويلة. أرى ورقة ملونة ملصقة بالسلوتيب على قبعة المصباح العريضة. تذكرة؟ ملاحظة منها لنفسها؟ مكتوب فيها:

أمّا موتهم، فهل أنا بحاجة إلى أن أحكي لكم عنه؟ سيكون، بالنسبة لهم جميعًا، موته هو، ذلك الذي حينما عرف بموته من المحلَّفين، لم يَعُدْ أن غمغم بلكنة أهل الراين قائلاً "ولكنّي تجاوزت مسألة الموت هذه أصلاً".

چان چينيه

ملاحظة: هذا المصباح مصنوع من جلد أحد الحيوانات. لو دقّقت النظر لرأيت فيه بعض الشعرات.

شكراً

يبدو أن هذه الشقة شهدت كثيرًا من التفسخ. وقد يكون تفسخ أي إنسان أمرًا مروعًا أن تشهده. لكن هذا الإنسان؟ إنه على حافة خطر، مثل رائحة لاذعة وخافتة، رائحة بارود عالقة في الهواء في مسرح جريمة.

لم أقرأ جان جينيه، فهل ينبغي أن أقرأه؟ هل قرأتموه؟

والله طيب كاردهو هذا. وابن كلب باهظ الثمن. سيكون عليّ أن أشربه باحترام. أنا أصلاً سكرت، أسكرني هذا الويسكي أو "الا بِسكي" كما كان ليقول صديقي القديم جولاك. في أوريسا عادة ما يحذفون الواو.

*

الظلام حالك.

حلمت ببرج من أغطية الحلل وبالوعات مفتوحة معبأة بأشياء غريبة؛ ملفّات في الغالب، ورسومات خيول لموسى. وألواح شديدة الطول من ثلج جامد للغاية تبدو كالعظام؟

من الذي شرب الويسكي؟
من الذي جاء بالفودكا وصندوق البيرة من سيارتي إلى الشقة؟
من أحال النهار ليلاً؟
وكم نهارًا استحال إلى كم ليلة؟

ومن بالباب؟ إنني أسمع مفتاحًا في القفل.
أتكون هي؟

لا ليست هي.

هما شخصان اثنان، ولهما ثلاثة أصوات. غريبة. يدخلان ويضيئان المصابيح كما لو أنهما في شقتهما. وها نحن متواجهون. شاب يرتدي نظارة شمسية ومعه رجل أكبر سنًا. بل امرأة أكبر سنًا. رجل امرأة. لا يهم. مخلوق عجيب يرتدي بذلة من البتهان وفوقها معطف بلاستيكي رخيص. طويل للغاية. فمه أحمر، وله سِنٌّ لامعة برّاقة. أو لعلي لا أزال أحلم. حواسّي مستنفرة بصورة غريبة، وبليدة في الوقت نفسه. الزجاجات في كل مكان، تتحطّم حول أقدامنا، تتقلّب تحت الأثاث لتسقط في البالوعات المفتوحة.

ليس لدينا ما نقوله لبعضنا بعضًا، وأنا غير ثابت على قدمي، أشعر أنني أتمايل كعود ذرة في حقل، أرجع إلى غرفة النوم وأستلقي. وما الذي يمكن أن أفعله غير هذا؟

يتبعانني إلى الغرفة. يبدو لي هذا سلوكًا غير معتاد، حتى في حلم، لو أنني في حلم. يكلمني الرجل المرأة بصوت كأنه صوتان. تتكلم أجمل أردية يمكن أن تسمعها. تقول إن اسمها أنجم، وإنها صديقة لـ تِلوتَما التي تعيش معها في الوقت الراهن، وإنها وصديقها صدام حسين جاءا لأن

تِلُو بحاجة إلى بضعة أغراض من الدولاب. قلت إنني صديق لتِلُو أيضًا وإن بوسعهما أن يأخذا كل ما يحتاجان إليه. يخرج الشاب مفتاحًا ويفتح الدولاب.

تطفو غمامة من البالونات خارجة من الدولاب.

يفتح الشاب كيسًا ويبدأ في ملئه.

يضع في الكيس ـحسبما أرى على الأقلـ بطة مطاطية، وحوض استحمام أطفال قابلاً للنفخ، حمارًا وحشيًا لعبة، بعض البطاطين، كتبًا، ملابس شتائية. عندما ينتهيان يشكران لي صبري. يسألان إن كنت أريد أن أبعث رسالة إلى تِلُو وأقول نعم.

أنتزع صفحة من أحد دفاترها وأكتب جارسون هوبارت. تأتي الحروف أكبر كثيرًا مما أردت أن تكون عليه. كأنها إعلان. أسلِّمهما الورقة.

ثم يذهبان.

أتحرك إلى الشباك وأشاهدهما يخرجان من العمارة. أحدهما ـالأكبر سنًّاـ يركب ريكاشة بمحرك، والآخر، قسمًا بينيٍّ، يرحل على حصان. مخلوقان عجيبان وكيس مليء بالدمى يمضيان في الضباب على حصان أبيض.

عقلي متخدر. هلوساتي مثيرة تمامًا للرثاء. كان كلٌّ شيء حقيقيًا. أشمُّ رائحته. لا أتذكر آخر مرة أكلت فيها. أين هاتفي؟ كم الساعة؟ وأي يوم هو هذا، أو أي ليلة؟

أنظر إلى الغرفة ورائي. البالونات تطفو فيها كأنها شاشة كمبيوتر خاملة. باب الدولاب مفتوح على مصراعيه. على إحدى الضلفتين من الداخل علامات. أراها من حيث أقف أشبه بجدول ـبسجلٍ يدوّن فيه أبوان طول ابنهما في أثناء نموه، وكنّا نفعل ذلك مع آنيا ورابيا وهما صغيرتان. أتساءل أيّ طفل كانت تِلُو تتابع نموه. أقترب فأجد الأمر على غير ذلك تمامًا. كيف كان لي أن أتخيل، بتلك السرعة، أن يكون ذلك الشيء الحلي الحبيب؟

هو قاموس من نوع ما، عمل لم يكتمل بعد، حتى أن كلماته لم تزل مكتوبة بخط اليد وبألوان مختلفة، وغير متساوية النهايات:

معجم الحياة اليومية في كشمير

أ:

أتانكوادي «إرهابي»/ احتلال/ استيلاء/ اختفاء قسري/ إخوان/ آر بي جيه/ إرهابي/ آزادي/ استجواب/ استعراض المشبوهين/ استفتاء/ أشباه الأرامل/ أشباه اليتامى/ إضراب/ اعتقال/ اغتصاب/ أفغان/ألغام/ أمريكا/ أمن/ انتخابات/ انتصار/ انفجار/ انفجار قنبلة يدوية/ انفصاليون/ أيه كيه ٤٧/ الله

ب:

بابا ١، بابا ٢ (مراكز استجواب) ب ت أ (بلاغ تحريات أولي)/ باكستان/ بدر/ برلمان/ بطاقة هوية/ بيان صحفي

ت:

تحت الأرض/ تحذيرات/ تعذيب/ تعويض/ تفجير/ تهديدات

ث:

ثقافة البندقية

ج:

ج ت ج ك (جبهة تحرير جامّو وكشمير)/ جاسوس/ جامعة المجاهدين/ جثة/ جثة مجهولة/ جسد/ جماعة/ جنازات/ جنة/ جهاد/ جهنم/ جيش/ جيش محمد/ جيش نظامي

ح:

ح م (حزب المجاهدين)/ ح ن (حرب نفسية)/ حج أمارانث/ حرب معلومات/ حركة المجاهدين/ حسن النية/ حظر تجول/ حظر تجول مفتوح/ حملة أمنية

خ:

خبراء/ خ ح ن (خروقات حقوق الإنسان)

د:

درجة ثالثة/ دروع بشرية/ دورية فتح الطريق/ دورية ليل

ذ:

ذخيرة

ر:

راشتريا رايفلز «معسكر»/ رسالة غرامية/ رشاش/ رشاش خفيف/ رصاصة/ رواية (محلية/ رسمية/ شرطية/ عسكرية)

ز:

زنزانة

س:

سلام/ سلك شائك/ سياج السلك الحاد/ سياحة

ش:

ش ج ك (شرطة جامّو وكشمير)/ شرطة/ شهدا/ شهداء/ شهر العسل/ شهيد

ص:

صحفيون ملحقون بالوحدات العسكرية المقاتلة

ض:

ض ك ت ص (اضطراب الكرب التالي للصدمة)

ط:

لا يوجد

ظ:

ظلم

ع:

ع ف أ) عامل فوق الأرض)/ عبور الحدود/ عبور مزدوج/ علاج الإبر/ على سبيل الهبة/ عملية السلام/ عملية تطويق وتفتيش/ عملية سدبهافانا/ عملية نمر/ عميل مزدوج/ عنف

غ:

غرفة حصينة

ف:

ف أ (فوق الأرض)/ فدائيين/ ف ع ع (الفرع العام من مخابرات ق ح ح)/ في الانطباع الأول

ق:

قاذفة/ قانون سلطات القوات الخاصة/ قانون مناطق النزاع/ قتل أثناء الحبس/ قتل خطأ/ قرآن/ قنبلة موقوتة/ قنص وقتل/ قوة انتصار/ قوة كيلو/ ق أ أ ت (قانون الأنشطة الإرهابية والتخريبية)/ ق أ ع (قانون الأمن العام)/ ق ب م (قتل بدون محاكمة)/ ق ح ح (قوات حرس الحدود)/ ق ش ح م (قوات شرطة الاحتياطية المركزية)/ ق و م أ (قانون الوقاية من الإرهاب)

ك:

كافر/ كتيبة/ كشمير/ كشميريات (القومية الكشميرية)/ كلاشينكوف (راجع. رشاش)/ كمين

ل:

لا يوجد ما يستحق التقرير/ لاسلكي/ لاهور/ اللجنة القروية للدفاع/ لشكر طيبة/ لغم أرضي/ لفائف السلك الشائك

م:

متحدث باسم الدفاع/ متسولون (عمالة قسرية)/ متطرفون/ متمرد/ متواطئ/ مجاهدون إسلاميون/ مجاهدون/ مخابرات/ مخبأ/ مخبر/ مختفي/ مدني/ مذبحة/ مراقبة/ المرتدون/ مسلحون مجهولون/ مشتبه/ مصادر/

مصادمة/ مصادمة مزورة/ معتقل/ مستسلم (أسطوانة)/ معركة بالبنادق/ معسكر/ معلومة/ مقاتل/ مقاتل أجنبي/ مقبرة/ مكافحة مخابرات العدو/ مكافحة التمرد/ ملجأ عسكري/ منصوريان (اسم آخر لـ لشكر طيبة)/ منطقة السيطرة/ منظمة غير حكومية/ مجذوب/ مؤتمر صحفي/ مُوج (أمّ)/ ميديا (إعلام)/ م س م (مركز الاستجواب المشترك)/ م ع خ (مجموعة عمليات خاصة)/ م م أ (مركبة مضادة للألغام)

ن:

ناباد (راجع إخوان)/ نسخة رسمية/ نظام المصطفى/ نقطة تفتيش/ نيو دلهي/ ن ح ن (ناشط حقوق إنسان)

هـ:

هجمة/ هدف/ هدنة/ هند/ هوية خاطئة

و:

وحدة/ وحدة مقاتلة/ و م ب (وكالة المخابرات الباكستانية)

ي:

ياترا (حج)/ يقتل

لا وجود لموسى، فمن الذي كان يحشو رأسها بهذه النفايات؟

ولماذا لم تزل غارقة في هذه القصة القديمة؟

الناس تتغير.

وظننتها تغيرت.

أنا مستلقٍ على سريرها.

رأسي يقتلني.

والغرفة مليئة بالبالونات.

لماذا ينتهي بي الحال في فلكها على هذا النحو؟

أفتح الدفتر الذي انتزعت منه الصفحة. مكتوب في أولى صفحاته

عزيزي الدكتور..

الملائكة تحوم فوقي وأنا أكتب. كيف أخبرهم أن لأجنحتهم رائحةَ أرضيةِ أعشاش الدجاج؟

بصراحة، الأمور أسهل كثيرًا في كابُل.

" وبعد أن ماتت بدلاً من المرة أربع مرات وخمسًا ، بقيت الشقة متاحة لفجائع أقسى من ميتتها تلك . "

جـان چينيه

٨

المستأجرة

أخذت البومة الرقطاء تدنو وتعلو في نور الشارع برهافة وأدب يليقان برجل أعمال ياباني. كانت تحظى برؤية واضحة عبر الشباك تتيح أمام عينيها الغرفة الصغيرة الخاوية والعجوز العارية على السرير. ومثلها، كانت العجوز تحظى برؤية للبومة الرقطاء لا يعوقها عائق. وفي بعض الليالي كانت تردّ على حركاتها بمثلها، بل وتقول موشي موشي، وتلك غاية ما كانت تعرفه من اليابانية.

حتى بالداخل كانت الجدران تشعُّ حرارة عدوانية عنيدة. ومروحة السقف البطيئة تزحزح الهواء الدخاني الخانق، مقلّبة فيه طبقات الغبار الرقيق.

كان في الغرفة بعض علامات الاحتفال. فالبالونات المربوطة في حاجز الشباك مضت تتخبط في بعضها بعضًا بغير نظام، وقد لانت وذوت بفعل الحرارة. وفي الوسط على مقعد منخفض ملّون بغير مسند كعكة عليها فراولة مثلجة مجروشة لامعة وزهور سكّرية وشمعة محترقة

الفتيل وعلبة ثقاب وبضعة عيدان مستعملة، وقد كتب على الكعكة عيد ميلاد سعيد يا آنسة جِين. كانت الكعكة قد قطعت، وأكلت منها قطعة صغيرة. وذابت الفراولة المثلجة فتقاطرت على قاعدتها الكرتونية المغلّفة بالورق المعدني المفضّض. وكان النمل منهمكًا بفتات يفوقه حجمًا. نمل أسود، يحمل فتاتًا ورديًا.

والطفلة التي تزامن الاحتفال بعيد ميلادها وطقوس عمادها التي أدّيت بنجاح كانت نائمة بعمق.

أما خاطفتها، المعروفة باسم س تِلوتما، فكانت مستيقظة ومنتبهة، لدرجة أن كانت تسمع صوت شعرها وهو ينمو. بدا مثل شيء يتهشّم. شيء محروق يتهشّم. فحم. خبز محمّص. فَراش تيبّس على مصباح. تذكّرت أنها قرأت في مكان ما أن الناس تموت، ويستمرّ شعرهم وأظافرهم في النمو. مثل نور النجوم إذ يظلّ يسافر في الكون بعد أن تنقضي آماد من الزمن على موت النجوم نفسها. مثل المدن. هائجة، مستعرة، تحاكي وهم الحياة بينما الكوكب الذي نهبته يموت من حولها.

فكّرت في المدينة ليلاً، وفي المدن ليلاً. مجموعات نجمية مهملة، مؤلّفة من حيزبونات النجوم الهاوية من السماء إذ أعيد ترتيبها على الأرض في أشكال وطرق وأبراج، ليعيث فيها السوس وقد تعلّم كيف يسير منتصبًا على ساقين.

كان الفيلسوف السوسة ذو السمت الخطير والشارب الحاد يدرّس الفلسفة في فصل، قارئًا بصوته الجهير من كتاب. وينتبه السوس الصغير

المهور فيلتقط كلّ كلمة تراق من شفتيه السوسيتين الحكيمتين. "كان نيتشه يرى أن الشفقة إن صارت جوهر الأخلاق، فسوف يستشري الشقاء وتمسي السعادة موضع ارتياب". أخذ الصغار يدوِّنون في دفاترهم الصغيرة. "في المقابل كان شوبنهاور يعتقد أن الشفقة خليقة بأن تكون الفضيلة السوسية العظمى. ولكن سقراط، قبل الاثنين بكثير، طرح السؤال الأساسي: لماذا ينبغي أن نكون أخلاقيين؟"

كان ذلك الأستاذ قد فقد ساقًا في الحرب العالمية السوسية الرابعة، وبات يستعين بعكاز. والخمسة الباقية (من سيقانه) كانت في حالة ممتازة. كان الجرافيتي المكتوب على الجدار الخلفي من فصله يقول:

الغلبة دائمًا للسوس الشرير.

تزاحمت كائنات أخرى في الفصل المزدحم أصلاً.

تمساح يحمل حقيبة من جلد إنسان
جندب طيب القلب
سمكة صائمة
ثعلب يرفع عَلمًا
دودة معها مانيفستو
ضفدعة من المحافظين الجدد
سحلية أيقونة
بقرة شيوعية

عظاءة على شاشة التليفزيون. أهلاً ومرحبًا بكم، أخبار السحالي في تمام التاسعة. هبّت عاصفة ثلجية على جزيرة السحلية.

كانت الطفلة بداية لشيء ما. هذا غاية ما كانت تعرفه الخاطفة. همست لها عظامها بهذا في تلك الليلة (الليلة المذكورة، الليلة المعنية، الليلة سابقة الذكر، الليلة التي يشار إليها لاحقًا بـ'الليلة' وحسب) عندما خطت خطوتها على الرصيف. وإن لم تكن عظامها مصدرًا موثوقًا للمعلومات فما هي بشيء. كانت الطفلة هي الآنسة جِبِن العائدة. العائدة، لا إليها (فالآنسة جِبِن الأولى لم تكن لها قط)، بل العائدة إلى العالم. الآنسة جِبِن الثانية، حينما تكبر وتصبح سيدة، سوف تسوّي الحسابات وتغلق الدفاتر. الآنسة جِبِن سوف تقلب الموازين.

كان الأمل لا يزال باقيًا لعالم السوس الشرير.

صحيح أن السهل السعيد سقط. لكن الآنسة جِبِن رجعت.

*

طلب ناجا من تِلُو سببًا واحدًا وجيهًا لرحيلها عنه. ألم يكن يحبها؟ ألم يكن يراعيها؟ ألم يكن حريصًا على مشاعرها؟ كريمًا؟ متفهّمًا؟ لماذا الآن؟ بعد كل هذه السنين؟ قال إن أربع عشرة سنة وقت كفيل بأن

يتجاوز أيُّ شخص أيَّ شيء، بشرط رغبته في تجاوزه. والناس تمرّ بما هو أسوأ كثيرًا.

قالت "أوه، قصدك هذا. هذا تجاوزته منذ زمن بعيد. أنا الآن سعيدة ومُتكيِّفة. مثل شعب كشمير. تعلمت أن أحب بلدي. بل إنني قد أدلي بصوتي في الانتخابات التالية".

تغاضى عن ذلك. قال إنها يجب أن تفكر في الذهاب إلى طبيب نفسي.

كان التفكير يوجع حلقها. وذلك كان سببًا كافيًا لكيلا تفكر في الذهاب إلى طبيب نفسي.

كان ناجا قد بدأ يرتدي معاطف التويد ويدخن السيجار. مثل أبيه. ويكلم الخدم بغطرسة أمّه. أمّا النمل على الخبز، والمآزر القطنية، وفرقة رولينج ستونز، فصارت جميعًا حلمًا محمومًا من حياة سابقة.

أمُّ ناجا التي كانت تعيش وحدها في الطابق الأرضي من المنزل الضخم (وقد مات والده سعادة السفير شيفاشنكار هاريهاران) نصحته بأن يترك تِلُو تذهب. "لن تدبّر أمورها، وسوف تتوسّل إليك كي ترجعها". ناجا كان يرى غير ذلك. تِلُو ستدبِّر أمورها. وحتى لو لم تستطع، فلن يرى منها توسُّلاً. كان يشعر أنها مستسلمة لموجة عاتية ليس بوسعه أو بوسعها أن يصدّها. لم يكن يحسم أمر تجوالها المتصل

القسري المخيف يومًا بعد يوم في المدينة، أهو بداية اختلال عقل، أم هو نوع دقيق وخطير من العقل. أم أن الأمرين شيء واحد؟

كان الشيء الوحيد الذي قد يُعزى إليه تململها الجديد هو رحيلُ أمها الغريب، وقد رآه غريبًا، في ضوء أن علاقتهما لم تكن قائمة تقريبًا. صحيح أن تِلُو قضت الأسبوعين الأخيرين بجوار سريرها في المستشفى، لكن باستثناء ذلك، لم تكن قد رأت أمّها غير مرّات قليلة طوال السنوات العديدة السابقة.

ناجا كان مصيبًا في أمر ومخطئًا في آخر. فوفاة أمها (وقد ماتت في شتاء ٢٠٠٩) أطلقت سراح تِلُو من معتقل لم يكن أحد ـ ولا هي نفسها ـ يعلم بأمره؛ لأنه أظهر نفسه طويلاً في صورة معاكسة تمامًا: صورة استقلال وعزلة وتميز. فعلى مدار حياتها الراشدة ظلّت تِلُو ترى نفسها وتصوغها من خلال تعيين المسافة بينها وبين أمها ـ أمها الحقيقة التي أرضعتها ـ والحفاظ على تلك المسافة. ولمّا لم يعد ذلك لازمًا، بدأ شيء متجمّد يذوب، فبدأ شيء غير مألوف يحلُّ محلّه.

لم يمض سعي ناجا إلى تِلُو على النحو المخطّط له. كان ينبغي أن تكون صيدًا يسيرًا آخر، مجرد امرأة أخرى تخضع لتألقه المبهر وفتنته الأخّاذة لينفطر قلبها. لكن تِلُو زحفت عليه، وباتت له هوسًا، بل إدمانًا. وهو إدمان له تفاصيله التي تعلق بالذاكرة، له جلده ورائحته وطول أصابعه الحبيبة. وفي حالة تِلُو، كان ميل عينيها، وشكل فمها، والندبة شبه الخفيّة التي تكسر برقّةٍ سيمتريةَ شفتيها وتجعلها تبدو مختلفة

حتى حين لا تتعمد الاختلاف، وطريقة احمرار منخاريها إذ يعلنان عن غضبها حتى قبل أن تعلن عنه عيناها. إمساكها بكتفيها. جلستها على المرحاض عارية تمامًا تدخن السجائر. وكل سنوات الزواج، وتجاوزها سن الشباب، وعدم بذلها أي محاولة للتظاهر بعكس ذلك، لم تبدّل من مشاعره في شيء. لأن مشاعره كانت تتعلّق بشيء أكبر من كل ذلك. كانت تتعلّق بالعزّة (برغم علامة الاستفهام المحيطة بـ"أصلها" مثلما قالت أمه دون أدنى تردد). كانت تتعلّق بالطريقة التي تعيش بها، في بلد حدوده هي حدود جسمها. ذلك البلد الذي لم يكن يصدر تأشيرات دخول ولم يبد أن له قنصليات بالخارج.

ولم يكن بلدًا صديقًا قط، حتى في أفضل الأوقات. بل كانت حدوده مغلقة والنظام الحاكم القائم على الانعزالية الكاملة لا أكثر ولا أقل لم يبدأ إلا بعد واقعة سينما شيراز. تزوج ناجا بتِلُو لأنه لم يستطع نيلها قط. ولأنه لم يستطع نيلها، فلم يكن بوسعه أن يتركها تذهب. (وبالطبع يثير هذا سؤالاً آخر: لماذا تزوجت تِلُو بناجا؟ فقد يجيب شخص كريم النفس قائلاً إن السبب هو احتياجها إلى ملاذ. وقد يجيب من دونه كرمًا بقوله إن السبب هو أنها كانت بحاجة إلى غطاء).

وبرغم صغر الدور الذي لعبه في القصة، في رأي ناجا، فقد كان لما "قبل" شيراز وما "بعد" شيراز مثل أثر "ق م" و"م".

*

بعد مكالمة منتصف الليل الواردة من بيلاب الإوزة في داشيجام، اقتضى الأمر من ناجا سويعات والعديد من المكالمات السرية لإجراء الترتيبات اللازمة للذهاب من أدهوس إلى شيراز. كان حظر التجول مفروضًا، وسري نجر مغلقة، وقوات الأمن منتشرة استعدادًا لجنازة من لقوا مصرعهم في الإجازة الأسبوعية، وكان من المتوقع أن تتحوَّل إلى مظاهرات تجتاح الشوارع في الصباح التالي. صدرت الأوامر بإطلاق الرصاص بمجرد النظر. فكان التجوُّل في المدينة في تلك الليلة أقرب إلى المستحيل. ولمَّا تمكَّن ناجا من ترتيب سيارة، وتصريح مرور في الحظر، وأوراق لعبور نقاط التفتيش، وتصريح بالدخول إلى شيراز، كان الفجر قد شارف على الطلوع.

كان صف ضابط في انتظاره خارج بهو السينما، على مقربة مما كان في يوم من الأيام كشك تذاكر فبات كشك حراسة. قال إن السيد الرائد (أي أمريك سنج) قد غادر، ولكن نائبه سوف يستقبله في مكتبه. واقتاد صف الضابط ناجا إلى خلفية المبنى، وصعد به عبر سلم الحريق إلى مكتب معتم مؤقت في الطابق الأول. طلب من ناجا أن يجلس، وقال إن السيد سوف يكون هنا خلال دقيقة. لما دخل ناجا الغرفة لم يكن لديه من سبيل ليعرف أن الشخص الجالس على المقعد مرتديًا الفيران والقبعة موليًا ظهره للباب لم يكن إلا تِلُو. لم يكن رآها منذ فترة، فلمَّا التفتت، كان ما أزعجه أكثر من نظرة عينيها هو الجهد الذي بذلته كي تبتسم وتقول له أهلاً. فتلك بالنسبة له كانت علامة انكسار لا تليق بها. لم تكن المرأة التي تبتسم وتقول أهلاً. المقربون من أصحاب تِلُو

عرفوا بمرور الوقت أن غياب التحية في واقع الأمر هو إعلان واضح عن الحميمية. بسبب القبعة، لم يكن واضحًا على الفور ما سيعرف لاحقًا بـ"قَصَّة الشعر". تصوَّر ناجا أن تكون القبعة مجرد ردٍّ فعل مبالغ فيه من أهل جنوب الهند على البرد. (ولقد كان بحوزته منجم نكات عن أهل جنوب الهند وقبعات القردة وكان يلقيها بلكنة متعمَّدة وثقة في النفس، دونما خوف من التسبّب في إيذاء مشاعر أحد منهم، لأنه هو نفسه كانت ينتمي جزئيًا إلى جنوب الهند). قامت تِلُو بمجرد أن رأته وتحركت إلى الباب.

"هذا أنت. كنت أظن أن جارسون.."

"هو الذي اتصل بي. هو في داشيجام مع الحاكم. وتصادف أنني في البلدة. هل أنت بخير؟ وموسى ...؟ هل تعرض لـ...؟"

وضع ذراعه على كتفها. لم تكن ترتعش بقدر ما كانت تهتز وكأن تحت جلدها محركًا، لكن نبضة وثبت في جانب فمها.

"هل بوسعنا أن نذهب الآن؟ هل سنغادر الـ ...؟"

قبل أن يجيب ناجا، كان إشفاق مير نائب قائد مركز الاستجواب المشترك القائم في سينما شيراز قد دخل الغرفة مسبوقًا برائحة عطره المستبدة. أنزل ناجا ذراعه عن كتف تِلُو وقد أحسَّ بذنب اقترافه جرمًا خياليًا. (وفي كشمير في تلك الأيام كان الفارق بين ما يصنع المجرمَ أو البريء كامنًا بالمطلق في عالم المجهول).

كان إشفاق مير قصيرًا قصرًا مذهلاً، وبادي القوة بصورة مذهلة، وأبيض على نحو مذهل حتى بالنسبة لأحد أبناء كشمير. أذناه وأنفه وردية فاقعة. ويوشك أن يصدر عنه إشعاع معدني. أنيق المظهر، ببنطاله الكاكي، وحذائه البني اللامع، ومشبك حزامه المعدني البراق، وجبهته المشعة اللامعة المصفف شعرها إلى الوراء مشبعًا بالدهان. كان يمكن أن يكون ألبانيًا، أو ضابط جيش شابًا من البلقان، لكنه لمّا تكلم كشف لسانه عن مالك عوامة من العالم القديم، تنضح لغته بإرث أجيال من فنون الاستضافة الكشميرية إذ يحيِّي زبونًا قديمًا.

"مرحبًا سيدي، مرحبًا بك. مرحبًا. لا بد أن أقول لك إنني أكبر معجب بك، يا سيدي. نحن بحاجة ماسة إلى شخصيات مثل حضرتك لتضع أشخاصًا مثلي على الطريق القويم". الابتسامة التي ارتسمت على وجهه الصبياني الطفل كانت ابتسامة دائمة. وعيناه الزرقاوان المندهشتان أضاءتا بما يشبه السعادة الحقيقية. صافح ناجا بكلتا يديه ومضى يهزّهما بمحبّة لوقت غير قليل قبل أن يأخذ مكانه وراء المكتب ويشير لناجا بالجلوس أمامه. "أنا آسف أن تأخرت قليلاً. كنت بالخارج طول الليل. فالمدينة فيها اضطرابات، لا بد أن تكون سمعت بها، مظاهرات وحرائق وقتل وجنائز. المعتاد عندنا في سري نجر. لم أرجع إلا الآن. طلب مني سيدي القائد أن أحضر وأسلّم السيدة شخصيًا".

برغم وصفه تِلُو بـ"السيدة"، فقد كان يتصرّف وكأنها غير موجودة. (فأتاح ذلك لتِلُو أن تتصرّف هي الأخرى وكأنها غير موجودة).

وحتى حينما كان يتكلم عنها لم ينظر إليها. ولم يكن واضحًا إن كان ذلك من ضروب الاحترام، أم الاحتقار، أم مجرد عادة محلية.

كثيرٌ مما شهدته تلك الغرفة في ذلك اليوم ليس واضحًا. فلعل أداء إشفاق مير كان مرتبًا بعناية، بما فيه من توقيت الدخول وطريقته، أو كان نوعًا من الارتجال القائم على الدربة. أما الأمر الوحيد الذي لم يكن فيه لبس فهو المغزى، وهو نبرة التهديد الباسم الخفية: سيتم تسليم "المدام" شخصيًّا، لكن ليس بوسع السيد أو المدام أن يغادرا قبل أن يقول إشفاق مير إن بوسعهما ذلك. برغم أنه أظهر نفسه بمظهر خادم متواضع يؤدي فقط مهمة موكلة إليه بكل ما أوتي من أدب. كان يترك انطباعًا بأنه لا يملك أدنى فكرة عمّا جرى، وما الذي كانت تفعله تِلُو في مركز الاستجواب المشترك أو لماذا ينبغي "تسليمها".

كان واضحًا من طبيعة هواء الغرفة (وكان يرتعش)، إن لم يكن واضحًا من أي شيء آخر، أن إثمًا قد اقتُرف، وإن لم يتضح ماذا يكون، ومن الآثم، ومن المأثوم في حقه.

ضرب إشفاق مير جرسًا وأمر بشاي وبسكويت دون أن يسأل ضيفيه إن كانا يرغبان فيهما. وفيما كانوا ينتظرون تقديمهما، تتبَّع نظرة ناجا إلى ملصق على الجدار:

نحن نتبع قواعدنا الخاصة

نحن الضواري

القتلة بكل سلاح
مروِّضو الأنهار
اللاعبون بالعواصف
نعم نحن ما تظن فينا
نحن العسكر.

"هذا شِعرنا الداخلي ..." ومال إشفاق مير برأسه إلى الوراء مقهقهًا.

الشاي هو الذي جعله ثرثارًا بتلك الطريقة، أو السيناريو المرسوم. لاهيًا عن قلق جمهوره (وهدوئه أيضًا)، أخذ يثرثر بأريحية عن أيامه في الكلية، وعن آرائه في السياسة، وعن وظيفته. قال إنه كان زعيمًا طلابيًّا، وشأن أكثر الشباب في جيله، كان مؤيدًا للانفصال متشددًا في تأييده. لكنه وقد عاش مجازر مطلع التسعينيات، وفقد قريبًا وخمسة من أقرب أصدقائه، أضاء عقله. وبات الآن مؤمنًا أن كشمير في نضالها من أجل الآزادي قد ضلَّت الطريق، وأنه لا سبيل إلى تحقيق شيء إلا من خلال "سيادة القانون". فانضم إلى شرطة جامّو وكشمير، وانتدب إلى مجموعة العمليات الخاصة. وفيما كان يمسك قطعة بسكويت في الهواء برقة بين سبابته وإبهامه، ألقى قصيدة لحبيب غالب[٣١] قال إنها خطرت له وحسب في اللحظة التي غيَّر فيها رأيه:

---

٣١ Habib Jalib (١٩٢٨-١٩٩٣) شاعر باكستاني وناشط سياسي يساري.

الرصاص أنتم بذرتموه لا الحب
ووطننا غسلتموه بالدم
وتحسبون أنكم ترسمون الطريق
وأومن أنكم ضالون عنه.

وبدون أن ينتظر ردَّ فعل، بدَّل بنبرته الحماسية أخرى تآمرية:

"وماذا بعد الآزادي؟ هل فكَّر أحد في هذا؟ ماذا ستفعل الأغلبية في الأقلية؟ لقد انتهى أمر براهمة كشمير بالفعل. لم يبق غيرنا نحن المسلمين. ماذا سنفعل في بعضنا بعضًا؟ ماذا سيفعل السلفيون في البريلوية؟[٣٢] ماذا سيفعل السنة في الشيعة؟ يقولون إنهم يضمنون الجنة إن قتلوا شيعيًا أكثر مما يضمنونها لو قتلوا هندوسيًا. ماذا سيكون مصير البوذيين في لاداخ؟ والهندوس في جامّو؟ جامّو وكشمير ليست كشمير وحسب. هي جامّو وهي كشمير، وهي لاداخ. هل فكَّر في هذا أي من دعاة الانفصال؟ بوسعي أن أقول لك إن الإجابة هي 'لا' كبيرة".

وافق ناجا إشفاق مير على ما قاله، وكان يعرف أن بذرة الشك في الذات هذه، قد غرستها إدارة استطاعت أن تشقَّ بمخالبها طريق رجوعها إلى السيطرة بعدما وصلت إلى حافة الفوضى التامة. كان الاستماع إلى إشفاق مير في حديثه ذلك أشبه بمشاهدة انقلاب الفصول أو نضج المحاصيل، ما جعل ناجا يستشعر في نفسه فورة عابرة،

٣٢ Barelvis فرقة إسلامية سنية حنفية المذهب ذات نزعة صوفية، أتباعها قرابة مئتي مليون مسلم في جنوب آسيا.

وإحساسًا يقينيًا أعمى بالمعرفة التامة. لكنه لم يشأ أن يفعل أي شيء من شأنه أن يطيل أمد اللقاء. فلم يقل شيئًا. وتقدم برقبته يريد أن يقرأ قائمة أسماء أخطر المطلوبين، وهم قرابة خمسة وعشرين شخصًا كُتبت أسماؤهم بالقلم العريض الأخضر على سبورة بيضاء مُعلَّقة وراء المكتب. وبجوار أكثر الأسماء كتبت كلمة (قُتل) (قُتل) (قُتل).

قال إشفاق مير دون أن يلتفت "كلهم باكستانيون وأفغان"، مركزًا عينيه على ناجا. "مدة صلاحيتهم لا تتجاوز ستة شهور. بنهاية السنة تكتمل تصفيتهم. لكننا لا نقتل الأولاد الكشميريين أبدًا. أبدًا. ما لم يكونوا من الغلاة".

كان الكذب السافر عالقًا في الهواء عيانًا بيانًا لا يعارضه أحد. وكانت الغاية منه، أن يختبر الرغبة في المعارضة.

ارتشف إشفاق مير من شايه، وبقي يحملق في ناجا بعينيه المندهشتين الثابتتين. وفجأة ـأو ربما ليس فجأة جدًاـ بدا أن فكرة خطرت له. "هل تحب أن ترى مقاتلاً؟ عندي واحد مصاب في الحجز. كشميري. هل أطلبه لكما؟"

وضرب الجرس مرة أخرى. وفي غضون ثوانٍ جاء رجل وسجَّل الـ"طلب" كأنه وجبة خفيفة إضافية طلبت مع الشاي.

ابتسم إشفاق مير ابتسامة عريضة لئيمة. "أرجو ألا تخبر رئيسي. وإلا فإنه سوف يوبخني. فهذا ممنوع. لكن حضرتك سوف تستمتع به، والمدام".

وفيما كان ينتظر الوجبة الإضافية بدأ ينظر في الأوراق الموضوعة على مكتبه، ويوقِّع على العديد منها، في حالة من النصر البهيج، وكان صوت احتكاك قلمه بالورق يتضاعف بسبب الصمت. نهضت تِلُو، وكانت تجلس على مقعد في آخر الغرفة، فسارت إلى الشباك المطل على موقف موحش مليء بالشاحنات العسكرية. لم تشأ أن تكون جمهورًا لاستعراض إشفاق مير. كان تضامنًا غريزيًا مع سجين ضد سجّانه، بغض النظر عن الأسباب التي جعلت السجين سجينًا والسجّان سجّانًا.

ومن شخص كان يحاول أن يحيل حضوره في الغرفة إلى غياب، بات قوامها غير الحاضر حراريًا، يشعّ بتيار استشعره الرجلان تمامًا، وإن بطريقتين مختلفتين كلَّ الاختلاف.

في غضون دقائق قليلة، دخل شرطي متين البنيان، حاملاً بين ذراعيه صبيًا هزيلاً. إحدى ساقي بنطلون الصبي كانت مشمرة، كاشفة عن ربلة نحيلة نحول عود ثقاب، مدعومة بجبيرة خشبية من الكاحل إلى الركبة. ذراعه كان موضوعًا في جبيرة جبسية ورقبته ملفوفة بضمادة. وبرغم أن وجهه كان ينضح بالألم، لم يتقلَّص وجه الصبي حينما طرحه الشرطي على الأرض.

كان رفض إظهار الألم عهدًا قطعه الصبي على نفسه. كان عصيانًا يائسًا انتزعه انتزاعًا من أنياب هزيمة مهينة. وفي ذلك كان سرُّ جلاله. لولا أن أحدًا لم ينتبه له. بقي في غاية السكون، طائرًا جريحًا، شبه جالس، شبه مستلقٍ، متكئًا على مرفق، ملهوف الأنفاس، محملق

النظرات إلى داخل نفسه، لا ينمُّ تعبير وجهه عن أيِّ شيء. لم يُبدِ فضولاً إلى شيء مما يحيط به أو إلى أحد ممّن في الغرفة.

وتِلُو، مديرة ظهرها للغرفة، في عصيان مماثل لعصيانه يأسًا وقلة حيلة، رفضت أن تبدي فضولاً تجاهه.

كسر إشفاق مير صمت اللوحة بمثل النبرة العاطفية التي سبق أن ألقى بها قصيدته. وكان ما قاله هذه المرة نوعًا من الإلقاء أيضًا:

"متوسط عمر المقاتل بين السابعة عشرة والعشرين. يتعرض لغسيل الدماغ، والتلقين، ثم يتسلَّم بندقية. يكونون في الغالب صبية فقراء من طبقات وضيعة. نعم، فلمعلوماتكما فقط حتى نحن ـالمسلمين ـ نمارس نظام الطبقات عن طيب خاطر. لا يعرفون ما يريدون. يستعملهم الباكستانيون استعمالاً في استنزاف الهند. ذلك ما يمكن أن نسميه بسياسة 'اثقب واستنزف'. هذا الولد اسمه إعجاز. اعتُقل في عملية ببستان تفاح قرب بولواما. يمكنك أن تتكلم معه. اسأله أي سؤال. لقد كان عضوًا في تنظيم جديد بدأ أعماله هنا أخيرًا. لشكر طيبة قائده أبو حمزة كان باكستانيًا. تمّت تصفيته".

صارت اللعبة مكشوفة لناجا. كانت أمامه صفقة معروضة عليه بالعملة الكشميرية. حوار مع مقاتل سجين ينتمي إلى تنظيم جديد نسبيًا، ودموي ـبحسب تقارير المخابرات التي اطلع عليها ـ في مقابل الصمت على أحداث الليلة، بكل ما جرى فيها لتِلُو وكلّ الأهوال التي قد تكون تعرضت لها.

سار إشفاق مير إلى فريسته وقال له بالكشميرية، وبنبرة قد تُستعمل مع شخص يعاني مصاعب في السمع.

"بي تشيوي ناجاراج هاريهان صاحب. وهو صحفي مشهور من الهند". (كان التحريض معديًا في كشمير، وفي بعض الأحيان كان ينتقل عن غير قصد إلى لغة الموالين أيضًا) "يكتب ضدنا علنًا. لكننا نحترمه ونعجب به. وهذا معنى الديمقراطية. ويومًا ما سوف تفهم جمال هذا الشيء". والتفت يخاطب ناجا، متنقلاً إلى الإنجليزية (التي يفهمها الولد وإن كان لا يتكلمها) "بوجوده معنا ومعرفته بنا معرفة جيدة، رأى هذا الولد خطأ ما كان عليه. وهو الآن يعتبرنا أسرته. لقد أنكر ماضيه وأنكر زملاءه، والذين لقّنوه قسرًا. وهو نفسه الذي طلب منا احتجازه سنتين ليأمن شرَّهم. مسموح لأبويه بزيارته. خلال أيام سوف يُنقل إلى السجن، إلى الحبس القضائي. أولاد كثيرون مثله معنا هنا، متأهبون للعمل معنا. يمكنك أن تتكلم معه، اسأله أي سؤال. لا مشكلة. سيتكلم".

لم يقل ناجا شيئًا. وتِلُو بقيت لدى الشباك. كان الجو باردًا بالخارج، لكن الهواء كان يفوح برائحة الديزل. شاهدت جنودًا يخفون امرأة شابة بين ذراعيها طفل عبر متاهة الشاحنات والجنود. بدا أن المرأة تقاوم الذهاب، فقد كانت كلَّ حين تستدير وتنظر إلى شيء. وضعها الجنود خارج بوابة شيراز الحديدية العالية، خلف السياج المعدني الملتف الحاد المحيط بمركز التعذيب فاصلاً إياه عن الطريق الرئيسي. بقيت المرأة

واقفة هناك حيثما وُضعت، جسدًا صغيرًا بائسًا مذعورًا، جزيرة صغيرة عند تقاطع طرق اللا شيء.

لوهلة بدا صمت الغرفة غريبًا.

"آه، فهمت.. تريد أن تتكلم معه على انفراد؟ هل أخرج؟ لا مشكلة في ذلك. يمكن بسهولة أن أخرج". ضرب إشفاق مير الجرس وقال لصف الضابط المندهش الذي استجاب للجرس "سأخرج. سنخرج وسنبقى في الغرفة الخارجية".

ولمّا أخرج نفسه من مكتبه أغلق الباب. التفتت تِلُو لفتة سريعة لتراه وهو يخرج. وعبر المسافة بين الباب والأرض رأت حذاءه البني يحجب النور. وفي غضون ثانية رجع ومعه رجل يحمل كرسيًا بلاستيكيًا أزرق وضعه في مواجهة الولد القابع على الأرض.

"تفضل بالجلوس يا سيدي. سوف يتكلم. لا داعي للقلق. لن يؤذيك. سأخرج الآن، تمام؟ يمكنك أن تتكلم على انفراد".

وخرج مغلقًا الباب وراءه. وعاد على الفور تقريبًا.

"نسيت أن أقول لك إن اسمه إعجاز. اسأله أي سؤال". ونظر إلى إعجاز وتغيّرت نبرته فكساها شيء من الحزم "أجب عن أي سؤال يُطرح عليك. لا بأس بالأردية. يمكنك أن تتكلم بالأردية".

قال الولد دون أن يرفع رأسه "جي يا سيدي".

"هو كشميري، وأنا كشميري. نحن أخوان، ولكن انظر إليه وانظر إليّ. تمام. سأخرج".

وخرج إشفاق مير مرة أخرى، ومرة أخرى تحرك حذاؤه خارج الباب.

سأل ناجا إعجاز "هل تريد أن تقول شيئًا؟" متجاهلاً الكرسي وجالسًا على الأرض أمام الولد. "لستَ مرغمًا على الكلام. فقط إن كنت تريد. سواء كلام ودي أو حديث للنشر".

بقي إعجاز يبادل ناجا نظرته لوهلة. كان عارُ وصفِه بالمرتد الآمن يفوق ما كان فيه من ألم بدني. كان يعرف من يكون ناجا. طبعًا لم يتعرّف على وجهه، لكن اسم ناجا كان شهيرًا في دوائر المقاتلين بوصفه صحفيًّا لا يهاب، ليس من المتعاطفين مع الجماعات بأي حال، لكنه شخص قد ينفع في بعض الأحيان، فهو عضو من "جناح حقوق الإنسان" كما يقول بعض المقاتلين على سبيل الدعابة في وصف الصحفيين الهنود ممن يتحرّون الإنصاف في ما يكتبون والضمير والمساواة بين تجاوزات قوات الأمن وتجاوزات المقاتلين. (وحتى ذلك الحين لم يكن تحوّل ناجا السياسي قد تكشّف عن النمط الواضح، ولا حتى لنفسه). كان إعجاز يعلم أن المتاح له لا يعدو لحظات قليلة ليقرّر فيها ماذا سيفعل. كان شأن حارس مرمى في انتظار ضربة جزاء، فعليه أن يلزم نفسه بمسار أو بآخر. ولمّا كان شابًا، فقد آثر الخيار الأخطر. بدأ يتكلم، بهدوء ووضوح، بأرديّة

ذات لكنة كشميرية. فكان التنافر بين مظهره وكلماته صادمًا، بقدر ما كانت كلماته نفسها صادمة.

"أنا أعرف من أنت يا سيدي. المناضلون، أولئك الذين يقاتلون من أجل حريتهم وكرامتهم، يعرفون ناجاراج هاريهاران صحفيًا أمينًا مستقيمًا. فلا بد أنك إذا كتبت عني ستكتب الحقيقة. وليست الحقيقة ما قاله، السيد إشفاق. لقد عذّبوني، صعقوني بالكهرباء، وجعلوني أوقّع على ورقة بيضاء. وذلك ما يفعلونه هنا مع الجميع. لا أعرف ما الذي كتبوه فيها بعد ذلك. لا أعرف ما الذي قالوه فيها على لساني. الحقيقة أنني لم أنكر أحدًا. الحقيقة أنني أجلُّ أولئك الذين درّبوني على الجهاد أكثر مما أجلُّ والديّ. فهم لم يرغموني على الانضمام إليهم. إنما أنا الذي ذهبت أبحث عنهم".

تلفّتت تِلُو حولها.

"كنت في الصف الثاني عشر في مدرسة حكومية في تانجمرج. واحتجت سنة كاملة كي يتم تجنيدي. فقد كانوا -أي جماعة لشكر- شديدي الارتياب فيّ، إذ لم يكن لي أي قريب تعرّض للقتل، أو التعذيب، أو الاختفاء. لم أفعلها إلا من أجل الآزادي والإسلام. مرَّ عام قبل أن يصدقوني، ويتحققوا من أمري، ويروا إن كنت عميلاً للجيش، أو إن كنت تاركًا ورائي أهلاً بلا عائل إن أصبحت مقاتلاً. فهم يراعون كثيرًا ...".

اندفع إلى الغرفة أربعة من الشرطة حاملين أطباق أومليت وخبز وكباب وحلقات بصل وشرائح جزر ومزيدًا من الشاي. وظهر من ورائهم إشفاق مير كأنه عربجي يسوق خيوله. غرف الطعام بنفسه في الأطباق، متمهلاً في توزيع الجزر على حواف كل طبق، ثم البصل في دائرة أضيق، كما لو كان يرسم تشكيلاً عسكريًا لا نفاذ له. وحلَّ الصمت على الغرفة. لم يكن يغرف في غير طبقين. عاد إعجاز يحملق في الأرض. وعادت تِلُو تطلُّ من الشباك. كانت شاحنات تدخل وأخرى تخرج، والمرأة ذات الطفل لم تزل واقفة في عرض الطريق، والسماء وردة تحترق، والجبال في البعيد خيالية الجمال، ومع ذلك كان ذلك العام عامًا رهيبًا آخر على السياحة.

"تفضلا، ها هو الطعام. هل تحبان الكباب؟ الآن أم بعد قليل؟ تفضلا، واصلا الكلام. لا مشكلة. تمام، أنا سأخرج". وللمرة الرابعة خلال عشر دقائق خرج إشفاق مير من الغرفة ووقف على بابها.

كان ناجا سعيدًا بما قاله إعجاز له ومبتهجًا أنه قيل في حضرة تِلُو. فلم يقاوم فكرة أداء استعراض صغير.

سأل ناجا إعجاز بمجرد أن اطمأن إلى أن إشفاق مير قد ابتعد عن مدى السمع "هل عبرت الحدود؟ هل تدرَّبت في باكستان؟".

"لا، تدرَّبت هنا. في كشمير. عندنا الآن كل شيء هنا. التدريب، والسلاح... نشتري ذخيرتنا من الجيش. الرصاصة بعشرين روبية، وبتسعمئة روبية نشتري الـ ..."

"من الجيش؟"

"نعم، هم لا يريدون أن ينتهي القتال. لا يريدون أن يتركوا كشمير. هم سعداء تمامًا بالوضع كما هو. فالجميع من كل الأطراف يحققون أموالاً على حساب جثث شباب كشمير. كثير مما ينفجر من القنابل أو يقع من المجازر يحدث على أيديهم".

"أنت كشميري، لماذا اخترت لشكر ولم تختر الحزب أو ج ت ج ك، جبهة تحرير جامّو وكشمير؟"

"لأنه حتى الحزب لديه بعض الاحترام لقيادات سياسية معينة في كشمير. أما نحن في لشكر فلا نحترم أحدًا من هؤلاء القادة. أنا لا أحترم أي قائد. كلهم خدعونا وخانونا. تولوا مناصبهم السياسية على جثث الكشميريين. وليست لديهم خطة. أنا انضممت إلى لشكر لأنني أردت الموت. كان ينبغي أن أموت. لم أفكر لحظة أن يقبضوا عليّ حيًّا".

"لكنك أولاً، قبل موتك يعني، أردت أن تقتل ...؟"

نظر إعجاز في عيني ناجا.

"نعم. أردت أن أقتل قتلة شعبي. هل هذا خطأ؟ يمكنك أن تكتب ذلك".

اندفع إشفاق مير داخلاً، عريض الابتسامة، عابس العينين، منقّلاً إياهما من شخص إلى آخر، محاولاً أن يقيّم ما الذي قيل بينهما.

"كفى؟ تمام؟ هل تعاون؟ أرجو قبل النشر أن تراجع معي مشكورًا أي معلومة حصلت عليها. هذا إرهابي في نهاية المطاف. أخي الإرهابي".

ومرة أخرى قهقه سعيدًا وضرب الجرس. رجع الشرطي الضخم، فلملم إعجاز بين ذراعيه، وحمله خارجًا.

وما كاد الطعام يُحمل على صينيته الضخمة، حتى حصل ناجا وتِلُو على تصريح مبهج (وصامت) بالمغادرة. بقي الطعام في الأطباق لم يمسه أيٌّ منهما، تشكيلاً عسكريًا غير مخترق.

في طريقهما إلى أدهوس، وفيما كانا جالسين في المقعد الخلفي التابوتي داخل الجيبسي المدرعة، كان ناجا يمسك يد تِلُو، وتِلُو تمسك يده. كان يعي تمامًا الظروف التي سمحت بتبادل هذا الحنان المؤقت. كان يستشعر الرعدة، يستشعر هدير المحرك من وراء جلدها. ومع ذلك، كان إمساكه يدي تلك المرأة، من بين نساء العالم كله، يبعث في نفسه سعادة لا توصف.

كانت رائحة الجيب طاغية، مزيجًا عفنًا من البارود المعدني اللاذع، وزيت الشعر، والخوف، والغدر. فركابها المعتادون هم الوشاة المقنّعون المعروفون بـ"القطط". في عمليات التطويق والتفتيش، كان البالغون من الرجال في الأحياء المحاصرة يُجمعون ويُعرضون على جيبسي مدرعة باتت رمزًا للهلع حاضرًا في كل بقعة من وادي كشمير. ومن أعماق قفصه المعدني، يومئ القط المختبئ، أو يغمز، فيؤخذ رجل من الصف

إلى حيث يعذب، أو "يختفي" أو يموت. وطبعًا كان ناجا يعلم ذلك كله، ولم يقلّل مطلقًا من سكينته.

كانت المدينة النكدة مستيقظة مفيقة لكنها تدَّعي النوم. فالشوارع خاوية، والأسواق مغلقة، والمحلات موصدة، والبيوت منكفئة على أنفسها، وكلها يمرق بشبابيك الجيب الضيقة - "شبابيك الموت" كما كان يسميها أبناء البلد، إذ لم يكن يختلس النظر منها غير فوهات بنادق الجنود أو أعين الوشاة. بدت قطعان كلاب الشوارع تمشي كأنها دببة صغيرة تحت فراءاتها الثقيلة ترقُّبًا للشتاء الموشك. وباستثناء الجنود المتوترين المتأهبين، لم تكن العين تقع على أي بشري. بحلول الضحى ينتهي حظر التجوال، وينسحب الأمن ليتيح للناس أن يستردوا مدينتهم لسويعات قليلة، فيندفعون من بيوتهم، بمئات الآلاف، قاصدين المقابر، غير مدركين أن وابل حزنهم وغضبهم قد بات هو نفسه جزءاً من خطة الإدارة العسكرية الاستراتيجية.

انتظر ناجا أن تقول تِلُو أي شيء. فلم تقل. ولمّا حاول أن يبدأ حوارًا قالت "من فضلك، هل بوسعنا... هل يمكن... ألا نتكلم؟"

"جارسون قال إنهم قتلوا رجلاً، القائد جُلريز، يظنون، ولا أعرف من الذين يظنون... جارسون يظن... أو ربما هم أخبروه أنه موسى. فهل كان هو؟ هذا فقط. قولي لي هذا فقط".

للحظة لم تقل شيئًا. ثم التفتت ونظرت إليه مباشرة. وكانت عيناها زجاجًا مهشمًا.

"كان مستحيلاً أن أعرف".

كان ناجا قد رأى -وهو يغطي صراع البنجاب- ما يكفيه ليعرف كيف يكون حال الجثث حينما تخرج من مراكز الاستجواب. فاعتبر ما قالته تِلُو تأكيدًا لشكوكه. كان يفهم أن تِلُو ستحتاج وقتًا كي تتجاوز ما مرّت به. وكان مهيَّئًا للانتظار. كان يرى أنه يعرف ما يكفي -أو على الأقل أنه كان يعرف ما ينبغي أن يعرفه- عما جرى. وغفر لنفسه أن ذلك الكرب الذي ابتليت به تِلُو كان بالنسبة له مصدر رضا عظيم.

لم تكن إجابة تِلُو عن سؤال ناجا كذبة واضحة. لكن من المؤكد أنها لم تكن الحقيقة. الحقيقة هي أنه كان مستحيلاً أن تعرف لمن الجثة التي رأتها -في ضوء الحالة التي رأتها عليها- لو كانت لا تعرفها. لكنها كانت تعرف لمن الجثة. كانت تعرف يقينًا أنها لم تكن جثة موسى.

بهذه اللا حقيقة، أو نصف الحقيقة، أو عشر الحقيقة (أو مهما تكن نتفة الحقيقة في الإجابة)، أُنزلت الحواجز وأُغلقت حدود البلد الذي ما له من قنصليات. واعتبرت واقعة شيراز قضية مغلقة.

عندما رجعا إلى دلهي، ولما كانت تِلُو في حالة لا تسمح بتركها وشأنها في "مخزن" نظام الدين باستي على حد تعبير ناجا، فقد دعاها إلى الإقامة لبعض الوقت في شقته الصغيرة المقامة على سطح منزل أبويه. ولمّا رأى "قَصة" شعرها قال لها إنها تناسبها فعلاً، وإن من فعل ذلك، أيًا كان، لا بد أن يعمل مصفف شعر. وذلك جعلها تبتسم.

بعد أسابيع قليلة طلب يدها للزواج. وأبهجته حينما قبلت. وبسرعة شديدة، إمعانًا في حزن أبويه، أقيمت مثلما يقولون الأفراح والليالي الملاح. تزوجا يوم الكريسماس سنة ١٩٩٦.

لو أن تِلُو كانت تبحث عن غطاء، لما وجدت أفضل من الزواج بابن السفير شيفاشنكار هاريهاران، وتغيير عنوانها إلى الحي الدبلوماسي.

بقيت على تلك الحياة أربعة عشر عامًا، وفجأة، لم تعد تحتمل. وكان لذلك بعض التفسيرات، ولكن الأهم بينها هو الإنهاك. تعبت من عيشها حياة لم تكن حياتها، في عنوان لم يكن ينبغي أن تكون فيه. والغريب أنها عندما بدأت الاندفاع كانت أكثر غرامًا بناجا منها به في أي وقت سابق. كانت هي السبب في ما شعرت به من إنهاك. كانت قد فقدت المقدرة على الفصل بين العوالم المنفصلة، تلك المهارة التي يعتبرها الكثيرون حجر الزاوية الفارق بين العقل والجنون. بدا أن المرور بداخل عقلها قد توقّف عن الإيمان بإشارات المرور. فكانت النتيجة ضوضاء لا تتوقف، وقليلاً من الاصطدامات، وأخيرًا، انحباسًا مروريًا تامًا.

الآن يرجع ناجا النظر فيرى أنه على مدار سنين لم يكن يعيش إلا مع الخوف الباطن من أن تِلُو عابرة في حياته وليس أكثر، عبور ناقة في صحراء. وأنها حتمًا هاجرة إياه في يوم من الأيام.

فلمّا حدث ذلك حقًا، كان لا بد من مرور وقت حتى يصدق أنه حدث.

صديقه القديم راء شين الذي كان يصرّ دائمًا أن العمل في مكتب المخابرات والاطلاع على التحقيقات يعطي المرء فهمًا لا نظير له للطبيعة الإنسانية، فهو أعمق مما يحلم بالحصول عليه أي واعظ أو شاعر أو محلّل نفسي، أمسك يده وقال:

"اعذرني في ما أقول، لكن ما نحتاج إليه في الحقيقة هو صفعة محترمة أو صفعتان. أسلوب حضرتك الحديث هذا لا يصلح طول الوقت. في نهاية المطاف يا محترم نحن جميعًا حيوانات. ونحتاج دائمًا من يبيّن لنا الميم كاف ألف نون الذي نحن فيه. قليل من الوضوح سوف يكون فيه نفع كبير لجميع الأطراف المعنية. ستسدي لها معروفًا وستمتنُّ له يومًا ما. صدقني، أنا أتحدث من واقع تجربة". كان راء شين يخفض صوته كثيرًا في منتصف الجملة ويتهجّى كلمات عشوائية كأنما يخدع بذلك متنصتًا خياليًا لا يجيد الهجاء. وكان دائم الإشارة إلى الناس بـ"الأطراف". و"في نهاية المطاف" كانت منطلقه الأثير لإسداء النصح أو إبراز الحكم، كما كان يعمد كلما أراد التصغير من شأن أحد إلى قوله "ومع كامل الاحترام الواجب".

لامَ راء شين ناجا على سماحه لتِلُو بعدم الإنجاب. قال إن العيال كانوا كفيلين بتقييدها في الزواج تقييدًا لا يقدر عليه غيرهم. كان رجلاً ضئيلاً ناعمًا مخنثًا ذا شارب اختلط بياضه بسواده. وكانت له زوجة

ضئيلة ناعمة، وابنة مراهقة ناعمة تدرس الأحياء الجزيئية. كانوا أشبه بأسرة من الدمى الضئيلة الناعمة. فأثار صدور ذلك الصوت الذكوري عنه هو بالذات دهشة عارمة لناجا الذي كان يعرفه منذ سنين. استسلم ناجا للتفكير في طبيعة الصفعات المحترمة المتواترة التي أبقت السيدة راء شين في مكانها. كانت في الظاهر تبدو مطمئنة راضية كل الرضا بنصيبها، بيتها المليء بالتذكارات ومجموعة حليها عديمة الذوق بعض الشيء وشيلانها الكشميرية الثمينة. لم يستطع أن يتصوَّر أن تكون في حقيقتها بركانًا خامدًا من الغضبات التي استوجبت التأديب بالصفع بين الحين والآخر.

أسمع راء شين المغرم بالبلوز أغنية لناجا. أغنية لبيلي هوليداي، أغنية "ما من رجل طيب".

أنا التي ألقى منه
كلَّ سوء.
أنا التي يجب أن تبغضه
ومع ذلك أحبه
لأنني أبحث عن هذا
عن حب من نار.

كان راء شين يسمع "التي يجب أن تبغضه" خطأ فيظنها "أنا التي يجب أن تُضرَب".

قال "النساء. كل النساء. بلا استثناء. فاهم؟"

تِلُو كانت تذكّر ناجا دائمًا ببيلي هوليداي. ليس بها كامرأة، بل كصوت. فلو كان لإنسان أن يستدعي صوتًا، فبالنسبة لناجا، كانت تِلُو تستدعي صوت بيلي هوليداي. كان فيها هذه الرخاوة، القاتلة، اللعينة، المفاجئة دائمًا. ولم يكن راء شين يعلم ما الذي فعله حينما استعمل بيلي هوليداي بالذات ليؤكد رأيه.

ذات صباح، ضرب ناجا زوجته، وناجا برغم جميع أخطائه كان أرقَّ الرجال بدنيًا. ولم يكن ضربه مقنعًا تمامًا، مثلما أدرك الاثنان. لكنه ضربها. ثم احتضنها وبكى. "لا تذهبي. من فضلك لا تذهبي".

في ذلك اليوم وقفت تِلُو عند البوابة تشاهده وسيارة العمل تمضي به، يسوقها سائق العمل. لم ترَ أنه ظلّ يبكي في المقعد الخلفي طوال الطريق. لم يكن ناجا بالرجل الذي يبكي. (ولما ظهر ضيفًا في برنامج حواري تليفزيوني رئيسي تناول الأمن الوطني في وقت لاحق من تلك الليلة لم يبدِ أي بادرة تدل على محنة شخصية. كان حادًا سريع البديهة مع امرأة حقوق الإنسان التي قالت إن الهند الجديدة تنحدر إلى الفاشية. أثار ردُّ ناجا الوجيز ضحكًا مكتومًا من جمهور الاستديو المنتقى بعناية من الطلبة متأنقي الملبس وشباب الموظفين الطموحين. وكان في الحلقة ضيف آخر، هو جنرال هرم متقاعد من الجيش، مزدحم بالشوارب والأوسمة، دائم الظهور في الاستديوهات التليفزيونية والتردد عليها لبث

السموم والغباءات في جميع النقاشات المتعلقة بالأمن الوطني، فضحك وصفق).

ركبت تِلُو أتوبيسًا إلى حافة المدينة. سارت عبر أميال من قمامة المدينة، أراض تتألق بأكياس محكمة الامتلاء حولها جيش من الأطفال المهلهلين ينقبون فيها. والسماء دوامة معتمة من الغربان والحدآت المتنافسة مع الأطفال والخنازير وقطعان الكلاب على الفضلات. وفي البعيد كانت شاحنات القمامة تشقُّ طريقها ببطء عبر جبل القمامة، بينما تكشف التلال المنهارة أو شبه المنهارة أعماق ما تراكم في كل اتجاه.

ركبت أتوبيسًا آخر إلى ضفة النهر. توقفت فوق جسر ومضت تشاهد رجلاً يجدِّف بطوف دائري مصنوع من زجاجات مياه معدنية قديمة وجراكن بلاستيكية عبر النهر البطيء السميك الوسخ. بينما الجاموس يغطس منعَّمًا بالماء الأسود. وعلى الرصيف كان الباعة الجائلون يبيعون الليمون الممتلئ والخيار الأخضر الأملس مما ينبت في مخلفات المصانع.

قضت ساعة في أتوبيس ثالث نزلت منه عند حديقة الحيوان. لوقت طويل ظلت تشاهد قرد بورنيو الصغير في قفصه الواسع الخاوي، نقطة مكسوة بالفراء تعانق شجرة عالية وكأن حياتها مُعلَّقة بها. كانت الأرض أسفل الشجرة متسخة بأشياء رماها الزوار عليه ليلفتوا انتباهه إليهم. كانت سلة قمامة أسمنتية على شكل قرد مُعلَّقة خارج قفص القرد، وسلة قمامة على شكل فرس النهر مُعلَّقة خارج قفص فرس

النهر. فكان فم الفرس الأسمنتي مفتوحًا ومحشوًا بالقمامة. بينما كان الفرس الحقيقي يتمرَّغ في بركة عكرة، بمؤخرته الضخمة الزلقة في لون إطار سيارة مبلول، وعينيه الضيقتين في محجريها الورديين المتفخين ترقبان من فوق سطح الماء وقد طفت من حوله زجاجات بلاستيكية وعلب سجائر خاوية. انحنى رجل على ابنته الصغيرة ذات العباءة اللامعة والعينين الملطختين بالكحل. أشار إلى فرس النهر قائلاً "تمساح". فقالت ابنته بطعامة "تمساح.. تمساح". كانت ثلة من الشباب الصاخب تكسر أمواسًا على القفص المسيج وعلى الضفاف الأسمنتية لبركة فرس النهر. فلما نفد ما معهم من أمواس طلبوا من تِلُو أن تلتقط لهم صورة. ضبط أحدهم الصورة، وكان يرتدي خواتم في جميع أصابعه ويلفُّ حول معصميه خيوطًا باهتة الألوان، وأعطى هاتفه لتِلُو ثم جرى راجعًا إلى الإطار، فوضع ذراعيه على أكتاف أصدقائه ورفع يده بعلامة النصر. وحينما أرجعت تِلُو الهاتف هنَّأتهم على ما لديهم من شجاعة تجعلهم يطعمون الأمواس لفرس نهر محبوس. مضى وقت قبل أن يفهموا الإهانة. ولما فهموها، تبعوها في الحديقة ساخرين منها على طريقة دلهي "مدام حبشية"، "هاي، مدام زنجية". ولم تكن سخريتهم منها بسبب غرابة لون بشرتها في الهند، بل لأنهم رأوا في مشيتها وأسلوبها في التعامل مجرد حبشية علا مقامها. حبشية واضح أنها ليست خادمة أو أجيرة.

كانت في كل قفص ببيت الثعابين أصلة صخرية هندية. ثعابين زائفة. وبقر في قفص الوعول. غزلان زائفة. وكان ثمة عاملات بناء يحملن

أجولة الأسمنت في قفص النمر السيبيري. نمر سيبيري زائف. ومعظم طيور قفص الطيور من أنواع يمكنك أن تراها في الشارع ببساطة. طيور زائفة. وفي قفص الببغاء ذي العرف الكبريتي تسلل أحد الشباب بجوار تِلُو وغنى للببغاء، جاعلاً كلماته على لحن أغنية بوليودية شائعة:

العالم سوف ينتهي
والنكاح لن ينتهي

كان المقصود أن تكون الإهانة مضاعفة، لأن تِلُو كانت تبلغ من العمر ضعف عمره تقريبًا.

خارج قفص البجع الوردي تلقّت رسالة نصية على هاتفها:

أورجانيك هومز في ٢٤ إن إتش غازيباد
غرفة. صالة. مطبخ ١٥٠٠٠٠
غرفتان. صالة. مطبخ ١٨٠٠٠٠
غرفة. صالة. مطبخ ٣١٠٠٠٠
يبدأ الحجز بـ٣٥٠٠٠ روبية
للتخفيض اتصل بـ ٩١١٠٣٩٥٧٩٨

كان فهد جاجوار نيكاراجوا الهرم المغبر يريح ذقنه على صخرة متربة في قفصه. وبقي على ذلك، دونما أدنى مبالاة بأي شيء، طوال ساعات، أو ربما سنين.

كانت تِلُو تشعر بمثل شعوره. أنها متربة، هرمة، ولا مبالية تمامًا.

لعلها إياه.

وربما في يوم من الأيام يطلقون اسمها على سيارة مدينية باهظة الثمن.

*

لم تحمل الكثير معها عندما رحلت. في أول الأمر لم يكن واضحًا لناجا، بل ولم يكن واضحًا لها شخصيًا، أنها راحلة. قالت له إنها استأجرت مكتبًا، ولم تقل في أي مكان. (جارسون هوبارت أيضًا لم يخبره). ولشهور قليلة ظلّت تذهب وترجع. وبمرور الوقت أصبحت تذهب أكثر مما ترجع، ثم توقفت تدريجيًا عن الرجوع إلى البيت.

بدأ ناجا حياته الجديدة كرجل غير متزوج بالانغماس في العمل وفي سلسلة من العلاقات الكئيبة. كان ظهوره الكثيف في التليفزيون قد جعل منه ما تسميه المجلات والجرائد بـ"المشهور"، وهي صفة بدا أن الناس باتت تحسبها مهنة في ذاتها. ففي المطاعم والمطارات كان الناس يتقدمون طالبين منه التوقيع في الأوتوجرافات، برغم أن كثيرين منهم كانوا يفعلون ذلك وهم غير متأكدين من شخصيته، أو مما يفعله على وجه التحديد، أو سرّ إحساسهم بأنه شخص مألوف. وخلافًا لكثير من الرجال في عمره، كان لا يزال نحيلاً، ورأسه لم يزل ممتلئًا بالشعر. واعتباره "ناجحًا" كان يتيح له انتقاء النساء من نطاق واسع، فمنهنّ من

كنّ عازبات يصغرنه كثيرًا، ومنهنّ من يماثلنه في السنّ أو يكبرنه، منهنّ المتزوجات الباحثات عن التنوع، أو المطلقات الباحثات عن فرصة ثانية. وكانت أقربهنّ إلى النجاح أرملة نحيلة أنيقة في أواسط الثلاثينيات ذات بشرة حليبية وشعر مصقول ـتنحدر من إمارة صغيرة ونبالة بسيطةـ كانت أمُّ ناجا ترى فيها نفسها في شبابها، وتشتهيها أكثر مما يشتهيها ابنها. فدعت السيدة والأمير تشارلز ـوالأخير هو كلبها التشيهواهواـ للإقامة في الطابق السفليّ ضيفة على المنزل، بحيث يمكنهما أن يشتركا في التدبير للظفر بالقمّة.

بعد مضي شهور قليلة على علاقتهما، بدأت الأميرة تنادي ناجا بـ جان، أي حبيبي. وعلّمت خدم البيت أن ينادوها بـ باي سا وفقًا لتقاليد عائلة راجبوت الملكية. وكانت تطبخ لناجا طعامًا وفق وصفات عائلية سريّة مستمدّة من مطبخ أسرتها. أمرت بشراء ستائر جديدة، وحشايا مزخرفة، وأبسطة جديدة. وأضفت لمسة أنثوية مشرقة لطيفة على الشقة التي كان واضحًا عليها الإهمال. كان اهتمامها بلسمًا داوى كبرياء ناجا الجريح. وبرغم أنه لم يبادلها مشاعرها بمثل قوتها التي يلقاها منها، فقد قبل تلك المشاعر بامتنان وإنهاك. كان قد نسي تقريبًا إحساس أن يكون هو المعشوق لا العاشق. وبرغم تحيزه العام ضد الكلاب الصغيرة، وقع في غرام الأمير تشارلز وبات مولعًا به. صار يصطحبه إلى حديقة الحي بانتظام، فيرمي له هناك طبقًا بلاستيكيًا صغيرًا اشتراه من خلال الإنترنت. ويرجع الأمير تشارلز بالطبق البلاستيكي متواثبًا إلى ناجا على العشب الذي كان في مثل طوله تقريبًا. ولعبت الأميرة دور المضيفة في بضع

حفلات عشاء أقامها ناجا وافتتن خلالها راء شين بالأميرة، وألحّ على ناجا ألا يضيع الوقت ويتزوجها وهي لا تزال في عمر يسمح لها بالإنجاب.

كان ناجا لم يزل مصدومًا وضعيفًا أمام نصيحة راء شين الكارثية، فسأل الأميرة إن كانت تود أن تنتقل للإقامة في بيته على سبيل التجربة. فمدّت يدها، وبرقة أخذت تصفف حاجبيه الأشعثين، جامعة شعرهما بين سبابتها وإبهامها. قالت إنه ما من شيء يسعدها أكثر من ذلك، لكن عليها قبل ذلك أن تطلق من البيت تشي تِلُو التي لم تزل عالقة فيه. وبإذن من ناجا جفّفت قرون فلفل أحمر وحملت المبخرة النحاسية من غرفة إلى غرفة والدخان يتصاعد منها، وهي تسمل سمالاً رقيقًا وتدير رأسها بشعره المصقول بعيدًا عن الدخان اللاذع مغمضة عينيها بقوة. ولمّا توقف الدخان عن الانبعاث من الفلفل تلت صلاة ودفنته هو والمبخرة في الحديقة. ثم ربطت حول معصم ناجا خيطًا أحمر وأشعلت شموعا عطرية ثمينة، جاعلة في كلّ غرفة واحدة منها، وتركتها تحترق حتى النهاية. واشترت لناجا نحو عشرة صناديق ورقية كبيرة ليلملم فيها أغراض تِلُو وينقلها إلى الطابق تحت الأرضي. وكان أن صادف ناجا وهو ينظف دولاب تِلُو (الذي كان يفوح برائحتها بمنتهى قلة الحياء) الملفّ الطبيّ الضخم الخاص بأمّ تِلُو من مستشفى ليكفيو في كونتشين.

على مدار سنوات زواجه بتِلُو، لم يلتق ناجا قطّ بأمّها. ولا تِلُو تكلمت عنها. طبعًا كان ملمًّا بالخطوط العريضة، فيعرف أن اسمها مريم

إبي، وأنها تنتمي إلى أسرة تنتمي إلى المسيحية السورية، وهي أسرة أرستقراطية قديمة جار عليها الزمن، وأن جيلين من الأسرة -جيل أبيها وجيل أخويها- قد تخرّجا في أكسفورد، وهي نفسها تعلمت في مدرسة راهبات في أوتاكاموند، وهي بلدة على تلّ في نيلجريس، ثم في كلية مسيحية في مَدراس، ثم أرغمها مرض أبيها بعد ذلك على الرجوع إلى بلدتها في كيراله. كان ناجا يعرف أنها عملت مدرسة للغة الإنجليزية في مدرسة محلية قبل أن تؤسِّس مدرستها الخاصة التي تنامت وحقّقت نجاحًا ساحقًا واشتهرت كمدرسة ثانوية لها مناهجها الدراسية المبتكرة، وهي المدرسة التي التحقت بها تِلُو قبل أن تلتحق بالكلية في دلهي. كان قد قرأ مقالات قليلة في الصحف عن أم تِلُو، لم تذكر فيها تِلُو مطلقًا بالاسم، بل أشير إليها دائمًا باعتبارها ابنة بالتبنّي تعيش في دلهي. ومرة أعدّ راء شين (الذي يمتهن معرفة كلّ شيء عن كلّ شخص وتعريف كلّ شخص أنه يعرف كلّ شيء عن كلّ شخص) ملفّ قصاصات صحفية لناجا وقدّمه إليه قائلاً إن "حماتك بالتبنّي امرأة لطيفة يا عم". كانت المقالات تستعرض سنوات عديدة، فبعضها عن المدرسة، ومناهجها التعليمية، ومبناها الجميل، وبعضها عن الحملات الاجتماعية والبيئية التي تزعمتها أو الجوائز التي حصلت عليها. كانت المقالة تحكي حكاية امرأة تغلّبت على شدائد كبيرة واجهتها في فجر حياتها لتصبح ما أصبحت إياه، أي أيقونة نسوية لم تنتقل قط إلى مدينة كبيرة، بل آثرت الطريق الشاقّ وواصلت حياتها وخوض معاركها في البلدة الصغيرة المحافظة التي تنتمي إليها. وصفت المقالات مقاومتها رجعية الرجال

وتنمّرهم، وكيف حظيت في النهاية باحترام من عذّبوها وإعجابهم وكيف أنها ألهمت جيلاً كاملاً من الشابات أن يقتدين بها ويصررن على أحلامهن ورغباتهن.

كان واضحًا لكل من عرف تِلُو أنها لم تكن ابنة بالتبني للمرأة التي تظهر في الصور المصاحبة لتلك المقالات. فبرغم أن بشرتيهما كانتا مذهلتي الاختلاف، كانت قسماتهما صاعقتي التماثل.

ومن القليل الذي عرفه ناجا، كان يستشعر أن جزءًا جوهريًا من اللغز مفقود وغائب عن تلك المقالات، جزء من جنون ماكوندو الملحمي، جزء له علاقة بالأدب لا بالصحافة. وبرغم أنه لم يقل ذلك قط، كان يشعر أن موقف تِلُو من أمها موقف عقابي منافٍ للمنطق. ففي رأيه أنه حتى لو صحَّ أن تِلُو هي ابنتها الحقيقية التي لم تعترف بها علنًا، فقد كان صحيحًا بالقدر نفسه أن اختيار امرأة شابة -تنتمي إلى مجتمع تقليدي- حياة الاستقلال، وعدم الزواج، وتبنِّي طفلة أنجبتها بغير زواج -حتى وإن جعلت ذلك من وراء ستار الإحسان والتنكّر كأم للتبني- كان عملاً يقتضي شجاعة ومحبة هائلتين.

لاحظ ناجا في جميع المقالات أن الفقرة الخاصة بتِلُو ثابتة كلّ مرة: "اتصلت بي الأخت الراهبة شولاستيكا لتقول إن امرأة من عاملات الترحيلة تركت رضيعة في سبت خارج ملجأ جبل الكرمل، وسألتني إن كنت أريدها. استماتت أسرتي في رفضها، لكنني فكرت أنني قادرة إن تبنَّيتها أن أمنحها حياة جديدة. كانت طفلة سوداء كقطعة من الفحم.

وكانت ضئيلة لا تكاد تتجاوز راحتيّ فسمّيتها تِلوتما، وتعني "سمسمة" بالسنسكريتية".

برغم ما في ذلك من إيذاء لمشاعر تِلُو، كان ناجا يرى أنها ينبغي أن تنظر إلى الأمر من موضع أمها، كان عليها أن تبتعد عن ابنتها لتستطيع أن تربّيها، وتحتضنها، وتحبّها.

في رأي ناجا أن الفضل في شخصية تِلُو، في غرابتها واستثنائيتها ـ سواء أكنت من القائلين بالفطرة أم من القائلين بالاكتساب ـ يرجع مباشرة إلى أمّها. ولكن ما كان لشيء يقوله ـ مباشرة أم مواربة ـ أن يسفر عن تقارب بينهما.

لذلك اندهش ناجا بعد كل تلك السنين من بعد تِلُو عن أمها إذ رآها توافق فورًا على الذهاب إلى كوتشين لرعايتها في المستشفى. تخيّل أنها فعلت ذلك على أمل أن تحصل على معلومات، أو أن يُكشف لها من فراش الموت عن سرٍّ يتعلّق بها أو بحقيقة أبيها (برغم أنه لم يتذكر قط أن تِلُو أظهرت فضولاً تجاه شيء من ذلك). وكان على حق. لولا أنه تبيّن أن الوقت تأخر قليلاً على مثل ذلك.

*

لمّا وصلت تِلُو إلى كوتشين، كانت رئتا أمها المتدهورتان قد تسبّبتا في تكوين ثاني أكسيد الكربون في دمها، فتسبّب ذلك بدوره في التهاب بالمخ، فأصبحت شديدة التشوّش. فضلاً عن أن العلاج وطول الإقامة

في الرعاية المركزة تسبّبا في نوع من الاضطراب الذهني قال الأطباء إنه معهود بصفة خاصة لدى أقوياء الإرادة إذ يجدون أنفسهم بغتة عديمي الحيلة واقعين تحت رحمة أشخاص كانوا في ما سبق يعدونهم من جملة الخدم. فعلاوة على الفريق الطبي، انصبَّ غضبها وحيرتها على خدمها القدامى المخلصين ومعلمي مدرستها الذين تناوبوا على مرافقتها في المستشفى. كانوا يحومون في أرجاء طرقات المستشفى وكان يسمح لهم بزيارة محبوبتهم في وحدة العناية المركزة لبضع دقائق كل ساعتين.

يوم وصول تِلُو، أشرق وجه أمها.

قالت على سبيل التحية "أنا أهرش طيلة الوقت، وهو يقول إن الهرش مقبول، لكنني لا أحتمله، لذلك أتناول دواء الهرش، كيف حالك؟"

رفعت ذراعيها الورديين الداكنين، وكان أحدهما متصلاً بكيس محلول، لتري تِلُو ما جرى لبشرتها من كثرة الضرب والوخز بالإبر في ثنايا بحث الأطباء بلا نهاية عن أوردة لا تزال مفتوحة. كانت أغلب عروقها قد انهارت وانسدّت وصارت شبكة وردية أشد دكنة أسفل بشرتها الوردية أصلاً.

"ويشقّ بعدئذ كُمَّيه ويكشف ندوبه ويقول 'هذه جراح أصبت بها في يوم كريسبين'. فاكرة؟ درّستها لك"[٣٣].

٣٣ من مسرحية هنري الرابع لوليم شكسبير.

"فاكرة".

"ما البيت التالي؟"

"الكبار ينسون. غير أن كلّ شيء مصيره النسيان. أما هو فسوف يتذكر مآثره في ذلك اليوم".

لم تكن تِلُو تدرك أنها لم تزل تتذكّر. فلم يكن شكسبير يعاودها معاودة مآثر الذكرى، بل معاودة الموسيقى، كأنه نغمة قديمة تنتعش في الذاكرة. راعتها حالة أمها، لكن الأطباء فرحوا وقالوا إن مجرّد تعرف أمها عليها تحسُّنٌ كبير. في ذلك اليوم نقلوها إلى غرفة خاصة لها شباك مطل على البحيرة المالحة وشجر جوز الهند المائل عليها والعواصف الموسمية التي هبّت هناك.

لم يدُمْ التحسن. في الأيام التالية أخذت تتناوب على العجوز حالات من الإشراق والإعتام فلم تكن تتعرّف طوال الوقت على تِلُو. صار كل يوم فصلاً جديدًا لا يمكن التنبؤ بأحداثه في المسار الذي يسلكه مرضها. أصبحت لها سمات جديدة وباتت تسيطر عليها هواجس غير منطقية. وكان الفريق الطبي بأطبائه وممرضاته بل وممن ينضم إليهم من المرافقين في غاية الطيبة، وبدا أنهم لا يستاؤون من أي شيء تقوله. كانوا هم أيضا ينادونها بـ الحبيبة، ويحمّمونها بالإسفنجة، ويغيرون لها مئزرها ويمشّطون شعرها ولم تبدر من أحدهم بادرة ضيق أو استياء. بل الحقيقة أنها كلّما كانت تزداد تخريبًا، كانوا يزدادون في ما يبدو حبًّا لها.

بعد أيام قليلة من وصول تِلُو، بات يسيطر على الأمّ هاجسٌ غريب. تحوّلت إلى قاضية تفتيش متخصصة في الطبقات، فبدأت تصرُّ أن تعرف طبقة كلّ شخص من المحيطين بها، وطبقته الفرعية، وطبقته الثانوية. لم يكن يكفي أن يقول أحدهم إنه من طبقة "المسيحيين السوريين"، فقد كانت تصرُّ أن تعرف أهو تابع لكنيسة مارثوما أم يعقوبي أم من كنيسة جنوب الهند أم كنعاني. وإن كان هندوسيًّا، لم يكن يكفي أن يقول إنه إيزهافا، فقد كان لا بد أن تعرف أهو من الثياس أم التشيكافارا. وإن قالوا "طائفة مُجَدْوَلَة"[٣٤] فلا بد أن تعرف أهم بارايا أم بولايا أم بارافان أم أولادان. وهل هم أصلاً من طبقة قاطفي جوز الهند؟ أم كان أسلافهم من حملة المحاصيل، أو نازحي الغائط، أو غاسلي الثياب، أو صائدي الجرذان؟ كانت تصر على معرفة التفاصيل ولا يمكن أن تسمح لأحد بالتعامل معها قبل أن تعرف عنه كل ذلك. وإن كان الشخص من المسيحيين السوريين، فما اسم عائلته؟ وابن أخت من تزوج من ابنة أخي صهرة فلان؟ وجد من تزوج ابنة أخت أبي جد علان؟

كانت الممرضات تقلن لتِلُو مبتسمات إذ يرين التعبير المرتسم على وجهها "هكذا هو سي أو بي دي. لا داعي للقلق. الأمر يحدث هكذا دائمًا". وبحثت عن معنى الاختصار. الانسداد الرئوي المزمن. قالت الممرضات لتِلُو إنه مرض كفيل بأن يضفي على الجدّات المسالمات خصال صاحبات بيوت الدعارة أو يُجري على ألسن القساوسة شتائم

---

٣٤ راجع الهامش رقم ١٦.

السكارى. وأفضل شيء هو ألا يؤخذ الكلام على محمل شخصي. كنّ بنات بديعات، أولئك الممرضات، دقيقات ومهنيات. كل منهن كانت في انتظار وظيفة تنتقل بها إلى بلد في الخليج، أو إنجلترا أو الولايات المتحدة فتلتحق بمجتمع نخبة ممرضات المالايالي.[٣٥] وإلى أن يحدث ذلك، كن يرفرفن وسط مرضى مستشفى ليكفيو كأنهن فراشات معالجات. صاحبن تِلُو وتبادلن معها أرقام الهواتف وعناوين البريد الإلكتروني. ولسنوات بعد ذلك بقيت تتلقّى منهنّ عبر واتساب تهاني الكريسماس ونكاتًا عن ممرضات المالايالي.

باشتداد المرض عليها أصبحت العجوز مضطربة قلقة لا يمكن تقريبًا التعامل معها. جافاها النوم، فباتت تقضي الليالي ساهرة، ليلة بعد ليلة، ساهمة العينين، كأنها مفزوعة، لا تتوقف عن الكلام إلى نفسها وإلى كلّ من يستمع. بدا وكأنها تحسب أنها قادرة أن تغلب الموت بالبقاء يقظة طول الوقت. فكانت تتكلم باستمرار، حينًا كلامًا عدوانيًا، وحينًا آخر كلامًا رقيقًا مسليًا. وكان يحدث أن تغني شذرات من الأغنيات والترانيم وأهازيج الكريسماس وأغنيات سباق أونام للقوارب، وهو السباق التراثي الذي يقام في كيراله، وكانت تلقي أبياتًا لشكسبير بإنجليزية مدارس الراهبات الناصعة، وحينما كانت تشعر باستياء من أيّ شيء، كانت تنطلق في السباب توجّهه لأيّ أحد بالقرب منها بعامية مالايالم الوضيعة، فلم يكن أحد يعرف بأي وسيلة (ومن أي مصيبة) اكتسبتها امرأة من مثل طبقتها وتربيتها. ومضت الأيام ثقالاً،

---

٣٥ جماعة يتكلمون لغة المالايالم وموطنهم ولاية كيراله الهندية بالدرجة الأساسية.

فازدادت عدوانيةً يومًا بعد يوم. وأقبلت على الأكل إقبالاً عجيبًا، فكانت تبتلع البيض المسلوق ابتلاعًا والأناناس من أعلاه إلى أدناه والمعجّنات بشهيّة سجين حاصل على إفراج مشروط. وباتت تعتمد على احتياطي من القوة البدنية لا يقلُّ عن الخرافي من امرأة في مثل سنِّها، فكانت تقاتل الممرضات والأطباء، وتنزع الأنابيب والمحاقن من عروقها، ولم يعد يمكن إعطاؤها المسكنات لأنها بدأت تهدِّد بتعطيل عمل الرئة. وأخيرًا نُقلت إلى غرفة الرعاية المركّزة من جديد.

أصابها ذلك بغضب عاتٍ ودفعها إلى مزيد من الاضطراب. بات يظهر في عينيها اللؤم والترقُّب، وصارت تخطّط طيلة الوقت للهرب. حاولت أن ترشو الممرضات والمرافقين. وعدت طبيبًا شابًا أن توقّع له تنازلاً عن مدرستها وأراضيها إن ساعدها في الخروج. ونجحت مرّتين في عبور الطرقة كلها في مئزر المستشفى، فصار لزامًا على ممرضتين أن تبقيا بعد ذلك في يقظة مستمرة، بل وصار من اللازم إكراهها بين الحين والآخر على البقاء في سريرها. ولما أنهكت كلٌّ من حولها قال الأطباء إن المستشفى لا يستطيع أن يوفّر لها الرعاية الطبية الدائمة وإنها تحتاج إلى التقييد فعليًّا في سريرها. طلبوا من تِلُو، بوصفها الأقرب لها، أن توقّع استمارات تمنحهم الإذن بذلك. فطلبت منهم تِلُو فرصة أخيرة لمحاولة تهدئة أمها. ووافق الأطباء، دونما كثير من الحماس.

في المرة الأخيرة التي اتصلت فيها تِلُو بناجا من المستشفى، أخبرته أنها حصلت على إذن بالبقاء بجانب أمها في وحدة العناية المركزة بعدما عثرت أخيرًا على وسيلة لتهدئتها. أحسَّ أنه سمع في صوتها ما يشي بضحكة

مكتومة بل وما يشبه المحبّة. قالت إنها عثرت على حلٍّ بسيط وناجح. جلست في مقعد بجوار سرير أمها ومعها دفتر، وأخذت الأم تملي عليها ملاحظات لا تنتهي، وفي بعض الأحيان رسائل: عزيزي ولي الأمر فاصلة ومن أول السطر... مما إلى علمي أن ... هل وضعت فاصلة بعد عزيزي ولي الأمر؟ وفي أغلب الأحيان كانت تملي هراء. قالت تِلُو إن فكرة استملائها بدت مناسبة، إذ ربما أعطت أمّها الشعور بأنها لم تزل قبطان السفينة، لم تزل المسؤولة عن أمر ما، فهدأت بسبب ذلك هدوءاً ملحوظًا.

لم يكن ناجا يدرك عن أي شيء تتكلم تِلُو، بل لقد قال لها إن ما تقوله هي نفسها أشبه قليلاً بالهذيان. ضحكت وقالت إنه سيفهم حين يطّلع على الدفتر. تذكّر أنه تساءل في ذلك الوقت أي امرأة تلك التي لا تكون في أفضل حالاتها مع أمها إلا وهي تهلوس على فراش الموت في وحدة العناية المركزة بينما هي، أي الابنة، متخفية في شخصية سكرتيرة لها.

وبرغم ذلك كله، لم تنته الأمور على خير في مستشفى ليكفيو. ورجعت تِلُو بعد جنازة أمها، أكثر نحولاً وعزوفًا عن التواصل من ذي قبل. وكان وصفها لوفاة أمها وجيزًا، وأقرب إلى تقرير طبي رسمي. وفي غضون أسابيع قليلة من رجوعها إلى دلهي بدأت طوافها المتصل.

وناجا لم ير الدفتر قط.

*

في ذلك الصباح، بينما كان يتصفح الملف الطبي الذي عثر عليه في دولاب تِلُو، عثر على بعض تلك الملاحظات. كانت بخط تِلُو، على ورق مسطر منتزع من دفتر، ومطويٍّ، ومدسوس وسط فواتير المستشفى، ووصفات الأطباء، وجداول التشبع الأكسجيني، ونتائج تحاليل نسبة الغاز الذائب في الدم. وفيما كان يقرأ، أدرك ناجا أنه لم يعرف شيئا تقريبًا عن المرأة التي كانت زوجة له. وأنه لن يعرف شيئًا أبدًا:

٢٠٠٩/٧/٩

انتبهي للزرع فقد تقع الأصص.

وهذه الثنية -ثنية البطانية- ربما يجب تنفيضها جميعًا.

ما الذي يكشفه هذا عنك يا بنت المنبوذين يا حرم ابن سعادة السفير؟

لابسو الأزرق هؤلاء، يمدّون أيديهم في الغائط. أهم أقرباؤك؟

في حدود ما أعرف بولوس لا يراعي الأوركيد، بل يقتله. لعلها مشكلة طبقة منبوذة.

اطلبي من بيجو أو ريجو أن يتولوا المهمة.

هل سمعت الكلاب بالليل؟ إنها تأتي لتأخذ سيقان المصابين بالسكري المبتورة المرمية. يمكنني أن أسمعها في عوائها وهي تجري بأذرع الناس وسيقانها، فلا ينهاها أحد عن ذلك.

أهي كلابك؟ أهي ذكور أم إناث؟ يبدو لي أنها تحب الحلوى.

هل تستطيعين أن تأتيني بعنّاب جيد؟

لا بد أن يتوقف الزرق عن التسكع حولنا.

علينا أن نحذر بشدة، أنت وأنا. تعرفين هذا، أليس كذلك؟

لقد حللوا دموعي ووجدوها جيدة من حيث الملح والماء. لكن عيني جافتان ولا بد أن أغسلهما ولا بد أن آكل السردين لتكوين الدموع. السردين ممتلئ بالدموع.

هذه البنت المنضبطة سوف تفعل أشياء مذهلة في اليانصيب.

هيا نذهب.

اطلبي من ريجو أن يحضر السيارة. أنا لا أستطيع. ولا أريد.

أهلا! لطيف أن أقابلك! هذه حفيدتي. لا يمكن السيطرة عليها. أرجوك اطمئني إلى نظافة المكان.

بمجرد أن يأتي ريجو نأخذ السيارة ونهرب. احملي القصرية. واتركي البراز.

تعالي هنا الآن. اهمسي في أذني. أنا في مأزق. وأنت أيضًا في مأزق؟

سنجلس على القصرية ونقفز القفزة.

سوف أشرب جوني ووكر. هل هو هناك بالأعلى فوقنا؟

سوف آخذ ملاءتين فقط. ولكن ما الذي ينبغي أن تفعله سبقاننا؟

هل سيكون ثمة حصان؟

بدأت حرب رهيبة بيني وبين الفراشات.

هل ستخرجين بأسرع ما يمكن مع برينسي ونايسي والأصدقاء؟ خذي الزهرية النحاسية، والكمنجة والغُرَز. دعكِ من البراز والكؤوس السود ودعك من الكراسي المكسورة، إنها تتسكع حولنا طول الوقت، تأتي وتذهب.

ستساعدك البنت المنضبطة وتتولى أمر البراز. ووالدها سوف يحضر قريبًا ليخرج القمامة. لا أريده أن يلحق بك. ربما يجب أن ننظف المكان.

عندما تنظرين من وراء هذه الستائر، هل تشعرين بوجود حشد من الناس؟ أشعر بهم. الرائحة موجودة بلا شك. رائحة جماعة. شيء من العفونة، كرائحة البحر.

أظن أنك ينبغي أن تتركي قصائدك وجميع خططك لأليسكاتي. كم هي دميمة! أريد صورة لها لأضحك عليها. كم أنا كريهة!

كم يرغب الأسقف أن يراني في كفني. سيجد راحة كبيرة في حضور جنازتي. لم أتصور يومًا أن أنتهي إلى هناك. هل تمطر الآن، أم الشمس

ساطعة؟ هل الدنيا مظلمة؟ هل هي نهار؟ هل هي ليل؟ هل يتفضل أحد ويخبرني؟

الآن هراء.

وأخرجي هذه الخيول.

أظن من الوضاعة أن نأخذ هذه الفتاة ونخليها من كل شيء.

قومي!!!

أنا خارجة. افعلي ما تريدين. ستُجلَدين.

عار عظيم عليك أن تقفي هنا قائلة إنك تِلوتّما إيبي ولست إياها. لن أقول لك شيئًا عني أو عنك أنت نفسك.

كل ما سأفعله أنني سأقف هنا وأقول "افعلي هذا وافعلي ذاك". وستفعلين قطعًا. وليس لك راتب اعتبارًا من الغد. هل دوّنت هذا؟ سأفرض عليك غرامة كل مرّة.

روحي قولي لكل الناس 'هذه أمي، السيدة مريم إيبي، وعمرها مئة وخمسون سنة'.

هل لديهم دواء لجميع الخيول؟

هل لاحظت كيف يشبه الناس الخيل حينما يتثاءبون؟

اعتني بأسنانك بجنون ولا تسمحي لأحد أن يخلعها.

يعطونك تخفيضًا في بعض الأحيان وهذا غباء.

تحقّقي من كل شيء ولنذهب.

وهناك حنًّا. أنا مدينة لها ببعض المال، وعليّ أن أقفز فوق جميع الأطفال ذوي الأنابيب.

الأنابيب كثيرة للغاية والجميع سعداء بأن السيدة إيبي تحصل على بصلها. ولكن هذه الطفلة كانت في غاية الطيبة. أنت لم تنزعي أنابيبي. هي نزعتها. هي من الطبقات الدنيا. أما حضرتك فنسيتِ كيف تكونين من الطبقات الدنيا.

جاء شخص، وبعده شخص، وبعده شخص.

الصدمة الكبرى هي أنك أنت من تضعين قواعدك للجميع. لكنني أتوقع أن يطيعوني.

لكنني أنا المسؤولة. يصعب تمامًا التخلي عن المسؤولية وستعرفين هذا بنفسك بلا أدنى شك. أنامًا هي أهدأ مخلوق في مجتمعنا.

من الأنامًا التي تلعب دور شرلوك هولمز وشرلوك هولمز؟ وساحرة في أدائها لكليهما. كانت ناظرة مدرستي الأولى وماتت ميتة شديدة الجمال. رجعتُ إلى البيت ونقلت لي عدوى السعال.

أهلاً يا دكتور، هذه هي ابنتي التي تدرس في البيت بدلاً من المدرسة. كريهة للغاية. كانت بشعة اليوم في المسابقات. لكنني كنت بشعة تمامًا أنا الأخرى. كنا مسخرة الجميع.

قضيت عمري في سخافات. أنتجت طفلة. هذه.

وذلك الولد ذو الثياب الوسخة والقسطرة الوسخة، وجلست ساعات في نهر وسخ.

أشعر أنني محاطة بالخصيان، صح؟

الموسيقى ... ما عيب الموسيقى؟ الأمر أنني لم أعد أتذكر.

اسمعوا هذا ... هذا أكسجين. يبقيق حتى الموت. الأكسجين ينفد مني. ولا يهمني أينفد مني أم ينفذ إليّ.

أريد أن أنام. أودّ لو أموت. ألفلف قدمي بماء دافئ.

أود أن أنام. أنا لا أستأذن أحدًا.

شيء مثل هسس هسس هسس ... كاك كاك كاك

هذا صوت محركي.

يمكنك حينما تموت أن تعلق في سحابة، ويمكننا نحن أن نحصل على جميع معلوماتك. وعند ذلك يقدمون لك الفاتورة.

أين نقودي؟

الحقنة الوريدية هي مفك يسوع المسيح. لا تؤلم.

أنا مجرد مانيكان صغيرة.

تعجبني مؤخرتي. ولا أعرف لماذا يريد دكتور فريجيس أن يقطعها من الصورة.

الزهور المتجمدة لا ترحل أبدًا. تظل تتسكع هنا أو هناك إلى الأبد. أظننا بحاجة إلى الحديث عن المزهريات.

هل سمعت صوت الزهرة البيضاء؟

ما عثر عليه ناجا لم يكن غير عينة. أما الملاحظات الكاملة فكان من شأنها إذا لم تُرْمَ مع قمامة المستشفى أن تشكل أسفارًا عديدة.

*

ذات صباح، بعد أسبوع من التدوين المتصل، كانت تِلُو واقفة، منهكة غاية الإنهاك، بجوار سرير أمّها، متّكئة بذراعيها على مسند الكرسي الذي كانت تجلس عليه في العادة. كان ذلك في الوقت الأكثر ازدحامًا داخل وحدة الرعاية المركزة، حيث يقوم الأطباء بجولاتهم، والممرضات والمرافقون يكونون مشغولين، والعنبر يجري تنظيفه. وكانت مريم إيبي تمرُّ بصباح عصيب بصفة خاصة. وجهها محمرٌّ وفي عينيها لمعة

الحمّى. رفعت مئزر المستشفى كاشفة عن الحفاض مبرزة ساقيها متصلبتين ومتباعدتين. وصرخت فَمَلَا صوتُها عميقًا كأنه صوت رجل.

"قولي للخادمة إن الوقت حان لتنظيف خرائي".

كان دم تِلُو قد انعطف عن الطريق السريع ومضى ينسرب في طرقات الغابة. فبدون إنذار، رفع الكرسي الذي كانت تستند إليه نفسه عاليًا ثم هوى بنفسه حطامًا. وتردَّدت في العنبر أصداء تهشم الخشب. انتفضت الإبر تاركة العروق. واهتزت زجاجات الدواء على صوانيها. وتوقفت القلوب الواهنة مقدار نبضة. ورأت تِلُو الصوت يرتحل في جسم أمها، من قدميها صاعدًا كأنه كفن يُغطِّي به جثمان.

لم تدر كم طال عليها الوقوف هناك ولا عرفت من أخذها إلى مكتب دكتور فيرجيس.

كان دكتور جاكوب فيرجيس رئيس قسم الحالات الحرجة، وحتى أربع سنوات مضت، طبيبًا في الجيش الأمريكي. كان نائب رئيس قسم الرعاية الفائقة بوحدته في أثناء حرب الكويت ثم رجع إلى كيراله حينما انتهت مدته. وبرغم أنه عاش أغلب حياته بالخارج، فلم يكن في لغته أثر لكنة أمريكية، وهو أمر ملفت للنظر، فقد كان الناس في كيراله يقولون مازحين إن مجرد التقدم بطلب للحصول على تأشيرة الولايات المتحدة كاف للتأثير على لكنات الناس. أما دكتور فيرجيس فلم يكن فيه ما يوحي على الإطلاق إلا بكونه مسيحيًا سوريًا محليًا خالصًا قضى

عمره كله في كبراله. ابتسم لتِلُو في رقة وطلب لها قهوة. كان من بلدة مريم إيبي نفسها فلعله كان يعرف بجميع الشائعات والهمسات القديمة. كان المكيف يعمل في حجرته فبدّدت قعقعته ما في الحجرة من حرج. أخذت تِلُو تراقب النظام بتمعن، وكأنما حياتها كلُّها تتوقّف عليه. رأت الرجال والنساء من لابسي السترات والبنطلونات الخضراء، ينسابون دونما صوت في الطرقة، واضعين أقنعة الجراحة، لابسين نعال غرف العمليات، وثمة دماء على قفازات الجراحة في أيدي بعضهم. نظر دكتور فيرجيس إلى تِلُو من فوق نظارة القراءة، متفحصًا إياها كمن يوشك على تشخيص حالتها. ولعل ذلك ما كان يفعله حقًا. فلم تمض لحظات حتى مدَّ يده عبر الطاولة وأمسك يدها. ما كان له أن يعرف أنه يحاول مواساة بناية صعقها البرق، فلم يبق فيها الكثير مما يمكن أن يواسَى. بعدما انتهت قهوته وبقيت قهوتها كما هي، اقترح أن يرجعا إلى غرفة الرعاية المركزة لتعتذر لوالدتها.

"والدتك سيدة فريدة. لا بد أن تفهمي أن من تنطق هذه الكلمات القبيحة ليست هي".

"ياه، فمن هي إذن؟"

"شخص آخر. مرضها. دمها. معاناتها. ظروفنا، ميولنا، تاريخنا ..."

"فلمن إذن سوف أعتذر؟ للميول؟ أم للتاريخ؟"

ولكنها كانت تتبعه فعلاً في الطرقة راجعين إلى غرفة الرعاية المركزة.

ولما وصلا كانت أمها قد غابت عن الوعي. تجاوزت السمع، تجاوزت التاريخ، تجاوزت الميول، تجاوزت الاعتذار. جلست تِلُو على السرير ولامست بوجهها قدمي أمها حتى بردتا، بينما الكرسي المكسور مطلٌ عليهما كأنه ملاك مفجوع. لم تدر تِلُو كيف أمكن لأمها أن تعرف ما قد يفعل الكرسي. كيف أمكنها أن تعرف.

دعك من الكراسي المكسورة، إنها تتسكع حولنا طول الوقت، تأتي وتذهب...

ماتت مريم إيبي في وقت مبكر من الصباح التالي.

ما كانت الكنيسة المسيحية السورية لتغفر لها إثمها، فرفضت دفنها رفضًا صريحًا. وهكذا أقيمت الجنازة في المحرقة الحكومية، فكان أغلب حضورها مدرسين وعددًا من أولياء أمور طلبتها. رجعت تِلُو برفات أمها إلى دلهي. وقالت لناجا إنها بحاجة إلى التفكير مليًا في ما سوف تفعله به. لم تقل له أكثر من هذا. وبقيت جرّة الرفات طويلاً على الطاولة التي تستعملها في العمل إلى أن لاحظ ناجا أخيرًا أنها اختفت. لم يدر هل عثرت تِلُو على مكان ملائم تغرقها فيه (أو تنثرها، أو تدفنها) أم نقلتها ببساطة معها إلى بيتها الجديد.

*

رأت الأميرة ناجا جالسًا على الأرض ناظرًا في ملف طبيٍّ سميك. وقفت وراءه وعلا صوتها قارئة الشذرات.

"'الحقنة الوريدية هي مفكّ يسوع المسيح'... 'هل سمعت صوت الزهرة البيضاء؟' ما هذا العته الذي تقرؤه يا حبيبي؟ منذ متى تصدر الزهور أصواتًا؟"

بقي ناجا جالسًا لوقت طويل بدون أن يقول شيئًا. بدا مستغرقًا في تفكير عميق. ثم قام فأحاط وجهها الجميل بيديه.

"آسف جدًا ..."

"علام يا حبيبي؟"

"لن ينفع ..."

"ماذا؟"

"نحن".

"لكنها مضت. تركتْك".

"صحّ، صحّ، حصل ... لكنها سترجع. لا بد. سترجع".

نظرت الأميرة إلى ناجا في إشفاق، وتركته. وسرعان ما تزوجت رئيس تحرير قناة إخبارية تليفزيونية. وصارا ثنائيًا جميلاً، سعيدًا، ورُزقا بكثير من الأطفال الأصحّاء السعداء.

*

تقع الشقة التي استأجرتها تِلُو في الطابق الثاني من بناية بوسط المدينة مطلة على مدرسة ابتدائية مليئة بأبناء أسر فقيرة نسبيًا وفيها شجرة نيم مليئة ببيغاوات توفّر لها بعض أسباب الحياة. في طابور الصباح كلّ يوم كان الأطفال يغنُّون النسخة الهندية الكاملة من نشيد "سوف نكون الغلبة

لنا[٣٦]". فكانت تغني معهم. وفي العطلات الأسبوعية والإجازات كانت تفتقد الأطفال وطابور الصباح فتغني الأغنية لنفسها في تمام الساعة السابعة صباحًا. وفي الأيام التي لم تكن تفعل هذا فيها، كانت تشعر أن الصباح لا يعدو امتدادًا للأمس، وأنه لم يشرق بعد فجر اليوم الجديد. فكان بوسع من يسترق السمع عبر بابها في أغلب الصباح أن يسمعها.

غير أن أحدًا لم يكن يسترق السمع.

في الليلة التي أقيم فيها حفل ميلاد وعماد الآنسة جِبين كانت تِلُو قد أكملت أربع سنوات في شقة الطابق الثاني تلك، وكانت تلك الليلة أيضًا ليلتها الأخيرة فيها. لم تدر ماذا تفعل في بقية كعكة عيد الميلاد. ربما يدعو النمل أقاربه في الحيِّ لمشاركته الوليمة أو ربما لنقل كلِّ ذرة منها إلى المخزن.

كانت الحرارة ناهضة في الغرفة تجوب كلَّ أركانها. والسيارات تزمجر في البعيد. والمدينة ترعد.

ولا مطر.

سارعت البومة الرقطاء تطير مبتعدة لتعلو وتدنو مستعرضة حسن سلوكها أمام امرأة أخرى وعبر شباك آخر.

---

٣٦ We Shall Overcome أغنية مسيحية تحولت إلى أغنية احتجاجية ارتبطت بحركة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة.

ولما لاحظت أن البومة ذهبت، انتاب تِلُو حزن يفوق الكلام. عرفت أنها عمّا قريب راحلة هي الأخرى، وقد لا تراها مرّة أخرى. كانت البومة شخصًا. لم تكن على يقين من هو بالضبط. ربما موسى. ولقد كان ذلك دأب موسى دائمًا. كان كلما يغادر، بعد زياراته السريعة الغامضة، وهو متنكر بطرقه الخاصة، ليبدو مثل السيد نكرة من مدينة اللا مكان، تشعر هي أنها قد لا تراه مرّة أخرى. كان المعتاد أن يكون هو المختفي وهي المنتظرة. وها قد حان دورها لأن تختفي هي. لم تكن لديها وسيلة فتطلعه على مكانها. لم يكن يستعمل هاتفًا محمولاً، والاتصالات التي كانت تأتيها منه كانت تأتيها دائمًا على الخط الأرضي، وسوف يتصل الآن فلا يجيبه أحد. تمكّنت منها رغبة في أن تحكي عن وداعهم الغريب للبومة الرقطاء في تلك الليلة. كتبت كلمتين على ورقة ولصقتها على الشباك، موجهة للخارج، عسى أن تقرأها البومة:

منذا الذي يعرف من كلمة الوداع أي نوع من الفراق مدّخر لنا؟

رجعت إلى حشيّتها، راضية عن نفسها وعن وضوح المعلومة كما كتبتها. ولكن سرعان ما انتابها، ولم يمض وقت على الإطلاق، شعور بالخجل. لقد كانت في ذهن أوسيب ماندلشتام[٣٧] أشياء أهم كثيرًا حينما كتب ذلك البيت. كان يواجه معتقلات ستالين. لم يكن يتكلم مع البوم. استردّت ورقتها ورجعت مرة أخرى إلى السرير.

---

٣٧ Osip Mandelstam (١٨٩١ـ ١٩٣٨) شاعر روسي.

على بعد أميال قليلة من حيث كانت تستلقي متيقظة، مات ثلاثة رجال الليلة السابقة مسحوقين أسفل شاحنة انقلبت عن الطريق. ربما السائق غلبه النوم. قالوا في التليفزيون إن المشرّدين في ذلك الصيف درجوا على النوم على حواف الطرق المزدحمة بالمرور. فقد اكتشفوا أن عوادم الديزل المنبعثة من الشاحنات والأتوبيسات طاردة فعالة للبعوض ومن ثم فهي تحميهم من انتشار حمّى الضنك التي كانت قد قتلت بالفعل مئات عديدة من الناس في المدينة.

تخيلت الرجال: مهاجرين جددًا إلى المدينة، عمال محاجر، وهم عائدون إلى بقعهم المحجوزة مسبقًا والمدفوع لها مسبقًا والتي حُسبت إيجاراتها وفق قياس الكثافة المثلى لعوادم الديزل مقسومة على كثافة البعوض المحتملة. حسبة جبرية دقيقة، لا يسهل العثور عليها في كتب المدارس.

كان الرجال منهكين من عمل النهار في موقع البناء، وقد بهتت رموشهم ورئاتهم من غبار الحجارة التي يقطعونها ويرصفون بها الطوابق المتعددة في المراكز التجارية والأحياء السكنية الآخذة في الانتشار حول المدينة كأنها غابات متسارعة النمو. فرشوا المناشف البالية اللينة على العشب الصخري في الأرصفة المنحدرة التي يتناثر فيها روث الكلاب ومنحوتات الصلب عديمة اللون من الفن العام المنتشر برعاية شركة باماني جروب التي كانت تروج للفنانين الطليعيين ممن يستعملون الصلب في أعمالهم، راجية من وراء ذلك أن يروج الفنانون الطليعيون لصناعة الصلب. كانت المنحوتات تبدو أشبه بحيوانات منوية من الصلب، أو ربما كان المقصود منها أن تشبه البلالين. من يدري؟ في أي

من الحالتين كانت تبدو مبهجة. أشعل الرجال آخر سيجارة بيدي، ومضت حلقات الدخان تتلوى في الليل، وبدا العشب في إضاءة مصابيح النيون بالطريق أشبه بمعدن أزرق بينما بدا الرجال رماديين. دار بينهم شيء من المناوشات والضحك، إذ كان اثنان منهم ينفثان الدخان حلقات بينما لا يجيد ثالثهم ذلك. كان أخيبهم، وكان دائمًا آخر من يتعلم أي شيء.

وجاءهم النوم، بسرعة ويسر، مجيء النقود للمليونيرات.

لو لم يموتوا مدهوسين تحت الشاحنة لماتوا بـ:

أ. حمى الضنك

ب. الحر

ج. تدخين سجائر البيدي

أو

د. غبار الحجارة

وربما ما كانوا ليموتوا. ربما كانوا ليقوموا ويصبحوا:

أ. مليونيرات

ب. عارضي أزياء فاحشي الثراء

أو

ج. رؤساء هيئات

هل كان مهمًّا أنهم انسحقوا في العشب الذي افترشوه ليناموا؟ ومهمًّا لمن؟ هل كان مهمًّا لمن كان ينبغي أن يكون مهمًّا لهم؟

عزيزي الدكتور

لقد سحقنا. هل لهذا دواء؟

مع تحياتنا

بيرو وجبرام ورام كيشور

ابتسمت بِلُو وأغمضت.

أولاد قحبة طائشون. من قال لهم اعترضوا طريق الشاحنة؟

ثمة أشياء لم تكن تعرف كيف تستطيع ألا تعلمها، أشياء معيّنة ومحدّدة تعلمها لكنها تودّ لو أنها لا تعلمها. كيف لا تعلم، على سبيل المثال، أن من يموتون من غبار الحجارة تستعصي رئاتهم على الإحراق؟ حتى بعد احتراق بقية أجسامهم واستحالتها إلى رفات يبقى حجران على هيئة رئتين مستعصيتين على الحرق. حكى لها صديقها دكتور آزاد بهارتيا الذي كان يعيش على رصيف جَنْتر مَنْتر عن أخيه الأكبر جيتين واي كُمار الذي كان يعمل في محجر جرانيت ومات في الخامسة والثلاثين. حكى لها كيف كان عليه أن يهشّم رئتي أخيه بعتلة في محرقة الجثث لكي يحرِّر روحه. قال إنه فعل ذلك برغم أنه شيوعي ولا يؤمن بالأرواح.

فعله إرضاء لأمه.

قال إن رئتي أخيه كانتا تلمعان وقد تناثر فيهما معدن السيليكا.

عزيزي الدكتور

الحقيقة، لا شيء. فكّرت فقط أن أرسل السلام. في الواقع، هناك أمر ما. تخيل أن تهشّم رئتي أخيك إرضاءً لأمك. هل ترى في ذلك نشاطًا إنسانيًا طبيعيًا؟

لم تدر كيف يمكن أن يكون شكل روح حبيسة، حجر على شكل روح في محرقة. مثل الصدفة النجمية مثلاً. أم الدودة الألفية. أم فراشة منقوطة ذات جسد حيّ وأجنحة حجرية ـفراشة مسكينةـ خانتها وخذلتها الأشياء التي كان ينبغي أن تعينها على الطيران.

تململت الآنسة جِبين الثانية في نومها.

ركّزي، كذلك قالت الخاطفة لنفسها وهي تمسّد جبهة الطفلة الرطبة المتعرقة. **وإلا ستنفلت الخيوط جميعًا من يديك.** لم تكن تعرف على الإطلاق لماذا هي من دون الناس جميعًا، وهي التي لم ترغب قط في الإنجاب، لماذا كانت هي التي تناولت الفتاة وجرت بها. لكن ذلك ما حدث. دورها في القصة انكتب. ولم تكن هي من كتبته. فمن يكون؟ شخص ما.

عزيزي الدكتور

بوسعك إن شئت أن تغيِّر كلَّ بوصة مني. أنا مجرد قصة.

كانت الآنسة جِين طفلة ودودًا وبدا أنها تحب الحساء والخضراوات المهروسة التي أعدتها لها تِلُو بلا ملح. بالنسبة لامرأة عديمة الخبرة تقريبًا بالأطفال، سهل على تِلُو بصورة مدهشة أن تعتني بها ووجدت في نفسها ثقة غريبة في التعامل معها. وفي المرات القليلة التي بكت فيها الآنسة جِين، كانت تستطيع تهدئتها بسرعة لا توصف. اكتشفت تِلُو أن أفضل طريقة لذلك (باستثناء الطعام) هي أن تضعها على بطنها على الأرض وسط الجراء الرصاصية التي أنجبتها الرفيقة لالي -المهجّنة حمراء الشعر- في الطرقة أمام بابها قبل أسابيع. بدا أن لدى الطرفين (أي الجراء والآنسة جِين) الكثير مما يقولانه لبعضهم بعضًا. كانت الوالدتان صديقتين حميمتين. فكان حتمًا أن يحقق التلاقي نجاحًا ساحقًا. وحينما كان يشعر الجميع بالتعب، كانت تِلُو تعيد الجراء إلى الخيش الذي يعيشون عليه في الطرقة، وتضع للرفيقة لالي طبقًا صغيرًا من الحليب والخبز.

في وقت أسبق من ذلك اليوم، كانت تِلُو قد أشعلت الشمعة في الكعكة ومضت ترقص الفالس حاملة الآنسة جِين باسمها الجديد في الغرفة وهي تغني أغنية عيد الميلاد، عندما اتصلت أنكيتا ساكنة الطابق الأرضي. قالت إن شرطيًا جاء في الصباح يسأل عنها (أي تِلُو) ويسألها (أي أنكيتا) إن كانت تعرف أي شيء عن طفل جديد في البناية. كان في عجلة من أمره فترك معها الجريدة التي تنشر الشرطة فيها إشعاراتها الدورية. بعثتها أنكيتا مع جاريتها الأديفازية الصغيرة. جاء فيها:

إشعار بالخطف د ش/ ١١٤٦

نيودلهي ١١٠٠٠١

هذا إخطار للشعب بأن طفلاً مجهولاً، مجهول الأهل، مجهول العنوان، بلا ثياب، قد تُرك في جَنْتر مَنْتر بنيودلهي. وبعد إخطار الشرطة لكن قبل انتقال قوة الشرطة إلى الموقع كان الطفل المذكور قد اختطف على يد مجهول أو مجهولين. وقد تم تحرير محضر بالمعلومات الأولية تحت البنود ٣٦١ و٣٦٢ و٣٦٥ و٣٦٦أ، والبندين ٣٦٧ و٣٦٩. لإبلاغ أي معلومات يرجى الاتصال بضابط القسم المقيم، شارع البرلمان، قسم الشرطة، نيو دلهي. بيانات الطفل على النحو التالي:

الاسم: مجهول، اسم الأب: مجهول، العنوان: مجهول، الثياب: لا يوجد.

بدا التعالي والسخط في صوت أنكيتا عبر الهاتف، ولكن ذلك لم يكن غير دأبها مع تِلُو. كانت تنزع إلى تلبُّس ذلك السمت الانتصاري المزهو اللائق بامرأة ذات زوج إذ تكلم امرأة بلا زوج. لم تكن للأمر أي علاقة بالطفل. فهي لم تكن تعلم أصلاً بأمر الآنسة جِبين. (فمن حسن الحظ أن جارسون هوبارت قد راعى في بناء منزله أن يكون متينًا ذا جدران عازلة للصوت). ولا كان في الحي كله من يعلم بأمرها. فتِلُو لم تخرج بها. وهي نفسها لم تكن تخرج كثيرًا إلا في المشاوير القليلة اللازمة

إلى السوق حينما تكون الطفلة نائمة. فلعل الباعة في المحلات تساءلوا عن شرائها طعامًا للأطفال على غير عادتها. ولكن تِلُو لم تتصور أن تذهب الشرطة في تحريّاتها إلى ذلك المدى.

حينما قرأت تِلُو إشعار الشرطة في الجريدة لم تأخذه على محمل الجد. بدا أقرب في طبيعته إلى إجراء روتيني بيروقراطي لا بد من القيام به بلا تفكير. غير أنها أدركت لمّا قرأته للمرة الثانية أنه كفيل بإثارة بعض المتاعب. ولكي تمهل نفسها فسحة للتفكير، نسخت الإشعار بعناية في دفترها، كلمةً بعد كلمة، بخطٍّ يدها قديم الطراز، وزخرفت هوامشه بتماريج الكرم والثمار كما لو كانت تنسخ الوصايا العشر. لم يسعفها خيالها بالخيط الذي اتبعته الشرطة فتعقّبتها حتى جاءت وطرقت الباب. وأدركت أنها بحاجة إلى خطة. ولم تكن لديها خطة. فاتصلت بالشخص الوحيد في العالم الذي تثق أنه يمكن أن يتفهم المشكلة ويشير عليها بالرأي السديد.

كانا صديقين منذ أكثر من أربع سنوات، هي ودكتور آزاد بهارتيا. التقيا للمرة الأولى وهما في انتظار إصلاح صندليهما عند أحد إسكافيي الشوارع في كوناوت بليس كان معروفًا بمهارته وصغره. فقد كانت كل فردة حذاء أو شبشب تبدو بين يديه وكأنها تخصُّ عملاقًا. وفيما كانا واقفين وكلٌّ مرتدٍ فردة من حذائه وخالعٌ الأخرى، فوجئت تِلُو أن دكتور بهارتيا يسألها (بالإنجليزية) لو أن معها سيجارة. فردّت له المفاجأة حينما أجابته (بالهندية) قائلة إنها لا تحمل سجائر لكنها يمكن أن تقدّم له بيدي. أخذ الإسكافي يعظ الاثنين مسهبًا في عواقب التدخين. حكى لهما

كيف مات أبوه المدخِّن الشره بالسرطان. ورسم لهما بإصبعه على التراب شكل الورم الذي أصاب رئة أبيه. "كان بهذه الضخامة". طمأنه دكتور بهارتيا إلى أنه لا يدخن إلا في المناسبات التي يذهب فيها لإصلاح حذائه. وانتقل الحديث إلى السياسة. لعن الإسكافي المناخ القائم، وسبَّ الآلهة من كل مِلّة ودين، ثم أنهى خطبته الشرسة منحنيًا على قالبه الحديدي فقبَّله وقال إنه الإله الوحيد الذي يؤمن به. ولما اكتمل إصلاح نعليهما كان الإسكافي والزبونان قد أصبحوا أصدقاء. دعا دكتور بهارتيا صديقيه الجديدين إلى بيته القائم على رصيف جَنْتر مَنْتر. وذهبت تِلُو. ومنذ ذلك الحين لم يعد مجال للنظر إلى الوراء.

كانت تزوره في الأسبوع مرَّتين أو أكثر، فتصل غالبًا في المساء وتمشي عند الفجر. وغالبًا ما كانت تأتي إليه بقرص طارد للديدان، إذ كانت لسبب أو لآخر تراه ضرورة لسلامة أي شخص، وكان هو لا يرى غضاضة أخلاقية في تناوله حتى وهو مضرب عن الطعام. كانت تعتبره عليمًا بالدنيا، ومن أحكم الناس الذين عرفتهم وأكثرهم عقلاً. وبمرور الوقت أصبحت المترجمة/الناسخة وكذلك المطبعجية/الناشرة لإصداره ذي الصفحة الواحدة "أنبائي وآرائي" الذي كان ينقّحه ويحدّثه كلَّ شهر. نجحا في بيع نحو ثماني نسخ أو تسع من كل طبعة. فكانت بالإجمال شراكة إعلامية ناجحة، تتسم على المستوى السياسي بالذكاء، وعدم المداهنة، والاحترار التام.

لم يكن الشريكان الإعلاميان قد التقيا قبل أكثر من ثمانية أشهر منذ مجيء الآنسة جبِين الثانية. عندما اتصلت تِلُو بدكتور آزاد بهارتيا وحكت له عن إشعار الشرطة، تهاوى صوته حتى صار همسًا. قال إن كلامهما عبر الهاتف المحمول يجب أن يكون في أضيق الحدود، فهم خاضعون لمراقبة مستمرة من هيئات دولية. ولكنه بعد لحظة من ذلك التحذير الأولي، انطلق يثرثر في أريحية. حكى لها كيف ضربته الشرطة وصادرت أوراقه. وقال إنه يحتمل أن يكونوا قد عثروا على الخيط من هناك (فقد كان اسم الناشرة وعنوانها واردين أسفل المنشور). إما هذا أو توقيعها المزخرف على جبيرته التي أرغموه على تصويرها من زوايا عدّة. قال لها "لم يوقّع غيرك بالحبر الأخضر مضيفًا عنوانه، فلا بد أنك أصبحت أول شخص على قائمتهم. لا بد أن يكون إجراءً روتينيًا". وبرغم ذلك رأى أن تنتقل هي والآنسة جبِين فورًا، ولو لفترة مؤقتة على الأقل، إلى مكان قال لها إنه يدعى نزل جنة للضيافة والخدمات الجنائزية في المدينة القديمة. قال إن الشخص الذي ينبغي أن تتواصل معه هناك يدعى صدام حسين، أو صاحبة المكان نفسه دكتور أنجم التي قال دكتور بهارتيا إنها شخص جيد إلى أقصى درجة وإنه قابلها مرات عديدة بعد حادثة (الليلة إياها) وهي تسأل عن الطفلة. كان دكتور بهارتيا -بسبب التكريم الذي منحه لنفسه من تلقاء نفسه (وبرغم أن درجة الدكتوراه الخاصة به كانت لا تزال "مرجأة")- كثيرا ما يطلق لقب "الدكتور" على كل من يحبهم دونما سبب إلا أنه يحبهم ويحترمهم.

تذكّرت تِلُو اسم نزل الضيافة واسم صدام حسين من البطاقة التي تركها الرجل ذو الحصان الأبيض في صندوق بريدها بعدما اقتفى أثرها

من جَنْتر مَنْتر حتى بيتها (في الليلة إياها). لما اتصلت بالرقم قال لها صدام إن دكتور بهارتيا اتصل به، وإنه (أي صدام) كان في انتظار اتصالها. قال إنه يرى مثل رأي دكتور بهارتيا، وإنه سوف يرجع إليها بخطة عمل. ونصحها بألا تخرج من البيت بصحبة الطفلة مهما تكن الظروف إلى أن يتصل بها. قال إن الشرطة لا يمكن أن تدخل بيتها دون إذن بالتفتيش، لكن لو أنهم يراقبون البيت، وهذا وارد جدًّا، وقبضوا عليها ومعها الطفلة في الشارع، فيمكنهم أن يفعلوا بها ما يحلو لهم. اطمأنت تِلُو من صوته كما سمعته عبر الهاتف، إذ بدا لها ودودًا ومتمرّسًا. واطمأن صدام من جهته إلى صوتها.

اتصل بها بعد سويعات ليقول إن الترتيبات تمّت. سيأخذها من بيتها عند الفجر، بين الرابعة والخامسة صباحًا على الأرجح، قبل موعد حظر "دخول الشاحنات" إلى المنطقة. فلو كان البيت مراقبًا، سوف يسهل اكتشاف ذلك في هذه الساعة، إذ تكون الشوارع خالية. سيأتي بصحبة صديق يسوق شاحنة تابعة لشركة بلدية دلهي. كان عليهما أن ينقلا جثة بقرة نفقت ـمنفجرةـ من كثرة ما أكلت من الأكياس البلاستيكية في مقلب قمامة هاوز خاس الرئيسي. لن يكون المرور ببيتها خروجًا كبيرًا على المسار الطبيعي. قال إنها خطة بسيطة وأضاف ضاحكًا أنه "ما من شرطي يوقف سيارة قمامة تابعة لشركة بلدية دلهي. لو تركت شباكك مفتوحًا فسوف تشمين رائحتنا قبل أن ترينا".

وهكذا، انتقلت من جديد.

استعرضت تِلُو بيتها بعيني لصٍّ، وهي تفكر ما الذي سوف تأخذه. ووفقًا لأي معيار؟ الأشياء التي قد تحتاج إليها؟ أم الأشياء التي لا ينبغي أن تتركها وراءها؟ أم هذه وتلك؟ أم لا هذه ولا تلك؟ وخطر لها أن الشرطة إذا اقتحمت المكان، فلن يكون الخطف إلا أهون جرائمها.

كان الأكثر إجرامًا بين كل ما في شقتها من أشياء مجموعة صناديق الفواكه اللامعة التي بعثها تاجر فواكه كشميري حتى باب شقتها، صندوقًا بعد صندوق، على مدار أيام قليلة. وكانت فيها "منقذات" موسى -على حد تعبيره- من الطوفان الذي أغرق سري نجر قبل سنة.

عندما علا نهر جيلوم وفاض على ضفتيه، فاختفت المدينة. غمرت المياه أحياء سكنية بأكملها. غرقت تمامًا معسكرات جيش، ومراكز تعذيب، ومستشفيات، ومحاكم، وأقسام شرطة. طفت عوامات فوق أماكن كانت من قبل أسواقًا، واحتشد آلاف الناس مضطربين أشد الاضطراب على أسقف شديدة الانحدار وفي ملاجئ مؤقتة أقيمت على الربى والأراضي المرتفعة في انتظار إنقاذ لم يصل إليهم قط. كانت المدينة الغارقة مشهدًا وأي مشهد. وكانت الحرب الأهلية ظاهرة وأي ظاهرة. وقام الجيش بعمليات إنقاذ مبهرة بالطائرات أمام كاميرات التليفزيون. وفي الأخبار المذاعة على مدار الساعة تعجَّب المذيعون من الشجاعة التي أبداها جنود الهند وهم ينقذون أبناء كشمير الغلاظ الجاحدين غير الجديرين قطعًا بالإنقاذ. ولمّا بدأ الطوفان في الانحسار، ترك وراءه مدينة مهجورة، غارقة في الوحل. حوانيت ملأى بالوحل، وبيوت ملأى بالوحل، وبنوك ملأى بالوحل، وثلاجات

ودواليب وأرفف ملأى بالوحل. وقوم غلاظ جاحدون نجوا وهم لم يستحقوا الإنقاذ ولم ينالوه.

طوال أسابيع الطوفان لم يصل إلى تِلُو خبرٌ عن موسى، بل ولم تكن تعرف أكان في كشمير أم لا. ولا عرفت أنجا أم غرق وانجرفت جثته إلى ساحل ناء من السواحل. وفي تلك الليالي التي قضتها في انتظار خبر عنه، كانت تحمل نفسها على النوم بجرعات ثقيلة من الحبوب المنوِّمة، فكانت في النهار وهي مفتوحة العينين على اتساعهما تحلم بالطوفان. بالمطر والمياه المتلاحقة المحمّلة بالأسلاك الشائكة المسنونة المتنكرة في هيئة الطحالب. كان السمك رشاشات ذات خياشيم وفوّهات تخوض التيارات كأذيال عرائس البحار فلم يكن لأحد أن يعرف على من هي مصوبة ومن الميت حال إطلاقها. كان الجنود والمقاتلون يتشابكون تحت الماء، بالحركة البطيئة، كما في أفلام جيمس بوند القديمة، وتتصاعد أنفاسهم فقاقيع عبر المياه العكرة تَصَاعُدَ رصاصات فضية براقة. أواني الضغط (منفصلة عن صافراتها)، مواقد الغاز، الأرائك، أرفف الكتب، الموائد وأدوات المطبخ تدور في دوّامات الماء كأنها في طريق سريع مزدحم لا يحكمه قانون. ماشية وكلاب وثيران ودجاج يعوم في دوائر. شهادات خطية ومحاضر تحقيقات وبيانات صحفية عسكرية تنطوي من تلقاء أنفسها قوارب ورقية وتمخر الماء طلبًا للأمان. الساسة ومذيعو التليفزيون ومذيعاته، سواء أبناء وادي كشمير أو الهند مضوا يتواثبون في ثياب استحمام مزيَّنة بالترتر، كأنهم جوقة من أفراس البحر، في رقصات باليه بحرية جميلة التصميم، فيها الغطس

والطفو والدوران وفرد أصابع القدمين ورسم أعرض الابتسامات على الوجوه فتشعُّ الأسنان وضّاءة كأنها الأسلاك الشائكة إذ تسقط عليها الشمس. وثمة سياسي بعينه، لا تختلف آراؤه في كثير أو قليل عن آراء شوتسشتافل[٣٨] الألماني النازي كان يخوض في الماء بعربة كارو، متباهيًا تباهي المنتصر، مرتديًا مئزرًا أبيض منشّى يبدو وكأنه مضاد للماء.

ظلّ يعاودها يومًا بعد يوم، ذلك الكابوس النهاري، بالمزيد من الزخارف تضاف إليه في كل مرة.

ومرَّ شهر قبل أن يتصل موسى أخيرًا، فغضبت عليه تِلُو أشد الغضب لّما بدا لها أن صوته مبتهج. قال إنه لم يبق في سري نجر بيت آمن يمكنه أن يخزن فيه "منقذاته" من الطوفان، وسأل إن كان بوسعه الاحتفاظ بها في شقتها إلى أن يقف مرة أخرى على قدميه.

طبعًا. طبعًا يمكنه هذا.

كانت ذات جودة ممتازة، تلك التفاحات الكشميرية التي وصلت في صناديق مصمَّمة بناء على رغبة الزبون، تفاحات حمراء، وأخرى أقلّ حمرة، وخضراء، وأخرى شبه سوداء ـ لذيذة، ولذيذة ذهبية، وآمبري، وكالا مستانا ـ وكل واحدة منها مغلّفة في ورق ممزق. وكلّ صندوق عليه بطاقة موسى التعريفية ـ رسمة صغيرة برأس حصان ـ مثبتة

---

٣٨ Schutzstaffel أو SS، الفيلق الوقائي النازي، وهو عبارة عن قوات شبه عسكرية تابعة للحزب النازي.

في ركن منه. وكل صندوق فيه قاع سريٌ. وكلّ قاع سري يحتوي ال"منقذات".

فتحت تِلُو الصناديق لتذكّر نفسها بما فيها وتحسم أمر ما سوف تفعل فيها، أتأخذه أم تتركه؟ موسى كانت معه النسخة الوحيدة الإضافية من مفتاح الشقة. وجارسون هوبارت كان راكنًا في أفغانستان ومن ثم مأمون الجانب. وهو على كل حال لا يمتلك نسخة من المفتاح. وهكذا لم يكن في تركها داخل الشقة مخاطرة عظيمة. ما لم، ما لم، ما لم... ألم يكن ثمة احتمال بعيد لأن تقتحم الشرطة الشقة؟

كانت "منقذاته" قليلة، وبدا واضحًا تمامًا أنها بُعثت في تعجُل. حينما وصلت إليها كان على البعض منها وحلّ يابس ـغرين نهري داكن كثيف. وبعضها كان في حالة جيدة وواضح أنه أفلت من مياه الطوفان. كان بينها ألبوم خرب يضم صورًا عائلية مبقعة بالماء، أغلبها يصعب كثيرًا التعرُّف على من فيها، ابنة موسى، الآنسة جِبين الأولى، وأمّها عارفة. كانت بينها رزمة جوازات سفر في كيس بلاستيكي محكم الغلق، هي إجمالاً سبعة، اثنان هنديان وخمسة من جنسيات أخرى ـإياد خريف (موسى الحمامة اللبناني)، هادي حسن محسني (موسى الحكيم والدليل الإيراني)، فارس علي حلبي (موسى الفارس السوري) محمد نبيل السالم (موسى النبيل القطري)، أحمد ياسر القاسمي (موسى الثري البحريني). موسى حليق اللحية، موسى بلحية يخالط بياضها سوادها، موسى طويل الشعر حليق اللحية، موسى قصير الشعر خفيف اللحية. تذكّرت تِلُو أول الأسماء، إياد خريف، فقد كان موسى يحبه، وكانا

يضحكان عليه في أيام الجامعة لأنه يعني "الحمامة المولودة في الخريف". وكانت تِلُو تشتقّ منه اسمًا لكل من يضايقها من الناس هو جاندو خريف، أي الوغد المولود في الخريف. (والحق أنها في شبابها كانت بذيئة اللسان بصورة استثنائية، ولما بدأت تعلُّم الهندية للمرة الأولى، كانت تجد لذة كبيرة وهي تجعل السباب حديث التعلم قاعدة تقيم عليها معجمها اللغوي الجديد كله).

في كيس بلاستيكي آخر وجدت بطاقات ائتمانية مغلفة بالطين تحمل مثل أسماء جوازات السفر، وتصريحات بالصعود للطائرات، وقليل من تذاكر الطيران لا تعدو آثارًا من العهد الذي كانت توجد فيه تذاكر الطيران المطبوعة. تضمنَّت المنقذات كذلك دفاتر هواتف قديمة مكتظة بأسماء وعناوين وأرقام، وقد كُتب على الغلاف الخلفي لأحد تلك الدفاتر في سطور قطرية، مقطع من أغنية:

من العتمة للنور ومن النور للعتمة

ثلاث حمولات سوداء، على ثلاث عربات بيض

ما يجمعنا هو ما يفرّقنا

فقدنا أخانا، ومعه فؤادنا

من ذلك الذي كان يرثيه؟ لم تعرف. ربما هو رثاء جيل بأكمله.

كان ثمة رسالة غير مكتملة، على ورق رسائل أزرق محلي. لم تكن موجّهة إلى أحد. لعله كان يكتبها لنفسه... أو لها، فقد بدأها بقصيدة أرديّة حاول أن يترجمها، وكان كثيرًا ما يفعل ذلك من أجلها:

يا إلهي، كفاني تجمعات دنيوية
أي سعادة فيها، وقد خبا نور قلبي؟
من جلبة الزحام أفرّ
وقلبي يطلب من الصمت
ما يذهل منه الكلام

وتحت ذلك كتب:

لا أعرف أين أتوقف، أو كيف أستمرّ. أتوقف حيث لا ينبغي التوقّف. وأستمرّ حيثما ينبغي التوقّف. ثمة تعب. لكن ثمة تحدٍّ أيضًا. وهما معًا أنا في هذه الأيام. معًا يسرقان مني النوم، ومعًا يستردّان لي الروح. ثمة فيض من المشكلات التي لا يبدو أن لها حلولاً في الأفق. أصدقاء يصبحون أعداء. إن لم يكونوا معلنين، فصامتين، مضمرين. ولم أر بعد خصمًا يتحول إلى صديق. لا تبدو في الأفق بارقة أمل. ولكن ادّعاء الأمل فضل لم نوهب غيره...

لم تعرف من الأصدقاء الذين يشير إليهم.

كانت تعرف أن بقاء موسى على قيد الحياة حتى ذلك الوقت معجزة حقيقية. فعلى مدار السنوات الثماني عشرة المنصرمة منذ عام ١٩٩٦ عاش حياة يُحتَمَل أن تكون كلّ ليلة فيها هي ليلة السكاكين طوال النصال[٣٩]. كان يقول لتِلُو كلما استشعر القلق يستبد بها: "كيف يمكنهم أن يقتلوني مرة أخرى؟ لقد حضرت جنازتي بالفعل. لقد نثرت الزهور على مقبرتي وانتهى الأمر. ما الذي يمكنهم أن يفعلوه بي أكثر من ذلك؟ أنا ظلٌ في وضح النهار. أنا غير موجود". في آخر لقاء لها به قال لها شيئًا عارضًا هازلاً لكن بحسرة في عينيه. قاله فتجمدَّت عيناها.

"في هذه الأيام في كشمير قد يكون على البعض أن يموتوا لكي ينجوا من الموت".

قال موسى لتِلُو إن الأعداء في المعركة لا يملكون أن ينالوا من روح المقاتل، تلك مقدرة لا يملكها غير الأصدقاء.

في صندوق آخر سكين صيد وتسعة هواتف محمولة ـ وذلك كثير بالنسبة لرجل لم يكن يستعمل الهاتف المحمول أصلاً ـ فالقديمة منها بحجم قوالب الطوب الصغيرة، وكلها من نوكيا، وهاتف ذكي من سامسونج، واثنان من آيفون. عند وصولها مكسوة بالوحل، كانت تبدو مثل حفريات ألواح من الشوكولاته. والآن، وقد تخلّصت من

---

٣٩ ٣٠ يونيو ١٩٣٤، وفي تلك الليلة قامت القوات النازية بأمر من هتلر بتصفية مئات من الزعماء الذين كان يراهم خصومًا له. عن بريتانيكا.

الوحل، بدت الهواتف قديمة وغير قابلة للاستعمال. كان ثمة رزمة من القصاصات الصحفية المصفرّة المتيبّسة، أولاها تضمّ بيانًا أصدره رئيس وزراء كشمير حينذاك. وقد وضع شخص خطوطًا تحت سطوره:

> **ليس بوسعنا أن ننبش جميع القبور. نحن بحاجة إلى إرشادات عامة على الأقل من أهالي المفقودين، ما لم تتوافر معلومات محددة واضحة. على أقارب المفقودين أن يخبرونا بالأماكن التي يرجّح أن يكون أقاربهم مدفونين فيها.**

احتوى صندوق ثالث على مسدّس، وبضع طلقات، وزجاجة أقراص (لم تعرف أقراص أي شيء، لكنها كانت في وضع يسمح بالتخمين المرجّح -أقراص عقار ما يبدأ بـ ك- ودفتر يبدو أنه لم يعانِ ويلات الطوفان. تذكرت تِلُو الدفتر وعرفت في الخط المكتوب فيه خطّها هي، ولكنها مضت تقرأ محتوياته في فضول، وكأن من كتبه شخص آخر. في هذه الأيام كانت تشعر أن مخّها نفسه "منقَذ" يلوثه الوحل. وليته مخّها وحده، بل هي نفسها، **كلها**، كانت تشعر أنها منقذة، ركام من المنقذات الموحلة، المجمّعة عشوائيًا.

قبل وقت طويل من تحولها إلى كاتبة اختزال لأمّها ولدكتور آزاد بهارتيا، كانت تعمل كاتبة اختزال عجيبة غير متفرغة ثم متفرغة في وظيفة عسكرية. وبعد واقعة شيراز، ورجوعها إلى دلهي، وزواجها من ناجا، كانت تسافر إلى كشمير بهوس، شهرًا بعد شهر، وسنة بعد

سنة، كالباحثة عن شيء تركته هناك. كانت نادرًا ما تلتقي هي وموسى في تلك الرحلات (فأغلب لقاءاتهما كانت تجري في دلهي). لكنه كان في أثناء وجودها في كشمير يتابعها من مخبئه. كانت تعرف أن الأنفس الودودة التي تظهر لها كأنما من العدم، فتحوم حولها، أو تسافر برفقتها، أو تدعوها إلى بيوتها، هم ناس موسى. كانوا يقابلونها بالترحاب ويحكون لها ما لا يكادون يحكونه لأنفسهم، لمجرد أنهم يحبون موسى، أو يحبون فكرتهم عنه على الأقل، فكرة الرجل الذي عرفوه ظلاً وسط الظلال. لم يكن موسى يعرف عمَّ تبحث، ولا هي كانت تعرف. أنفقت في تلك الرحلات أغلب المال الذي اكتسبته من مهام التصميم والطباعة. كانت في بعض الأحيان تلتقط صورًا غريبة، وتكتب أشياء غريبة، وتلملم نتفًا من قصص وملاحظات عجيبة لا يبدو أنها ترمي إلى غرض. لم يبدُ أن لاهتمامها ثيمة أو شكلاً. لم تكن لديها مهمة محددة، أو مشروع. لم تكن تكتب لجريدة أو مجلة، لم تكن تؤلف كتابًا أو تعمل على فيلم. لم تكن تلتفت إلى ما يرى أغلب الناس أن له أهمية. وبمرور السنين صار أرشيفها الرثُّ الفريد خطرًا. كان أرشيف منقذات، لا من طوفان بل من كارثة من نوع آخر. وبالغريزة أخفته عن ناجا، ورتَّبته وفق منطق محكم يخصُّها، توصَّلت إليه بالحدس، دون أن تفهمه في وضوح. لم يكن يرقى إلى أي شيء ذي علاقة بالجدال المحتدم في العالم الحقيقي. ولكنها لم تبال بذلك على الإطلاق.

الحقيقة أنها كانت تنشد من رحلاتها إلى كشمير طمأنة قلبها المضطرب، والتكفير عن جريمة لم تقترفها.

وضع زهور يانعة على مقبرة الرفيق جُلريز.

كان الدفتر الذي بعثه موسى مع "المنقذات" دفترها. لا بد أنها نسيته هناك في واحدة من رحلاتها. صفحاته القليلة الأولى ممتلئة بكتابتها، والبقية خاوية. ابتسمت لمّا رأت الصفحة الأولى:

دليل القارئ

في فهم الإنجليزية وقواعدها

للأطفال الصغار جداً

تأليف:

س. تِلوتما

جاءت بِطفأة وجلست متربعة على الأرض، ومضت تدخّن سيجارة من سيجارة وهي تقرأ الدفتر حتى آخره. كانت فيه قصص، وقصاصات صحفية، وبعض اليوميات:

الشيخ وابنه

عندما أصبح منظور أحمد جاناي مقاتلاً، ذهب الجنود إلى بيته وقبضوا على أبيه الوسيم دائم الأناقة عزيز جاناي. اعتقلوه في مركز حيدر بايج للتحقيقات. عمل منظور أحمد جاناي مقاتلاً لعام ونصف العام. وبقي أبوه محبوسًا لعام ونصف العام.

في اليوم الذي قُتل فيه منظور أحمد جاناي، فتح الجنود مبتسمين باب زنزانة أبيه. "جنابك كنت تريد الحرية؟ مبارك. اليوم تحققت أمنيتك. حريتك وصلت".

بكى أهل القرية الحطام ثقيل الخطا الذي جاء عبر البستان مشدوه العينين جامح اللحية والشعر بعد عام ونصف العام من عدم الحلاقة، أكثر مما بكوا الصبي المقتول.

وصل الحطام ثقيل الخطا في اللحظة المناسبة تمامًا لرفع الكفن وطبع قبلة على وجه ابنه قبل أن يدفنوه.

س ١: لماذا كان بكاء أهل القرية أكثر على الحطام المتثاقل؟

س ٢: لماذا كان الحطام متثاقلاً؟

أخبار

هيئة أخبار كشمير الموجَّهة (ه أ ك أ)
عشرات الماشية تجتاز خط السيطرة في راجوري

اجتاز ما لا يقل عن ٣٣ من الماشية بينها ٢٩ من الجاموس إلى الجانب الباكستاني في قطاع ناوشيرا بمقاطعة راجوري في جامّو وكشمير.

اجتازت الماشية، وفقًا لما أعلنته ه أ ك أ، خط السيطرة في قطاع كالسيان الفرعي. وقال بعض سكان المنطقة لـ(ه أ ك أ) إن "الماشية تخصُّ رام سروب، وآشوك كُمار، وتشاران داس، وفيد بركاش، وغيرهم، وإنها كانت ترعى قرب خط السيطرة حينما عبرت إلى الجانب الآخر".

ضع علامة صح أمام الإجابة الصحيحة:

س ١: لماذا اجتازت الماشية خط السيطرة؟

أ. للتريّض

ب. للتسلل

ج. لا هذا ولا ذاك

جريمة القتل الكاملة (قصة ج)

حدث هذا قبل سنوات قليلة، قبل أن أستقيل من الهيئة. ربما في ٢٠٠٠ أو ٢٠٠١. كنت في ذلك الوقت ن م أ، نائب مدير الشرطة، أخدم في ماتان.

وذات ليلة، في الساعة ١١:٣٠ مساء، ورد إلينا اتصال من قرية مجاورة. كان المتصل من أهل القرية ولم يكشف عن اسمه. قال إن جريمة قتل وقعت. فذهبنا. أنا ورئيسي، مدير الشرطة. كان ذلك في يناير. والبرد قارس. والجليد في كل مكان.

وصلنا إلى القرية. الناس جميعًا داخل بيوتهم. الأبواب مغلقة. المصابيح مطفأة. كان الجليد قد توقف عن الهطول. كانت الليلة صافية، والقمر بدرًا ينعكس نوره على الجليد. وبوسعك أن ترى كلَّ شيء بمنتهى الوضوح.

رأينا جثة رجل، رجل قوي ضخم. كان راقدًا في الجليد. مقتولاً للتو. فاض دمه على الجليد. ولّما كان لا يزال حارًّا فقد أذاب الجليد، فرأيناه لا يزال يسيل عند وصولنا. كان راقدًا هناك كأنه يُطهَى ...

كان يمكنك أن ترى أنه بعد نحر عنقه قد سحب نفسه نحو ثلاثين مترًا ليطرق باب بيت. فلم يفتح أحد الباب من الخوف، وظل الرجل ينزف حتى الموت. وكان مثلما قلت رجلاً ضخمًا، لذلك كان حوله كثير من الدم. كان يرتدي بذلة بتهانية -وسروالا- وسترة مموهة واقية من الرصاص، ويلتفّ حوله حزام ذخيرة ممتلئ بالرصاص. وعلى الأرض بالقرب منه رشّاش من طراز آيه كيه ٤٧. لم يخالجنا شك في أنه مقاتل، لكن من الذي قتله؟ لو كان الجيش لكان حمل الجثة بالطبع وسارع بالإعلان فورًا عن القتل. ولو كانت جماعة مسلحة منافسة لاستولت على سلاحه. كان لغزًا كبيرًا لنا.

جئنا بأهل القرية واستجوبناهم. فلم يعترف منهم أحد أنه رأى أو سمع أو يعرف أي شيء. رجعنا بالجثة معنا إلى قسم شرطة ماتان. وهناك اتصل مديري بالضابط الآمر في معسكر راشتريا رايفل القريب -التابع للجيش- ليسأله إن كان يعرف عن الأمر شيئًا. لا شيء.

لم يكن التعرف على الجثة صعبًا. فقد كانت لقائد شهير مرموق من قادة المقاتلين المنتمين إلى الحزب. حزب المجاهدين. لكن أحدًا لم يعلن مسؤوليته عن قتله. فقرَّر مديري وضابط الجيش الآمر في نهاية المطاف أن يملنا مسؤوليتهما عن قتله. أعلنا أنه قُتل في أثناء مواجهة أعقبت حملة تطويق وتفتيش تمت بالاشتراك بين معسكر راشتريا رايفل وشرطة جامّو وكشمير.

وظهرت القصة في الصحافة المحلية على النحو التالي: في معركة شرسة بالسلاح الناري استمرّت لعدة ساعات، قُتل إرهابي مرعب في عملية مشتركة بين معسكر راشتريا رايفل وشرطة جامّو وكشمير بقيادة الرائد س س نائب مدير شرطة ص ص.

وتلقّى كلانا، في معسكر راشتريا رايفل وشرطة جامّو وكشمير رسائل الشكر، وتقاسمنا المكافأة المالية. وسلّمنا جثة المقاتل إلى ذويه بعد تحقيق سريّ حول ما إذا كانوا يعرفون قتلته. واكتفينا بذلك.

بعد سبعة أيام، في قرية أخرى، عُثر على مقاتل آخر من مقاتلي الحزب منحورًا. كان التالي في القيادة للقتيل الأول الذي عثرنا على جثته. واعترف الحزب بالقتل. وسمحوا بتسريب معلومة تفيد أنه قُتل لاغتياله القائد وسرقته مليونين ونصف المليون من النقد الذي كان ينبغي توزيعه على صفوف المقاتلين.

ظهرت القصة في الصحافة المحلية على النحو التالي: ذبح شنيع لمدني بريء على أيدي المقاتلين.

س ١: من بطل هذه القصة؟

الواشي - ١

في منطقة ترال الشهيرة. قرية اسمها ناف دال. العام ١٩٩٣. القرية تغصّ بالمقاتلين. هي قرية "محرَّرة". يعسكر الجيش في ضواحيها، لكن الجنود لا يدخلون إليها. الوضع متجمِّد تمامًا. لا يقرب أهل القرية معسكر الجيش. لا علاقة من أيِّ نوع بين الجنود وأهل القرية.

ومع ذلك، يعرف الضابطُ قائدُ المعسكر كلَّ حركة للمقاتلين. ومن يدعم الحركة من أهل القرية، ومن لا يدعمها منهم، ومن يوفِّر للمقاتلين الطعام والمأوى طوعًا، ومن لا يفعل.

تفرض رقابة صارمة على مدار أيام. ما من شخص واحد يدخل المعسكر. ما من جنديٍّ واحد يدخل القرية. ومع ذلك تصل المعلومات إلى الجيش.

أخيرًا يلاحظ المقاتلون ثورًا أسود أملس الشعر من ثيران القرية يزور المعسكر بانتظام. يعترضون طريق الثور. مُعلَّق في قرنيه، بجانب

تنويعة من التعاويذ (لوقايته من المرض، وعين الحسود، والعقم) وريقات صغيرة بالمعلومات.

في اليوم التالي يعلّق المقاتلون في قرون الثور قنبلة. ويفجّرونها عند اقترابه من المعسكر. لا يموت أحد. ويتعرّض الثور لإصابات جسيمة. ويعرض جزّار القرية الذبح "الحلال" بحيث يتسنّى لأهل القرية أن يولموا على لحمه على الأقل.

يصدر المقاتلون فتوى. هذا ثور واشٍ. لا يحلُّ لأحد أكل لحمه.
آمين.

س ١: من بطل هذه القصة؟

الواشي-٢

كان يحلو له أن يخون الناس،
فذلك كان ينزع عنه صفة الإنسانية.
ونزع الصفة الإنسانية عن نفسي
نزعة أساسية في نفسي.
چان چينيه
لم أبرأ بعد من السعادة.
آنا أخماتوفا
س ١: من بطل هذه القصة؟

العذرية

تم إجهاض هجمة الفدائيين التي كان مخططًا تنفيذها ضد معسكر الجيش، وذلك في اللحظة الأخيرة، وبسبب الفدائيين أنفسهم دون سواهم. وقد اتخذوا ذلك القرار لأن عابد أحمد المعروف بعابد سوزوكي، سائق سيارة ماروتي سوزوكي التي كانوا يركبونها، كان يسوق بصورة سيئة للغاية. فانحرفت السيارة بشدّة إلى اليسار، ثم بحدّة إلى اليمين، وكأنها كانت تتفادى شيئًا ما. في حين أن الطريق كان خاويًا من أي شيء يجب تفاديه. ولما سأل الرفاق عابدًا (ولم يكن أيهم يجيد القيادة) عن الأمر، قال لهم إنهن الحوريات وقد جئن يصطحبنهم جميعًا إلى السماء. قال إنهن عرايا يرقصن على مقدمة السيارة فيشتّتنه.

لم يكن من وسيلة للتثبت من الحوريات أهن عذارى أم لا.
لكن المؤكد أن عابد سوزوكي كان في منتهى العذرية.
س١: لماذا كان عابد سوزوكي يسوق بصورة سيئة؟
س٢: كيف ترسّخ عذرية رجل؟

القلب الشجاع

كان محمود خياطًا في بودجام. وكانت أقوى رغبة لديه هي أن تكون له صورة بالبندقية. وأخيرًا اصطحبه صديق من المدرسة كان قد التحق بجماعة مقاتلة إلى مخبئهم وحقّق له حلمه. رجع محمود إلى سري

نجر بالنيجاتيف وأخذه إلى ستوديو تاج فوتو لطبع الصور. فاوض على تخفيض ٢٥ بيسة في الصورة الواحدة. ولما ذهب للحصول على الصور وجد قوة من حرس الحدود تطوّق ستوديو تاج فوتو فاعتقلته متلبسًا بالصور. أخذوه إلى معسكر وعذّبوه لأيام كثيرة. لم يُدلِ بأيٍّ معلومات. حكم عليه بالسجن عشر سنوات.

اعتُقل القائد المقاتل الذي سهّل جلسة التصوير بعد شهور قليلة. صودر منه رشّاشان من طراز آيه كيه ٤٧ وبضع خزانات ذخيرة، وتم إطلاق سراحه بعد شهرين.

س ١: هل كان الأمر يستحق؟

الطّموح

كان الولد يرغب دائمًا أن يصنع من نفسه شيئًا كبيرًا. دعا أربعة مقاتلين إلى العشاء ووضع لهم حبوبًا منومة في الطعام. فما كاد يغلبهم النوم حتى اتصل بالجيش. جاء الجيش فقتل المقاتلين وأحرق البيت. كان الجيش قد وعد الولد بكنالين من الأرض[٤٠] ومئة وخمسين ألف روبية، ولم يعطوه غير خمسين ألفًا وأسكنوه في حيٍّ يقع على مقربة من معسكر الجيش. وأخبروه أنه لو أراد وظيفة دائمة معهم بدلاً من العمل باليومية فعليه أن يأتي إليهم بمقاتلَين أجنبيين. وأمكنه أن يأتيهم بباكستاني "حي"

٤٠ نحو تسعة آلاف قدم.

لكنه واجه مصاعب في الإتيان بالثاني. وقال للمكتب الصحفي إن "الشغل في هذه الأيام ليس على ما يرام بكل أسف. أصبحت الأوضاع صعبة فليس بوسع الواحد أن يقتل شخصًا ويدّعي أنه مقاتل أجنبي. لذلك لا أستطيع تحويل عملي إلى وظيفة دائمة".

سأله مندوب المكتب الصحفي، لو أجري استفتاء فلمن سوف يصوّت، للهند أم باكستان؟

"باكستان طبعًا"

"لماذا؟"

"لأنها بلدنا. ولكن المقاتلين الباكستانيين لا يملكون مساعدتنا. لو أن بوسعي أن أقتلهم وأحصل على وظيفة فهذا سوف يساعدني".

قال للمكتب الصحفي إن كشمير عندما تصبح جزءاً من باكستان فإنه (أي مندوب المكتب الصحفي) لن يستطيع أن يعيش فيها. أما هو (الولد) فسوف يعيش. لكن ذلك مثلما قال مجرد كلام نظري، لأنه سوف يقتل بمنتهى السرعة.

س ١ : على يد من يتوقّع الولد أن يقتل؟

أ) الجيش
ب) المقاتلون
ج) الباكستانيون
د) أصحاب البيت الذي احترق

كان مانوهار ماتّو حكيمًا كشميريًا ظلّ مقيمًا في الوادي حتى بعدما رحل عنه جميع الهندوس. وكان الاستياء قد بلغ منه مبلغًا عظيمًا من وخزات أصدقائه المسلمين الذين كانوا يقولون إن جميع الهندوس في كشمير ما هم في حقيقة الأمر إلا عملاء لقوات الاحتلال الهندية بطريقة أو بأخرى. كان مانوهار قد شارك في جميع المظاهرات المناهضة للهند، وصرخ مطالبًا بآزادي فعلا صوته على كلّ من عداه. ولم يشفع له شيء من ذلك. حتى أنه في مرحلة ما فكّر في حمل السلاح والانضمام إلى الحزب، ولكنه قرّر في النهاية ألا يفعل ذلك. وذات يوم زاره صديقه عزيز محمد، ضابط المخابرات، في البيت ليقول له إنه قلقٌ عليه. قال إنه رأى ملفّ مراقبته (ملف ماتّو). أشار الملفّ إلى وضعه تحت المراقبة لإظهاره "نزعات مناهضة للوطن".

عندما سمع ذلك الخبر أشرق وجه ماتّو وشعر أن صدره امتلأ فخرًا.

قال لصديقه "أنت الآن منحتني جائزة نوبل".

واصطحب عزيز إلى كافيه أرابيكا فطلب له بخمسمئة روبية قهوة ومخبوزات.

بعد سنة من ذلك توفّي مانوهار ماتّو بطلقة من مسلّح مجهول بدعوى أنه كافر.

س ١: لماذا قتل ماتو؟

أ) لأنه كان هندوسيًا

ب) لأنه أراد الآزادي

ج) لأنه حصل على جائزة نوبل

د) لا شيء مّا سبق

ه) جميع ما سبق

س ٢: من يُحتمل أن يكون المسلح المجهول؟

أ) مقاتل إسلامي كان يرى ضرورة قتل جميع الكفار

ب) عميل للاحتلال أراد الناس أن تظن أن جميع المقاتلين الإسلاميين يرون ضرورة قتل جميع الكفار

ج) لا شيء مما سبق

د) شخص ما أراد أن يصاب الجميع بالجنون وهم يحاولون فهم ما جرى.

تقول خديجة . . .

عندما نصحو في كشمير ونقول "صباح الخير". فإن ما نعنيه فعلاً هو "صباح الخير".

الست ديل أفروزي كانت انتهازية شهيرة تؤمن بضرورة التغير - بالمعنى الحرفي للكلمة- بتغير الأزمنة. فحينما كان يبدو أن الحركة في صعود وارتفاع، كانت تقدّم ساعة يدها نصف ساعة لتوافق التوقيت الرسمي لباكستان. وحينما كان الاحتلال يستعيد زمام الأمور كانت تعيد ضبط الساعة على التوقيت الهندي. حتى سرى قول في الوادي بأن "ساعة الست ديل أفروزي ليست ساعة بل جريدة".

س ١: ما مغزى هذه القصة؟

يوم كذبة إبريل ٢٠٠٨: الحقيقة أنها ليلة كذبة إبريل. طوال الليل ترد الأخبار متقطّعة، تنتقل من هاتف محمول إلى آخر: "مصدامات" في قرية بانديبورا. تقول قوات العمليات الخاصة والمخابرات إنهما تلقّتا معلومات محدّدة تفيد بوجود مقاتلين -رئيس عمليات لشكر طيبة وبعض آخرين- في منزل بقرية تشيذي باندي. وبدأت حملة مشدّدة. واستمرّت المصادمة طيلة الليل. وبعد منتصف الليل أعلن الجيش أن العملية كُلّلت بالنجاح، وأسفرت عن مصرع اثنين من المقاتلين، لكن الشرطة قالت إنه لا وجود لجثث.

ذهبت مع باء إلى بانديبورا. ورحلنا عند الفجر.

يمرُّ الطريق من سري نجر إلى بانديبورا متلويًا عبر حقول الخردل. بحيرة وولار كامدة عكرة. تختال عليها قوارب نحيلة اختيال عارضات الأزياء. يحكي لي باء أن الجيش اصطحب حديثًا في سياق "عملية النيَّة الحسنة" واحدًا وعشرين طفلاً في نزهة بقارب تابع للبحرية. وانقلب القارب، وغرق الأطفال جميعًا. ولَمّا تظاهر ذوو الأطفال تعرَّضوا جميعًا لإطلاق الرصاص. فلم يمت منهم إلا سعداء الحظ.

يقولون إن بانديبورا "محرَّرة". مثلما كانت سوبوري في يوم من الأيام. ومثل شوبيان الآن. بانديبورا تستند إلى جبال شاهقة. لما وصلنا إليها تبيّن لنا أن الحملة لا تزال قائمة لم تنته.

قال أهل القرية إنها بدأت في الثالثة والنصف عصرًا من اليوم السابق. طُرد الناس من بيوتهم بتهديد السلاح. فخرج الناس تاركينها مفتوحة، والشاي ساخنًا لم يُشرب بعد، والكتب مفتوحة، والواجب المدرسيّ ناقصًا، والطعام على النار، والبصل في المقلاة، والطماطم المخرّطة لم تُضفْ بعد.

قال أهل القرية إن الجنود كانوا أكثر من ألف. وبعضهم قال أربعة آلاف. والخوف بالليل يتضاعف، فلا بدّ أن الورق في شجر الشينار بدا شبيهًا بالجنود. وببطء تقدّمت الحملة، وطلع الفجر، فلم تكن الطلقات هي التي تمرق فقط بين الحين والآخر بين الناس، بل وأصوات أرقّ تصدر عن دواليبهم إذ تفتح، ونقودهم وحليّهم إذ تسرق وأنوالهم إذا تُحطَّم. حتى مواشيهم شويت حيّة في حظائرها.

دمَّروا بيتًا كبيرًا يخصُّ شقيقَ شاعر. تركوه كومة من الحطام. ولم يُعثر فيه على جثث. فقد هرب المقاتلون. أو ربما لم يكن لهم وجود من الأساس.

ولكن لماذا كان الجيش لا يزال هناك؟ كان الجنود بالرشّاشات والمجاريف يسيطرون على الزحام.

مزيد من الأخبار:

اعتقل شابان من محطة بترول قريبة.

المزدحمون يتوترون.

أعلن الجيش بالفعل قتله اثنين من المقاتلين هنا في تشيذي باندي. فعليه الآن أن يقدِّم جثتين. الناس تعرف كيف تسير الحياة الحقيقية. في بعض الأحيان يُكتب السيناريو مسبقًا.

"لو أن جثتي الولدين محروقتان حديثًا فلن نقبل قصة الجيش"

"اذهبي يا هند، اذهبي من هنا".

تقع أعين الناس على جندي واقف في مسجد القرية، مطلٌّ عليهم. لم يخلع حذاءه في ذلك المكان المقدّس. يعلو الجعير. ببطء تعلو فوّهة البندقية وتجهز عليه. يتقلّص الهواء ويتكلّس.

تندفع طلقة من حيثما كان منزل شقيق الشاعر. ذلك إعلان. الجيش سينسحب. طريق القرية ليس فسيحًا فيتسع لهم ولنا، فلكي نفسح لهم مجالاً، نلصق أنفسنا بجدران البيوت. يمضي صفّ الجنود بيننا.

في أعقابهم الصراخ كأنه صفير الريح في طريق القرية. بمكنك أن تستشعر غضب الجنود وخزيهم. يمكنك أيضًا أن تستشعر قلّة حيلتهم وانغلابهم على أمرهم. قد يتغيّر ذلك كلّه في لحظة.

ليس عليهم إلا أن يستديروا ويطلقوا الرصاص.

وليس على الناس إلا أن ينبطحوا موتى.

بذهاب آخر الجنود، ارتقى الناس ركام البيت المحروق. لم يزل الدخان ينبعث من ألواح الصفيح التي كانت سقفًا للبيت من قبل. ثم صندوق مفتوح محترق، وألسنة اللهب لا تزل تتواثب منه. ما الذي كان بداخله فيحترق هذا الاحتراق الجميل؟

على جبل الركام الدخاني الصغير، وقف الناس يهتفون:
هوم كيا تشاهتي؟
آزادي
ويسمُّوننا لشكر
أيوا أيوا
لشكر طيبة!

يرد مزيد من الأخبار.
اعتقلت قوات العمليات الخاصة مدثر ناظر.
يصل والده. مقطوع النفس. ممتقع الوجه. ورقة خريف في الربيع.
أخذوا ولده إلى المعسكر.

"هو ليس مقاتلاً. لقد أصيب في مظاهرة السنة الماضية".

"يقولون إنك لو أردت استرداد ولدك، فابعث لنا ابنتك. يقولون إنها ع ف أ، عنصر فوق الأرض. وإنها تساعد رجلاً من الحزب في نقل بعض أغراضه".

ربما تفعل ذلك، أو لا تفعل. في الحالتين هالكة.

سوف أساعد رجلاً من الحزب في نقل أغراضه.
ثم سيقتلني لكوني إياي.
امرأة سيئة سافرة.
هندية.
هندية؟
مهما يكن.
هذا ما يكون.

لا شيء

أودّ أن أكتب قصة من تلك القصص الراقية التي لا يحدث فيها الكثير ويظلّ من الممكن أن يُكتب فيها الكثير. ذلك غير ممكن في كشمير. فما يجري هنا بعيد عن الرقيّ. والدم المراق أغزر مما يحتمله الأدب الجيد؟

س ١ : لماذا ليس راقيًا؟

س ٢: ما كمُّ الدم المقبول في الأدب الجيد؟

*

كان آخر ما احتواه الدفتر بيانًا صحفيًا من الجيش ملصقًا في إحدى الصفحات:

مكتب الاستعلامات الصحفية (جناح الدفاع)

مكتب العلاقات العامة التابع للحكومة الهندية

وزارة الدفاع، سري نجر

بنات بانديبورا يخرجن في رحلة

بانديبورا، ٢٧ سبتمبر: كان اليوم يومًا مُهمًا في حياة ١٧ فتاة من قرية إيرين وداردبورا من مقاطعة بانديبورا حيث دشّنت جولتهم التي تستمر ١٣ يومًا في أجرا بدلهي على يد السيدة سونيا ميهرا والعميد آنيل ميهرا قائد لواء ٨١ من أراضي صيد السمك في قرية إيرين. يرافق الفتيات سيدتان كبيرتان ومسؤولان من المنطقة، فضْلاً عن مسؤولين من معسكر راشتريا رايفلز. سوف يقمن بزيارة الأماكن ذات الأهمية التاريخية والتعليمية في آجرا بدلهي وتشَنْدي جَره. وسوف يحظين بفرصة اللقاء بحاكم البنجاب وولايتهم.

قال العميد آنيل ميهرا، قائد لواء ٨١ الجبلي، أثناء خطابه للمشاركات إن عليهن أن يحقّقن أقصى الاستفادة من الفرصة الممتازة

المنوحة لهن. كما طلب منهن أن يتنبهن بشدة للتقدم الذي حقّقته الولايات الأخرى، وأن يجعلن من أنفسهن سفيرات سلام. كما حضر اللقاء لتقديم وداع حار العقيدُ براماش سنج نيجي قائد معسكر راشتريا رايفلز، ورئيسا القرية المنتخبان وأولياء أمور المشاركات بجانب جمع من الأهالي.

استغرقت قراءة دليل القارئ في فهم الإنجليزية وقواعدها للأطفال الصغار جداً تدخين سيجارتي بيدي وأربع سجائر، مع المراعاة الواجبة لسرعة القراءة/التدخين، وكلتاهما متغيرة.

ابتسمت تِلُو لنفسها وقد تذكّرت حملة أخرى من حملات النية الحسنة كالموصوفة في بيان الصحفي تعطّف الجيش ونظّمها للصبية من ملجأ مُسكان العسكري في سري نجر. بعث موسى رسالة يطلب فيها مقابلتها في القلعة الحمراء. لا بد أن ذلك حدث قبل عشر سنوات. فقد كانت تعيش مع ناجا في ذلك الوقت.

في ذلك اليوم، كان موسى ـ في واحدة من أجرأ حالاته ـ أحد مرافقي المجموعة المدنيين. وكانوا يمرّون بدلهي في طريقهم إلى آجرا لمشاهدة تاج محل. وفيما كانوا في دلهي ذهب الأيتام لزيارة قطب مينار والقلعة الحمراء وبوابة الهند ورشتراباتي بهافان ومبنى البرلمان ومنزل بيرلا (الذي قتل فيه غاندي) وتين مورتي (الذي عاش فيه نهرو) وطريق سفدارجونج ١ (الذي قتلت فيه إنديرا غاندي على يد حرسها السيخ).

صعب التعرف على موسى. كان يطلق على نفسه اسم زَهور أحمد، ويبتسم أكثر مما ينبغي له، ويتصنَّع سيماء منحنية، خنوعًا، على قدر ما من البلاهة.

التقى هو وتِلُو لقاء غريبين تصادف أن تجاورت جلستاهما على أريكة في عتمة عرض الصوت والضوء في القلعة الحمراء. كان أغلب بقية الحاضرين من السياح الأجانب. همس موسى في أذنها "هذه مغامرة مشتركة بيننا نحن وقوات الأمن. في بعض الأحيان، في هذه النوعية من التعاون، لا يعرف الشركاء أنهم شركاء. يتصوّر الجيش أنه يعلم الأطفال حب وطنهم. ونتصور نحن أننا نعرِّفهم بعدوهم، فحينما يحين دور جيلهم في النضال، لا ينتهي بعضهم إلى أن يفعل مثلما فعل حسن الشارد".

جاء أحد الأيتام، وهو صبي ضئيل الحجم عظيم الأذنين فجلس على قدمي موسى، وقبّله ألف قبلة ثم سكن تمامًا، متفحصًا تِلُو عن مسافة ثلاث بوصات تقريبًا، بعينين حادّتين خاليتين من أيِّ تعبير. موسى قابل قبلاته بخشونة، فلم يستجب لها. لكن تِلُو رأت عضلات وجهه تختلج، لوهلة، وعينيه تتوهجان. تركت اللحظة تمضي.

"من يكون حسن الشارد؟"

"كان جاري. رجلاً عظيمًا. أخًا".

وكان وصف امرئ بـ"الأخ" أعظم آيات الثناء لدى موسى.

أراد أن ينضم إلى المقاومة، لكنه رأى في أولى رحلاته إلى الهند زحام محطة في تي فاستسلم. قال حينما رجع 'هل رأيتم يا إخوتي كم هم كثيرون؟ لا أمل لنا. إنني أستسلم'. واستسلم فعلاً! ويعمل الآن في مشروع نسيج صغير".

مبتسمًا ابتسامة عريضة في الظلام، طبع موسى على رأس الصبي الجالس في حجره قبلة كبيرة في ذكرى صديقه حسن الشارد، فنظر إليه الصغير مباشرة، وقد أشرق وجهه كأنه مصباح.

في العرض الصوتي كان العام هو ١٧٣٩. وكان الإمبراطور محمد شاه رانجيلا معتليًا عرش الطاووس في دلهي منذ قرابة ثلاثين سنة. كان إمبراطورًا مثيرًا للغاية. فقد كان يشاهد مصارعة الفيلة مرتديًا ثياب النساء ونعلاً مرصّعًا بالحليّ. وبرعاية منه أقيمت مدرسة لرسم المنمنمات تصوِّر الجنس الصريح والمناظر الريفية. ولكن الأمر لم يقتصر على الجنس والفجور. فقد كانت راقصات الكتهك العظيمات والقوالة يعرضون في بلاطه. وفي عهده ترجم الباحث المتصوف شاه ولي الله القرآن إلى الفارسية. وكان خواجه مير درد ومير تقي مير يلقيان قصائدهما في مقاهي ميدان تشاندني:

تنفّس برفق هنا، فملء كل شيء الهشاشة

ها هنا في ورشة الدنيا، حيث كل شيء يصنع من زجاج

لكن حينئذ علا صوت حوافر الخيول. ووقف الصبي الضئيل على قدمي موسى يتلفّت ليرى من أين يأتي الصوت. كان صوت سلاح الفرسان لدى نادر شاه إذ تتواثب خيوله من فارس إلى دلهي، ناهبًا من المدن كلَّ ما يصادفه في طريقه. وبقي الإمبراطور الجالس على عرش الطاووس ثابتًا لم يتزعزع. فما كان ينبغي في رأيه للشعر والموسيقى والأدب أن تصمت لتعلو أصوات الحرب التافهة. وتغيّر لون الضوء في الديوان الخاص. من القرمزي، إلى الأحمر، فالأخضر. وعلا من شريط الصوت ضحك النساء في الحريم. وصليل أجراس الخلاخيل حول كواحل الراقصات. وقهقهة رقيعة عميقة لا تخطئ الأذن فيها ضحكة أحد خصيان البلاط.

بعد انتهاء العرض مضى الأيتام ومرافقوهم لقضاء الليلة في عنبر بفيشوا يوفاك كيندرا في الحي الدبلوماسي، فتصادف أن كان ذلك في آخر الشارع الذي كان فيه بيت تِلُو (وناجا).

لمّا رجعت تِلُو إلى البيت كان ناجا نائمًا والتليفزيون مفتوح. أغلقته واستلقت بجواره. وحلمت في تلك الليلة بطريق صحراوي ملتوٍ ما من سبب لالتوائه. كانت تسير فيه هي وموسى. كانت أتوبيسات مركونة على أحد جانبيه وحاويات على الجانب الآخر، لكلٍّ منها باب وستارة خفيفة رثّة. في البعض عاهرات وفي البعض جنود. جنود صوماليون طوال. يؤتى بعصابين ذوي إصابات جسيمة فيدخلون، ويخرج آخرون مقيدين بالسلاسل. توقّف موسى ليكلم رجلاً في لباس أبيض. بدا صديقًا قديمًا. تبعه موسى إلى إحدى حاويات الشحن بينما انتظرت تِلُو

بالخارج. وحين لم يخرج، دخلت تبحث عنه. كان الضوء بالداخل أحمر. ورجل وامرأة يتناكحان على سرير في ركن الحاوية. ثمة تسريحة كبيرة ذات مرآة. لم يكن موسى في الغرفة، لكن صورته معكوسة على المرآة. كان مُعلّقًا من ذراعيه في السقف، يدور ويدور حول نفسه. في الغرفة كثير من بودرة التلك، حتى في إبطي موسى.

استيقظت نِلُو وهي لا تعرف كيف انتهت في قارب. نظرت طويلاً إلى ناجا، وغلبها لوهلة شيء ما شبيه بالحب. لم تفهمه ولم تفعل حياله أي شيء.

*

حسبتها نِلُو، فوجدت ثلاثين سنة قد مضت منذ أن التقوا جميعًا ـ ناجا وجارسون هوبارت وموسى وهي ـ للمرّة الأولى في مسرحية نورمان، أهذا أنت؟ ولا يزالون جميعًا يدورون حول بعضهم بعضًا بتلك الطرق الفريدة.

لم يكن الصندوق الأخير صندوق فاكهة، ولم يكن "منقذات" من الطوفان. كان صندوق عبوة حبر لطابعة هيوليت باكارد صغيرة واحتوى وثائق أمريك سنج التي تركها موسى معها بعدما رجع من إحدى رحلاته إلى الولايات المتحدة. فتحته لتتحقّق مرة أخرى من أن ذاكرتها لم تخنها. وثبت أنها لم تخنها. كان في الصندوق كيس صور قديمة، وملف قصاصات صحفية حول انتحار أمريك سنج. وفي أحد التقارير

صورة لبيت سنج في كلوفيس وقد توقّفت سيارات الشرطة والعساكر حول المنطقة المحظورة المحددة بشريط أصفر كالذي ترونه في المسلسلات التليفزيونية وأفلام الجريمة. وصورة فوتوغرافية التقطها زيرزيس، وهو الروبوت ذو الكاميرا الذي بعثه شرطة كاليفورنيا إلى البيت قبل أن ندخله لنتأكّد من خلوِّه ممّن يكمن لهم. باستثناء القصاصات الصحفية كان هناك ملفٌ يحتوي نسخًا من الطلبات التي تقدَّم بها سنج وزوجته للجوء في الولايات المتحدة. كان موسى قد حكى لها بإسهاب وسخرية كيف حصل على الملف. كان هو ومحامٍ ترافَعَ في مئات من قضايا اللجوء في الساحل الغربي -وهو صديق "أخٌ" من الأخوة- قد زارا الموظف الاجتماعي الأمريكي الذي كان يتولّى قضية أمريك سنج في كلوفيس. قال موسى إن ذلك الموظف كان رجلاً رائعًا، كبيرًا في السن وضعيفًا لكنه متفانٍ في وظيفته. وكانت له ميول اشتراكية ويشعر بغضب عارم تجاه سياسة الهجرة التي تنتهجها الحكومة. كان مكتبه الصغير مليئًا بملفّات وسجلات قضائية لمئات الناس الذين ساعدهم في الحصول على اللجوء إلى الولايات المتحدة، وأغلبهم من السيخ الذين هربوا من الهند بعد عام ١٩٨٤. كان يألف قصص وحشية الشرطة في البنجاب، وغزو الجيش للمعبد الذهبي ومذبحة السيخ التي وقعت سنة ١٩٨٤ إثر اغتيال إنديرا غاندي. كان يعيش في فجوة زمنية فلا يعرف شيئًا عن مستجَدّات الأحداث الجارية، فخلط بين البنجاب وكشمير ونظر إلى السيد سنج وزوجته عبر ذلك المنظور فرأى فيهما أسرة ضحية أخرى من أسر السيخ المكلومة. انحنى على طاولته وهمس قائلاً إنه يصدق أن المأساة

وقعت لأن أمريك سنج وزوجته لم يتقبلا الاغتصاب الذي كان محتومًا أن تتعرّض له السيدة سنج في أثناء احتجازها لدى الشرطة. كان قد حاول إقناعها بأن ذكر هذه الواقعة كفيل بتعزيز فرصهما تعزيزًا أكيدًا في الحصول على اللجوء، لكنها لم تعترف به، وكانت تهتاج كلما قال لها إنه لا عيب في الحديث عن الأمر.

وقال وهو يسلّم نسخًا من الأوراق لموسى إنهما "كانا طيبيْن وبسيطيْن، وما كانا بحاجة إلا إلى بعض المشورة، هما وأبناؤهما. بعض المشورة وبعض الأصدقاء المخلصين. مجرد مساعدة بسيطة كانت كفيلة بأن يكونوا الآن على قيد الحياة. ولكن هذا كثير على بلده العظيم، أليس كذلك؟"

كان في قاع علبة عبوة الحبر ملفٌ قانوني سميك قديم الطراز لم تتذكّر بِلُو أنها سبق أن رأته. كان يضمّ مجموعة من الورق المفرَّط، لعله خمسون صفحة أو ستون، مرتبة في ملفٍّ من الورق المقوّى، ومربوطة بأشرطة حمراء وخيط أبيض. هي عبارة عن أقوال الشهود في قضية جالب قدري التي وقعت قبل عشرين سنة تقريبًا:

مذكرة بأقوال غلام نبي رسول، ابن مشتاق نبيل رسول، المقيم في بريرشاه. المهنة: موظف بوزارة السياحة. السن ٣٧ سنة. أخذت الأقوال تحت بند١٦١/ ك ج ج، كود الإجراءات الجنائية.

يفيد الشاهد بما يلي:

أقيم في بربرشاه في سري نجر. في ١٩٩٥/٣/٨، رأيت فرقة عسكرية متمركزة في بارايبورا. رأيت هناك عربات تفتيش عن السلاح، وأيضًا شاحنة تابعة للجيش وعربة مدرّعة، وضابط جيش طويلاً من السيخ محاطًا بالكثير من أفراد الجيش في الزي الرسمي يقوم بالتفتيش. كان في المكان أيضًا سيارة تاكسي مركونة. وفيها بعض الموظفين المدنيين ملفوفين في بطانية حمراء. بقيت بعيدًا عن ذلك المشهد بسبب الخوف. ثم رأيت سيارة ماروتي بيضاء قادمة. جالب قدري كان يسوق وزوجته جالسة بجواره. أوقف ضابط الجيش الطويل السيارة عندما رأى جالب قدري وطلب منه مغادرتها. دفعوه إلى المدرّعة وانطلقت جميع السيارات ومعها التاكسي في موكب عبر الطريق الجانبي.

مذكرة بأقوال رحمت باجاد، ابنة عبد الكلام باجاد، المقيمة في كورسو راجباغ، سري نجر. المهنة ـ موظفة بوزارة الزراعة. السن ٣٢ سنة. أخذت الأقوال تحت بند١٦١/ ك ج ج.

تفيد الشاهدة بما يلي:

أنا من سكان كورسو وأعمل في وزارة الزراعة باحثة ميدانية مساعدة. اليوم الموافق ١٩٩٥/٣/٢٧، كنت في بيتي حينما سمعت جلبة آتية من الخارج. خرجت فوجدت الناس متجمعة حول جثة موضوعة في جوال. انتشل شباب الحي الجثة من قناة مصرف جيلوم. أخرج الشباب الجثة من الجوال. رأيت أنها جثة جالب قدري. تعرّفت عليه لأنه

كان يعيش في الحي الذي أعيش فيه منذ اثني عشر عامًا. بعد الفحص تعرفت على الزي التالي:

١ . سترة صوفية بلون الكاكي
٢ . قميص أبيض
٣. بنطال رمادي
٤ . فانيلة داخلية بيضاء

فضلاً عن هذا كانت العينان مفقودتين. جبهته دامية. جسمه متقلّص ومتحلّل. جاءت الشرطة وتحفّظت على الجثة، وحرّرت مذكرة بذلك قمت بالتوقيع عليها.

مذكرة بأقوال معروف أحمد دار، ابن عبد الأحد دار، المقيم في كورسو راجباغ، سري نجر. المهنة: تجارة. السن ٤٠ سنة. أخذت الأقوال تحت بند١٦١/ ك ج ج

يفيد الشاهد بما يلي:

أقيم في كورسو راجباغ وأعمل بالتجارة. في ١٩٩٥/٣/٢٧ سمعت جلبة من ضفة قناة مصرف جيلوم. ذهبت إلى الموقع ووجدت جثة جالب قدري مطروحة على سدّ وقد وُضعت في جوال. تعرّفت على الفقيد لأنه كان مقيمًا في حيّي لمدة اثني عشر عامًا وكنا نصلي معًا في مسجد واحد في الحي. على جثة الفقيد شوهدت الأزياء التالية:

١ . سترة صوفية بلون الكاكي
٢ . قميص أبيض
٣ . بنطال رمادي
٤ . فانيلة بيضاء

فضلاً عن هذا كانت العينان مفقودتين. جبهته دامية. جسمه متقلّص ومتحلّل. جاءت الشرطة وتحفظت على الجثة، وحرَّرت مذكرة بذلك قمت بالتوقيع عليها.

مذكرة بأقوال محمد شفيق بهات، ابن عبد العزيز بهات، المقيم في جندربال. المهنة: بنّاء. السن ٣٠ سنة. أخذت الأقوال تحت بند١٦١/ ١١ ك ج ج

يفيد الشاهد بما يلي:

أنا من جنربال. صنعتي بَنّاء، وحاليًا أعمل في منزل محمد أيوب دار في كورسو راجباغ. اليوم الموافق ١٩٩٥/٣/٢٧، حوالي الساعة ٦:٣٠ صباحا ذهبت إلى قناة مصرف جيلوم لأغسل وجهي. رأيت جثة ميتة في جوال طاف في النهر، وقد ظهر منها ذراع وساق. لم أخبر أحدًا بهذا بسبب الخوف. بعد ذلك ذهبت إلى منزل محمد شبير وور لأمارس عملي كبَنّاء. عثرت على الجثة نفسها في جوال وقد استخرجها بعض أبناء الحي من قناة تصريف جيلوم. كانت الجثة متحلّلة ومنتفخة. والزي الذي كان على الجثة كالتالي:

١ . سترة صوفية بلون الكاكي

٢ . قميص أبيض

٣ . بنطال رمادي

٤ . فانيلة بيضاء

فضلاً عن هذا كانت العينان مفقودتين. جبهته دامية. جسمه متقلّص ومتحلّل. جاءت الشرطة وتحفّظت على الجثة، وحرّرت مذكرة بذلك قمت بالتوقيع عليها.

مذكرة بأقوال شقيق الفقيد، برفيز أحمد قدري، ابن ألطاف قدري، المقيم في أوانتيبورا. المهنة: يعمل في أكاديمية الفنون والثقافة واللغات. السن ٣٥ سنة. أخذت الأقوال تحت بند١٦١/ ك ج ج

يفيد الشاهد بما يلي:

أقيم في أوانتيبورا وأنا شقيق الفقيد جالب قدري. اليوم بعد التعرّف على الجثة والتشريح أخذت جثة أخي جالب قدري من الشرطة. حرّر الجيش مذكرة بالواقعة وإيصالاً للجثة منفصلين. تليت عليّ تفاصيل المستندين وأقرّ بصحة ما فيهما.

مذكرة بأقوال مشتاق أحمد خان، المعروف بعثمان، والمعروف أيضًا بـ بهايتوث، المقيم في مدينة جامّو. السن ٣٠ سنة. أخذت الأقوال في ١٢/ ٦/ ٩٥ تحت بند ١٦٤/ ك ج ج.

يفيد الشاهد بما يلي:

أنا، يا سيدي، فرّان. عندي فرن في روالبورا وكنت أمدّ أفراد الجيش بالخبز بين ١٩٩٠ و٩١. ثم تدهور الوضع في كشمير وهدّدني المقاتلون لإمدادي أفراد الجيش بالخبز. ولما كان هذا هو شريان الحياة الوحيد لعملي، فقد أغلقت الفرن وذهبت إلى قريتي الأصلية في أوري. بعد ثلاثة أشهر من إقامتي هناك بدأ المقاتلون يقهرون زوجتي. وليس هذا وحسب، فقد اختطفوا شقيقة لي عمرها ١٥ سنة وأرغموها على الزواج من أحد رفاقهم. وعلى هذا فقد رحلت عن قريتي ورجعت إلى سري نجر فأقمت في بيت بالإيجار في ماجارمال باغ. وخلال بعض الوقت وصل مقاتلو جبهة تحرير جامّو وكشمير إلى هناك وأرغموني على الانضمام إلى صفوفهم. وفيما بعد في أثناء الصراعات بين فصائل المقاتلين المختلفة أخذني مقاتلو جماعة العُمَر فانضممت إليها لسنتين. ثم بدأت قوات الأمن تتعرّض لي وأخذت أطفالي. وعلى هذا فقد سلمت نفسي للمخابرات الهندية (برافو الهند) وسلّمتهم رشاشي من طراز آيه كيه ٤٧. ظللت محتجزًا لـ٨ شهور في باراموله ثم أطلقوا سراحي مع إرغامي على تقديم تقرير كلّ ١٥ يومًا إلى برافو الهند. وظللت على هذا ثلاثة شهور ثم هربت بسبب الخوف، فلو كان أحد رآني مع برافو الهند لكان في هذا هلاكي. في سري نجر، قابلني شخص يدعى أحمد علي بهات، المعروف بالكوبرا، وعرّفني بنائب مأمور قسم شرطة كوثي باغ فبعثوني للعمل مع مجموعة العمليات الخاصة في معسكر روالبورا. كان الكوبرا وبرفيز بهات من الإخوان، وكنت أعمل في المعسكر مع الرائد أمريك سنج. حرّضوا

الرائد أمريك سنج عليّ وقلت له إنني أعرف جميع المقاتلين ولا بدّ أن أساعده في القبض عليهم. فحدث ذات يوم أن أخذني الرائد أمريك سنج معه بغرض شنّ غارة على مخبأ للمقاتلين في وزير باغ حيث تم اعتقال مقاتلَيْن ثم إطلاق سراحهما بعد دفع ٤٠٠٠٠ روبية. عملت مع الرائد أمريك سنج لشهور كثيرة وكنت شاهدًا على تصفيته الأشخاص التالين:

١ . غلام رسول واني
٢ . بسيط أحمد خنداري الذي كان يعمل في فندق سينشري
٣ . عبد الحفيظ بير
٤ . إشفاق وازا
٥ . خياط من السيخ اسمه كُلديب سنج

وكلهم في عداد المفقودين منذ ذلك الحين.

بعد ذلك حدث مرّةً في مارس ١٩٩٥ أن قام الرائد أمريك سنج وصديقه سالم جوجري ـ الذي كان مقاتلاً مستسلمًا مثلي وزائرًا يتردّد كثيرًا على المعسكر ـ باعتقال شخص كان يرتدي معطفًا، وقميصًا أبيض وربطة عنق وبنطالاً رماديًا. في ذلك الوقت كان هناك أيضًا سوخان سنج وبالبير سنج والدكتور. كان رجل المعطف والبنطال متعلمًا ومثقفًا. جادلهم في المعسكر قائلاً "لماذا اعتقلتموني وجئتم بي إلى هنا؟" أغضب ذلك الرائد أمريك سنج غضبًا شديدًا فانهال عليه يضربه بلا رحمة واقتاده

إلى غرفة منفصلة. وبعد أن حبسه خرج وقال "أتعرفون أن ذلك الشخص هو المحامي الشهير جالب قدري؟ اعتقلناه لأن من يذمّ الجيش ويساعد المقاتلين لن ينجو مهما تكن مكانته". في تلك الليلة سمعت صراخًا وصياحًا من الغرفة التي حُبس فيها جالب قدري. بل سمعت طلقات رصاص في تلك الغرفة. وبعدها رأيت جوالاً يوضع في سيارة.

بعد أيام قليلة حينما التُقطت جثة جالب قدري ونُشر الخبر في الجرائد بهذا الخصوص، قال لي الرائد أمريك سنج آسفًا إنه ارتكب خطأ، وإنه لم يكن ينبغي أن يقتل جالب قدري ولكن لم تكن بيده حيلة في هذا الخصوص لأن ضباطًا آخرين أوكلوا إليه هذه المهمة هو وسالم جوجري. وحينما قال لي هذا شعرت بخطر على حياتي.

ثم إن سالم جوجري وزملاءه، محمد رمضان وهو مهاجر غير شرعي من بنجلاديش، ومنير ناصر هجام ومحمد أكبر لاواي توقفوا عن المجيء إلى المعسكر. وبعثني الرائد أمريك سنج أنا وسوخان سنج وبالبير سنج في سيارة للعثور عليهم وإحضارهم إلى المعسكر. عثرنا على سالم جوجري جالسًا في محل في بودجام وسألناه لماذا لم يعد يأتي إلى المعسكر منذ أسبوع. فقال إنه مشغول في مداهمات وإنه سوف يأتي في اليوم التالي. وفي اليوم التالي جاء هو وزملاؤه الثلاثة. جاءوا في تاكسي. احتُجزت أسلحتهم عند البوابة. وقال لهم الرائد أمريك سنج إن هذا بسبب زيارة وشيكة من قائد المعسكر. بعد ذلك جلس الرائد أمريك

سنج وسالم جوجري وزملاؤه على كراسي في المجمع وبدأوا بشربون. وبعد ساعتين اصطحب الرائد أمريك سنج سالم جوجري وزملاءه إلى قاعة الطعام. كنت في الشرفة. سوخان سنج وبالبير سنج والرائد آشوك والدكتور قيّدوا سالم جوجري وزملاءه بالحبال وأغلقوا القاعة. في اليوم التالي ظهرت جثثهم في حقل في بامبور مع جثة سائق التاكسي ممتاز أفضل ملك. بعد ذلك نقلت زوجتي وأبنائي إلى بيت صديق لي كان مقيمًا في الطريق الفرعي. ثم هربت إلى جامّو. وأكثر من هذا لا أعرف.

*

أرجعت تِلْو الملفات وكيس الصور مرة أخرى في الصندوق وتركته على المنضدة. كانت أوراقًا قانونية لا يشكّل الاحتفاظ بها جريمة.

لملمت "منقذات" موسى ـ المسدس والسكين والهواتف وجوازات السفر وتصاريح صعود الطائرات وكلّ شيء ـ في أكياس طعام بلاستيكية محكمة الإغلاق وضعتها في الفريزر. وفي أحد هذه الأكياس وضعت بطاقة صدام حسين حتى يعرف موسى إلى أين يتجه. كانت ثلاجتها من النوع القديم الذي يتكاثف ثلجه في الفريزر إذا لم يذبه أحد بانتظام، فكانت تعرف أنها لو خفّضت الحرارة قبل رحيلها فإن الأدلة الجنائية تلك سوف تتحوّل إلى كتلة ثلج. وقد استقر رأيها على أن المنقذات التي نجت من طوفان مهلك تتمتّع ولا شكّ بقوى خاصة كفيلة بأن تنجيها من هذه العاصفة الثلجية الصغيرة.

حزمت حقيبة صغيرة. فيها الثياب والكتب وأغراض الطفلة والكمبيوتر وفرشاة الأسنان. وفيها جرّة رفات أمها.

وبقي عليها أن تتخذ قرارًا أخيرًا بشأن الكمكة والبلالين.

استلقت في سريرها، بكامل ثيابها، متأهّبة للرحيل.
كانت الثالثة صباحًا.
ولا علامة بعد (أو رائحة) لصدام حسين.

كانت قراءة أوراق كلب البحر خطأً. وخطأً جسيمًا. شعرت كما لو كانت علقت معه ومع جميع من قتلهم في برميل قطران. صار بوسعها أن تشمّ رائحته. وترى عينيه الباردتين الخاويتين وهو جالس قبالتها في القارب محملقًا فيها، وتستشعر أصابعه على جلد رأسها.

لم يكن السرير الذي استلقت عليه سريرًا بحق، بل مجرد حشية على الأرضية الأسمنتية الحمراء. كان النمل يتحرك في نشاط حول الفتات. والحرارة تتسرب من الحشيّة والملاءة قاسية على جلدها. وبُرص وليد يمشي مضطربًا على الأرض. توقف على مقربة منها، رافعًا رأسه الضخم متأمّلاً إياها بعينين لامعتين كبيرتين. فبادلته نظرًا بنظر.

همست فيه أن "اختفِ. فالنباتيون قادمون".

قدّمت له بعوضة ميّتة من كومة البعوض الميّت التي جمعتها على ورقة خاوية. وضعت جثة البعوضة الميتة على الأرض في منتصف

المسافة بينها وبين البرص، فتجاهلها الأخير أوّل الأمر، ثم أكلها في لمح البصر، لحظة أشاحت بنظرها عنه.

حدّثت نفسها، ذلك ما كان ينبغي أن أكون إياه، مطعِمة أبراص.

كانت إضاءة نيون حادة تتسلّل عبر الشباك متنكّرة في هيئة نور القمر. وقبل أسابيع قليلة، بينما كانت تسير على جسر منحدر شديد الإضاءة، بلغت مسامعها شذرة من حوار بين رجلين على درّاجتين. "في هذه المدينة فقدنا حتى مأوى الليل".

كانت ساكنة تمامًا في نومها، سكونَ جثة في مشرحة.
شعرها كان يطول.
وأظافر أصابع قدميها كذلك.
شعر رأسها كان في بياض الموت.
مثلث الشعر بين ساقيها حالك السواد.
ما معنى ذلك؟
أكانت عجوزًا أم لم تزل شابة؟
أكانت ميّتة أم لم تزل حيّة؟

وحدث، بدون حتى أن تدير رأسها، أن عرفت بمجيئهما. الثيران. رؤوس ضخام مثالية القرون ظهرت ظلالاً منجليّة الأشكال تحت الضوء. ثوران بالضبط. بلون الليل. اللون المسروق مما كان في يوم من

الأيام هو الليل الأسود. على جبهتيهما المتعرّقتين خصلات شعر هائمة كأنها طرح حريرية. وأنفاهما الرطبان المخمليان يلمعان إذ يزمّان شفاههما القرمزية. لم يصدر عنهما صوت. لم يُلحقا بها أذى قط، فقط نظرا إليها. وكان بياض عينيهما هلالين يجيلانهما في الغرفة. لم يبديا فضولاً أو جسارة. كانا أشبه بطبيبين يفحصان مريضة، محاولين التوصل إلى تشخيص واحد.

هل نسيت إحضار سماعتك هذه المرة أيضًا؟

كانت للوقت في حضورهما طبيعة أخرى. فلم تدْرِ كم طال الوقت وهما ينظران إليها. لم تبادلهما النظر على الإطلاق. ولم تعرف بذهابهما إلا حينما رجع الضوء الذي كانا يحجبانه ليضيء الغرفة من جديد.

ولما تيقّنت من ذهابهما، ذهبت إلى الشباك ورأتهما يتقلّصان فيصيران في مستوى الشارع ويمشيان مبتعدين. اثنان من أبناء المدينة. من البلطجية. رفع أحدهما ساقًا وبال كالكلب على شباك سيارة. كلب شديد الضخامة. فتحت النور وبحثت في القاموس عن كلمة insouciant أي «اللاهي». قال القاموس إنه من يبتهج غير مبالٍ بأمر لا يعنيه في كثير أو قليل. كانت تضع القواميس على مقربة من سريرها، مكوّمة في برج صغير.

استلّت ورقة من رزمة وقلم رصاص من فنجان قهوة مليء بأقلام الرصاص الزرقاء المسنونة، وبدأت تكتب:

شهدت ظاهرة علمية مثيرة. ثوران يعيشان في طريق الخدمات المحاذي لشقتي. يبدوان بالنهار عاديين، لكنهما بالليل يطولان، ولعلي ينبغي أن أقول إنهما "يرتقيان" ويحملقان فيّ عبر شباكي في الطابق الثاني. حين يبولان، يرفعان ساقيهما كالكلاب. ليلة أمس (قرابة الـ ٨ مساءً) زمجر أحدهما فيّ وكنت راجعة من السوق. هذا أمر أنا على يقين منه. وها هو سؤالي: هل هناك أي احتمال أن يكونا ثورين معدَّلي الجينات، زُرعت فيهما جينات كلب أو جينات ذئب، وهربا من معمل؟ ولو كان الأمر كذلك، فهل هما ثوران أم كلبان؟ أم ذئبان؟

أنا لم أسمع بتجارب من هذا النوع تُجرى على المواشي، فهل سمعت أنت؟ أنا شخصيًا أسمع أن جينات النمو البشرية تُستعمل على سمك السلمون لتُعَمْلِقه. والذين يربّون هذا السلمون العملاق يقولون إنهم يفعلون ذلك لإطعام الناس في الدول الفقيرة. سؤالي هو: من الذي سيطعم السلمون العملاق؟ وجينات النمو البشرية تُستعمَل أيضًا في الخنازير. وقد رأيت نتائج هذه التجربة. مسخ أحول شديد الثقل بحيث لا يستطيع القيام أو احتمال وزنه. يحتاج دعمًا من لوح. شيء مقزِّز إلى أبعد حدّ.

في هذه الأيام لم تعد الواحدة تعرف إن كان الثور كلبًا، أو كوز الذرة في الحقيقة ساقًا من لحم الخنزير أم شريحة من لحم البقرة. لكن لعلّ هذا هو مسار الحداثة الأصيل؟ ولماذا، في نهاية المطاف، لا يكون الكأس قنفذًا، والقنفذ كتابًا في الإيتيكيت، وهكذا دواليك؟

تِلوتما

ملحوظة: علمت أن العلماء الذين يعملون في صناعة الدواجن يحاولون استئصال غريزة الأمومة من الدجاج لتخفيف رغبته في الإنجاب أو إزالتها تمامًا. والظاهر أن هدفهم من ذلك هو إيقاف الدجاج عن إهدار الوقت في أمور تافهة، ومن ثمَّ زيادة فعاليته في إنتاج البيض. وبرغم أنني على المستوى الشخصي والمبدئي أعارض مبدأ الفعالية هذا تمامًا، فإنني أتساءل إن كانت ممارسة هذا التدخل (أعني استئصال غريزة الأمومة) على الماجي -ومن أمَّهات المختفين في كشمير- أمرًا نافعًا. فهن في الوقت الراهن وحدات غير فاعلة وغير منتجة، تتغذّى مرغمة على أمل يائس، وتتثاقل في حظائرها وحدائقها، وهي لا تدري ما الذي ينبغي أن تزرعه أو تطبخه، في حال رجوع أبنائهن. وأنا على يقين من أنك ترى في هذا نموذجًا فاشلاً للعمل. فهل يمكن أن تقترح أفضل منه؟ معادلة ممكنة، واقعية (ولو أنني معارضة للواقعية أيضًا) تصل بنا إلى الكمِّ الفاعل من الأمل؟ يُذكر أن المتغيرات الثلاثة في حالتهن هي الموت، والاختفاء، والحب الأسري. جميع أنواع الحب الأخرى، بفرض وجودها، غير صالحة في هذا الصدد ويجب استبعادها. طبعًا فيما عدا حب الرب (وهذا من نافلة القول).

ملحوظة أخرى، سأنتقل من هنا. ولا أعرف إلى أين أنا ذاهبة.

هذا يملؤني بالأمل.

حينما أنهت رسالتها طوتها باعتناء ووضعتها في حقيبتها. قطعت الكعكة ووضعتها في علبة ورقية وضعتها في الثلاجة. فكّت خيوط البلالين واحدة تلو الأخرى ووضعتها في الدولاب. فتحت التليفزيون كاتمة صوته. فيه رجل يبيع حاجبيه. رفض العرض المبدئي الذي بلغ خمسمئة دولار. وأخيرًا وافق في مقابل ألف وأربعمئة دولار على حلقهما بماكينة كهربائية. يبتسم ابتسامة لطيفة خجولاً. بدا شبيهًا بشخصية إيلمر فاد الكرتونية.

اقترب الفجر.

ما من صدام حسين حتى الآن.

أطلّت الخاطفة من شباكها وقد نفد صبرها قليلاً.

رسالة نصية على الهاتف المحمول:

لنتحد في يوم اليوجا العالمي بيوجا الشموع المشتعلة على حافة حمام السباحة للتأمل بصحبة المرشد هانومانت بهاردواج.

كتبت ترد:

من فضلكم لا داعي.

مباشرة بجوار بوابة المدرسة التي رُسمت عليها ممرضة تعطي لطفل مرسوم حقنة تطعيم مرسومة، دائرةٌ من نساء ناعسات، هن عاملات مهاجرات يعملن في منطقة قريبة تشهد أعمال طرق، وقد وقفن حول صبيٍّ ضئيل جالس القرفصاء ـكأنه فاصلة وسط كلماتـ على حافة بالوعة مفتوحة. وقفت النساء متكئات على مجارفهن ومعاولهن في انتظار أن يؤدي النجم رقصته. ثبّت الولد الفاصلةُ عينيه على واحدة منهن. هي أمُّه. أثارته الروح. فتغوّط. ورقةَ شجر صفراء. تركت أمه فأسها وغسلت مؤخرته بماء عكر من زجاجة بيسليري قديمة. وبما فضل من ماء غسلت يديها ودفعت الورقة الصفراء إلى البالوعة. لم يكن في المدينة شيء للنساء. لا نتفة أرض، لا كوخَ في خرابة، لا سقف صفيحيًا فوق رؤوسهن. ولا حتى نظام الصرف الصحي. لكن ها هنَّ للتو قد أودعن في قلب هذا النظام إيداعًا مباشرًا خارجًا على التقاليد. ربما كان ذلك علامة بداية موطئ قدم لهن في المدينة. تناولت والدة الفاصلة ولدها بين ذراعيها، ووضعت معولها على كتفها، وتحركت الفصيلة الصغيرة.

خلا الشارع.

ثم، ظهر صدام حسين، كأنما كان ينتظر النساء أن يمضين قبل أن يدخل، على النحو التالي:

صوت

صورة

رائحة (منتنة)

انعطفت شاحنة البلدية الصفراء في طريق الخدمات الصغير وركنت على بعد بضعة بيوت. لوّح صدام حسين من شباك المقعد المجاور للسائق (عثل الجذل الذي يلوِّح به وهو عتطٍ فرسه في العادة) ومسح بعينيه شباك الطابق الثاني في عمارة تِلُو. أطلَّت تِلُو برأسها وأشارت إلى أن البوابة مفتوحة وأن عليه أن يصعد.

قابلته عند الباب بحقيبتها، وطفلة، وعلبة فيها كعكة الفراولة. حيَّت الرفيقة لالي صدام على البسطة كما لو كانت تلتقي حبيبًا عاد بعد طول غياب. ثبّتت رأسها وهزَّت ذيلها من الجنب إلى الجنب، وقد تهدّل أذناها، ومالت عيناها في غنج.

سأل صدام تِلُو بعدما تعارفا "أهذه كلبتك؟" وقال "يمكننا أن نأخذها، نحن ذاهبان إلى مكان رحب".

"لديها جراء".

"إممم، وما المشكلة...؟"

أزاح برقَّةٍ الجراءَ عن الجوال الذي كانت نائمة عليه، وفتحه ووضعها فيه جميعًا. تلك الحفنة من كلاب البرينجال النابحة المتملّصة. أغلقت تِلُو بابها وبدأت القافلة الصغيرة تنزل السلم إلى الشارع.

صدام حاملاً حقيبة مغلقة وجوالاً مليئًا بالجراء.

تِلُو حاملة طفلة وملفًا ورقيًا.

والرفيقة لالي تتعقب حبيبها العائد بولع لا يداريه حياء.

كانت كابينة السائق كبيرة باتساع غرفة صغيرة في فندق. كان السائق نبراج كُمار وصدام حسين صديقين قديمين. كان صدام (البارع في التفكير الاحترازي والاهتمام بالتفاصيل) قد وضع صندوق فاكهة خشبيًا قرب باب الشاحنة. درجة مؤقتة للصعود. قفزت الرفيقة لالي داخلة، ومن ورائها تِلُو والآنسة جِبين الثانية. جلسوا جميعًا في الخلف، على سرير ريكسين الأحمر الذي يوضع في الشحنات لينام سائقوها في الرحلات الطويلة حينما يغلبهم التعب ويتولى القيادة مساعدو السائقين. (ومع أن شاحنات قمامة البلدية لا تخرج مطلقًا في رحلات طويلة، فقد كانت الأسرَّة قائمة فيها على أي حال). جلس صدام في المقدمة، في المقعد المجاور للسائق. وضع جوال الجراء بين قدميه، وفتحه لإدخال الهواء، ارتدى نظارته الشمسية، وأغلق الباب المجاور له مرَّتين، كأنه محصِّل تذاكر في أوتوبيس، وانطلقوا.

كانت الشاحنة الصفراء تخلِّف أثرًا عبر المدينة، تاركة نتن البقرة النافقة وراءها. هذه المرة، خلافًا لرحلة صدام حسين الأخيرة بشحنة مماثلة، كان في شاحنة تابعة للبلدية في عاصمة بلده. كان لالاً «حبيب» الحُجرات لا يزال على بعد سنة من تولي العرش، والببغاوات الزعفرانية لا تزال في انتظار أن يحين أوانها. وهكذا، مؤقتًا، كان الوضع آمنًا.

مضت الشاحنة تهدر مارّة بورش إصلاح السيارات، حيث الرجال والكلاب الغارقون في الشحم لا يزالون نيامًا على أبوابها.

مارّة بسوق سيخ جوردوارا ثم سوق آخر. مارّة بمستشفى يقيم مرضاه وأسرهم في خيام خارجه. مارّة بزحام متدافع من الصيادلة على مدار الساعة. عابرة جسرًا لم تزل مصابيحه مضاءة.

مارّة بجاردن سيتي بميادينها النائمة البديعة.

وفيما كانت تمضي، اختفت الحدائق، وازدادت في الطرق أخاديدها ووعورتها، وازدادت الأرصفة ازدحامًا بأجسام النيام. من كلاب وتيوس وبقر وبشر. واصطفت ريكاشات الدراجات واحدة وراء الأخرى كالفقرات في هيكل عظمي لثعبان.

نفثت الشاحنة نتنها في طريقها تحت أقواس حجرية متداعية مارّة بأسوار القلعة الحمراء، دارت حول المدينة القديمة حتى بلغت نزل جنة للضيافة والخدمات الجنائزية.

أنجم كانت في انتظارهم، بسمةً نشوى تشعّ وسط شواهد القبور.

بديعة الملبس، في حليٍّ وحرائر من أيام مجدها. متجمّلة مطليّة الشفتين، صابغةً شعرها المضفور في ضفيرة سوداء طويلة سميكة ينجدل فيها شريط أحمر. عانقت تِلُو والآنسة جِبين عناقًا حارًّا، مقبّلة كلتيهما العديد من القبلات.

كانت قد جهزت لحفل ترحيب، فزُيّن نزل جنة للضيافة بالبلالين والأشرطة.

وكان الضيوف، في ثيابهم المتأنقة، هم: زينب الريانة التي تبلغ من العمر الآن ثمانية عشر عامًا وتدرس تصميم الأزياء في مدرسة محليّة، وسعيدة (رزينة الملبس المكتفية بالساري، فقد كانت بجانب كونها أستاذة الخواب جاه، ترأس منظمة غير حكومية متخصصة في حقوق المتحولين جنسيًا)، ونِمّو الجوركهبورية (التي ساقت السيارة من ميوات حاملة ثلاثة كيلوجرامات من لحم الضأن من أجل الحفل)، وعشرت الجميلة (التي أطالت زيارتها)، وروشان لال (الذي حافظ على وجه لاعب البوكر جامد التعبير)، والإمام ضياء الدين (الذي دغدغ الآنسة جِبين بلحيته، ثم رقاها متمتمًا بأدعيته). عزف الأستاذ حميد على الأرغن مرحبًا بها:

يا رفاقي، رجعت حبيبتي إلى الوطن

وها هو فنائي البور حديقة يانعة

أخذ صدام وأنجم تِلُو إلى غرفتها التي جهزاها لها في الطابق الأرضي. ستقيم فيها مع الرفيقة لالي وأسرتها والآنسة جِبين ومقبرة أحلام باجي. كانت الفرس بايال مربوطة خارج الشباك. والغرفة مزيّنة بالأشرطة والبلالين. وفي جهل بما يجب توفيره من ترتيبات لامرأة، امرأة حقيقية، من الدنيا، بل من دنيا جنوب دلهي نفسها، رأيا أن يضيفا إلى الغرفة ديكور تسريحة ـهي تسريحة جاءا بها من تاجر أثاث مستعمل

مزودة بمرآة كبيرة. وعربة ترولي معدنية عليها كثير من الزجاجات مختلفة الألوان من طلاء لاكمي للأظافر وطلاء الشفاه ومشط وفرشاة وبكر للشعر ومجفف للشعر وزجاجة شامبو. وجاءتها نِمّو الجوركهبورية من بينها في ميوات بمجموعة اقتنتها على مدار عمرها من مجلات الأزياء التي رتَّبتها في كومات عالية على منضدة صغيرة. وبجانب السرير مهد فيه دبدوب ضخم مستند إلى مخدّة. (أما الخلاف على مكان نوم الآنسة جِبين الصغيرة ومن التي سوف تناديها بِ'بري مَمّي' أو 'نشهوتي مَمّي' بجانب مَمّي فسوف يثار لاحقا. وسوف يسهل حلّه لاستسلام تِلُو عن طيب خاطر لمطالب أنجم). عرّفت أنجم تِلُو بأحلام باجي وكأن الأخيرة لم تزل حية. عدَّدت منجزاتها ومآثرها وتلت قائمة بأسماء بعض نجوم شاه جهان آباد الذين أسهمت في مجيئهم إلى العالم، أكبر ميان الخباز، صانع أفضل شيرمال في المدينة المسوَّرة، جبار باهي الخياط، صبيحة آلفي التي بدأت ابنتها للتو بيع الساري في سوق بينارسي ساري في غرفة بالطابق الأول من منزلهم. كانت أنجم تتكلم وكأن تِلُو تألف هذا العالم، أو كأنه عالم ينبغي أن يكون الجميع على ألفة به، أو هو في الواقع العالم الوحيد الجدير بأن يألفه أحد.

للمرة الأولى في حياتها، شعرت تِلُو أن في جسمها متسعًا لجميع أعضائه.

كان أول فندق أقيم في البلدة الصغيرة التي نشأت فيها يُدعى فندق أنجالي. وكان مكتوبًا على اللوحة الإعلانية لتلك المنشأة المثيرة الجديدة

عبارة نصها راحتكم في أنجالي للبقية من حياتكم. لم تكن اللعبة اللفظية مقصودة، لكنها في طفولتها كانت تتخيَّل فندق أنجالي مليئًا بجثث نزلائه الذين لم يخامرهم الشك حتى تعرَّضوا للقتل وهم نيام ليرتاحوا في الفندق لما بقي من حياتهم (كمونى). في حالة نزل جنة للضيافة، شعرت تِلُو أن العبارة الإعلانية لم تكن لتلائم المكان وحسب، بل ولتبعث الطمأنينة أيضًا. عرفت بغريزتها أنها ربما تكون قد عثرت أخيرًا على بيت لما بقي من حياتها.

كان الفجر قد طلع حينما بدأ الحفل. وكانت أنجم قد قضت النهار كله تتسوَّق (اللحم والدمى والأثاث) والليل في الطبخ.

كان في قائمة الطعام:
قورمه بلحم الضأن.
برياني بلحم الضأن.
مخ بالكاري.
روجان جوش كشميري.
كبدة مقلية.
كباب شامي.
خبز نان.
خبز تندوري.
شيرمال.
بطيخ بالملح الأسود.

تجمَّع المدمنون والمتشردون من أطراف المقبرة في الفناء للمشاركة في الوليمة والاحتفال. تشمَّمت بايال طبقًا محترمًا من عصيدة الأرز. وصل دكتور آزاد بهارتيا متأخرًا، ولكنه حظي بتصفيق عظيم لترتيبه ذلك الهروب وذلك التلاقي. كان صيامه اللا نهائي قد دخل العام الحادي عشر، والشهر الثالث، واليوم الخامس والعشرين. فما كان ليأكل، لكنه قبل بقرص طارد للديدان وكأس ماء.

وادُّخر قليل من الكباب والبرياني لموظفي البلدية الذين كان من المؤكد أنهم سيأتون في وقت لاحق من النهار.

قالت أنجم ضاحكة ضحكة حنونًا "إن هؤلاء القوم مثلنا تمامًا نحن الهيجرات، يمكنهم بطريقة ما أن يشمّوا الاحتفالات فيحضروا ويطالبوا بنصيبهم".

أولم بيرو والرفيقة لالي على العظام والبقايا، وإفراطًا في الاحتياط، حجزت زينب الجراء في مكان لا يصل إليه بيرو وقضت ساعات مبتهجة بها وبالمغازلة الصريحة لصدام حسين.

ظلت الآنسة جِبين تتنقَّل من ذراع إلى ذراع غارقة في الأحضان والقبلات والطعام لأكثر من طاقتها، وبتلك الطريقة بدأت حياتها الجديدة في مكان مشابه للعالم الذي أنهت فيه قبل ثمانية عشر عامًا الآنسة جِبين الأولى حياتها، وإن يكن في عالم منقطع الصلة به.

في مقبرة.

مقبرة أخرى، وإن تكن واقعة في الشمال قليلاً.

وما هم بمصدقين إياي

لا لشيء سوى أنهم مدركون تمامًا

أن ما قلته الحقيقة .

جيمس بولدوين

٩

وفاة الآنسة جبين الأولى قبل الأوان

ما كادت تبلغ من العمر ما يسمح لها بالإصرار على شيء، حتى أصرّت أن يناديها الجميع بالآنسة جبين. لم تكن ترد على من يناديها بأي اسم آخر. فصارت مناداتها بذلك لزامًا على الجميع، أبويها، وجدَّيها وجيرانهم أيضًا. كانت متفانية صغيرة في الصيحة "الآنسة" التي استولت على وادي كشمير في أولى سنوات العصيان المسلح. بغتةً، باتت الشابات العصريات، لا سيّما في المدن الصغيرة، يصررن على مخاطبتهن بـ"الآنسة". آنسة مومِن، آنسة غزالة، آنسة فرحانة. ولم تكن تلك غير صيحة من صيحات كثيرة في ذلك الوقت. في تلك السنين الدامية، ولأسباب لا يفهمها أحد تمام الفهم، أصبح الناس ما لا يمكن وصفه بغير النزّاعين إلى الصيحات. ففضلاً عن صيحة "الآنسة"، ظهرت صيحة الممرضة، وصيحة مدرب التمرينات البدنية، وصيحة ألواح التزلج. وهكذا، علاوة على نقاط التفتيش، والمخابئ، والأسلحة، والقنابل اليدوية، والألغام، ومدرعات كاسبر كاشفة الألغام، ولفائف الأسلاك الشائكة، والجنود، والتمردات والتمردات المضادة، والجواسيس،

والعناصر الخاصة، والعملاء المزدوجين، والعملاء الثلاثيين، وحقائب النقود من الوكالات في كلا جانبي الحدود، غرق الوادي كذلك بالممرضات، ومدربي التمارين الرياضية، ومستعملي ألواح التزلج. وطبعًا بالآنسات.

ومن بينهم الآنسة جِبين التي لم تطل بها الحياة لتكون ممرضة أو حتى لتلعب بلوح تزلج.

في مزارِ شهدا، أي مقابر الشهداء التي دفنت فيها أول ما دفنت، كُتب (بلغتين) على اللافتة الحديدية المقوسة أعلى البوابة الرئيسية: **جُدْنا بيوم كان لنا من أجل غدٍ يكون لكم.** تآكلت اللافتة الآن، وبهت طلاؤها الأخضر، وتناثرت في الخط الجميل خروم النور. وها هي مع ذلك، وبعد كل هذه السنين، لم تزل قائمة، كأنها ستارة داكنة شَبَكِيَّةٌ مثقَّبة من ورائها السماء الياقوتية والجبال الثلجية المشرشرة.

لم تزل قائمة.

ولم تكن الآنسة جِبين عضوًا في اللجنة التي قرّرت ما تجب كتابته على اللافتة. لكنها لم تكن في وضع يسمح لها بالاحتجاج على القرار. كما لم يكن للآنسة جِبين من سعة في اليوم الحاضر تقايض بها الغد الآتي، ولكن حبر العدالة اللا نهائية لم يكن قط بتلك الوقاحة. وهكذا، ودون استشارتها في الأمر، أصبحت واحدة من أصغر شهداء الحركة. دُفنت بجوار أمها، الست عارفة يسوي. أمٌّ وابنة ماتتا بطلقة واحدة.

اخترقت رأس الآنسة جِبين من جانبها الأيسر ومضت حتى استقرَّت في قلب أمها. في آخر صورة لها، بدا جرح الرصاصة أشبه بزهرة صيفية بهيجة مثبتة فوق أذنها اليسرى. رُميت بتلات قليلة على كفنها الأبيض الذي سربلها في مثواها الأخير.

دُفنت الآنسة جِبين وأمها مع خمسة عشر آخرين، ليصل عدد ضحايا مجزرتهم إلى سبع عشرة.

في وقت جنازتهم كان مزارِ شهدا لم يزل جديدًا نسبيًا، وإن كان قد بدأ يزدحم. غير أن "لجنة الانتظامية" ـأي لجنة التنظيمـ كانت على بينة من الأمر منذ بداية العصيان المسلح، وكان لديها تصوُّر واقعيٌّ لما يكمن في الأفق. فخطَّطت لتصميم المقابر بعناية، مستغلة الفضاء المتاح استغلالاً فعالاً وكفئًا ومرتَّبًا. كان الجميع يفهمون مدى أهمية دفن الشهداء جماعيًا في مقبرة واحدة فلا يُتركون مبعثرين (بالآلاف) بعثرة طعام العصافير في الجبال أو في الغابات المحيطة بمعسكرات الجيش ومراكز التعذيب التي استشرت في الوادي. ولما بدأ القتال وشدَّد الاحتلال قبضته، صار عوام الناس يرون في رسوخ موتاهم نفسه ضربًا من ضروب التحدِّي.

كان أول من ووري الثرى في المقبرة جُثمان شهيد، أي شهيدًا مجهولاً جيء به في كفنه عند منتصف الليل. دفن في المقبرة ـالتي لم تكن قد أصبحت بعد مقبرةـ بشعائر كاملة وتكريم شهده جمعٌ جليل من المعزِّين. وفي الصباح التالي، بينما كانت الشموع مضاءة وبتلات الورد

منثورة على المقبرة الجديدة، والصلوات الجديدة تتلى في حضور آلاف الناس ممَّن تجمَّعوا إثر إذاعة المساجد الخبر بعد صلاة الجمعة، بدأت اللجنة عملية إقامة سياج حول مساحة شاسعة من الأرض بحجم سهل صغير. ولم تمض أيام قليلة حتى عُلِّقت لافتة: مزارِ شهدا.

سرت شائعة بأن الشهيد المجهول الذي دفن في تلك الليلة ـأي الجثة المؤسِّسةـ لم يكن شهيدًا، ولم يكن جثمانًا، وإنما هو جوال فارغ. وبعد سنين، وجَّه سنج باز شاب، أي شاب من رماة الحجارة، وأحد مقاتلي الجيل الجديد من أجل الحرية، بعدما سمع تلك القصة وانزعج منها أيّما انزعاج، سؤالاً إلى العقل المدبِّر (المزعوم) لهذه الخطة (المزعومة) "لكن، جنابك، ألا يعني هذا أن التحريك كله، أعني حركتنا كلها، قائمة على كذبة؟" فكان الردّ (المزعوم) من العقل المدبر الهرم هو أن "هذه هي مشكلتكم أنتم يا معشر الشباب، لا تعرفون مطلقًا كيف تخاض الحروب".

وبالطبع أصرّ الكثيرون على أن شائعة جوال الشهيد لم تكن غير شائعة أخرى من شائعات لا نهاية لها يختلقها ويروجها جناح الشائعات في بلدة بادامي باغ، مقرّ الجيش في سري نجر، ومحض مؤامرة أخرى من قوات الاحتلال لتقويض التحريك وزعزعة الناس بالشكوك والارتيابات في النفس.

كانت الشائعات تذهب إلى أن هناك بالفعل جناحًا للشائعات برأسه ضابطٌ برتبة رائد. وكانت شائعة تقول إن فصيلة مرهوبة من الناجالاند (وهم أنفسهم ضحايا احتلال آخر في الشرق)، الأكلة الأسطوريين للخنازير والكلاب، ما كانوا يجدون حرجًا في الاستمتاع بين الحين والآخر بوجبات خفيفة من لحوم البشر، لا سيما لحوم "الكبار"، كما قال العالمون ببواطن الأمور. سرت شائعة بأن كلَّ من يسلِّم (لشخص ما، مجهول العنوان) بومةً صحيحة الجسم تزن أكثر من ثلاثة كيلوجرامات (مع ملاحظة أن البوم في المنطقة، حتى البدين منه، لا يزن أكثر من نصف ذلك) سيفوز بمليون روبية. فبدأ الناس ينصبون الفخاخ للصقور والبيزان والبوم الصغير والجوارح من كلِّ صنف ولون، ويطعمونها الجرذان والأرز والزبيب، ويحقنونها بالمنشطات ويزنونها في كل ساعة، مع أنهم كانوا لا يعرفون لمن ينبغي تسليم الطيور. لكن المشكِّكون قالوا إنه الجيش مرة أخرى، وإنه يسلك شتَّى السبل ليشغل البسطاء ويلهيهم فلا يكونوا مصدر إزعاج له. سرت شائعات وشائعات مضادة. سرت شائعات ربما كانت صحيحة، وحقائق كان ينبغي أن تكون شائعات. فكان صحيحًا فعلاً على سبيل المثال أن خلية حقوق الإنسان في الجيش ظلَّت لسنين تحت رئاسة المقدم ستالين، وهو رجل ودود من كيراله، وابن لشيوعي قديم. (وكانت الشائعة التي سرت تذهب إلى أنه صاحب فكرة إقامة مُسكان ـ أي "الابتسامة" في الأرديَّة ـ ومُسكان سلسلة من مراكز "النية الحسنة" العسكرية لإعادة تأهيل الأرامل وأشباه الأرامل واليتامى وأشباه اليتامى.

فإذا بالناس الغاضبين ـمّن كانوا يحمّلون الجيش مسؤولية وجود اليتامى والأرامل- يدأبون على إحراق ملاجئ ومشاغل خياطة "النية الحسنة"، فكان يعاد بناؤها على نحو أكثر مودّة وترحابًا).

غير أن ما يتعلق بالسؤال عن مقابر الشهداء وما إذا كانت المقبرة الأولى قد احتوت جوالاً أم جثة، تبيّن أنه عديم الأهمية والقيمة. فالحقيقة الجوهرية هي أن هذه المقابر الجديدة نسبيًا كانت تمتلئ بجثث حقيقية بإيقاع منذر بالخطر.

. . .

تسلّلت الشهادة إلى وادي كشمير قادمة من "خط السيطرة" عبر مسارات الجبل المضاءة بنور القمر المخفورة بالجنود. مضت ليلةً بعد ليلة تسير في الممرات الصخرية الضيّقة الملتفّة كالخيوط حول جروف الثلج الزرقاء، وعبر الأنهار المتجمدة الشاسعة والسهول التي يكسوها الجليد بارتفاع الخصور. تسير متثاقلة بمحاذاة صبية ماتوا وسط الجليد، فانتثرت أجسامهم في لوحة غريبة متجمّدة تحت عين القمر الشاحب القاسية في سماء الليل الباردة ذات النجوم المتدلية المنخفضة، حتى لتحسب أن بوسعك أن تمسّها.

وكانت تبلغ الوادي فتبقى قريبة من الأرض وتنتشر في أيك الجوز وحقول الزعفران وبساتين التفاح واللوز والكرز كأنها ضباب منخفض. كانت تهمس بنداء الحرب في آذان الأطباء والمهندسين والطلبة والعمال

والخياطين والنجارين والنساجين والمزارعين والرعاة والطهاة والشعراء الجوالين. فيصغي أولئك جميعًا باهتمام، ثم يطرحون كتبهم وعددهم، وإِبَرَهم وأزاميلهم وعصيُّهم ومحاريثهم وسواطيرهم وثيابهم المزدانة بالترتر. أوقفوا الأنوال التي نسجوا عليها أجمل وأنعم وألين ما رأى العالم من السجاجيد والشيلان، وجعلوا أصابعهم المتوترة الحائرة على فوْهات كلاشينكوفات كان الغرباء الذين يزورونهم يسمحون لهم بلمسها، وانقادوا وراء السحرة الجدد إلى السهول العليا والممرات الجبلية إلى حيث أقيمت معسكرات التدريب. ولم يحدث إلا حينما حصلوا على بنادق لهم، وبعدما ثنوا أصابعهم على زُنْدِها واستشعروا ما تمنحه لهم، وإن برقة بالغة، وبعد ما قدَّروا الأمر ورأوا خيارهم مجديًا، لم يحدث إلا في ذلك الحين أن أتاحوا لما في أنفسهم من غضب وعار من مذلة العقود والقرون أن يسري عبر أجسامهم فيحيل دماءها دخانًا.

وتعالى ضباب ذلك الاندفاع الجامح إلى التجنيد. وبلغت الهمسات آذان تجار السوق السوداء، والمتعصبين، والبلطجية، والمحتالين. وهؤلاء جميعًا أحسنوا الإصغاء قبل أن يعيدوا النظر في خططهم ويعدّلوها. مرّروا أصابعهم الخبيثة على النتوءات المعدنية الباردة في حصصهم من القنابل اليدوية التي كانت توزَّع بسخاء كأنها علب لحم الضأن في العيد. أضفوا لغة الله والحرية على جرائمهم وخدعهم الجديدة. سارعوا إلى الحرب بالمال، والممتلكات والنساء.

طبعًا النساء.

النساء طبعًا.

وهكذا كانت بداية العصيان. بات الموت في كل مكان. بات الموت كل شيء. عملاً، ورغبة، وحلمًا، وحبًا، بل وشبابًا. بات الموت سبيلاً آخر للحياة. ظهرت المقابر في الحدائق والسهول، على ضفاف الجداول والأنهار، في الحقول وفي ممرّات الغابات. كانت شواهد القبور تطلع في الأرض مثلما تطلع الأسنان في أفواه الصغار. باتت لكلّ قرية مقبرتها، ولكلّ قوم. في القرى التي لم تخش حسبانها في جملة المتعاونين مع المقاتلين، وفي المناطق الحدودية النائية، على مقربة من خط السيطرة، لم يكن من السهل ملاحقة السرعة والتواتر اللذين كانت تظهر بهما الجثث، والحالة التي كانت تسمُ بعضها. بعضها كان يأتي في أجولة، والبعض في أكياس بلاستيكية صغيرة، لا تحوي غير قطع من اللحم والشعر والأسنان، وقد ثُبِّتتْ في بعضها أوراقٌ كتب فيها خبراء الموت: ١ كجم أو ٢.٧ كجم أو ٥٠٠ جرام (نعم، هذه من الحقائق التي كان جديرًا بها حقًا أن تكون من الشائعات).

خرج السياح. ودخل الصحفيون. خرج حديثو الزواج. ودخل الجنود. توافدت النساء على أقسام الشرطة ومعسكرات الجيش حاملات غابة من الصور الفوتغرافية ألانتها الدموع، صور جوازات السفر ذات الآذان البارزة وبصمات الأصابع: من فضلك يا سيدي، هل رأيت ولدي في أي مكان؟ هل رأيت زوجي؟ هل تصادف أن مرَّ أخي بين يديك؟ والسادة تورّمت صدورهم واشرأبت شواربهم وتحسّسوا أوسمتهم

وضيَّقوا أعينهم مقيّمين من يكلمنهم، ليروا من منهن يجدر تحويل يأسها إلى أمل عارم (سأرى ما الذي بوسعي أن أفعله) وأيهن قد تقدِّر هذا الأمل (بمبلغ؟ أو وجبة؟ أو ليلة؟ أو قدر من الجوز؟).

امتلأت السجون، وتبخَّرت الوظائف. المرشدون، والطوّافون، وأصحاب الخيول (وخيولهم)، وخدم الفنادق، والنُدُل، وموظفو الاستقبال، وساحبو المحفات، وباعة الحليّ، وباعة الزهور، والمراكبية في البحيرة، صاروا أشدَّ فقرًا وجوعًا.

وحدهم حفارو القبور لم يعرفوا الراحة. لم يكن لديهم غير العمل والعمل والعمل. دون أجور إضافية، أو علاوات، أو نوبات ليلية.

في مزارِ شهدا، دُفنت الآنسة جِين وأمُّها جنبًا إلى جنب. وعلى قبر الزوجة، كتب موسى يسوي:

عارفة يسوي

١٢ سبتمبر ١٩٦٨ . ٢٢ ديسمبر ١٩٩٥

زوجة موسى يسوي

وتحت ذلك كتب:

الآن يهبُّ الغبار على نسيم الخريف

حيثما كان ذات يومٍ زهورٌ، زهورٌ وحسب.

وبجوارها، كتب على قبر الآنسة جِين:

الآنسة جِين

٢ يناير ١٩٩٢ . ٢٢ ديسمبر ١٩٩٥

الابنة الحبيبة لكلٍّ من عارفة يسوي وموسى يسوي

وتحت ذلك، بحروف صغيرة جدًا، طلب موسى من الخطّاط أن ينقش ما قد لا يليق في نظر الكثيرين بشهيدة. وجعل ذلك في مكان علم أنه سوف يختفي في الشتاء أسفل الجليد وفي بقية العام أسفل العشب الطويل والنرجس البريّ. ومع ذلك. هذا ما كتبه:

اَكه دَليلا وَن

يَنه منز نه كانهه بَلاي آسِه

نه أس سوه كُنهِ جنجلس منز روزان

ذلك ما كانت تقوله له الآنسة جِين في الليل وهي مستلقية بجواره على السجادة، مستندة بظهرها على وسادة من القطيفة الرثّة (التي أكل عليها الدهر وبال) مرتدية الفيران (الذي أكل عليه الدهر وبال) المنمنم كأنه غطاء إبريق الشاي (بلونه الأزرق الفيروزي المزخرف بالصوف الوردي عند الرقبة والكمين) محاكية ببراعة أباها في اضطجاعته فهي ثانية ساقها اليسرى، واضعة كاحلها الأيمن على ركبتها اليسرى، وقبضتها الضئيلة في قبضته الضخمة. آكه دَليلا وَن. احكِ لي قصة. ثم تبدأ القصة بنفسها، صارخة بها في ليل حظر التجوال الكئيب، مطلقة بهجتها

الصاخبة من الشبابيك رقصةً تتردد في جنبات الحي. يَتهـ منز نه كانهه بَلاي آس٥ِا نهه أس سوه كُنه جنجلس منز روزان. لم تكن هناك ساحرة، ولم تكن تعيش في الأدغال. احكِ لي قصة، وهل يمكن أن نتخلّص من هراء الساحرة المقيمة في الأدغال؟ هل يمكن أن تحكي لي قصة حقيقية؟

كان جنود يشعرون بالبرد، وقد جاؤوا من مناخات دافئة، ليتوزعوا على دوريات في الطريق السريع المحيط بالحي، مرهفين آذانهم وبنادقهم. من هناك؟ أي صوت هذا؟ قف وإلا سنطلق الرصاص. يأتون من بعيد ولا يعرفون كيف يقولون بالكشميرية قف أو مَن هناك. لكن في وجود البنادق، من ذا الذي يحتاج إلى كلمات؟

أصغرهم، س. مروجيسن، لم يكد يتجاوز الصبا، ولم يعرف من قبل بردًا كهذا، ولا رأى الجليد، وكان لم يزل مفتونًا بالأشكال التي تتكون من زفيره إذ يتكاثف في الهواء المتجمد. قال في أول نوبة ليلية له "أترون؟!" وقد وضع إصبعين على شفتيه مدخّنًا سيجارة خيالية نافثًا دخانًا أزرق. "سجائر بالمجان!". وطفت بسمة بيضاء من وجهه الداكن عبر الليل ثم تلاشت أمام ازدراء رفاقه. قالوا له "دخّنها يا رجني كانت[41]، دخّن العلبة كلها. لا طعم للسجائر بمجرّد أن يفجّر هؤلاء رأسك".

---

٤١ لعل المقصود هنا نجم السينما الهندية راموجي راو جايكواد المعروف باسمه السينمائي رجني كانت.

هؤلاء.

هؤلاء نالوا منه في النهاية. انفجرت الجيب المدرعة التي كان يركبها على الطريق السريع أمام كبواره [٤٢]. فظلّ ينزف حتى الموت هو وجنديان آخران على قارعة الطريق.

وتسلّم أهله جسده في كفن أبيض وصل إلى قريته بمقاطعة ثانجافور في ولاية تاميل نادو مع أسطوانة مدمجة عليها فيلم "ملحمة البسالة الخفية" من إنتاج وزارة الدفاع وإخراج الرائد راجواند. لم يكن س. مروجيسن يظهر في الفيلم، لكن أهله ظنّوا أنه يظهر فيه لأنهم لم يشاهدوا الفيلم قط. لم يكن لديهم مشغل أسطوانات.

في قريته، ما كان "الفانياردس" (وليسوا من المنبوذين) ليسمحوا بمرور جثة س. مروجيسن (وكان من المنبوذين) أمام بيوتهم في الطريق إلى أرض المحرقة. فسلك موكب الجنازة مسارًا ملتويًا طاف حول القرية وصولاً إلى أرض محرقة المنبوذين المنفصلة المجاورة لمقلب قمامة القرية.

كان من بين الأشياء التي استمتع بها س. مروجيسن في كشمير ـ مضمرًا استمتاعه في نفسه ـ أن أبناء كشمير فاتحي البشرة كثيرًا ما كانوا يسخرون من الجنود الهنود وبشرتهم الداكنة وينادونهم بـ نسل التشمار أي "سلالة التشمار". كان يضحك مما تثيره تلك السخرية من غضب بين رفاقه الجنود الذين يعتبرون أنفسهم طبقة أعلى ولا يجدون غضاضة في

٤٢ بلدة في مقاطعة بالاسم نفسه في الولاية التابعة لإدارة الهند من دولة جامو وكشمير.

مناداته بـ التشمار كدأب أبناء شمال الهند في مناداة الدَلِت جميعًا بغض النظر عن الطبقة التي ينتمون إليها من طبقات المنبوذين. كانت كشمير واحدة من مناطق قليلة في العالم يخضع فيها ذوو بشرة فاتحة لحكم ذوي بشرة داكنة. فكم كانت تلك الآية المقلوبة تملأ تلك المهانات الكريهة بنوع من الصواب.

احتفالاً ببسالة س. مروجيسن، أسهم الجيش في إقامة تمثال من الأسمنت لـ سباهي س. مروجيسن، في زيِّه العسكري، حاملاً بندقيته على كتفه، ونُصِب في مدخل القرية. فكانت أرملته الشابة تشير بين الحين والآخر إلى التمثال، تريه لابنتها التي لم يتجاوز عمرها ستة شهور عند وفاة أبيها، وتقول "آبّا" ملوِّحة للتمثال، فتبتسم الصغيرة، وتحاكي تلويحة أمها، وحول معصمها طيَّة من الدهن الطفولي كأنها سوار. تقول مبتسمة "آباباباباپا".

لم يكن جميع أهل القرية سعداء بفكرة إقامة تمثال لواحد من المنبوذين في مدخل القرية، لا سيّما وهو منبوذ يحمل سلاحًا. كانوا يشعرون أن ذلك يروِّج رسالة خاطئة، ويبثُّ أفكارًا في عقول الناس. فلم تمض ثلاثة أسابيع على إقامة التمثال، حتى اختفت البندقية عن كتفه. وحاولت أسرة سباهي س. مروجيسن التقدم بشكوى، فرفضت الشرطة تحرير محضر، وقالت إن البندقية على الأرجح وببساطة قد سقطت أو انفصلت بسبب استعمال أسمنت رديء ـ وذلك من المساوئ الشائعة ـ وإنه لا يمكن أن يلام أحد على ذلك. بعد شهر قُطعت يدا التمثال. ومرة أخرى رفضت الشرطة تحرير محضر، وإن ضحكوا هذه المرة ضحك

العارف غير مبالين بمجرد التفكير في سبب محتمل. وبعد أسبوعين من بتر اليدين، نُحر تمثال سباهي س. مروجيسن. ومرّت أيام قليلة من التوتر. ونظّم أبناء طبقة س. مروجيسن من القرى القريبة مظاهرة، وبدأوا إضرابًا تناوبيًا عن الطعام عند قاعدة التمثال. وقالت محكمة محليّة إنها سوف تنظم لجنة قضائية للنظر في الأمر. وأمرت ببقاء الوضع على ما هو عليه، فانتهى الإضراب عن الطعام، ولم تشكّل اللجنة.

في بعض البلاد، يموت بعض الجنود مرّتين.

بقي التمثال منحور الرأس في مدخل القرية. وبرغم أنه لم يعد يحمل أيّ شبه بالرجل الذي أقيم تكريمًا له، فقد تبيّن، أنه أصدق تعبيرًا عن زمنه مما كان عليه من ذي قبل.

وبقيت ابنة س. مروجيسن تلوّح له.

"آبابابابابا"

مع تقدُّم الحرب في وادي كشمير انتشرت المقابر انتشار مواقف السيارات متعددة الطوابق التي مضت تتكاثر في المدن الناشئة في السهول. وكلما نفدت الأماكن، كان بعض المقابر يقام فوق بعض، فكأنها من طابقين كأتوبيسات سري نجر التي كانت في يوم من الأيام تنقل السياح بين سوق لال تشوك والبولفارد.

من حسن الحظ أن مقبرة الآنسة جِبين لم تعان ذلك المصير. بعد سنين، بعد أن أعلنت الحكومة احتواء التمرد (برغم إبقائها على نصف مليون جندي لمجرد الاطمئنان)، وبعد أن انقلبت جماعات المقاتلين (أو قُلّبت) بعضها على بعض، وبعد أن بدأ الحجيج والسياح والعرسان الجدد من الهند يرجعون إلى الوادي ليمرحوا في الثلج (متقافزين على الضفاف الجليدية المنحدرة، صارخين، على مزالج يشغّلها مقاتلون سابقون)، بعدما تعرض الجواسيس والوشاة (لأسباب تتعلق بالتطهير والمغالاة في الاحتياط) للقتل على يد من أداروهم، بعدما تم استيعاب المنشقين في وظائف يومية عادية في آلاف المنظمات غير الحكومية العاملة في قطاع السلام، وبعدما بدأ رجال الأعمال المحليون الذين حققوا ثروات من إمدادهم الجيش بالفحم وخشب الجوز في استثمار أموالهم في قطاع الضيافة سريع النمو (في سياق ما يعرف بإعطاء الناس "أنصبة من عملية السلام")، بعدما استولى مدراء البنوك على ما في حسابات المقاتلين الموتى من أموال لم يطالب بها أحد، بعدما تحوّلت مراكز التعذيب إلى قصور منيفة للسّاسة، بعدما هُجرت مقابر الشهداء وتقلّص عدد الشهداء إلى قَطْر ضئيل (وارتفع عدد المنتحرين بصورة مذهلة)، بعدما أقيمت الانتخابات وأعلنت الديمقراطية، بعدما علا نهر جيلوم وانحسر، بعدما قام التمرد ثانية وانسحق ثانية وقام ثانية وانسحق ثانية وقام ثانية، حتى بعد ذلك كله، بقيت مقبرة الآنسة جِبين مقبرة من طابق واحد.

كانت سعيدة الحظ حقًا. بمقبرة جميلة تنمو حولها الزهور البرية، على مقربة من قبر أمها.

كانت مجزرتها هي الثانية التي شهدتها المدينة خلال شهرين.

من بين السبعة عشر الذين ماتوا في ذلك اليوم، سبعةٌ كانوا من العابرين شأن الآنسة جِبين وأمها (ولو أن وصفهما بالجالسنين أدق). كانتا تشاهدان من شرفتهما، وقد جلست الآنسة جِبين، معانية ارتفاعًا طفيفًا في حرارتها، في حجر أمها، بينما يحمل آلاف المعزِّين جثمان عثمان عبد الله المحاضر الجامعي الشهير عبر شوارع المدينة. كان قد تعرَّض لإطلاق نار ممن وصفته السلطات بال م م -أي المسلَّح المجهول- برغم أن هويته كانت سرًّا معلنًا. برغم أن عثمان عبد الله كان منظِّرًا مرموقًا في النضال من أجل الآزادي، فقد تلقَّى تهديدات عديدة من فصيل متشدِّد حديث التكوّن من المقاتلين العائدين من خط السيطرة مزودين بأسلحة جديدة وأفكار قاسية جديدة اختلف معها على الملأ. كان اغتيال عثمان عبد الله إعلانًا عن أنه لا نية للتسامح مع المنهج التوفيقي بين الأفكار الذي كان يمثِّله. وأنه ما من مجال لهذه البضاعة الشعبية عتيقة الطراز. أعلن المقاتلون الجدد أنه لا مجال لعبادة الأولياء والعارفين في الأضرحة المحلية، لا مجال للأفكار المشوَّشة. لا مجال للأولياء الصغار وأهل الله البسطاء. لا مجال إلا لله، الإله الواحد. والقرآن. والنبي محمد (عليه السلام). لا طريقة للصلاة إلا طريقة واحدة، ولا تفسير للقانون الإلهي إلا تفسير واحد، ولا تعريف للآزادي إلا هذا:

ما معنى الحرية؟

معنى الحرية هو لا إله إلا الله.

لا مجال للجدال في هذا. وفي المستقبل، سوف ينتهي كل جدال مهما يكن بالرصاص. ليس الشيعة بمسلمين. وعلى النساء أن يتعلّمن كيف يحتشمن في ملبسهن.

طبعًا النساء.

النساء طبعًا.

لم يسترح الناس العاديون إلى بعض من هذا. لقد كانوا يحبون أضرحتهم، لا سيما ضريح حضرة بال الذي كان يحتوي أثر الموي المقدس، وهو شعرة من النبي محمد. انتحب مئات الآلاف في الشوارع حينما فقدت الشعرة في شتاء ١٩٦٣. وهلّل مئات الآلاف حينما ظهرت بعد شهر (وأثبتت السلطة المعنية أصالتها). ولكن حينما رجع المتشدّدون من أسفارهم، أعلنوا أن عبادة الأولياء وتقديس شعرة هي ضرب من ضروب الهرطقة.

هوى ذلك الخط المتشدّد بوادي كشمير إلى مأزق. فقد كان الناس يعلمون أن الحرية التي طال توقهم إليها لن تتحقّق إلا بحرب، وكانوا يعلمون أن المتشدّدين أفضل المقاتلين حتى ذلك الحين. فهم الذين نالوا أفضل التدريب، ولديهم أفضل السلاح، تمامًا كما أن لديهم بموجب

التعاليم السماوية- سراويل أقصر ولحى أطول. وكانوا يلقون قدرًا أكبر من المباركة، والنقود أيضًا، من الجانب الآخر من خط السيطرة. وكان إيمانهم الحديدي الراسخ قد ضبطهم، وبسّطهم، وأهّلهم لمواجهة بأس ثاني أضخم جيوش العالم. أما المقاتلون الذين كانوا يصفون أنفسهم بـ"العلمانيين" فأقلّ صرامة وأكثر تساهلاً. وأميل إلى الأناقة والبريق. ويكتبون الشعر، ويغازلون الممرضات وراكبات ألواح التزلّج، ويختالون في الشوارع حاملين بنادقهم في تراخ على أكتافهم. وإن لم يبدُ أن لديهم ما لا غنى عنه من أجل الانتصار في الحرب.

كان الناس يحبون الأقل تشددًا، ولكنهم كانوا يخشون المتشدّدين ويحترمونهم. وفي معركة الاستنزاف التي اندلعت بين الطرفين، فقد المئات أرواحهم. وفي نهاية المطاف أعلن الأقلُّ تشدّدًا الهدنة، متقبّلين الواقع متعهدين بمواصلة النضال على طريقة غاندي. وواصل المتشدّدون النضال على مدار السنين فكانوا يصادون رجلاً رجلاً. وما قتل منهم رجل، إلا حلّ محلّه رجل.

بعد شهور قليلة من اغتيال عثمان عبد الله، ألقى الجيش القبض على قاتله (المسلح المجهول المعروف للجميع) وقتله. وسلّم جسده لأهله وقد بدا فيه أثر الرصاص والحرق بالسجائر. وقرّرت لجنة في المقابل، بعد تقليب الأمر على شتّى جوانبه، أنه يعدُّ شهيدًا ويستحق الدفن في مقابر الشهداء. فدفنوه في الطرف المقابل من المقبرة، راجين أن يَحُولَ ذلك التنائي بين عثمان عبد الله وقاتله دون تشاجرهما في العالم الآخر.

ومع مضي الحرب، أخذ الخط الليّن في الوادي يقسو قليلاً قليلاً، ويزداد الخط المتشدّد تشددًا. وتوالد من كل خطٍ مزيدٌ من الخطوط والخطوط الفرعية. فتوالدت من الخطوط المتشدّدة خطوط أكثر تشدُّدًا. وتدبّر الناس العاديون أمورهم بما يرقى إلى المعجزة. مع هؤلاء جميعًا، فداهنوهم جميعًا، ودعموهم جميعًا، وحاربوهم جميعًا، ماضين على ما كانوا عليه دائمًا من عادات بات يُفترض فيها الضلال. فبقي سلطان الشعرة المقدسة قائمًا فيهم لا انقطاع له. وحتى مع انجرافهم في تيارات التشدّد المتسارعة، بقيت أعداد أضخم من الناس تتوافد على الأضرحة لتبكي مزيحة عن قلوبها الكسيرة أثقالها.

من أمان شرفتهما أخذت الآنسة جِبين وأمُّها تشاهدان موكب الجنازة إذ يقترب. وشأن جميع الأمّهات والأطفال الذين احتشدوا في الشرفات الخشبية بالمنازل القديمة على طول الشارع، كانت الآنسة جِبين قد استعدّت بطبق مليء ببتلات الورد لترميه على جثمان عثمان عبد الله إذ يمرّ من تحتهما. كانت الآنسة جِبين مؤمَّنة من البرد بسترتين وقفاز من الصوف. ومضى في الزقاق الضيّق آلاف الناس يهتفون آزادي. . آزادي. ومثلهم هتفت الآنسة جِبين وأمّها، برغم أن الآنسة جِبين، الحرون دائمًا، كانت تهتف في بعض الأحيان قائلة ماتاجي (أي: أمي) بدلاً من آزادي، وقد بدت لها الكلمتان متماثلتي الصوت، ولأنها عرفت أنها كلما فعلت ذلك انحنت أمها عليها لتقبّلها مبتسمة.

كان لزامًا على الموكب أن يمرّ بنقطة حصينة من نقاط كتيبة قوة أمن الحدود السادسة والعشرين المتمركزة على بعد يقلُّ عن مئة قدم من مجلس عارفة والآنسة جين. كانت خطوم الرشاشات بارزة من شباك النافذة الحديدية في حجيرة مترية مقامة من الصفيح والخشب، وقد تمترست النقطة الحصينة وراء أكياس الرمل ولفائف الأسلاك الشائكة، وفوارغ زجاجات مشروبي أولد مونك وروم تريبل إكس. وكليهما من إصدارات الجيش. تتدلّى أزواجًا أزواجًا من السلك الباتر، متصادمة بعضها ببعض كالأجراس. فهي نظام تأمين فعّال برغم بدائيته. زجاجات خمر في خدمة الوطن. كما كانت فيها منفعة أخرى، إذ كانت تمثّل إهانة بالغة للمسلمين المتدينين. وكان جنود النقطة الحصينة يُطعمون الكلاب الضالّة التي يجتنبها السكان المحليون (كما يليق بمسلمين متدينين) فكانت الكلاب حلقة أمنية مضافة. جلسوا يرقبون ما يجري، متيقظين، لكن غير متحفزين. ومع اقتراب الموكب من النقطة الحصينة ذاب رجالها في الظلال، وانسرب عرق بارد في ظهورهم تحت أزيائهم الشتوية وستراتهم الواقية من الرصاص.

وفجأة، انفجار. لم يكن هائل الدويّ، لكنه ذو دويّ، وقريب بما يكفي لإثارة ذعر أعمى. خرج الجنود من النقطة الحصينة واتخذوا مواقعهم وأطلقوا نيرانهم الخفيفة مباشرة على الجمع غير المسلح الذي انعطف إلى الشارع الضيّق. كانوا يطلقون الرصاص بهدف القتل. فحتى بعدما استدار الناس هاربين، طاردهم الرصاص، مستقرًا في الظهور والرؤوس والسيقان المتقهقرة. وجّه الجنود المرتاعون أسلحتهم إلى

المتفرجين في الشبابيك والشرفات مفرغين ذخيرتهم في الناس والأسيجة والجدران وأطر الشبابيك، وفي الآنسة جبين وأمها عارفة.

أصيب كفن عثمان عبد الله وحاملوه. انفتح نعشه، وانكشفت جثته إثر مقتلها الثاني في أرض الشارع في كفنها الأبيض الناصع لتموت ميتة أخرى مع موتى ذلك اليوم وجرحاه.

بعض أهل كشمير أيضًا يموتون مرتين.

لم يتوقف إطلاق الرصاص إلا حينما خلا الشارع، فلم يبق فيه إلا جثث الموتى والمصابون. وأحذية. آلاف الأحذية.

والهتاف المدوّي لم يبق له من هاتفين:

كشمير التي رويناها بدمائنا، كشمير هذه لنا!

جاء بروتوكول ما بعد المجزرة سريعًا وفعّالاً، وقد صقلته الممارسة حتى بلغت به الكمال. في غضون ساعة نُقلت جثث الموتى إلى المشرحة في مركز عمليات الشرطة، ونُقل المصابون إلى المستشفى. وأعملت الخراطيم في الشارع، فانجرفت الدماء إلى البالوعات المفتوحة. أعيد فتح المحلات. وأعلنت الحالة الطبيعية (ولم تكن الحالة الطبيعية تأتي إلا بإعلان).

تبيّن لاحقًا أن الانفجار نجم عن وطء عربةٍ علبةَ مانجو فروتي فارغةً في الشارع المجاور. فمن يلام في هذا؟ من ترك علبة المانجو فروتي (طازجة وشهية) في الشارع؟ الهند أم كشمير؟ أم باكستان؟ أم من

دهسها؟ تشكّلت لجنة للتحقيق في أسباب المجزرة. ولم تظهر الحقائق قطّ. ولم يوجَّه اللوم لأحد. وتلك كانت كشمير. وكانت غلطة كشمير.

ومضت الحياة. ومضى الموت. ومضت الحرب.

*

كلُّ من رأوا موسى يسوي وهو يدفن زوجته وابنته لاحظوا كم كان هادئًا في ذلك اليوم. لم يبدُ عليه حزن. بدا منطويًا على نفسه، شاردًا، كأنما لم يكن حاضرًا بالفعل. ولعلّ ذلك ما أفضى في النهاية إلى اعتقاله. أو ربما نبضُ قلبه. فلعله كان أسرع مما ينبغي لمدنيّ بريء، أو أبطأ مما يليق. كان جنود نقاط التفتيش الشهيرة يضعون آذانهم في بعض الأحيان على صدور الشباب وينصتون إلى نبض قلوبهم. بل إن شائعات قالت إن من الجنود من يحملون سماعات طبية. ويقولون "هذا الرجل قلبه ينبض من أجل الحرية". فيكون ذلك سببًا كافيًا لترحل الجسد الذي يستضيف القلب سريع النبض أو بطيء النبض إلى الشحنة أو بابا ٢ أو سينما شيراز وتلك أبشع مراكز الاستجواب في الوادي.

لم يُعتقل موسى في نقطة تفتيش. بل قُبض عليه من بيته بعد الجنازة. فما كان لإفراط شخص في الهدوء في جنازة زوجة وابنة أن يغيب عن الأعين في هذه الأيام.

في البداية بالطبع كان الجميع هادئين، وخائفين. مضى موكب الجنازة يتلوّى عبر وحل المدينة الصغيرة الكئيبة وقد حلّ عليه صمت مطبق. لم يكن من صوت إلا رتابة أصوات آلاف النعال الماضية بلا جوارب على الطريق الندي المفضي إلى مزارِ شهدا. كان الشباب يحملون على أكتافهم سبعة عشر نعشًا. أو هي سبعة عشر نعشًا، ونعش لعثمان عبد الله المغتال مرّتين، والذي بدا واضحًا أنه من الصعب إدراجه في الدفاتر مرّتين. هكذا مضت سبعة عشر نعشًا ونعشٌ من الصفيح تتضافر في الشوارع، تومض تحت شمس الشتاء. لا بد أن الموكب بدا، للمطلّ على المدينة من حلقة الجبال الشاهقة المحيطة بها، أشبه بطابور من النمل البني يحمل سبع عشرة سُكّرةً إلى عشه لإطعام ملكته. ولعلّ ذلك الموكب الصغير لم يَعْدُ في حقيقته -في نظر دارس للتاريخ والصراع البشري- طابورًا من النمل يمضي بفتات قليل سقط عن مائدة عالية. ففي عرف الحروب لم تكن هذه غير حرب صغيرة. لم يُبْدِ أحدٌ اهتمامًا كبيرًا بها. فمضت ومضت. وانطوت صفحتها وانفتحت على مدار عقود، محتوية الناس في حضنها المجنون. بانت وحشيتها طبيعية كأنها تبدل المواسم، يأتي كلٌ بنطاقه الفريد من الروائح والبراعم، ودورته الخاصة من الفقد والتجدّد، والتمزّق والانصال، والانتفاضات والانتخابات.

ووسط كلّ حبيبات السكر المحمولة على رؤوس النمل في ذلك الصباح الشتائي، كانت السكّرة الصغرى بطبيعة الحال هي التي حملت اسم الآنسة جِبين.

من النمل من غلبهم القلق فلم ينضموا إلى الموكب واصطفوا على جوانب الشوارع، واقفين على أطراف الجليد البنية القديمة الزلقة، عاقدين أذرعهم داخل دفء فيراناتهم، تاركين أكمامها الخاوية ترفرف في الهواء. بشر بلا أذرع في قلب عصيان مسلح. أمّا من غلبهم الخوف ولم يغامروا بالخروج، فبقوا يشاهدون من شبابيكهم وشرفاتهم (وإن كانوا قد فطنوا تمامًا إلى ما ينطوي عليه ذلك أيضًا من مخاطر). كان كلٌ من فيهم يعلم أنه مراقب عبر عدسات بنادق الجنود الذين تمركزوا في شتّى أرجاء المدينة: على الأسطح، والجسور، والقوارب، والمساجد، وأبراج محطات المياه. كانوا قد احتلّوا الفنادق والمدارس والمحلات والبيوت نفسها.

جاء الصباح باردًا، وللمرة الأولى منذ سنين تجمّدت البحيرة وتنبّأت النشرات الجوية بهطول مزيد من الثلج. انتصبت الأشجار عارية، رافعة غصونها إلى السماء كأنها هي الأخرى حزينة حزن المشيّعين.

في المقبرة، أعدّت القبور، سبعة عشر قبرًا وقبر. منتظمة، جديدة، عميقة. وقد تكوّم تراب كلّ قبر بجواره، هرمًا من مسحوق الشوكولاتة الداكنة. وكان جمعٌ قد جاء قبل ذلك بالنقالات المعدنية الدامية التي سلّمت عليها الجثث إلى أهلها من المشرحة. صُفّت وقوفًا، مرتّبة حول جذوع الأشجار، كأنها بتلات معدنية دامية لزهرة جبلية عملاقة ضارية آكلة للحم.

وفيما كان الموكب يستدير داخلاً بوابة المقابر، إذا بجمع من رجال الصحافة، يرتعشون كأنهم رياضيون على منصّات الانطلاق، يتحرّكون إلى الأمام مسارعين. أنزلت النعوش وفُتحت ورتّبت في صفٍّ واحد على الأرض المكسوّة بالثلج. أفسح المشيّعون باحترام مجالاً للصحافة، مدركين أن المجزرة بدون الصحافة والصور الفوتوغرافية سوف تنطمس فيموت الموتى بحق. هكذا أتيحت لهم الجثث، أملاً، وغضبًا. وليمة موت. طولب الأقارب المكلومون الذين تراجعوا بالتقدم إلى الكادر. كان لا بد من أرشفة حزنهم. وفي السنين القادمة بعدما تصبح الحرب طريقة حياة سوف تؤلّف كتب، وتنتج أفلام، وتقام معارض فوتوغرافيا، ثيمتها جميعًا حزن كشمير وخسارتها.

ولن يظهر موسى في أيٍّ من تلك الصور.

في تلك المناسبة كانت الآنسة جِبين محطّ أكبر الاهتمام. اقتربت منها الكاميرات، بأزيزها وطقطقاتها، كأنها دببة مضطربة. ومن حصاد تلك الصور، تحولت صورة واحدة إلى صورة كلاسيكية محلية. فنشرت مرارًا على مدار السنين في الصحف والمجلات وعلى أغلفة تقارير حقوق الإنسان التي لم يقرأها أحد قط، بتعليقات من قبيل: **دماء على الجليد، وادي الدموع، هل ينتهي الحزن يومًا ما؟**

في الهند، لأسباب واضحة، كانت صورة الآنسة جِبين أقل شيوعًا. ففي سوبر ماركت الحزن، بقيت صورة صبي بهوبال ضحية تسريب الغاز في شركة يونيون كاربايد متقدمة على صورتها في قوائم الرواج. زعم كثير من كبار المصورين الفوتوغرافيين أنهم أصحاب الحق

في تلك الصورة الشهيرة للصبي الميت المدفون حتى رقبته في مقبرة الركام، بعينيه الشاخصتين الشاغرتين وقد أعماهما الغاز السام. عينان حكتا قصة ما جرى في تلك الليلة الليلاء كما لم يحكها شيء آخر. كانتا تحملقان من صفحات المجلات المصقولة في كل مكان بالعالم. وفي النهاية لم تُحدث فارقًا بطبيعة الحال. سطعت القصة ثم انطفأت. واستمرَّت المعركة على حقوق الصورة لسنين، فكانت تقريبًا في مثل ضراوة معركة تعويضات آلاف ضحايا تسريب الغاز الهالكين.

. . .

تشتَّت جمع الدبية القلقة، كاشفًا عن الآنسة جِبين، الغارقة في نومها، سليمة لم يمسسها أذى، ووردتها الصيفية لم تزل في موضعها.

وفيما بدأ إنزال الجثث إلى مقابرها، بدأ المشيعون في تلاوة صلواتهم.

رب اشرح لي صدري، ويسِّر لي أمري، واحلل عقدة من لساني، يفقهوا قولي

أما الأطفال الصغار، الذين لا تزيد أطوالهم عن الأفخاذ، والواقفون مع النساء في مكانهن المنفصل، فكادوا يختنقون من الصوف الخشن في أردية أمّهاتهن، عاجزين عن رؤية الكثير، عاجزين تقريبًا عن التنفس، فمضوا يبرمون صفقاتهم الصغيرة: **أعطيك فوارغ ست طلقات في مقابل فارغ قنبلتك اليدوية.**

وعلا صوت امرأة وحيدة حتى عنان السماء، زاعقًا خارقًا المألوف، يندفع فيه الأمل الصرف اندفاع رمح مسنون.

رو راحي بيه زامين! رو راحا هاي أسماان . . .

وشاركتها أخرى، فأخرى:

هذه الأرض تبكي! والسماء . . .

أوقف الطير زقزقاته لوهلة وأنصت منتبه الأعين للغناء البشري. كانت الكلاب الضالة تهيم عابرة نقاط التفتيش دونما تفتيش، ثابتة النبض. بل كانت الحدآت تطوف في الجو، منسابة في سلاسة، قاطعة خط السيطرة ذهابًا وإيابًا، مستهزئة بكتلة البشر الضئيلة المحتشدة أسفلها.

لمّا امتلأت السماء بالعويل، انطلقت شرارة شيء ما. أخذ الشباب يثبون في الهواء، كأنهم ألسنة لهب انبعثت من جمر خامد. صاروا يثبون أعلى، فأعلى، وكأنما الأرض من تحت أقدامهم مطاطٌ يدفعهم لا تراب. كانوا يلبسون آلامهم دروعًا، ويلتفُّ غضبهم على أجسامهم التفاف أحزمة الذخيرة. وفي تلك اللحظة، ربما لأنهم كانوا مسلحين بتلك الأسلحة، أو لأنهم كانوا قد قرَّروا أن يعانقوا حياة الموت، أو لأنهم عرفوا أنهم موتى بالفعل، صاروا قوة لا سبيل لقهرها.

كانت التعليمات الصادرة للجنود المحيطين بمزارِ شهدا واضحة بالامتناع عن إطلاق النار، مهما حدث. وكان مخبروهم (إخوانهم، وأبناء عمومتهم، وآباؤهم، وأعمامهم، وأبناء خؤولتهم) ممن اختلطوا بالحشد يهتفون بالشعارات في مثل حماس غيرهم (بل وصادقين في هتافهم) مكلّفين بوضوح بتسليم صور وفيديوهات إن أمكن لكلّ شابٍ ممّن شارك في فورة الغضب، ووثب في الهواء جاعلاً نفسه لسانًا من اللهب.

ليسمع كلّ واحد منهم عما قريب طرقة على بابه، أو يُتنحى به جانبًا عند نقطة تفتيش.

أنت فلان؟ ابن فلان؟ الموظف لدى علان؟

في الغالب لم يكن الخطر ليتجاوز ذلك؛ مجرد تحقيق روتيني بسيط. ولكن في كشمير، كان إلقاء بيانات شخص في وجهه، كفيلاً في بعض الأحيان بتغيير مسار حياته.

وأحيانًا لم يكن الأمر كذلك.

*

جاؤوا إلى موسى في الساعة المعتادة لزيارتهم، وهي الرابعة صباحًا. كان سهران، جالسًا إلى طاولته يكتب رسالة. وأمّه في الغرفة المجاورة، يسمع بكاءها وغمغمات المواساة من أخواتها وقريباتها. كانت لعبة

فرس النهر الخضراء المحشوة (والمقطوعة) الخاصة بالآنسة جِبين بسمتها المثلثة وقلبها الوردي في مكانها المعتاد، مستندة إلى وسادة في انتظار أمها الصغيرة وقصتها الليلية المعتادة قبل النوم. (آخ دليلا وان ...). سمع موسى السيارة وهي تقترب. ومن شباكه في الطابق الأول رآها تنعطف إلى الزقاق وتتوقف أمام منزله. لم يشعر بشيء، لا بغضب ولا بذعر، وهو يرى الجنود يغادرون الجيبسي المدرَّعة. كان أبوه شوكت يسوي (أو جودزيلا بالنسبة لموسى وأصدقائه) سهران هو الآخر، متربِّعًا على السجادة في صالة البيت. كان مقاول بناء يعمل عن قرب مع الهيئة الهندسية العسكرية، يمدّها بمواد البناء ويقيم لها أبنية يسلِّمها على المفتاح. وكان قد بعث ولده إلى دلهي ليدرس العمارة آملاً أن يساعده على التوسّع في عمله. ولكن التحريك بدأ في عام ١٩٩٠ واستمرّ جودزيلا في العمل مع الجيش، فاجتنبه موسى تمامًا. وبات ممزّقًا بين واجبه كابن، وإحساسه بالذنب من التمتع بما كان يراه مغانم للتواطؤ، فصار يصعب عليه يومًا بعد يوم أن يعيش تحت سقف واحد مع أبيه.

بدا أن شوكت يسوي كان ينتظر قدوم الجنود. فلم يبد عليه التحفز. "أمريك سنج اتصل وقال إنه يريد أن يتكلم معك. لا شيء. لا تقلق. سيفرج عنك قبل طلوع النهار".

لم يردّ موسى. بل ولم يلتفت إلى جودزيلا، بدا اشمئزازه جليًّا في حفاظه على كتفيه منتصبين انتصاب ظهره. خرج من الباب الأمامي مخفورًا برجلين في كلٍّ من جنبيه وركب السيارة. لم يوثقوا يديه، أو

يعصبوا عينيه. انسابت الجيبي في الشوارع المتجمدة الزلقة، وكان الثلج قد بدأ ينهمر من جديد.

تقع سينما شيراز في وسط معسكر من الثكنات وعنابر الضباط، مطوّقة بشراك البارانويا المحكمة. فثمة سور مزدوج من حلقات الأسلاك الشائكة بينها خندق رملي ضحل، ورابع الحلقات الداخلية هو سور حدودي شاهق تعلوه شظايا مسنّنة من كسر الزجاج. أما البوابة المعدنية المسنّنة ففيها أبراج مراقبة في الجانبين بداخل كلٍّ منها جنود مسلحون بالرشاشات. عبرت الجيبي التي أقلّت موسى بسرعة خلال نقاط التفتيش. كان واضحًا أنهم على علم مسبق بمجيئها. واتجهت مباشرة عبر المجمع إلى المدخل الرئيسي.

كان بهو السينما ساطع الإضاءة. فسيفساء من مرايا صغيرة تغطي بياض طلاء السقف الباريسي الساقط كأنها طبقة من القشدة على كعكة زفاف عملاقة، مُوزِّعةً الضوء المنبعث من ثريات رخيصة مبهرجة ومعظِّمةً إياه. وتمتد السجادة الحمراء رثّة بالية تظهر الأرضية الأسمنتية من بين ثقوبها. وتفوح في الهواء العطِن الراكد روائح البنادق والديزل والثياب القديمة. وبات ما كان في يوم من الأيام مقصف الوجبات الخفيفة في السينما مكتب استقبال وتسجيل للمعذّبين والمعذِّبين، لكنه كان لا يزال يعلن عن أشياء لم تعد متوافرة في مخزنه: شوكولاته كادبوري بالفواكه والمكسرات وآيس كريم كواليتي بالعديد من النكهات، ومثلجات الشوكلاته ومثلجات البرتقال ومثلجات المانجو

وألواح البرتقال، فضلاً عن ملصقات أفلام قديمة بهتت على الجدران (تشاندني، ومين ني بيار كيا، وبَرِنده وأسد الصحراء) منذ ما قبل عصر منع الأفلام وإغلاق السينما بابها على يد نمور الله، وعلى بعض تلك الملصقات بقع شراب التنبول الأحمر. كانت صفوف من شباب مقيدين معصوبي الأعين يجلسون على الأرض كالدجاج، فمنهم من تعرّض لضرب مبرح حتى فقد الوعي، وشارف على الموت، لكنه لم يزل جاثمًا على وضعه، وقد وثّقت معاصمهم بكواحلهم. وكان الجنود يتحركون في المكان، داخلين بسجناء، خارجين بآخرين للاستجواب. أما الأصوات الخافتة المتسللة عبر الأبواب الخشبية الضخمة فيليق بها أن تكون شريط صوت مكتوم في فيلم من أفلام العنف. حيوانات كنجارو أسمنتية على وجوهها ابتسامات قاسية ولها بدلاً من الأجربة أكياس قمامة مكتوب عليها استعملني تشرف على محاكم الكنجارو الهزلية.

لم يخضع موسى وحرسه لإجراءات الاستقبال والتسجيل الرسمية. بل مضوا متبوعين بنظرات المقيدين والمضروبين كأنهم ملوك يصعدون السلم المهيب المنحني المفضي إلى كراسي البلكون ـ المخصصة للحاشية الملكية ـ ومن هناك إلى سلم آخر أضيق يفضي إلى غرفة العرض التي وسّعت حتى تصير مكتبًا. وكان موسى يعرف أنه حتى تهيئة هذه القطعة من المسرح كانت مقصودة، لا براءة فيها.

وقف الرائد أمريك سنج ليحيي موسى، وأمامه طاولة تناثرت عليها مجموعته الخاصة الغريبة من ثقّالات الورق، فمنها المدبّب،

والصَّدَفُ المنقّط، والتماثيل النحاسية، والسفن، وراقصات الباليه سجينات الأقفاص الزجاجية. كان رجلاً في أواسط الثلاثينات داكن البشرة، شاذّ الطول، إذ يقارب طوله مترًا وتسعين سنتيمترًا على أقل تقدير. ولعله أراد في تلك الليلة أن يظهر بمظهر السيخي المتدين. جلد خديه أعلى خط اللحية مليء بمسام ضخمة، كأنه سطح عجينة مختمرة. وعمامته الخضراء الكبيرة الملتفّة بإحكام حول أذنيه وجبهته تشد زاويتي عينيه وحاجبيه إلى أعلى مضفية عليه سمت الناعسين. ومن يعرفونه ولو لمامًا يعرفون أن تصوره في ضوء هذا السمت الناعس أمر ينطوي على فهم خاطئ وخطر لشخصيته. دار حول الطاولة وحيّا موسى بحميمية، واهتمام، وتعاطف. وطلب من الجنود الذين جاؤوا به الخروج.

"السلام على حضرتك ... تفضل بالجلوس. ما الذي تحب أن تشربه؟ شاي؟ قهوة؟".

نبرة في موضع ما بين السؤال والأمر.

"لا شيء. شكرًا".

جلس موسى. تناول أمريك سنج سماعة هاتفه الداخلي الأحمر وطلب الشاي و"بسكويت الضباط". كان بحجمه وجرمه الكبير يجعل المكتب يبدو صغيرًا وغير متناسب معه.

لم يكن ذلك لقاءهما الأول. فقد سبق أن التقى موسى بأمريك سنج مرّات عديدة من قبل، وفي منزله الخاص (أي منزل موسى نفسه)

لا في أي مكان آخر، حينما كان أمريك سنج يمرّ لزيارة جودزيلا الذي قرّر أن يمنّ عليه بنعمة صداقته، وهو عرض لم تكن لجودزيلا في الحقيقة حرية رفضه. بعد أولى زيارات أمريك سنج القليلة، بات موسى مدركًا لتغيّر جسيم طرأ على جو البيت. صار أهدأ. انتهت النقاشات السياسية المريرة بينه وبين أبيه. لكن موسى استشعر بغتة أن عيني جودزيلا المرتابتين ظلتا مُعلّقتين به دائمًا، وكأنه يحاول أن يقيّمه، ويعايره، وينفذ إليه. حدث في عصر أحد الأيام وموسى نازل من غرفته أن انزلق على السلم، فاعتدل في منتصف ذلك، وأمكنه أن يبقى على قدميه. فإذا بجودزيلا الذي كان يرقب أداءه ذلك يبادره بالكلام. لم يرفع صوته، لكنه كان في سورة من الغضب حتى أن موسى رأى عرقًا ينبض على جنب جبهته.

"كيف تعلمت أن تقع بهذه الطريقة؟ من علمك الوقوع على هذا النحو؟"

ومضى يتفحص ابنه بغرائز مصقولة ودربة أب كشميري خائف على ابنه. كان يبحث عن أشياء غير مألوفة، عن جلد متيبس في إصبع السبابة، أو ركبتين أو مرفقين اخشوشن جلدهما أو أي علامات أخرى في جسده قد تكون من أثر "التدريب" في معسكرات المقاتلين. فلم يجد شيئًا. قرّر مواجهة موسى بالمعلومات المقلقة التي قدّمها له أمريك سنج عن صناديق من "المعدن" تُنقل عبر بساتين الأسرة في جاندربال. وعن رحلات موسى في الجبال، ولقاءاته بـ"أصدقاء" معينين.

"ما الذي تقوله في ذلك كله؟"

قال له موسى "اسأل صاحبك الرائد. سيقول لك إن كل هذه المعلومات المتهافتة قمامة لا نفع فيها".

قال جودزيلا "سوف تموت وتأخذنا كلنا معك".

في الزيارة الثانية لأمريك سنج، أصرّ جودزيلا على حضور موسى. في تلك المرة جلسوا متربّعين على الأرض حول منضدة دسترخان بلاستكية مشجرة وقدّمت أم موسى الشاي (وشدّد موسى على عارفة والآنسة جِبين ألا ينزلا إلى أن يذهب الضيف). كان أمريك سنج ينضح بالدفء والمودّة. يتصرّف وكأنه في بيته، فيضطجع على الوسائد. ألقى قليلاً من نكات السيخ الفاحشة عن سانتا سنج وبانتا سنج وضحك أكثر مما ضحك غيره. ثم إنه خلع حزامه بمسدسه في جرابه بذريعة أنه يمنعه من الأكل بقدر ما يريد. ولو كان القصد من تلك الحركة أن تبيّن ثقته في مضيفيه وإحساسه بالارتياح وسطهم، فقد أحدثت عكس ذلك التأثير. كان اغتيال جالب قدري لم يحدث بعد، ولكن الجميع كانوا يعلمون بسلسلة الاغتيالات والاختطافات. صار المسدس حاضرًا ومهدّدًا وسط أطباق الكعك والمقرمشات وأباريق الشاي الحافظة للحرارة. ولما نهض أمريك سنج في النهاية ليغادر، وهو يتجشأ متلذذًا، نسيه، أو بدا أنه نسيه. فتناوله جودزيلا ومدّه إليه.

نظر أمريك سنج في عيني موسى وضحك وهو يرتدي حزامه من جديد.

"حسن أن تذكّره أبوك. تخيّل فقط لو عُثر عليه هنا في أثناء حملة تفتيش. دعك مني أنا، حتى الله ما كان ليقدر على مساعدتك. تخيّل فقط".

ضحك الجميع مذعنين. ولم ير موسى ضحكًا في عيني أمريك سنج. بدا أنهما تمتصّان الضوء ولا تعكسانه. بدتا له أسطوانتين مطفأتين عديمتي العمق لا أثر فيهما ولو من بعيد للمعة أو وميض.

نظرت العينان المطفأتان نفسهما إلى موسى عبر طاولة مليئة بثقالات الورق في غرفة العرض بسينما شيراز. كان المشهد استثنائيًا، مشهد أمريك سنج جالسًا إلى طاولة بدا واضحًا تمامًا أنه لا يعرف مطلقًا ما الذي يفعله بها عدا أن يجعلها معرض تذكارات. كانت موضوعة بحيث لا يكون عليه إلا أن يضطجع في كرسيه شاخصًا عبر المستطيل المفتوح في الجدار -الذي كان في يوم من الأيام منفذًا يرى من خلاله عارض الفيلم، فبات الآن فتحة للتجسس- ليبقى مُطّلعًا على ما يجري في القاعة الرئيسية مهما يكن. كانت زنازين الاستجواب تبدأ من هناك، وعبر الطرقات التي عُلّقت فوقها لافتات حمراء مضاءة بالنيون مكتوب فيها (ومعنيٌّ بها أحيانًا) الخروج. كانت لا تزال على الشاشة ستارة مخملية قديمة الطراز طويلة الأهداب من النوع الذي كان في الماضي يرتفع على وقع موسيقى مسجّلة، هي في الغالب موسيقى بوبكورن أو بيي إليفنت ووك. كانت كراسي الصالة الرخيصة قد أزيلت ورُوكمت في أحد الأركان لإفساح المكان لملعب داخلي لكرة الريشة حيث يتسنّى للعسكر المرهقين أن ينفثوا بخار ضيقهم ويروحوا عن أنفسهم.

وحتى في هذه الساعة كان الصوت الخافت الناجم عن تلامس المضرب بالكرة يشق طريقه إلى مكتب أمريك سنج.

"جئت بك إلى هنا لأعتذر لك وأقدِّم لك عزائي الشخصي العميق عمّا جرى".

كان التآكل قد استفحل في كشمير حتى لم يعد أمريك سنج يدرك فعلاً مفارقة في اعتقاله رجلاً قُتلت زوجته وابنته بالرصاص وإحضاره بالقوة، وتحت تهديد السلاح، إلى مركز تحقيق في الرابعة صباحًا، لمجرد تقديم العزاء له.

كان موسى يعلم أن أمريك سنج حرباء وأنه من تحت عمامته "مونا"، أي أن شعره ليس طويلاً كما يليق بواحد من السيخ. كان قد اقترف تلك الجريمة القصوى ضد شريعة السيخ بقصِّه شعره قبل سنين كثيرة. وكان موسى قد سمعه يتباهى أمام جودزيلا بقدرته وهو في عملية من عمليات مكافحة التمرد على أن يبدو واحدًا من الهندوس أو السيخ أو مسلمي باكستان الناطقين بالبنجابية، بحسب ما تقتضيه العملية. وقهقه وهو يصف قيامه هو وجنوده، للتعرف على "المتعاطفين" واستنفارهم من مخابئهم، بارتداء قميص من طراز سترات خان- ويطرقون أبواب الناس في القرى في جنح الليل، متظاهرين أنهم مقاتلون من باكستان يبحثون عن مأوى. فإن قوبلوا بالترحاب، لا تطلع شمس اليوم التالي إلا وهم معتقلون بوصفهم ع ف أ (أي عناصر فوق الأرض).

ولم يملك موسى يومها أن يكتم سؤاله "لكن كيف يفترض بقرويين غير مسلحين أن ينهروا جماعة رجال مسلحين يطرقون أبوابهم في منتصف الليل؟ بغض النظر عن كونهم مقاتلين أم عسكريين؟".

قال له أمريك سنج "لدينا وسائلنا لتقييم مدى دفء الترحيب. عندنا ترمومترات خاصة".

ربما. ولكنك لا تدرك مدى عمق الازدواجية في كشمير. خطر ذلك لموسى وكتمه. أنت لا تعرف كيف تعلَّم شعب مثل شعبنا ـأمكنه البقاء في تاريخ وجغرافيا كاللذين ابتلينا بهماـ أن يسلم عزَّته للخفاء، ويدفنها تحت الأرض. الازدواجية هي السلاح الوحيد الذي نملكه. أنت لا تعرف كيف ترتسم الابتسامات المشرقة على وجوهنا بينما قلوبنا مفطورة. وبأي ضراوة ننقلب على من نحب بينما نعانق بأريحية من نحتقر. لا تعرف بأي دفء يمكن أن نرحب بك بينما كل ما نريده حقًا هو أن تذهب هنا. ترمومتراتك لا نفع لها هنا...

تلك كانت طريقة في النظر إلى الأمر. لكن في المقابل، ربما كان موسى ـفي تلك اللحظة من الزمنـ هو الساذج الذي ينقصه أن يعرف الكثير. لأن أمريك سنج بلا أدنى شك كانت لديه دراية كاملة بالجحيم الذي يعمل فيه، والذي لم يكن لأهله حدود أو ولاءات أو نهاية للأعماق التي يمكن أن تهوي إليها. أما عن الشخصية الكشميرية ـإن كان لشيء كهذا وجود أصلاًـ فلم يكن أمريك سنج يسعى لا إلى فهمها

ولا إلى النفاذ إليها. المسألة بالنسبة له كانت لعبة، لعبة صياد، تتواجه فيها مهارات طريدته ومهاراته هو. كان يرى أنه لاعب أكثر مما يرى أنه ضابط. ومن هنا سرّ روحه المشرقة. لقد كان الرائد أمريك سنج مقامرًا، ضابطًا متهورًا، محقّقًا مهلكًا، وقاتلاً مرحًا بارد الدم. كان يجد أعظم المتعة في عمله، ويبحث دائمًا عن طرق جديدة لإعلاء تلك المتعة. كان على اتصال مع بعض المقاتلين الذين يغيّرون تردد اللاسلكي بين الحين والآخر ليتصلوا به، أو يغيّر هو تردّد اللاسلكي ليتصل بهم، ويتناوشون كأنهم تلاميذ في المدرسة. كان يحلو له أن يقول لهم "هاي، ماذا أكون غير وكيل سفريات متواضع؟ كشمير بالنسبة لكم أيها المجاهدون محطة ترانزيت، أليس كذلك؟ وجهتكم الحقيقية هي الجنة تنتظركم فيها حورياتكم. أنا موجود فقط لتسهيل رحلتكم". كان يسمي نفسه إكسبريس الجنة. أما لو كان يتكلم بالإنجليزية (وكان ذلك يعني في العادة أنه سكران) فكان يترجمها إلى بارادايس إكسبريس.

كان من أقواله الأسطورية: شوف يا أخي، أنا أير حكومة الهند ووظيفتي أن أنكحكم...

في سعيه المحموم إلى المتعة، اشتهر عنه أنه أطلق سراح مقاتل كان قد عانى الأمرّين في تعقبه والقبض عليه، لمجرد رغبته في أن يدرك مرّة أخرى بهجة القبض عليه من جديد. حفاظًا على هذه الروح، وانطلاقًا من عكس قواعد دليله الشخصي في الصيد، استدعى موسى إلى سينما شيراز ليعتذر له. كان أمريك سنج على مدار الشهور القليلة السابقة قد

رأى في موسى ـوربما عن حقّـ خصمًا محتملاً ذا شأن، شخصًا مناقضًا له تمامًا ومع ذلك لديه من الحماس والذكاء ما يكفل رفع درجة المخاطرة وربما تغيير طبيعة الصيد إلى درجة يصعب معها القطع بمن يكون الصياد ومن يكون الطريدة. ولذلك السبب استاء أشد الاستياء حينما علم بوفاة زوجة موسى وابنته. أراد أن يعرف موسى أنه ـأمريك سنجـ لم تكن له أي علاقة بالأمر، وأنه كان أمرًا غير متوقع، بل كان ـ في حدود ما يعنيهـ ضربة أسفل الحزام، ولم يكن على الإطلاق جزءًا من مخططه. ولكي تستمر لعبة الصيد كان عليه أن يوضح هذا لطريدته.

لم يكن الصيد ولع أمريك سنج الوحيد. فقد كان رجلاً ذا ذائقة رفيعة ونمط حياة لا يمكن أن يكفله له راتبه. فكان يستغل سُبُلاً أخرى من الإمكانيات التجارية التي يوفرها انتماؤه إلى الطرف الظافر من طرفي الاحتلال العسكري. ففضلاً عن انشغاله بالخطف والابتزاز، كان يمتلك (باسم زوجته) مصنع أخشاب صغيرًا في الجبال وتجارة أثاث في الوادي. كان سفيهًا في كرمه بقدر ما كان شاذًا في عنفه، فكان يوزِّع الهبات السخية من الطاولات الصغيرة المحفورة وكراسي خشب الجوز على من يحبهم أو يحتاج إليهم. (فكان جودزيلا محصورًا بين منضدتين صغيرتين على جانبي سريره). كانت لافلين كاور زوجة أمريك سنج هي الرابعة من خمس شقيقات اشتهرن بالجمال ـهنَّ تافلين وهاربريت وجوربريت ولافلين وديمبلـ وأخوين صغيرين. وكانت الأسرة تنتمي إلى طائفة السيخ الصغيرة التي استقرت في الوادي قبل قرون. كان الأب مزارعًا بسيطًا لا يكاد يقوى على إطعام أسرته الكبيرة. وكان يقال إن الأسرة

بلغت من الفقر أنه لو وقعت إحدى البنات وهي في الطريق إلى المدرسة فأوقعت عمود غدائهن، كانت الشقيقات الجائعات يأكلن الطعام الواقع على الرصيف. وفيما كانت البنات يكبرن، تحلّق حولهن كل أصناف الرجال تحلّق الدبابير، مقدّمين لهن شتّى أنواع العروض، إلا عرض الزواج. ففرحت الأسرة فرحًا عظيمًا حين أتيح لها أن تهب إحدى البنات (بلا بائنة) لرجل من سيخ الهند، يعمل ضابطًا في الجيش، لمزيد من أسباب البهجة. لم تنتقل لافلين بعد الزواج للإقامة مع أمريك سنج في مساكن الضباط بالمعسكرات العديدة التي تنقّل بينها حول سري نجر. إذ قيل (أو أشيع) أن له في العمل امرأة أخرى، "زوجة" أخرى، زميلة من شرطة الاحتياط المركزية، هي آيه سي بي بينكي كانت عادة ما تشترك معه في العمليات الميدانية وفي جلسات التحقيق في المعسكرات. وفي الإجازات الأسبوعية حينما كان أمريك سنج يزور زوجته وابنهما في شقة الطابق الأول في جواهر نجار، وهو حي السيخ الصغير في سري نجر، كان الجيران يتهامسون حول العنف المنزلي والصرخات المكتومة طلبًا للنجدة. ولم يكن بينهم من يجرؤ على التدخل.

برغم أن أمريك سنج كان يصطاد المقاتلين ويصفّيهم بلا رحمة، فقد كان ينظر إليهم -أو إلى خيارهم على الأقل- بشيء من الإعجاب الحقود. كان معروفًا عنه أنه يُظهر احترامه لمقابر بعضهم، ومنها مقابر أشخاص قتلهم بنفسه. (بل لقد حظيت مقبرة معينة بتحية سلاح غير رسمية). أما الذين لم يكن يحترمهم، بل يحتقرهم احتقارًا أصيلاً، فهم

نشطاء حقوق الإنسان، وأغلبهم محامون وصحفيون ومحرِّرون في جرائد. كانوا بالنسبة له حشرات تفسد قواعد الاشتباك في اللعبة الكبرى وتشوِّهها بالشكوى المستمرة والعواء الدائم. فكلّما كان يؤذَن لأمريك سنج باعتقال أحدهم أو "تحييده" (وهذا "الإذن" لم يكن يأتي قط على هيئة أوامر بالقتل بل على هيئة غياب الأوامر بعدم القتل)، كان يتحرك لتنفيذ الأوامر بما لا يقلّ وصفه عن الحماس. لكن حالة جالب قدري كانت مختلفة. كانت الأوامر الصادرة له تقتصر على تخويف الرجل واعتقاله. وساءت الأمور. إذ اقترف جالب قدري خطأً بسيطًا حين لم يبد عليه الخوف. وحين ردّ. ندم أمريك سنج لفقدانه السيطرة على نفسه، وندم أكثر لاضطراره إثر ذلك إلى قتل صديقه ورفيق رحلته، سالم جوجري المنتمي إلى الإخوان. كانا قد عاشا معًا أوقاتًا طيبة وتشاركا في مغامرات كثيرة، هو وسالم جوجري. كان يعلم أن سالم لو كان في مكانه لفعل بلا شكٍّ مثل ما فعله هو. ومن المؤكد أنه، أمريك سنج، كان ليتفهّم. أو ذلك ما حدّثته به نفسه. من بين كلّ ما اقترفه كان قتله سالم جوجري هو الذي أوقفه لينظر في ما يفعله. فمن بين كل الناس، بمن فيهم زوجته لافلين، كان سالم الشخص الوحيد الذي شعر أمريك سنج تجاهه بما يشبه الحب شبهًا بعيدًا. واعترافًا بهذا، حينما حانت اللحظة الحاسمة، جذب الزناد مرديًا صديقه.

لكنه مع ذلك لم يكن بالرجل الرخو، فكان سريع التجاوز. وفيما كان جالسًا وليس بينه وبين موسى غير طاولته، كان أمريك سنج كما اعتاد أن يكون، مزهوًا، واثقًا في نفسه. صحيح أنهم سحبوه من الميدان

وعهدوا إليه بعمل مكتبي، لكن الأمور لم تكن بدأت في التفكّك من حوله وعليه. كان لا يزال يخرج في رحلات ميدانية بين الحين والآخر، بل وفي عمليات إذا كان على دراية خاصة بتاريخها أو تاريخ مقاتل فوق الأرض أو فيها. كان واثقًا من أنه قد احتوى الأضرار، ونجا من التيه في الغابة المعتمة.

وصل الشاي و"بسكويت الضباط". سمع موسى اصطكاك الفناجين على الصينية المعدنية قبل أن يظهر من ورائه حامل البسكويت والشاي. تعرّف موسى وحامل الشاي فورًا على أحدهما الآخر، وإن بقي وجهاهما مصمتين خاليين من أي تعبير. تمعّن فيهما أمريك سنج. فرغت الغرفة من الهواء. بات التنفس مستحيلاً. فكان لا بد من ادّعائه.

جنيد أحمد شاه كان قائد منطقة في حزب المجاهدين واعتقل قبل شهور قليلة حينما ارتكب الخطأ الأكثر شيوعًا، وهلاكًا، بزيارة منه عند منتصف الليل لزوجته وابنه في بيتهما بسوبور حيثما كان الجنود كامنين في انتظاره. كان رجلاً طويلاً رشيقًا شهيرًا محبوبًا لوسامته ولبسالة أعماله، كاذبها وصادقها على السواء. كان له في يوم من الأيام شعر مسترسل حتى كتفيه ولحية كثيفة سوداء. فصار في سينما شيراز حليقًا، قصير الشعر، مطابقًا لما يكون عليه جندي في الجيش الهندي، عيناه المطفأتان بدتا غائرتين في عمق محجريهما الرماديين. كان يرتدي بنطالاً رياضيًا ينتهي في منتصف ربلتيه، وجوربًا صوفيًا، وحذاءً قماشيًا من إنتاج الجيش، وسترة نادل أكلتها العثة ذات أزرار نحاسية،

وكانت ضيقة عليه كثيرًا تجعل منظره مثيرًا للضحك. وبسبب من رعشة يده أخذت الأواني تتراقص على الصينية.

قال أمريك سنج لجنيد "تمام، غور. لماذا تتلكأ هنا؟"

"حاضر جنابك. النصر للهند".

أدّى جنيد التحية وغادر الغرفة. والتفت أمريك سنج إلى موسى، صورة تتجسّد فيها المواساة.

"ما جرى لك أمر لا ينبغي أن يحدث لأيّ إنسان. لا بد أنك مصدوم. تفضل، خذ لك بسكوتة كراكجاك. جيد جدًّا لك. خمسين خمسين. خمسين في المئة سكر. خمسين في المئة ملح".

لم يردّ موسى.

أنهى أمريك سنج الشاي. وبقي شاي موسى دون أن يمسّ.

"عندك شهادة في الهندسة، أليس كذلك؟"

"لا، في العمارة".

"طيب أنا أريد أن أساعدك. أنت تعرف أن الجيش بحاجة دائمًا إلى مهندسين. هناك عمل كثير. أجر جيد جدًّا. أسيجة، بناء ملاجئ أيتام، يخطّطون أيضًا لمراكز للاستجمام، وصالات رياضية للشباب، حتى هذا المكان بحاجة إلى تجديد... يمكن أن أحصل لك على بعض العقود الجيدة. هذا أقلّ ما ندين به لك".

لم يرفع موسى عينيه، كان يختبر بسبابته حدّة صدفة مدببة.

"هل أنا رهن الاعتقال، أم تأذن لي بالانصراف؟"

لم يكن رافعًا رأسه، فلم يرَ غشاوة شفافة من الغضب انسدلت على عيني أمريك سنج، بهدوء وسرعة يليقان بقطة تثب أعلى سور منخفض.

"يمكنك أن تذهب".

بقي أمريك سنج جالسًا بينما نهض موسى وغادر الغرفة. رنّ الجرس وطلب من الرجل الذي لبّى النداء أن يصحب موسى إلى الخارج.

كان بهو السينما بالطابق السفلي يشهد استراحة من التعذيب، يقدَّم خلالها الشاي للجنود من أوانٍ كبيرة يتصاعد منها البخار، وقطع سمبوسة باردة في دلاء حديدية، اثنتان للرأس. عبر موسى البهو، وعيناه هذه المرة ثابتتان على عيني أحد الصبية المقيدين المضروبين النازفين كان يعرفه جيدًا. كان يعلم أن أمّ الولد تتنقّل من معسكر إلى معسكر، ومن قسم شرطة إلى قسم شرطة، باحثة عن ابنها في يأس، وقد يستمرّ ذلك إلى آخر العمر. فكّر موسى أن هذه الليلة أثمرت على الأقل تلك المنفعة اللعينة.

كان قد أوشك على الخروج حينما ظهر أمريك سنج عند أعلى السلم، مشرقًا، مبديًا المودّة، مختلفًا كل الاختلاف عن الشخص الذي تركه موسى في غرفة العرض. جاء صوته هادرًا عبر البهو.

"نسيت تمامًا أن أخبرك بشيء".

أدار إليه الجميع -معذّبين ومعذِّبين- أعينهم. فلمّا أدرك أنه محطّ أنظار جمهوره جميعًا، تهادى أمريك سنج نازلاً الدرج في بأس الرياضيين، وبهجة مضيف نازل لوداع ضيف استمتع بزيارته أيّما متعة. عانق موسى بمحبّة وأعطاه لفافة كان يحملها.

"هذه لوالدك. قل له إنني طلبتها له خصّيصًا"

كانت زجاجة ويسكي ريد شتاج.

ساد الصمت البهو. فهم الجميع، سواء الجمهور أم أبطال المسرحية الجاريةِ طبيعةَ السيناريو. إن رفض موسى الهدية، فهو إعلان حرب علني على أمريك سنج، فيكون موسى ميّتًا ميّتًا. وإن قبلها يكون أمريك قد أوكل مهمة القتل للمقاتلين، لأن أمريك سنج كان يعلم أن الخبر سوف ينتشر، وأن جماعات المقاتلين -مهما تكن الخلافات بينها- تتفق على الموت عقابًا للمتعاونين مع الاحتلال وأصدقائه، وأن شرب الويسكي -حتى لو أن شاربه من غير المتعاونين- يعدّ نشاطًا منافيًا للإسلام.

سار موسى إلى نضد الطعام ووضع زجاجة الويسكي عليه.

"أبي لا يشرب".

"ما الداعي للإخفاء؟ لا عيب في الأمر. طبعًا والدك يشرب. وأنت تعرف هذا جيدًا. وأنا اشتريت هذه الزجاجة خصيصًا له. لا عليك، أنا سأعطيها له بنفسي".

أمر أمريك سنج رجاله وهو لا يزال مبتسمًا بأن يتبعوا موسى ويتأكدوا من وصوله سالمًا إلى البيت. كان سعيدًا بالطريقة التي سارت بها الأمور.

*

كان الفجر يشقشق. لمسة وردية في سماء رمادية كزغب اليمام. سار موسى إلى البيت في شوارع ميتة. وتبعته الجيبسي على مسافة آمنة، وسائقها يبلغ نقاط التفتيش واحدة بعد واحدة من خلال اللاسلكي بفتح الطريق لموسى.

دخل بيته وعلى كتفيه جليد. ولم يكن برد ذلك ليضاهي البرد الذي كان يتجمّع بداخله. وحينما رأى أبواه وأخواته وجهه عرفوا جميعًا أنه خير لهم ألا يقتربوا منه ليسألوه عمّا جرى. فرجع مباشرة إلى طاولته واستأنف كتابة الرسالة التي كان يكتبها قبل مجيء الجنود إليه. كان يكتب بالأرديّة. وكان يكتب بسرعة وكأنها آخر مهمة ينجزها، وكأنه في سباق مع البرد وعليه أن ينتهي قبل أن تتسرب الحرارة من جسمه، ربما إلى الأبد.

كانت رسالة إلى الآنسة جِبين.

"حبيبة بابا

هل تعتقدين أنني سوف أفتقدك؟ خطأ. لن أفتقدك أبدًا، لأنك ستبقين دائما معي.

كنت تريدين أن أحكي لك قصصًا حقيقية، ولكنني لم أعد أعرف ماذا يكون الحقيقي. ما كان حقيقيًا يبدو الآن أشبه بقصة خرافية سخيفة، من القصص التي كنت أرويها لك، فما كنت تغفرينها لي. ما أعرفه على وجه اليقين هو هذا: في كشميرنا يعيش الموتى إلى الأبد، والأحياء ليسوا إلا موتى يتظاهرون.

كنا نخطّط أن نذهب الأسبوع القادم لنجرّب استصدار بطاقة هوية لك. وكما تعرفين يا حبيبتي، بطاقاتنا الآن أهمُّ منا. تلك البطاقة هي أثمن شيء يمكن أن يملكه إنسان. أثمن من أجمل السجاجيد نسيجًا، أو ألين الشيلان وأدفئها، أو أكبر الحدائق، أو كل الكرز والجوز في كل بساتين وادينا. هل تتصوّرين هذا؟ رقم بطاقتي أنا هو أ١٠٨٦٧٧٢ج. قلت لي إنه رقم محظوظ لأن فيه حرف أ من آنسة وحرف ج من جبين. لو أنه كذلك فسوف يأتي بي إليك وإلى أمك الحبيبة بسرعة. فاستعدّي لعمل الواجب في السماء. ماذا يعنيك إن قلت لك إن مئة ألف شخص ساروا في جنازتك؟ أنت التي كنت لا تعدّين إلا إلى تسعة وخمسين؟ هل قلت تعدّين؟ كان قصدي تصيحين، أنت التي كنت لا تصيحين إلا إلى تسعة وخمسين. أرجو أنك حيثما أنت الآن لا تصيحين. لا بد أن تتعلّمي كيف تتكلّمين بصوت خافت، شأن سيدة، ولو في بعض الأحيان على الأقل. كيف يمكن أن أشرح لك المئة ألف؟ رقم شديد الضخامة. هل نجرّب أن نتخيّله بالفصول؟ في الربيع فكّري في عدد ورق الشجر النابت على الأشجار، في عدد الحصى الذي ترينه في الأنهار عند ذوبان الثلوج. فكّري كم زهرة خشخاش حمراء تنبت في السهول. ذلك

يعطيك فكرة أوليّة عمّا تعنيه المئة ألف في الربيع. في الخريف تخيّلي كم تهشّم تحت أقدامنا من ورق الشينار في الحرم الجامعي حينما اصطحبتك لنتنزه (وغضبت من القط الذي لم يثق فيك فرفض قطعة الخبز التي عرضتها عليه. كلنا الآن يا حبيبتي نتحوّل إلى هذا القط. لا يمكن أن نثق في أحد. الخبز الذي يعرضونه علينا خطير لأنه يحيلنا إلى عبيد وخدم مداهنين. كنت الآن ربما لتغضبي منا جميعًا). على أي حال. كنا نتكلم عن رقم. مئة ألف. في الشتاء سيكون علينا أن نفكر في ندف الثلج المنهمرة من السماء. أتذكرين كيف كنا نعدّها؟ كيف كنت تحاولين التقاطها؟ أولئك الناس الكثيرون كانوا مئة ألف. في جنازتك كان الجمع يغطّي الأرض مثل الجليد. هل بمكنك أن تتصوري الآن؟ جبل. وهذا فقط عن الناس. لن أكلمك عن الدب الكسلان الذي نزل من الجبل، والوعل الكشميري الذي كان يشاهد من الغابة، والفهد الجليدي الذي ترك أثره على الجليد والبوم الذي كان يحلّق في السماء، مراقبًا كل شيء. كان المشهد كله عظيمًا. كنت لتفرحي به، فأنت تحبين الحشود، أعرف هذا. كنت في طريقك إلى أن تكوني ابنة مدينة. ذلك على الأقل كان واضحًا منذ البداية. الآن حان دورك. احكي لي أنت ..."

في منتصف الجملة خسر السباق أمام البرد. توقف عن الكتابة، وطوى الرسالة ووضعها في جيبه. ولم يكملها قط، لكنه ظل دائمًا يحملها معه.

كان يعرف أنه ليس لديه متسعٌ من الوقت، وأن عليه أن يستبق خطوة أمريك سنج التالية، وبسرعة. فالحياة كما عرفها انتهت. كان يعرف أن كشمير ابتلعته فبات جزءاً من أحشائها.

قضى اليوم يرتِّب من أموره ما استطاع، فيدفع فواتير السجائر التي ظلت تتراكم عليه، ويُتلف ورقًا، ويلملم أشياء قليلة يحبها أو يحتاج إليها. وفي الصباح التالي، حينما استيقظ بيت يسوي المكلوم، كان موسى قد ذهب. ترك رسالة قصيرة لأخت من أخواته عن الولد الذي رآه مضروبًا في شيراز مدونًا اسم أمه وعنوانها.

وتلك كانت بداية حياته تحت الأرض. الحياة التي استمرّت على وجه الدقة لتسعة شهور شأن الحمل، لولا أنها كانت ذات نتائج مناقضة للحمل. فقد انتهت بنوع من الموت، لا بنوع من الحياة.

في أيام هروبه، كان موسى يتنقّل من مكان لمكان، فلا يبيت ليلتين متتاليتين في مكان واحد. وكان حوله ناس طول الوقت، في مخابئ الغابات، وبيوت رجال الأعمال الفارهة، والمحلات، والسراديب، والمخازن، وحيثما تلقى التحريك الترحاب والحب والتضامن. تعلّم كلّ شيء عن الأسلحة، من أين تُشترى، وكيف تنقل، وأين تُخبّأ، وكيف تُستعمل. تيبّس جلده فعلاً في الأماكن التي توهّم أبوه تيبّسها، عند المرفقين والركبتين وإصبع السبابة. صار يحمل مسدسًا، لكنه لم يستعمله قط. ومع رفاقه الرحالة الذين كانوا جميعًا أصغر منه سنًّا عرف الحب

الذي يعرفه من الرجال ذوي الدماء الحارّة الذين يهب أحدهم حياته عن طيب خاطر من أجل الآخرين. كانوا قصار الأعمار. وكثير منهم ماتوا قتلى، أو تعرضوا للسجن أو التعذيب إلى أن ذهبت عقولهم. وحلّ محلهم آخرون. وكان موسى ينجو من حملات التطهير واحدة تلو الأخرى. وقليلاً قليلاً (وعن قصد أيضًا) انطمس ما بينه وبين حياته القديمة من روابط. لم يكن أحد يعرف من يكون. ولم يسأله أحد. أهله أنفسهم كانوا لا يعرفون. لم يكن ينتمي إلى منظمة بعينها. وفي القلب من حرب قذرة، وفي مواجهة وحش لا يحيط به خيال، بذل كل ما في وسعه ليقنع رفاقه بالتمسك بأهداب الإنسانية، فلا يتحوّلوا إلى الشيء الذي يمقتونه ويناضلون ضده. ولم يكن يحالفه النجاح في ذلك طول الوقت. ولا كان طول الوقت يُمْنى بالفشل. صقل في نفسه فن الاندماج في الخلفية، فن الاختفاء وسط الجموع، فن المهمة والتخفّي، فن دفن الأسرار التي يعرفها عميقًا إلى حد أن ينسى أنه يعرفها. تعلّم فنّ الملل، فنّ احتماله، وفنّ إصابة الآخرين به. كان نادرًا ما يتكلم. وفي الليل، يبقى على اتباعه لحمية الصمت، فيكلّم بعض أعضائه بعضها بلغة صراصير الليل. يتصل طحاله بكليته. وبنكرياسه يهمس عبر الخواء الصامت لرئتيه:

أهلاً بك

هل تسمعينني؟

هل لا تزالين معي؟

ازداد برودًا، وهدوءًا. وارتفع ثمن رأسه بسرعة بالغة، من ليكة إلى ثلاث ليكات. ولما مرت تسعة أشهر، جاءت تِلُو إلى كشمير.

*

كانت تِلُو في مكانها الذي تقضي فيه أغلب الأمسيات، في كشك شاي تعرج عليه في أحد الأزقة الضيقة المحيطة بضريح حضرة نظام الدين أولياء وهي في طريق رجوعها من العمل، حينما اقترب منها شاب، وتأكد أن اسمها س تِلوتما، وسلّمها رسالة. كان نصها: جات رقم ٣٣، ع و شاهين، بحيرة دال. من فضلك احضري في العشرين. ولا توقيع. فقط رسمة صغيرة بالرصاص لرأس حصان في أحد الأركان. وحين رفعت رأسها كان الرسول قد اختفى.

حصلت على أسبوعي إجازة من وظيفتها في شركة العمارة بنهرو بلبس، وركبت القطار إلى جامّو، ثم الأتوبيس في الصباح المبكر من جامّو إلى سري نجر. لم تكن هي وموسى قد تواصلا منذ فترة. ولكنها ذهبت، لأن ذلك كان حال العلاقة بينهما.

لم تكن قد سافرت من قبل إلى كشمير.

وفي آخر العصر ظهر الأتوبيس خارجًا من النفق الطويل المحفور وسط الجبال، الوصلة الوحيدة بين الهند وكشمير.

الخريف في الوادي هو موسم الوفرة الهائلة. كانت الشمس تميل على موبجات أرجوان الزعفران الذهبي المزهر. والبساتين مثقلة بالثمار، وشجر الشينار غارقًا في ألسنة اللهب. كان بقية الركاب المرافقين لتِلُو ـوأغلبهم كشمبريون ـ قادرين على تفكيك روائح النسيم إذ تهبّ عبر شبابيك الأتوبيس وتمييز أيّها عبق التفاح وأيّها عبق الكمثرى وأيّها للأرز الناضج، بل وقادرين على معرفة تفاح مَن مِن الناس وكمثّرى من وأرز من الذي يمرون به. وكانوا يعرفون في الهواء رائحة أخرى أيضًا. رائحة الخوف. كانت تنضح في الهواء فتفسده وتحيل أجسامهم إلى صخر.

وبينما كان الأتوبيس الصاخب المقمقع صامت الركاب يتوغّل في الوادي، كان التوتر يزداد حضورًا وتجسّدًا. كلّ خمسين مترًا كان على أحد جانبي الطريق جندي ثقيل التسلّح، منتبه، ومتحفّز على نحو منذر بالخطر. كان في الحقول جنود، وفي أعماق البساتين، وعلى الجسور وفي المجاري، وفي المحلات والأسواق، وعلى الأسطح، كلٌّ يغطّي الآخر، في شبكة امتدت على طول الطريق صعودًا في الجبال. في كلّ جزء من وادي كشمير الأسطوري، مهما يكن ما يفعله الناس، سواء أهم يمشون أم يصلّون أم يستحمون أم يلقون النكات أم يبيعون الجوز أم يمارسون الحب أم يرجعون إلى بيوتهم بالأتوبيس ـ فهم في مرمى عدسة بندقية أحد الجنود. ولأنهم في مرمى عدسة بندقية أحد الجنود، فمهما يكن ما يفعلونه ـسواء أهم يمشون أم يصلون أم يستحمون أم يلقون النكات أم يبيعون الجوز أم يمارسون الحب أم يرجعون إلى بيوتهم بالأتوبيس ـ فهم أهداف مشروعة.

في كلّ نقطة تفتيش كان الطريق يُغلق بحاجز عرضي متحرك ترتفع منه أسنان حديدية مدبّبة كفيلة بتمزيق أيِّ إطارٍ إربًا. وعند كلِّ نقطة تفتيش كان على الأتوبيس أن يتوقّف، وعلى جميع الركاب أن يغادروه ويصطفُّوا بأمتعتهم من أجل التفتيش. كان الجنود يفتشون بسرعة الأمتعة الموضوعة على سقف الأتوبيس، بينما يخفض الركاب أعينهم. عند نقطة التفتيش السادسة أو السابعة، كانت على جانب الطريق عربة جيبسي مدرعة شبابيكها مجرد شقوق. بعد استشارة شخص مختفٍ في الجيبسي، جذب ضابط شاب متغندر ثلاثة شباب من صف الركاب، أنت، وأنت، وأنت. وزجَّ بهم في شاحنة عسكرية. فمضوا دون اعتراض. بينما يخفض بقية الركاب أعينهم.

بوصول الأتوبيس إلى سري نجر كان الضوء يحتضر.

في تلك الأيام كانت مدينة سري نجر تحتضر باحتضار الضوء. أغلقت المحلات، وخويت الشوارع.

في محطة الأتوبيس اتجه رجل صوب تِلُو وسألها عن اسمها. ومنذ ذلك الحين، بدأت تنتقّل من يدٍ إلى يد. حملتها ريكاشة آلية من محطة الأتوبيس إلى البولفار. عبرت البحيرة في مركب شيكارا لم تكن فيه مقاعد، بل حشايا على الأرض. فجلست على الحشايا المشجّرة الفاقعة، عروسًا في شهر عسل بلا عريس. فكّرت أنّ عِوَضها عن ذلك هو أن طرفي مجذافي المراكبي المندفعين عبر العشب كانا على شكل قلب. كانت

البحيرة هادئة هدوء الموت. وصوت المجاذيف المنتظم كان يمكن جدًا أن يكون خفقان قلب الوادي المضطرب.

بليف

بليف

بليف

كانت العوامات راسية جنب بعضها بعضًا متلاصقة عند الشاطئ المقابل ع و شاهين، ع و جنة، ع و الملكة فكتوريا، ع و ديربشير، ع و سنو فيو، ع و نسيم الصحراء، ع و زمزم، ع و جولشان، ع و نيو جولشان، ع و جولشان بالاس، ع و مندلاي، ع و كليفتن، ع و نيو كليفتن، كلها مظلمة وخاوية.

قال المراكبي لتِلُو حينما سألته إن ع و هو اختصار كلمة عوامة.

كانت ع و شاهين أصغرها وأفقرها جميعًا. فيما كان المركب يبطئ، إذا برجل ضئيل، تائه في فيرانه البني البالي الذي أوشك أن يلامس كاحليه، يظهر ليحيّي تِلُو. عرفت بعد ذلك أن اسمه جُلريز. حيّاها وكأنه يعرفها جيدًا، وكأنها عاشت هناك عمرها كله ورجعت للتوّ من شراء بعض الأغراض من السوق. كان رأسه الضخم وعنقه عجيب النحول مستقرّين على كتفين قويين عريضين. وفيما كان يقود تِلُو عبر غرفة الطعام مرورًا بطرقة ضيقة مفروشة بسجادة مفضية إلى غرفة النوم،

بمت مواء هررة. التفت إليها مبتسمًا ابتسامة مشرقة، كأنه أب فخور، ولمت عيناه الزمرديتان الساحرتان.

كانت الغرفة الضيقة أكبر قليلاً من السرير المزدوج المفروش عليه غطاء مطرّز. على المنضدة المجاورة للسرير صينية بلاستيكية مشجَّرة عليها دورق ماء معدني مزخرف بالثقوب، وكأسان ملونان، ومشغل أسطوانات صغير. السجادة الرثة المفروشة على الأرض مزخرفة، وأبواب الدولاب منحوتة نحتًا ساذجًا، والسقف الخشبي مرسوم عليه خلايا مسدَّسة كخلايا النحل، وسلّة القمامة مرسوم عليها رسم دقيق باستعمال ورق القصّ واللصق. بحثت تِلُو عن مكان لا يكون مرسومًا، أو مزخرفًا، أو منحوتًا، أو مثقبًا، لتريح فيه عينيها. فلمّا لم تجده، تصاعد بداخلها القلق. فتحت الشبابيك الخشبية فلم تجدها مطلّة إلا على الشبابيك المغلقة في العوامة المجاورة التي لا تبتعد عنها غير بضعة أقدام. كانت علب سجائر خاوية وأعقاب سجائر طافية على الماء في المساحة الضئيلة الفاصلة بين العوامتين. أنزلت حقيبتها ومضت إلى الشرفة، فأشعلت سيجارة وأخذت تشاهد سطح البحيرة الزجاجي يستحيل فضيًا مع ظهور أولى النجوم في السماء. سطع الجليد على الجبال لوهلة، كما لو كان فسفوريًا، حتى بعد حلول الظلام.

انتظرت في العوامة طيلة اليوم التالي، مُتابِعةً جُلريز وهو ينظف الأثاث النظيف ويكلم الباذنجان البنفسجي وكرنب الهاخ كبير الورقات في حديقة خضراواته المقامة على الضفة وراء العوامة تمامًا. بعد إزالته بقايا الغداء الخفيف، عرض عليها مجموعة أشيائه التي كان يحتفظ بها في

كيس أصفر كبير من أكياس الأسواق الحرة المكتوب عليه شاهدا واشترا وسافرا وضعها على مائدة الطعام واحدًا تلو الآخر. تلك كانت نسخته من دفتر الزوار: زجاجة فارغة من غسول بولو لما بعد الحلاقة، مجموعة تصاريح قديمة للصعود إلى الطائرات، منظار صغير، نظارة شمسية ناقصة عدسة، نسخة مستعملة من دليل لونلي بلانيت للسفر، كيس حمام من شركة طيران كنتاس الأسترالية، كشاف صغير، زجاجة أعشاب طاردة للبعوض، زجاجة مستحضر لتسمير البشرة، شريط فارغ من حبوب للإسهال، كلسون حريمي أزرق من مارك آند سبنسر موضوع في علبة سيجار قديمة من الصفيح. ضحك وهو يبرم الكلسون على هيئة سيجار ليّن ويعيده إلى العلبة. فتّشت تِلُو في حقيبتها القماشية وأضافت إلى المجموعة ممحاة على شكل ثمرة فراولة وقنينة كانت تحتوي أسنان قلم رصاص. فتح جُلريز غطاء القنينة الصغير ثم أغلقه في نشوة. وبعد التأمل لوهلة وضع الممحاة في الكيس البلاستيكي ووضع القنينة في جيبه. وخرج من الغرفة ثم رجع ومعه صورة فوتغرافية بحجم بطاقة بريدية يظهر فيها وقد وضع في راحتيه الهررة التي تركها له آخر من سكن العوامة. وقدّمها لتِلُو بشكل رسمي مُمسكًا إياها بكلتا يديه كما لو كان يمنحها شهادة تقدير. قبلتها تِلُو منحنية. واكتملت المقايضة.

في حوار بين هنديتها المضطربة وأرديّته العرجاء، اكتشفت تِلُو أن موزكاك الذي ظل جُلريز يتكلم عنه ليس إلا موسى. أحضر قصاصة من صحيفة أرديّة نشرت صورًا لكلٍّ من ماتوا في اليوم الذي ماتت فيه الآنسة جبين وأمّها. قبّل القصاصة قبلات عديدة، مشيرًا إلى فتاة صغيرة

وامرأة شابة. وتدريجيًا لمحت تِلُو ما يشبه أشلاء حكاية: المرأة هي زوجة موسى والبنت ابنتهما. كانت طباعة الصور في غاية الرداءة فاستحال تبيُّن ملامحهما وتعرُّف شكلهما. ولكي يتأكد من إدراك تِلُو ما يقصده، وضع جُلريز رأسه على وسادة من يديه، وأغمض مثل طفل، ثم أشار باتجاه السماء.

ذهبا إلى السماء.

لم تكن تِلُو تعلم أن موسى متزوج.

لم يخبرها بذلك.

هل كان ينبغي أن يخبرها؟

لماذا كان ينبغي أن يخبرها؟

ولماذا ينبغي أن تكون مهتمة؟

وهي التي تركته ورحلت.

لكنها كانت مهتمة.

لا لأنه تزوج، بل لأنه لم يخبرها.

لِما بقي من ذلك اليوم، ظلت قوافٍ لا معنى لها من لغة المالايالام تتقافز بلا نهاية في رأسها. هي قوافي نشيد الموسم المطير يصيح بها جيش من الأطفال الصغار أشباه المرايا ـ حي بينهم ـ يخوض البرك الموحلة وهو يدبُّ على ضفة النهر فاقعة الاخضرار تحت وابل المطر.

بم بم هيا يا فرقة الجيش

في بيت سيد الأرض عرس. . .

روث الفيل سماد الأرز!

دود مقلي، ما ألطفه!

دجاج مفروم ـ والخراء توابل...

تعذّر عليها الفهم. هل يمكن أن يكون ردُّ فعل أقلّ ملاءمة من هذا على ما سمعته للتو؟ ذلك نشيد لم تتذكّره منذ أن كانت في الخامسة، فلماذا الآن؟

ربما كان المطر ينهمر في رأسها. ربما كانت استراتيجية بقاء لعقل قد يتوقف عن العمل حينما يكون من الحماقة أن يحاول فهم شبكة معقدة تربط كوابيس موسى بكوابيسها.

لم يكن من مرشد سياحي فيخبرها أن الكوابيس فاجرة في كشمير، لا تخلص لأصحابها، بل تتنقل على عربات كيفما يعنّ لها إلى أحلام الآخرين، دون أن تعترف بحدود، فهي أعظم الفنانين الكامنين على الإطلاق. إذ ما من تحصينات أو أسيجة بقادرة أن تسيطر عليها. وأنه ما من شيء يمكن عمله في كوابيس كشمير إلا معانقتها معانقة قدامى الأصدقاء ومعاملتها معاملة قدامى الأعداء. ولكنها كانت في طريقها إلى تعلّم ذلك بالقطع. وبسرعة.

جلست على الأريكة المثبتة المنجّدة في شرفة العوّامة الأمامية تشاهد الغروب الثاني لها في المكان. صعدت من قاع البحيرة سمكة قاتمة ليلية (لا قرابة بينها وبين الكوابيس الليلية) فابتلعت صور الجبال

المكوسة على الماء. كلها. كان جُلريز يهيئ المائدة للعشاء (لشخصين، فمن الواضح أنه كان على دراية بشيء ما) حينما وصل موسى بغتة، بهدوء، داخلاً من باب العوامة الخلفي.

"سلام"

"سلام"

"جئت"

"طبعًا"

"كيف حالك؟ كيف كانت الرحلة؟"

"جيدة. وأنت؟"

"جيد"

تضخّمت القوافي في رأس تِلُو إلى سيمفونية.

"آسف أني تأخرت".

ولم يقدّم أي تفسير. لم يتغيّر كثيرًا، لولا بعض النحول. ومع ذلك بدا من الصعب التعرف فيه على شخصه القديم. كان قد نبت في وجهه ما يوشك أن يكون لحية. وبدا أن عينيه لمعتا وأفَلَتا في الآن نفسه، وكأنهما غُسلتا، فخبا فيهما لون ولم يخبُ الآخر. بات حولَ بؤبؤيه الأخضرين حلقتان من السواد لم تتذكر تِلُو وجودهما. رأت أيضًا أن تكوين وجهه، أي شكله الذي يظهر به في العالم، قد بات بطريقة ما مبهمًا، مشوشًا. بات مُندغِمًا في ما يحيط به أكثر من ذي قبل. لم يكن لذلك علاقة بالفيران الكشميري البنيّ السادر المرفرف حوله. حينما خلع طاقيته الصوفية رأت تِلُو في شعره خطوطًا سميكة من الفضة. لاحظ أنها

لاحظت فمرّر أصابع واعية في شعره. قوية. أصابع رسام الخيول العفية، ذات الجلد المتصلب في السبابة. كان في مثل عمرها. واحد وثلاثون.

كان الصمت ينتفخ بينهما وينفقئ كما لو أنه أكورديون يعزف نغمة لا يسمعها غيرهما. كان يعرف أنها تعرف أنه يعرف أنها تعرف. وكذلك كان الحال بينهما.

أتى جُلريز بصينية شاي. ومعه هو الآخر لم تكثر التحيات، برغم أن الألفة بدت واضحة بينهما، بل والحب. كان موسى يناديه بـ"جولكاك" وأحيانا بـ"مُت"[٤٣] وجاءه بقطرة للأذن. كسرت قطرة الأذن الجليد لكن في حدود ما يتسنى لقطرة أذن.

أوضح موسى "عنده تلوُّث في الأذن، وهو خائف. مرعوب".

"هل يتألم؟ بدا بخير طيلة اليوم".

"ليس من الألم، فلا يوجد ألم. ولكن من القتل. يقول إنه لا يسمع جيدًا ويخشى أنه قد لا يسمعهم في نقاط التفتيش حينما يقولون له 'قف'. فهم في بعض الأحيان يسمحون للواحد بالمرور ثم يستوقفونه. فإذا لم يسمع ذلك ...".

---

٤٣ Mout: مفردة في الأردو/ الكشميري، تعني "المجذوب" وترد بضع مرات في النص إحداها في حالة الجمع "ميتين" أي المجاذيب.

جُلريز، مستشعرًا ما في الغرفة من التوتر (والحب)، ومتنبهًا لحقيقة أنه يمكن أن يلعب دورًا في تخفيف حدّته، انحنى على الأرض في حركة مسرحية، ووضع خدّه على حجر موسى، مُقدِّمًا له أذنًا متورِّمة ليضع له فيها القطرة. وبعد التقطير في الأذنين، وسدّهما بقطعتين من القطن، أعطاه موسى الزجاجة.

قال له "حافظ عليها. وحين لا أكون هنا، اطلب منها هي وسوف تضعها لك. هي صديقتي".

وبقدر ما كان جُلريز سعيدًا بالزجاجة الصغيرة ذات الفوهة البلاستيكية، وبقدر ما كان يشعر أن مكانها الصحيح هو دفتر زواره المعنون بـ شاهدا واشترا وسافرا، لكنه استودع تِلُو إيّاها مبتسمًا ابتسامته المشرقة. ولوهلة أصبح الثلاثة أسرة عفوية التكوّن. الدبّ الأب، والدبّة الأم، والدبّ الابن.

كان الدبّ الابن حتى ذلك الحين هو الأسعد بينهم. فقدّم لهم على العشاء خمسة أطباق من اللحم. جوشتابه، ورِستا، ومرتزوانجن قورمه، وكباب شامي، ويخني دجاج.

قالت تِلُو "هذا كثير للغاية ...".

قال موسى "بقر، ماعز، دجاج، حملان ... العبيد وحدهم يأكلون بهذه الطريقة". واغترف في طبقه كميات غير لائقة قائلاً "بطوننا قبور".

لم تصدق تِلُو أن يكون الدبّ الابن قد طبخ كل ذلك الطعام وحده.

"لقد قضى اليوم كله يكلم الباذنجان ويلعب مع الهررة. لم أره يطبخ إطلاقًا".

"لا بد أن يكون طبخه قبل مجيئك. هو طباخ رائع. والده كان طباخًا محترفًا من قرية جودزيلا".

"ولماذا هو هنا وحده؟"

"هو ليس وحده. حوله عيون وآذان وقلوب. لكنه لا يستطيع أن يعيش في القرية ... القرية خطرة عليه. جولكاك هو ما نطلق عليه 'مُت'، يعيش في عالم وحده، بقواعد تخصه. مثلك أنت، من بعض النواحي". ورفع موسى عينيه إلى تِلُو، جادًا، ودون أن يبتسم.

"قصدك أبله. أبله القرية؟". ونظرت تِلُو إليه، دون أن تبتسم هي الأخرى.

"قصدي أنه شخص خاص. شخص مبارك".

"مبارك ممن؟ تلك طريقة ملتوية بنت قحبة لمباركة شخص".

"مبارك بجمال الروح. نحن هنا نحترم 'مجذوب'ينا".

فترة غير قليلة كانت قد مضت على موسى بدون أن يسمع فسقًا بسيطًا كذلك، لا سيما من امرأة. كان وقعه عليه خفيفًا، كأنه صرصور

على قلبه المتقلّص، فأثار في نفسه ذكريات حبه لتِلُو، لماذا أحبها؟ وكيف أحبها؟ حاول أن يعيد تلك الفكرة إلى مكانها في القسم المغلق من الأرشيف.

"كدنا نفقده قبل سنتين. شهدت قريته حملة تطويق وتفتيش. طولب الرجال بالخروج والاصطفاف في الحقول. جرى جول على الجنود ليحيِّيهم مصرًّا أنهم من الجيش الباكستاني وقد حضروا لتحريرهم. كان يغني جيفي! جيفي! باكستان! وأراد أن يقبّل أيديهم. أطلقوا عليه الرصاص في فخذه، وضربوه بكعوب بنادقهم وتركوه ينزف في الجليد. وبعد تلك الواقعة أصابته هيستريا، فصار يحاول الهرب كلما وقعت عينه على جندي، وهذا بالطبع من أخطر ما يمكن. فجئت به إلى سري نجر ليعيش معنا. لكن الآن بعدما لم يعد في بيتنا أحد تقريبًا، فأنا نفسي لم أعد أعيش هناك، لم يشأ أن يبقى هناك هو أيضًا. حصلتُ له على هذه الوظيفة. العوامة ملك صديق، وهو هنا في أمان، ولا يحتاج للخروج. كل ما عليه هو أن يطبخ للزوار القليلين الذين يأتون، ونادرًا ما يأتي أحد. أما المؤن فتصل إليه حتى هنا. وما من خطر إلا أن العوامة قديمة للغاية وعرضة للغرق".

"بجد؟"

ابتسم موسى.

"لا. إنها آمنة تمامًا".

احتلّ البيت الذي "لم يعد فيه أحد تقريبًا" مكانًا على مائدة العشاء، ضيفًا ثالثًا، لديه شهية عبد محتدمة.

"قُتل تقريبًا جميع 'المجاذيب' في كشمير. كانوا أول القتلى، لأنهم لم يجيدوا الامتثال للأوامر. ربما لذلك نحتاج إليهم. ليعلّمونا كيف نكون أحرارًا".

"أو كيف نُقتلون؟"

"هنا لا فرق بين الاثنين. ما من أحرار إلا الموتى".

نظر موسى إلى يد تِلُو على المائدة. كان يعرفها خيرًا مما يعرف يده. كانت لا تزال ترتدي الخاتم الفضي الذي أعطاه لها، قبل سنين، حينما كان شخصًا آخر. وكان لم يزل على إصبعها الوسطى آثار حِبر.

كان جُلريز يدرك تمامًا أن الحديث يدور عنه، فصار يحوم حول المائدة يعيد ملء الكؤوس والأطباق وفي كلّ جيب من فيرانه هرّة تموء. عندما صمت الحوار، قدّم لهما أغا وخانم. الرمادي المخطّط أغا. والمهرّجة ذات الأبيض والأسود خانم.

"وسلطان؟" سأل موسى عنه مبتسمًا. "كيف حاله؟"

تكدّر وجه جُلريز على الفور. وجاء ردُّه سبابًا طويلاً تختلط فيه الكشميرية والأرديّة. فلم تفهم منه تِلُو إلا الجملة الأخيرة، آري أس بي

وتوف كو أجر يهان منتري كي ساته رهنا نهين آتا تها، تو بهر وه سالا إس دنيا مين آيا هي كيون تها؟

إذا كان هذا الأحمق لا يعرف كيف يعيش هنا مع الجيش، فلماذا وُلد في هذا العالم من الأساس؟

لم يكن من شكٌ في أن جُلريز سمع ذلك من أب خائف أو جار قالها عنه هو، فاختزنها عقله ليستعملها في الشكوى من سلطان، مهما يكن سلطان هذا.

ضحك موسى مقهقهًا، وجذب جُلريز فقبّله على رأسه. ابتسم جول. العفريت السعيد.

سألت تِلُو موسى "من سلطان؟"

"سأخبرك فيما بعد".

خرجا بعد العشاء إلى الشرفة ليدخّنا ويستمعا إلى الأخبار عبر الترانزستور.

قُتل ثلاثة مقاتلين. برغم أن حظر التجوال قائم في بارامولا، فقد نشبت مظاهرات كبرى.

كانت ليلة بلا قمر، حالكة العتمة، والماء في سواد القار.

الفنادق المقامة في البولفار بمحاذاة ساحل البحيرة تحوّلت إلى ثكنات، محاطة بلفائف الأسلاك الشائكة، وأكياس الرمل، والأسوار. غرف الطعام تحولت إلى عنابر للجنود، مكاتب الاستقبال زنازين، غرف النزلاء مراكز تحقيق. أصبحت الستائر المزخرفة باعتناء ومماناة والسجاجيد النادرة كواتم صوت لصرخات الشباب إذ يصعقون بالكهرباء في قضبانهم أو إذ يُصبُّ البنزين في مؤخراتهم.

قال موسى "أتعلمين من هنا في هذه الأيام؟ جارسون هوبارت. هل تتواصلين معه بأي طريقة؟"

"منذ سنين لا نتواصل".

"هو الآن نائب رئيس قسم في المخابرات الهندية. منصب مهم".

"جيل".

لم يكن من نسيم، والبحيرة كانت هادئة، والعوامة ثابتة، والصمت مضطربًا.

"أحببتَها؟"

"نعم. وأردت أن أخبرك بذلك".

"لماذا؟"

أنهى موسى سيجارته وأشعل غيرها.

"لا أعرف. لأمر له علاقة بالشرف. شرفك وشرفي وشرفها هي".

"فلماذا لم تخبرني من قبل؟"

"لا أعرف".

"هل كان زواج صالونات؟"

"لا".

شعر، وهو جالس بجوار تِلُو، وهو يتنفس بجوارها، كما لو أنه منزل خاوٍ بدأت شبابيكه تنفتح قليلاً، مصدرة صريرًا حادًا، فينسرب هواء منعش على أشباح محبوسة فيه. لمّا تكلّم مرة أخرى كلّم الليل، موجِّهًا كلامه للجبال، المختفية الآن تمامًا عن عينيه، لولا مصابيح خافتة في معسكرات الجيش المرتصّة عليها كأنها زينة تافهة وضعت من أجل مهرجان لعين.

"قابلتها بأبشع طريقة ممكنة... طريقة بشعة وجميلة... ما كان لها أن تحدث إلا هنا. كنا في ربيع ٩١، سنة الفوضى عندنا. كنا، جميعًا، باستثناء جودزيلا، أتصوّر يعني، كنا نظنّ أن آزادي على الأبواب، على بعد نبضة قلب. كان كلّ يوم يشهد معارك بالسلاح، وانفجارات، ومصادمات وقتلاً. وكان المقاتلون يسيرون في الشوارع جهارًا، مختالين بأسلحتهم..."

تراخى كلام موسى، غير مرتاح إلى صوته. لم يكن يألف صوته ذلك. ولم تفعل تِلُو شيئًا لمساعدته. كان في نفسها شيء نافر من القصة التي بدأ موسى يرويها، وبطريقة ما أحبّت انحرافه إلى الكلام في شؤون عامة.

"على أيِّ حال، في تلك السنة، السنة التي قابلتها فيها، كنت قد حصلت للتوّ على وظيفة. وكان ينبغي أن يكون ذلك حدثًا جللاً، لكنه

لم يبدُ كذلك. في تلك الأيام كان الجميع قد أغلقوا أبوابهم. لم يعد أحد يعمل... لا المحاكم، ولا الكليّات، ولا المدارس... انهيار تام في الحياة الطبيعية... كيف أصف لك الحال في ذلك الوقت... مدى الجنون... فوضى عارمة... نهب وخطف وقتل... غشٌ جماعيٌ في امتحانات المدارس. وذلك كان أكثر الأمور طرافة. فجأة، في غمار الحرب، أراد الجميع أن يكونوا من الحاصلين على الثانوية العامة، فقد كان ذلك ليساعدهم في الحصول على قروض رخيصة من الحكومة... أنا نفسي أعرف عائلة فيها ثلاثة أجيال، جدٌ وأب وابن، دخلوا جميعًا امتحان الثانوية العامة في وقت واحد. تخيلي. مزارعون وعمال وتجار فاكهة، كلهم ناجحون من الفئة الثانية والثالثة، أميّون تقريبًا، دخلوا الامتحان، ونقلوا من كتاب نموذج الإجابات واجتازوا بنجاح. نقلوا حتى عبارة 'من فضلك اقلب' التي توجد في نهاية كل صفحة وجنبها رسمة إصبع، أتذكرينها؟ كانت في أواخر صفحات كتبنا الدراسية أيضًا؟ حتى اليوم حينما نريد أن نهين شخصًا وننعته بالغباء نقول له 'هل أنت من دفعة ٩١؟'"

فهمت تِلُو أنه يتعمد الاستطراد، والدوران حول قصة يصعب عليه -ويزداد صعوبة- أن يرويها مثلما يصعب عليها أن تسمعها.

"هل أنت من دفعة ٩١؟" وكانت ضحكة موسى الخافتة مليئة بالمحبة لعورات أهله.

دائمًا ما أحبّت فيه ذلك، انتماءه التام إلى شعب أحبه ولم يمنعه حبه من السخرية منه، والتذمر منه، وشتمه، دون أن ينفصل عنه ولو للحظة. ولعلها أحبت ذلك لأنها شخصيًا لم تكن ترى، ولا كان بوسعها أن ترى في أحد "أهلاً لها"، اللهم إلا كلبين وصلا في تمام السادسة صباحًا إلى حديقة صغيرة قرب بيتها فأطعمتهما، والمتشردين الذين كانت تشرب الشاي معهم في الأكشاك القريبة من ضريح نظام الدين. لكن حتى هؤلاء، حتى هؤلاء أيضًا.

لوقت طويل كانت ترى في موسى "أهلها". كان كلاهما لوهلة بلدًا غريبًا، جمهورية في جزيرة انسحبت من بقية العالم. ومنذ قرّر كلٌ منهما أن يمضي في طريقه، وهي بلا "أهل".

"كنا نقاتل ونموت بالآلاف من أجل أزادي، وفي الوقت نفسه كنا نحاول ضمان الحصول على قروض رخيصة من الحكومة التي نقاتلها. نحن وادي الحمقى الفصاميين، نحن المقاتلون من أجل الحرية والحمقى بحيث ...".

توقف موسى في منتصف ضحكة وتصلّب رأسه. كان قارب دورية يتحرك في البعيد، وجنوده يمسحون سطح ماء البحيرة بأشعة ضوء من كشافات قوية. وما كادوا يذهبون حتى نهض قائلاً "هيا ندخل يا حبيبتي، أصبح الجو باردًا".

زلّ منه بمنتهى العفوية، ذلك النداء التحببي القديم. حبيبتي. ولاحظته. ولم يلاحظه هو. لم يكن الجو باردًا. ومع ذلك دخلا.

كان جُلريز نائمًا على سجادة غرفة الطعام، وأغا وخانم مستيقظان تمامًا يلعبان عليه وكأن جسمه حديقتهما المقامة لمتعتهما الخاصة دون غيرهما. كان أغا مختبئًا في بطن ركبته، وخانم واقفة في كَمِين مرتفعات فخذه الاستراتيجية.

وقف موسى لدى باب غرفة النوم المزخرفة، المنقوشة، المرسومة، المثقَّبة وقال "هل تأذنين لي بالدخول؟" فأَلمها ذلك.

"ليس العبيد أغبياء بالضرورة، صح؟" وجلست على طرف السرير واستلقت على ظهرها، واضعة راحتيها أسفل رأسها، مبقية قدميها على الأرض. جلس موسى بجوارها واضعًا يده على بطنها. تبدّد التوتر من الغرفة غريبًا مرفوضًا. وعمَّت ظلمةٌ لولا نور الطرقة.

"هل أشغل لك أغنية كشميرية؟"

"لا يا رجل الله يخليك. أنا لست وطنية كشميرية".

"ستكونين كذلك. وبسرعة. في غضون ثلاثة أيام أو أربعة".

"ولم ذلك؟"

"ستكونين، لأنني أعرفك. حينما ترين ما سترين، وتسمعين ما ستسمعين، لن يبقى لك خيار. فهذه هي أنت".

"وهل سيقام حفل، وأحصل على شهادة؟"

"نعم. وستجتازين الامتحان بنجاح. أنا أعرفك".

"أنت لا تعرفني إلى هذه الدرجة. أنا وطنية. دمي يسخن عندما أرى العلم الوطني. تتأثر مشاعري لدرجة أن أعجز عن التفكير السليم. أحب الأعلام والجنود والمشي المنتظم حول شيء ما. ما الأغنية؟"

"ستعجبك. حملتها لك في حظر التجوال. كُتبت من أجلنا، أنت وأنا. كتبها صديق اسمه لاس كوني، من قريتي. ستحبينها".

"أنا متأكدة أن هذا لن يحدث".

"طيب امنحيني فرصة".

أخرج موسى أسطوانة من جيب فيرانه ووضعها في مشغل الأسطوانات. ولم تكد تنتهي نغمات الجيتار الأولى، حتى شدهت عينا نِلُو.

تمهلي، أيتها السيدة الراحلة،
إلى أن ينتهي الليل،
ما أنا إلا عطلة في طريقك...
وأعرف أنني لست حبيبك...

"ليونارد كوهين".

"نعم. حتى هو لا يعرف أنه كشميري. أو أن اسمه الحقيقي هو لاس كوني...".

عشتُ وطفلة من الجليد

حينما كنت جندياً..

قاتلت من أجلها جميع الرجال..

حتى اشتد عليَّ برد الليالي..

كانت تصففُ شعرها مثلما تصففين شعرك..

إلا وهي نائمة.

ثم تنسجه على نول من دخان وذهب وأنفاس.

وفيم هدوؤك الآن.

ووقفتك في مدخل البيت؟

أنت اخترت رحلتك قبل زمان بعيد

وها أنت وقد صادفت هذا الطريق السريع.

"من أين عرف؟"

"لاس كوني يعرف كل شيء".

"هل كانت تصفّف شعرها مثلي؟"

"كانت متحضرة يا حبيبتي. لا بلهاء"

قبّلت تِلُو موسى، وبينما تحتضنه وتأبى أن تفلته قالت "ابعد عني أيها الرجل الجبلي العفن".

"أحسن منك يا بنت النهر التي أذابك الماء".

"منذ متى لم تستحم؟"

"تسعة أشهر".

"بجدا"

"يمكن أسبوع؟ لا أعرف".

"وغد عفن".

. . . .

طال استحمام موسى. كانت تسمعه يدندن بلاس كوني. خرج عاري الجسم إلا من منشفة ائتزر بها، وتفوح منه رائحة الصابون والشامبو الخاصّين بها. فأضحكها ذلك.

"لك رائحة زهرة صيفية".

قال موسى مبتسمًا "عندي إحساس حقيقي بالذنب".

"صدّقني، واضح عليك".

"بعد أسابيع من استضافة كريمة للقمل والدود طردتها جميعًا من البيت".

ذِكْرُه "القمل" جعلها تحبه أكثر قليلاً.

كانا متوائمين دائمًا تواؤم قطعتين من لغز غير محلول (وربما لا حلّ له)، دخانها في صلابته، وعزلتها في ائتناسه، وغرابتها في وضوحه، ولا مبالاتها في تحفظه. وهدوؤها في هدوئه.

وهناك بطبيعة الحال الأجزاء الأخرى، الأجزاء التي لم تكن تتراكب ولا تتواءم.

ما جرى تلك الليلة في ع و شاهين لم يكن ممارسة للحب بقدر ما كان ممارسة للرثاء. كانت جراحهما شديدة القدم شديدة الحداثة، شديدة الاختلاف، وربما شديدة العمق، بما يجعلها عصيّة على الشفاء. لكنهما للحظة عابرة استطاعا أن يجمعا كل تلك الجراح كأنها ديون قمار متراكمة ويقتسما آلامها بالتساوي، بدون تسمية للإصابات أو تحديد لأيّها يخصُ أيهما. للحظة عابرة أمكنهما أن ينفكّا من العالم الذي يعيشان فيه ويستحضرا عالَمًا آخر، لا يقل واقعية. عالَمًا يُصدر فيه البلهاء الأوامر ويضع الجنود قطرة أذن لكي يسمعوها بوضوح وينفّذوها على النحو الأمثل.

كانت بِلُو تعرف أن تحت السرير سلاحًا. لم تتكلم عنه. ولا حتى بعد ذلك، حينما أحصت مواضع الجلد المتصلب في جسم موسى. وقبّلتها. واستلقت فوقه، مفرودة الجسم، كأنه حشية، مستندة بذقنها على أصابعه المتشابكة، معرِّضة مؤخرتها غير الكشميرية بوضوح لليل سري نجر. بطريقة ما لم تكن الرحلة التي قطعها موسى إلى حيثما هو الآن مدهشة لها. كانت تتذكّر بوضوح يومًا مضت عليه سنوات، في

عام ١٩٨٤ (ومن ذا الذي ينسى سنة ١٩٨٤؟) حينما نشرت الصحف أن كشميريًا يدعى مقبول بات، كان مسجونًا بتهمة الخيانة، قد شنق في سجن تيهار بدلهي، ودُفن جثمانه في فناء السجن، خشية أن يتحوّل قبره إلى مزار، ونقطة احتشاد في كشمير التي كانت قد بدأت تغلي فيها الاضطرابات. لم يُبالِ شخص آخر في الكلية بالخبر، لا طالب ولا أستاذ. لكن موسى قال لها في تلك الليلة بهدوء، وبنبرة من يُقرّ واقعًا "يومًا ما سوف تفهمين لماذا بدأ التاريخ اليوم بالنسبة لي". ومع أنها لم تدرك فحوى كلامه تمامًا في تلك المرّة، بقيت بداخلها الحدة التي نطق بها تلك الكلمات.

سألها موسى من داخل عشّ الطائر الذي استحال إليه شعر حبيبته من حوله "كيف حال الملكة الأم هناك في كيراله؟"

"لا أعرف. لم أزرها".

"لا بدّ".

"عارفة".

"هي أمُّك. أنت هي. وهي أنت".

"هذه هي النظرة في كشمير فقط. في الهند الأمر مختلف".

"بجدّ. هذه ليست نكتة. هذا ليس جيدًا لك أنت يا حبيبتي. لا بد أن تذهبي".

"أعرف".

أخذ موسى يمرّر أصابعه على العضلات المحيطة بفقرات ظهرها، وما بدأ ملاطفة تحوّل إلى استكشاف جسدي. فتحوّل في لحظة إلى أبيه المرتاب. تفحّص كتفيها، وذراعيها القويين النحيلين.

"من أين لك هذا كله؟"

"تمارين".

ساد الصمت لثانية. قرّرت ألا تحكي له عمّن يطاردونها من الرجال، ويطرقون بابها في أوقات غريبة من النهار والليل، ومنهم السيد س ب ب راجندران، ضابط الشرطة المتقاعد الذي يتولّى منصبًا إداريًا في شركة العمارة التي تعمل فيها. كانت الشركة قد عيّنته للانتفاع بعلاقاته في الحكومة لا لمهاراته في الإدارة. كان سافرًا في تودّده إليها في المكتب، فيقترح عليها اقتراحات داعرة، ويترك لها هدايا على مكتبها، فتتجاهلها. لكنه في آخر الليل، يجترئ بسبب الكحول على الأرجح، فيسوق سيارته إلى نظام الدين ويطرق بابها بعنف، وهو يصيح طالبًا أن تفتح له. كان سرٌّ وقاحته تلك يكمن في معرفته أن الأمور حينما تبلغ ذروتها، أمام الرأي العام، أو أمام القضاء، فإن كلمته هو سوف تعلو على كلمتها. فقد كان للرجل سجلٌ في العمل العام، وكان حاصلاً على وسام شجاعة، ولم تكن هي تعدو امرأة وحيدة بسيطة الملبس تدخن وليس فيها ما يشي بانحدارها من أسرة "طيبة" يمكن أن تنهض للدفاع عنها. وتِلْو كانت تعرف هذا فاتخذت إجراءات احتياطية. فلو كان السيد راجندران جرَّب حظه وتجاوز الحدود لأمكنها أن تطرحه أرضًا قبل أن يستوعب ما جرى.

لم تقل شيئًا من ذلك لَمّا بدا لها وضيعًا تافهًا بالمقارنة مع ما كان موسى يعيشه. انقلبت من فوقه.

"احك لي عن سلطان... ذلك الشخص الـ بيواكوف الذي غضب منه جُلريز كلّ هذا الغضب. من يكون؟"

ابتسم موسى.

"سلطان؟ سلطان لم يكن شخصًا. ولم يكن بيواكوف. كان كائنًا في غاية الذكاء. ديكًا. ديكًا يتيمًا ربّاه جول منذ أن كان كتكوتًا صغيرًا. تفانى سلطان في محبته، كان يتبعه أينما ذهب، وكانت تجري بينهما أحاديث طويلة لا يفهمها غيرهما، كانا فريقًا ... لا يفترقان. سلطان كان مشهورًا في المنطقة، يأتي الناس من القرى القريبة لمشاهدته. وكان له ريش جميل، بنفسجي، وبرتقالي، وأحمر، يختال به في المكان اختيال سلطان حقيقي. كنت أعرفه جيدًا... كلنا كنا نعرفه. كان شديد الـ... سموّ، يتصرّف دائمًا وكأنك تدينين له بدين... فاهمة؟ وجاء يومًا نقيبٌ في الجيش ومعه جنود... النقيب جانباز كما كان يطلق على نفسه، لا أعرف اسمه الحقيقي... كل هؤلاء الرجال يطلقون على أنفسهم هذه الأسماء السينمائية في هذه الأيام... لم يأتوا يومها لحملة تطويق وتفتيش أو أي شيء... إنما ليكلموا أهل القرية، ويهدّدوهم قليلاً، ويسيئوا إليهم بعض الشيء... والمعتاد يعني. جُمع أهل القرية كلهم في ساحة السوق. وحضرت كذلك شركة جولكام وسلطان الشهيرة. كان سلطان ينصت باهتمام وكأنه إنسان، بل حكيم من حكماء القرية. وكان مع

النقيب كلبه. شيفرد ألماني ضخم، مربوط برسن. بعدما انتهى من تهديداته ومحاضرته، أطلق الكلب من عنانه قائلا له: 'هاته يا جيمي'. فوثب جيمي على سلطان وقتله، وجعله الجنود عشاء لهم. انهار جولكاك. بكى لأيام بكاء الناس على أقاربهم حينما يقتلون. سلطان كان بالنسبة له قريبًا... ليس أقل من ذلك. وكان غاضبًا من سلطان لأنه خذله فلم يقاتل، أو يهرب، وكأنه مقاتل يُفترض فيه أن يعرف تلك التكتيكات. ولذلك يلوم جول سلطان ويبكيه قائلاً: 'إذا كنت لا تعرف كيف تعيش في وجود الجيش، فلماذا جئت إلى هذا العالم؟'".

"فلماذا إذن ذكّرته به؟ هذا شرّ...".

"جول أخي الصغير. نلبس ثياب أحدنا الآخر، ويأتمن الواحد الآخر على حياته. بوسعي أن أفعل أيّ شيء معه".

"لا ينبغي أن تفعل هذا يا موساي. في الهند لا نفعل هذه الأشياء ...".

"نحن حتى نشترك في الاسم...".

"ماذا تقصد؟"

"أنا معروف بهذا. القائد جُلريز. لا أحد يعرفني باسم موسى يسوي".

"خرا، كل هذا الكلام خرا".

"هششش. في كشمير لا نستعمل هذه اللغة".

"في الهند نستعملها".

"علينا أن ننام يا حبيبي".

"صح".

"لكن قبل ذلك علينا أن نلبس ثيابنا".

"لماذا؟"

"البروتوكول. نحن في كشمير".

بعد ذلك الحوار العفوي، لم يكن النوم خيارًا ممكنًا. استندت تِلُو على مرفقها وقد ارتدت كامل ثيابها متفهّمة قليلاً ما يقتضيه "البروتوكول"، ومحصّنة بالحب، ومشبعة بممارسته، ومتكئة على مرفقيها.

"كلّمني ...".

"وماذا تسمّين ما كنّا نفعله كلَّ هذا الوقت؟"

"أسميه فواتح كلام".

دعكت خدها في لحيته النابتة ثم استلقت على ظهرها، واضعة رأسها بجوار رأسه على الوسادة.

"أكلّمك عن أيِّ شيء؟"

"عن كل شيء. دون أي حذف".

أشعلت سيجارتين.

"احكِ لي القصة الأخرى... الرهيبة والجميلة... قصة الحب".

لم تفهم تِلُو لماذا تسبَّب كلامُها في أن يعانقها موسى ويشدّ عليها ويسبغ على عينيه لمعة لعلها كانت دموعًا محبوسة. لم تدْرِ ما الذي كان يقصده بقوله "أخ داليلا وان ...".

وفيما يعانقها كأن حياته مُعلَّقة بها، حكى لها موسى عن الآنسة جِين، وكيف كانت تصرّ على مناداتها بالآنسة جِين، وعن شروطها المحددة في حكايات ما قبل النوم، وكلّ عفرتتها الليلية. حكى لها عن عارفة وكيف قابلها للمرة الأولى، في متجر أدوات مكتبية في سري نجر:

"كان شجار هائل قد نشب في ذلك اليوم بيني وبين جودزي. بسبب حذائي الجديد طويل الرقبة. كان حذاءً جميلاً.. يرتديه جولكاك الآن. عموما، كنت أستعد للخروج لشراء بعض الأدوات المكتبية، وكنت أرتدي ذلك الحذاء. طلب مني جودزي أن أخلعه وأرتدي حذاءً عاديًا، إذ كان الشباب ممن يرتدون الأحذية الجيدة طويلة الرقاب يعتقلون باعتبارهم مقاتلين، وذلك كان دليلاً كافيًا في تلك الأيام. عمومًا، رفضت أن أسمع كلامه، فقال في النهاية: 'افعل ما يحلو لك، لكن لا تنس كلامي، هذا الحذاء سيجلب عليك المتاعب'. وكان عنده حق... جلب المتاعب فعلاً، ومتاعب كبيرة، لكنها ليست من النوع الذي كان يتوقعه. كان متجر الأدوات المكتبية الذي اعتدت الذهاب إليه، جيه كي للأدوات المكتبية، يقع في سوق لال، في مركز المدينة. كنت بالداخل حينما انفجرت قنبلة يدوية في الشارع، خارج المحل بالضبط. رماها مقاتل على جندي. كادت طبلتا أذني تنفجران. تحطّم كلُّ شيء في المحل، وتناثر الزجاج في كلّ مكان، واعترت الفوضى

السوق كلّه، وصار الجميع يصرخون. وجنّ جنون الجنود، طبيعي. حطّموا جميع المحلات، ودخلوها فانهالوا ضربًا على كلّ من وقعت عليه أنظارهم. كنت على الأرض فركلوني، وضربوني بكعوب البنادق. أتذكّر رقودي هناك، محاولاً حماية جمجمتي، مشاهدًا الدم يتناثر على الأرض. كنت أتألم، لكن ليس بشدة. كنت خائفًا أن أتحرّك. كان كلب يحملق فيّ. بدا متعاطفًا. عندما تجاوزت الصدمة الأولى، شعرت بثقل على قدمي. تذكرت حذائي الجديد وتساءلت إن كان بخير. لم أكد أطمئن إلى أن المكان آمن حتى رفعت رأسي ببطء، وبكلّ ما أستطيعه من حذر، لألقي نظرة. ورأيت وجهًا جميلاً مستريحًا على حذائي. بدا ذلك أشبه بالإفاقة في الجحيم على ملاك فوق حذائي. كانت عارفة. هي الأخرى كانت قد تجمّدت، وشلّها الرعب فلم تتحرك. لكنها كانت في منتهى الهدوء. لم تبتسم، لم تحرّك رأسها. نظرت لي فقط وقالت: 'بوت عسل'، 'حذاء لطيف'، لم أصدق نفسي. جملة في غاية اللطف. لا نحيب، ولا صراخ، ولا نشيج، ولا بكاء، بل لطف مطلق. ضحك كلانا. كانت قد حصلت للتو على شهادة في الطب البيطري. ذهلت أمي حينما قلت إنني أريد أن أتزوج. لم تكن تتصور أن أتزوج في يوم من الأيام. كانت قد يئست مني".

كان واردًا أن تُجري تِلُو وموسى هذا الحوار الغريب عن حبيبة ثالثة لأنهما كانا في الآن نفسه، حبيبين وحبيبين سابقين، عاشقين وعاشقين سابقين، أخوين وأخوين سابقين، زميلي دراسة وزميلي دراسة سابقين. لثقة كل منهما في الآخر ثقة تجعله يعرف أن من يقع

أحدهما في حبه -برغم ما في ذلك من إيلام- فإنه قطعًا شخص جدير بالحب. ففي الأمور الغرامية، كانت لديهما غابة افتراضية من شبكات الأمان.

عرض موسى على تِلُو صورة للآنسة جِبين وعارفة كان يحملها في محفظته. عارفة ترتدي فبرانًا رماديًا لامعًا عليه تطريز فضي وحجابًا أبيض، والآنسة جِبين تمسك يدها، مرتدية عفريتة من الجينز على صدرها قلب بالترتر، بينما يلتفُّ حول وجهها الباسم ذي الخدين التفاحيين حجاب أبيض. نظرت تِلُو إلى الصورة مليًا قبل أن ترجعها. رأت موسى وقد تكدَّر وجهه. لكنه استعاد اتزانه بسرعة. حكى لها كيف ماتت عارفة والآنسة جِبين. وعن أمريك سنج ومقتل جالب قدري، وسلسلة الاغتيالات التي تلته. وعن اعتذاره المشؤوم في شيراز.

"لن أتعامل مطلقًا مع ما جرى لأسرتي باعتباره أمرًا شخصيًا. ولكنني لن أتعامل معه باعتباره أمرًا غير شخصي. لأن هذا أيضًا مهم".

ظلا يتكلمان والليل يتقدَّم. وبعد ساعات، رجعت تِلُو إلى الصورة.

"هل كانت تحب ارتداءها للحجاب؟"

"عارفة؟"

"لا. بنتك".

هزّ موسى كتفيه. "هو عادة. من عاداتنا".

"لم أكن أعرف أنك تتقيد بالعادات. فلو كنت وافقت على الزواج بك لكنت أردت أن أرتدي الحجاب؟"

"لا يا حبي. لو كنت وافقت على الزواج بي لانتهينا إلى أن ألبس أنا الحجاب وتهيمين أنت تحت الأرض حاملة السلاح".

ضحكت تِلُو مقهقهة.
"ومن يكون في جيشي؟"
"لا أعرف. لا يمكن أن يكونوا بشرًا".
"سرية العثة ولواء النِّمس...".

حكت تِلُو لموسى عن وظيفتها المضجرة وحياتها المثيرة في المخزن القريب من ضريح نظام الدين. وعن الديك الذي رسمته على جدارها: "أمر غريب. ربما يكون سلطان قد زارني بالتخاطر.. أليست هذه كلمة؟" (وكان ذلك زمان ما قبل الهاتف المحمول، فلم تكن معها صورة تريه إياها). وصفت له جارها، حكيم الجنس المزيف ذا الشارب المبروم بالشمع الذي تصطف على بابه طوابير المرضى، وحكت عن أصدقائها من الهائمين والمتسولين الذين تشرب معهم الشاي في الشارع كل صباح، ويوقنون جميعًا أنها تعمل مع أحد كبار تجار المخدرات.

"أضحك، لكنني لا أنكر. أترك الأمر غامضًا".

"ولم هذا؟ هذا أمر خطير".

"لا. بالعكس. هذا تأمين مجانيّ لي. يظنّون أن لديّ عصابة حامية. فلا يضايقني أحد. تعال نقرأ قصيدة قبل أن ننام". تلك كانت عادة قديمة لهما منذ أيام الكلية. يفتح أحدهما كتابًا على صفحة عشوائية. ويقرأ الآخر القصيدة. وغالبًا ما تظهر لها صلة عجيبة بهما وباللحظة الحاضرة التي يعيشانها. رُوليت الشعر. نهضت مشوّشة من السرير ورجعت بكتاب نخيل بالٍ لأوسيب ماندلشتام. فتح موسى الكتاب وقرأت تِلُو:

كنت أستحم ليلاً في حوش البيت
ونجوم خشنة ساطعة في السماء. . .
نورها، كأنه الملح على بلطة
ومخزن الماء ممتلئ لحافته ومتجمد

"ماذا يكون مخزن الماء؟ لا أعرف ... يجب أن أبحث عن معناه".

البوابة مغلقة،
والأرض لا شك مقبضة.
ما من شيء مطلقًا أشد تجردًا ونقاءً
من لوحة الحقيقة النظيفة. . .
تذوب كالملح لجمةٌ في البرميل
وتزداد المياه المتجمدة سوادًا،

والموت نظافةً، وسوء الحظ ملوحةً
والأرض صدقًا، وبشاعة.

"شاعر كشميري آخر".

قالت تِلُو "كشميري روسي. مات في معتقل. في فترة معتقلات ستالين. أنشودته في ستالين لم تُعتبر مخلصة بالقدر الكافي".

ندمت أنها قرأت القصيدة.

ناما نومًا متقطعًا. قبل الفجر، وهي بين النوم والصحو، سمعت تِلُو موسى تحت الماء في الحمام، يستحم، ويغسل أسنانه (بفرشاة أسنانها بالطبع). خرج وشعره منسدل فارتدى طاقيته وفيرانه. رأته يؤدي صلاته. لم تكن رأته من قبل وهو يفعل ذلك. جلست في السرير. فلم يُلهِهِ ذلك. وحينما انتهى أتى إليها فجلس على طرف السرير.

"هل يقلقك هذا؟"
"هل فيه ما يقلق؟"
"هو تغيير كبير..."
"نعم. لا. فقط يجعلني ... أفكر"
"لا يمكن أن نفوز في هذه الحرب بأجسامنا فقط. علينا أن نجند أرواحنا أيضًا".

أشعلت سيجارتين أخريين.

"أتعرفين ما أصعب شيء علينا؟ أصعب شيء علينا في القتال؟ الشفقة. سهل جدًا أن نشفق على أنفسنا... كل هذه الأمور الرهيبة وقعت على أهلنا... في كل بيت حدث شيء رهيب... ولكن الإشفاق على النفس بالغ الـ... بالغ الإضعاف. بالغ الإذلال. القتال الآن من أجل آزادي طبعًا، لكنه من أجل الكرامة أكثر. والطريقة الوحيدة التي نحافظ بها على كرامتنا هي أن نقاتل من بقاتلنا. حتى لو خسرنا. حتى لو متنا. لكن من أجل ذلك علينا نحن الناس، نحن الناس العاديين، أن نتحوّل إلى قوة مقاتلة... جيش. ومن أجل ذلك علينا أن نختزل أنفسنا، نقلّصها، ننمّطها ... على الجميع أن يفكّروا بطريقة واحدة، ويريدوا شيئًا واحدًا ... علينا أن نتخلّص من تعقيداتنا، واختلافاتنا، وسخفنا، والفوارق الرهيفة بيننا... علينا أن نجعل أنفسنا عقلاً واحدًا ... أحاديين ... أغبياء كالجيش الذي نواجهه. لكنهم محترفون، ونحن مجرد ناس. وهذا أسوأ ما في الاحتلال... ما يحملنا على أن نفعله في أنفسنا. الاختزال، والتنميط، والتغبية، هل هذه كلمة أصلا؟"

"أصبحت كلمة حالاً"

"هذه التغبية، والتحامق... لو حققناه، أو عندما نحققه... سيكون فيه خلاصنا. سيجعل هزيمتنا ضربًا من المستحيل. سيكون في الأول خلاصنا... وبعد أن ننتصر... سيكون عدونا. أولاً آزادي. ثم الاندثار. هذا هو النمط".

لم تقُلْ تِلُو شيئًا.

"هل تسمعينني؟"

"طبعًا"

"أتكلم بكل هذا العمق ولا تقولين أنت أي شيء"

رفعت إليه عينيها وضغطت بإبهامها على الثمانية القائمة بين سنَّيه الأماميتين المشطوفتين. أمسك يدها وقبّل خاتمها الفضيّ.

"أنا سعيد أنك لا تزالين تضعينه في إصبعك".

"ملتصق. لا أستطيع خلعه وإن أردت".

ابتسم موسى. ظلاً يدخنان في صمت وعندما انتهيا حملت تِلْو المطفأة إلى الشباك ورمت الأعقاب في الماء لتطفو بين أمثالها ونظرت إلى السماء قبل أن ترجع إلى السرير.

"ما فعلته حالاً قذارة. أنا آسفة".

قبّل موسى جبينها ونهض.

"ستذهب؟"

"نعم. سيأتي لي قارب. عليه حمولة سبانخ وبطيخ وجزر وسيقان لوتس. سأتحول إلى هايتز... أبيع منتجاتي في سوق عائم. سوف أضرب السعر، وأساوم ربات البيوت بلا رحمة. وفي الفوضى سوف أتسلّل خارجًا".

"متى أراك ثانية؟"

"سيأتي إليك شخص، امرأة اسمها خديجة. ثقي فيها. اذهبي معها. ستسافرين. أريدك أن تري كل شيء، وتعرفي كل شيء، وسوف تكونين في أمان".

"متى أراك ثانية؟"

"أسرع مما تتصورين. سأعثر أنا عليك. خودا حافظ يا حبيبتي".

ومضى.

في الصباح قدّم لها جُلريز إفطارًا كشميريًا. تشيوي لافازا مع خبز روتيس وزبد وعسل. قهوة من غير سكر لكن معها لوز مجروش كان عليها أن تغترفه بملعقة من قعر فنجانها. كان أغا وخانم يتصرّفان بمنتهى قلة الأدب، فيصعدان على المائدة وينزلان، ويتخبّطان في أدوات المائدة، ويوقعان الملح. وفي العاشرة تمامًا، وصلت خديجة ومعها ابناها الصغيران. عبروا البحيرة في مركب شيكارا وذهبوا إلى وسط البلد بسيارة ماروتي ٨٠٠ حمراء.

طوال الأيام العشرة التالية سافرت تِلُو في أنحاء وادي كشمير، في كلّ يوم كان يصحبها فريق مختلف من المرافقين، فهم أحيانًا رجال، وأحيانًا نساء، وأحيانًا أسر ذات أطفال. كانت الرحلة الأولى بين رحلات كثيرة قامت بها على مدار سنين عديدة. سافرت خلالها بالأتوبيس، وفي تاكسيات بالنفر، وأحيانًا بسيارة. زارت المقاصد السياحية التي اشتهرت بسبب السينما الهندية ـجولمارج، وسونمارج، وفلجام، ووادي بيتاب ـ التي سُمِّيت فعليًا باسم الفيلم الذي تمّ تصويره

هناك. الفنادق التي كان يقيم فيها النجوم خاوية الآن، وأكواخ شهر العسل (التي قال مرافقوها ضاحكين إن أجِنَّة قاهريهم الحاليين تكوَّنت فيها) مهجورة. ركبت عربة تجرها الثيران في المرج الذي تعرَّض فيه قبل عام ستةُ سياح -من أمريكا وبريطانيا وألمانيا والنرويج- للاختطاف على يد الفران، وهي جماعة مقاتلة تكوَّنت حديثًا ولم يكن الكثيرون يعلمون بأمرها. قُتل خمسة من الستة، وهرب واحد. هو النرويجي، شاعر شاب، وراقص، ذبحوه، وتركوا جثته في مروج فلجام. قبل وفاته، وبينما كان خاطفوه ينقلونه من مكان إلى مكان، ترك أثرًا من الشعر على قصاصات ورق أمكنَه أن يعطيها في السرّ لأشخاص صادفهم في طريقه.

سافرت إلى وادي لولاب الذي يعدُّ أجمل وأخطر بقعة في وادي كشمير كله إذ كانت غابته تغصُّ بالمقاتلين والجنود والإخوان المارقين. سارت على ممرَّات في الغابة لا يكاد يعرفها أحد على مقربة من رافي آباد فكانت شديدة القرب من خط السيطرة، بمحاذاة ضفاف الأنهار الجبلية المعشبة، فكانت تنحني حتى تصير على أربع وتشرب من تلك الأنهار ماءها الصافي كأنها حيوان ظامئ، وتزرقُّ شفتاها من شدة البرد. زارت قرى محاطة بالبساتين والمقابر وأقامت في بيوت ريفية. وكان موسى يظهر ويختفي دومًا سابق إنذار. فيجلسان عاليًا في الجبال، قرب النار في كوخ حجري خاوٍ كان يستعمله رعاة الجوجار[44] في الصيف حينما كانوا

44 جماعة عرقية تعيش على الزراعة والرعي في الهند وباكستان وقليل منها في أفغانستان.

يصعدون بماشيتهم آتين من السهول. أشار موسى إلى طريق كان المقاتلون غالبًا ما يستعملونه لعبور خط السيطرة:

"برلين كان فيها سور. أما نحن فلدينا أعلى نطاق جبلي في العالم. لن يسقط، لكنه سوف يتحول إلى مدرجات".

في منزل بـ كوبوارا، قابلت تِلُو الشقيقة الكبرى للشاب ممتاز أفضل ملك، وهو سائق التاكسي الذي أقل سالم جوجري شريك أمريك سنج إلى المعسكر في اليوم الذي اغتيل فيه. وصفت كيف كانت قبضتا يدي أخيها، عندما عثر على جثته في حقل وجيء بها إلى البيت، متيبستين على تراب وزهرات خردل صفراء بارزة من بين أصابعه.

رجعت تِلُو إلى ع و شاهين وحيدة بعد رحلاتها في الوادي. ودَّعت هي وموسى أحدهما الآخر عرَضًا وعلى سبيل الاحتياط. وتعلّمت تِلُو بسرعة أن العفوية والنكات ـ في هذه الأمور ـ تكون شديدة الجدّية، وأن أكثر الأمور جدّية كانت في العادة تتخذ شكل النكات. كانا يتكلمان بالشفرة حتى حينما لا يحتاجان إلى ذلك. وبتلك الطريقة حصل أمريك سنج "الملقاط" على اسمه الشفري: "كلب البحر" (لم يُقَم من أجل ذلك اجتماع رسمي، ولكن درجة مزاحهما في الأمر كانت إقرارًا به واتفاقًا عليه. وبرغم أن تِلُو لم تكن إلا مستهينة بشمار آزادي كا مطلب كيا. . معنى الحرية هو لا إله إلا الله، فقد بات من الممكن الآن وصفها يقينًا

وعن حق بـ عدوة الدولة) في اليوم التالي لرجوعها، حينما رأت جُلريز بعد المائدة لفردين، علمت أن موسى قادم.

جاء في وقت متأخر من الليل، وقد بدا عليه الانشغال. قال إن المدينة تشهد اضطرابات غير قليلة. فتحا المذياع:

قتلت جماعة من الإخوان صبيًا و"أخفت" جثته. وفي المظاهرات التي أعقبت ذلك قُتل أربعة عشر شخصًا بالرصاص. وقُتل خلال المصادمات ثلاثة من المقاتلين. وأُحرقت ثلاثة أقسام شرطة. وكانت حصيلة قتلى اليوم ثمانية عشرة.

أكل موسى بسرعة ونهض ليذهب. غمغم مودِّعًا جُلريز وداعًا أجش. وقبّل تِلُو على جبهتها قائلاً "خودا حافظ يا حبيبتي. تصلين بالسلامة".

طلب منها أن تبقى بالداخل وألا تخرج لوداعه. فلم تطعه. خرجت معه إلى الرصيف المؤقت المزعزع الذي كان ينتظره لديه قارب خشبي صغير، فصعد عليه واستلقى مستويًا على أرضيته. وكان المراكبي قد غطى المركب بحصيرة من القشّ وقد رتّب سلالاً خاوية وقليلاً من أكياس الخضراوات ليضعها فوق موسى. وقفت تِلُو تتابع القارب وهو يبتعد بشحنته الحبيبة. لم يكن يعبر البحيرة باتجاه البولفار، بل يمضي محاذيًا صف العوامات الممتد إلا ما لا نهاية، مختفيًا في البعيد.

تصوَّرت موسى وهو راقد في المركب مغطّى بسلال خاوية، فتغيّر في نفسها شيء. شعرت كأنها فقاعة رمادية في جدول جبلي يعبر من فوقها شيء ما بارد حدَّ التجمد.

ذهبت لتنام، ضابطة المنبه على التوقيت الملائم لكي تلحق بالأتوبيس إلى جامّو. ومن حسن حظها أنها اتبعت البروتوكول الكشميري، لا لأنها قصدت ذلك، بل لأن الإرهاق بلغ منها أن لم تقوَ على خلع ثيابها. كانت تسمع صوت جولكاك وهو يتحرّك هنا وهناك مدندنًا.

...

استيقظت بعد أقلّ من ساعة، ولم يكن ذلك فجأة، بل تدريجيًا، وهي تسبح عبر طبقات النوم، استيقظت في البداية على صوت، ثم على غياب ذلك الصوت. استيقظت على طنين محركات بدت آتية من كلِّ اتجاه. فلمّا انطفأت، أيقظها الصمت المفاجئ.

قوارب بخارية. الكثير منها.

مالت ع و شاهين ومادت. ليس كثيرًا، مجرد ميل خفيف.

كانت قد وقفت بالفعل، متأهبة للمتاعب، حينما أطيح بباب غرفة نومها المنحوتة المزخرفة المثقّبة بركلة عاصفة وامتلأت الغرفة بالجنود والسلاح.

ما جرى في السويعات التالية إما أنه جرى بسرعة شديدة أو ببطء بالغ. لم تستطع أن تحدِّد. كانت الصورة واضحةً والصوت دقيقًا، ولكنهما بطريقة ما بدَوَا بعيديْن. والمشاعر أبعد. كمَّموا فمها، وقيَّدوا يديها، وفتشوا الغرفة. ودفعوها أمامهم في الطرقة إلى غرفة الطعام عابرة بجولكاك على الأرض يركله ويضربه عشرة رجال على الأقل.

أين هو؟

لا أعرف.

من أنت؟

جُلريز. جُلريز. جُلريز أبرو. جُلريز أبرو.

كانوا يضربونه كلّما قال الحقيقة.

وينفذ صراخه في جسمها كالرماح وينجرف على البحيرة. ولمَّا اعتادت عيناها ظلمة الخارج، رأت أسطولاً صغيرًا من القوارب المليئة بالجنود يتمايل على سطح البحيرة السوداء، معادلاً مائيًا لحملات التطويق والتفتيش. كان ثمة قوسان متحدا المركز، القوس الخارجي منهما يضم فريق السيطرة على المنطقة، والداخلي يضم فريق الدعم. كان الجنود الذين يتشكل منهم فريق الدعم واقفين في قواربهم، يستندون إلى قضبان طويلة في أطرافها نصال ـفهي رماح مرتجلةـ يطعنون بها الماء ليتأكدوا أن من جاؤوا في طلبه لم يهرب تحت الماء. (كانوا يفعلون ذلك بعد فضيحة الهروب الأسطوري لهارون جادي ـ هارون السمكةـ الذي هرب حتى بعدما تصورت فرقة مغيرة أنها

حاصرته في مخبئه على ضفاف بحيرة وولار. لم يكن له من مخرج محتمل إلا البحيرة نفسها، وحتى تلك كان فيها فريق من الكوماندوز البحرية ينتظره. لكن هارون جادي هرب، إذ اختبأ وسط طحالب تحت الماء متخذًا من قصبة من البامبو خرطومًا للتنفس. استطاع أن يبقى مختفيًا لساعات إلى أن يئس مطاردوه ومضوا وهم في حيرة من أمره).

القارب الذي حمل فريق الهجوم كان راسيًا، في انتظار رجوع ركابه بغنيمتهم. وكان الرجل المسؤول عن العملية رجلاً طويل القامة من السيخ يرتدي عمامة خضراء. وقد افترضت تِلُو، محقةً، أنه أمريك سنج. كانت قد دُفعت إلى القارب وأرغمت على الجلوس. لم يكلمها أحد. ولم يخرج أحد من سكان العوامات المجاورة ليرى ما يحدث. فقد كان فريق صغير من الجنود قد عني بتفتيش كل عوامة من تلك.

لم يمض وقت يُذكر حتى جيء بجُلريز. لم يكن قادرًا على المشي، فجرّوه جرًّا. رأسه الكبير كان موضوعًا في غطاء، متدلّيًا إلى الأمام. أجلسوه قبالة تِلُو. كلُّ ما كان بوسعها أن تراه منه هو غطاء رأسه، وفيرانه، وحذاؤه. حتى غطاء الرأس ذلك لم يكن غطاء رأس. كان كيسًا إعلانيًا مكتوبًا عليه أرز بسمتي سورايا. كان جولكاك هادئًا وبدا أنه مصاب إصابات جسيمة. لم يكن بوسعه الجلوس بغير دعم. فكان جنديان يسندانه. وتمنّت تِلُو لو أنه يفقد الوعي.

مضى الموكب في الاتجاه الذي مضى فيه قارب موسى من قبل. محاذيًا صفًا لا نهائيًا من العوامات الخاوية المعتمة، ثم مُتجهًا إلى ما بدا أشبه بمستنقع.

لم يتكلم أحد، ولوهلة ساد الصمت إلا من طنين محركات القوارب ومواء هرّة كتيب كان يملأ الليل مثيرًا انزعاج الجنود. بدا أن المواء ينتقل معهم، وإن لم تبدُ علامة على وجود هرّة في القارب، إلى أن عثر عليها أخيرًا، خاتم المهرجة، في جيب جُلريز. انتزعها جندي من جيبه وأطاح بها في البحيرة كأنها بعض القمامة. طارت في الهواء، صارخة، مكشرة عن أنيابها فاردة مخالبها الصغيرة، مستعدّة للنيل من الجيش الهندي كله وحدها. غرقت دونما صوت. وتلك كانت نهاية بيواكوف آخر لم يعرف كيف يعيش في ظل احتلال. (نجا أخوها أغا، وإن لم يُتأكد قط هل نجا كمتواطئ، أم كمواطن عادي، أم كمجاهد).

كان القمر عاليًا، وعبْر دغل الغاب كانت تِلُو ترى أشباح عوامات أصغر كثيرًا من العوامات المقامة للسياح. بناء خشبي متداع يواجهه ممشى خشبي مزعزع، هو سوقٌ منعزلٌ لم يرَ الزبائن منذ سنين، مُقامٌ فوق حدّ الماء على الدعائم الخشبية المتعفّنة. المحلات عبارة عن صيدلية ومتجر آبه وان ليديز والعديد من متاجر المصنوعات اليدوية المحلية، وكلها مغلقة بألواح خشبية. قوارب صغيرة راسية على ضفاف ما بدا أشبه بجزر مستنقعات تتناثر فيها بيوت خشبية قديمة خربة. والعلامة الوحيدة على أن الصمت المخيم على المستنقع لم يكن خاليًا تمامًا من البشر هو طقطقة أجهزة المذياع ونتفٌ بين الحين والآخر من

أغنيات تنساب من الأشباح المغلقة المسيَّجة. كان القارب منخفضًا في الماء. فذلك الجزء من البحيرة كان عامرًا بالطحالب حتى بدا شكله سرياليًا، فكأنهم كانوا يمخرون مرجًا سائلاً معتمًا. كانت بقايا سوق الخضراوات الصباحي طافية حولهم في كل اتجاه.

وكلُّ ما كانت تفكر فيه تِلُو هو قارب موسى الصغير الذي سلك المسار نفسه قبل أقلّ من ساعة. قاربه لم يكن فيه محرك.

أرجوك يا رب، كائنًا من تكون، وأينما تكون، أبطئ حركتنا. امنحه وقتًا للفرار. يبطء يبطء يبطء يبطء يبطء يبطء...

ثمة من سمع دعاءها واستجاب له. ومستبعدٌ أنه كان إلهًا.

وقف أمريك سنج ـوكان في القارب نفسه مع تِلُو وجُلريزـ فأشار للقوارب المرافقة قاصدًا أن يوجِّهها إلى الاستمرار في التقدم. وما كادت تذهب، حتى وجَّه سائق القارب الذي يقلّهم إلى الانعطاف يسارا نحو ممرّ مائي بالغ الضيق أرغمهم على البطء حتى باتوا كمن يشقون طريقهم وسط عيدان الغاب. وبعد عشر دقائق من الاختناق خرجوا إلى المياه الفسيحة مرة أخرى. فانعطفوا مرة أخرى إلى اليسار. وأوقف السائق المحرك ورسا. وما تلا ذلك بدا عملاً مألوفًا. فلم يبدُ أن أحدًا بحاجة إلى تعليمات. رُفع جُلريز وسُحب لمسافة قدمين في الماء حتى بلغوا به الشاطئ. وبقي جندي في القارب مع تِلُو. بينما خاض البقية الماء إلى الشط بمن فيهم أمريك سنج. رأت تِلُو ملامح بيت كبير خرب، تداعى

سقفه وسطع القمر عبر عوارض هيكله العظمي فلاح في ظلام الليل قلبًا منيرًا في قفص صدري بارز العظام.

طلقة أعقبها انفجار عابر أفزعت الطيور في أعشاشها الأرضية. فامتلأت السماء لوهلة بطيور البلشون والغاق والزقزاق واللابوبنج تتصايح كأنما طلع النهار. ولم يكن ذلك إلا اصطناعًا منها، فسرعان ما حطّت في هدوء. كانت الحركة في الأوقات الشاذة وأصوات الاحتلال غير المعتادة قد باتت روتينًا بالنسبة لها. لما رجع الجنود لم يكن ثمة جُلريز. إن هو إلا كيسٌ ثقيل عديم الشكل يحملونه. كيسٌ يحتاج رفعه إلى أكثر من رجل واحد.

وبهذه الطريقة فإن السجين الذي غادر القارب باسم جولكاك آبرو رجع بوصفه بقايا القائد جُلريز المخيف الذي يعود اعتقاله وقتله على قاتليه بثلاثمئة ألف روبية.

وبذلك بلغت حصيلة اليوم ثمانية عشر وواحدًا.

رجع أمريك سنج إلى القارب، فاستقرّ فيه، جالسًا هذه المرة في مواجهة تِلُو مباشرة: "تكونين من تكونين، أنت الآن متهمة بالتواطؤ مع إرهابي. ولكنك لن تتعرّضي لأذى إن أخبرتنا بكل شيء". كان يتكلم بلطف، وبالهندية. "خذي وقتك. لكننا نريد جميع التفاصيل. كيف عرفتِهِ؟ إلى أين ذهبتِ؟ بمن التقيتِ؟ كل شيء. خذي وقتك. ويجب أن تعلمي أننا نعرف كل هذه التفاصيل سلفًا. فما تقولينه ليس مساعدة لنا، إنما هو اختبار لك".

نفس العينين السوداوين الخاويتين الضحلتين اللتين تظاهرتا بالضحك بعد تظاهر صاحبهما أنه نسي المسدس في بيت موسى هما اللتان مضتا تحملقان في تِلُو وسط مستنقع غارق في نور القمر. نظرة بعثت في دمها شيئًا، غضبًا مكتومًا، دافعًا انتحاريًّا عنيدًا. عزيمة غبية على ألا تقول أي شيء، مهما يكن.

ومن حسن الحظ أن عزيمتها تلك لم تُختبر، فلم يصل الأمر قط إلى تلك الدرجة.

دامت رحلة القارب عشرين دقيقة أخرى. كانت عربة جيبسي مدرعة وشاحنة عسكرية مفتوحة مركونتين أسفل شجرة، في انتظار أن تقلّهم إلى شيراز. وقبل ركوبهم، نزع أمريك سنج الكمامة عن فم تِلُو، لكنه ترك يديها مقيَّدتيْن.

في بهو السينما، المزدحمة ازدحام محطة أتوبيس حتى في تلك الساعة، سُلِّمت تِلُو لـ آيه سي بي بينكي بعد إيقاظها للتعامل مع تلك السجينة غير المعتادة. لم يجرِ تسجيل الاعتقال. بل ولم يسألوا السجينة ما اسمها. مضت بها آيه سي بي بينكي عابرة مكتب الاستقبال الذي ترك عليه موسى قبل تسعة أشهر زجاجة ويسكي ريد شتاج التي أعطاها له أمريك سنج، عبرت بها إعلانات شوكولاته كادبوري وآيس كريم كواليتي وملصقات باهتة لأفلام تشاندني، ومين نى بيار كيا، ويَرِنده وأسد الصحراء. مضتا تدوران وسط أحدث دفعة من المقيدين المضروبين ووسط سلال القمامة الأسمنتية المقامة على شكل حيوانات الكنجارو إلى أن دخلتا قاعة

المرض، فعبرتا ملعب كرة الريشة المرتجل، وخرجتا من أقرب الأبواب إلى الشاشة ثم عبرتا بابًا آخر مُفضيًا إلى الفناء الخلفي. وثمة كان عدد غير قليل جدًا من النظرات المسرورة والتعليقات البذيئة المكتومة بينما المرأتان ماضيتان في طريقهما إلى مركز استجواب شيراز الرئيسي.

كان مبنى مُستقلاً. غرفة مستطيلة طويلة لا يميّزها شيء، وأوضح ما فيها رائحتها المتننة. رائحة بول وعرق تحت طبقات من رائحة الدم القديم الثقيلة. وبرغم أن اللافتة المُعلّقة بالخارج كان مكتوبًا عليها مركز الاستجواب، فقد كانت الغرفة في حقيقتها مركز تعذيب. و"الاستجواب" في كشمير لم يكن فئة محددة. فقد كان هناك "التحقيق"، وهو بعض الصفعات والركلات، ثم الاستجواب ومعناه التعذيب.

كان للغرفة باب واحد ولا شبابيك. مضت آيه سي بي بينكي إلى طاولة في الركن، فأخرجت من درج فيها بضع ورقات خاوية وقلمًا ورمتها جميعًا على الطاولة.

"لا داعي لأن نهدر وقتنا. اكتبي. سأرجع خلال عشر دقائق".

فكت قيود يدي تِلُو وخرجت مغلقة الباب من الخارج.

تريّثت تِلُو إلى أن تبدّد الخدر واستأنف الدم طريقه إلى أصابعها قبل أن تتناول القلم. فشلت محاولاتها الثلاثة الأولى للكتابة. كانت يداها

ترتعشان بشدة حتى عجزت هي نفسها عن قراءة ما تكتبه. أغمضت وتذكرت دروس التنفس. وأفلح ذلك. كتبت بخط واضح:

من فضلكم اتصلوا بالسيد بيلاب داسجُبتا، نائب مدير قسم في المخابرات الهندية

أبلغوه هذه الرسالة: ج ا ر س و ن ه و ب ا ر ت

فيما كانت تنتظر رجوع آيه سي بي بينكي، أخذت تتفحّص الغرفة. بدت لها للوهلة الأولى أشبه بمخزن بدائي، مزود بنضدي نجارين عليهما مطارق ومفكات وزرديّات وحبال وأشياء بدت شبيهة بأعمدة خرسانة متقلصة، وخراطيم، وحوض ماء وسخ، وجركن جاز، وأقماع معدنية، وأسلاك، ومشتركات كهربائية، ولفائف سلك، وأقطاب من جميع القياسات، ومسحاتان، وعتلات.

على أحد الأرفف برطمان مسحوق الفلفل الأحمر الحار. والأرض مغطاة بأعقاب سجائر. كانت تِلُو قد تعلمت خلال الأيام العشرة الماضية ما يكفيها لتعرف أن هذه الأشياء العادية قابلة تمامًا للاستعمال في أغراض استثنائية.

كانت تعرف أن الأعمدة هي آلات أحبّ أنواع التعذيب في كشمير. كانت تستعمل كـ"بكرات" على المساجين الذين يقيلون على الأرض ويدحرج رجلان الأعمدة عليهم لتسحق عضلاتهم سحقًا. في أكثر

الحالات كان إجراء الدحرجة هذا يؤدي إلى فشل كلوي حاد. والحوض كان يستعمل في الإيهام بالغرق، والزرديات لنزع الأظافر، والأسلاك لصعق أعضاء الرجال الجنسية بالكهرباء، ومسحوق الفلفل يوضع عادة على القضبان الحديدية قبل أن تو لج في مؤخرات المساجين، أو تذاب في الماء الذي يصبّ في حلوقهم. (بعد سنين، سوف تبدي امرأة أخرى، هي لافلين، زوجة أمريك سنج، معرفة وثيقة بهذه الأساليب في الطلب الذي تقدمه للجوء إلى الولايات المتحدة. وذلك المخزن تحديدًا هو الموقع الذي شهد بحثها الميداني، لولا أنها لم تزره زيارة ضحية، بل كزوجة لكبير المسؤولين عن التعذيب تقوم بجولة في مكان عمل زوجها).

رجعت آيه سي بي بينكي مع الرائد أمريك سنج. رأت تِلُو على الفور من لغة جسديهما والحميمية التي يتكلمان بها أنهما أكثر من مجرد زميلين. تناولت آيه سي بي بينكي الورقة التي كتبتها تِلُو وقرأتها بصوت مرتفع، ببطء وبشيء من الصعوبة. بدا واضحًا أن القراءة ليست نقطة قوتها. تناول أمريك سنج الورقة منها ورأت تِلُو تعبير وجهه يتغير.

"ما علاقته بك، هذا الـ داسجُبتا؟"

"صديق"

"صديق؟ كم عدد الرجال الذين تنامين معهم في الوقت الواحد؟" كان هذا سؤال آيه سي بي بينكي.

لم تقل تِلُو شيئًا.

"طرحت عليك سؤالاً. كم عدد الرجال الذين تنامين معهم في الوقت الواحد؟"

أثار صمت تِلُو بالوعة سباب طافحة بالكلمات المتوقعة (التي ميزت بينها تِلُو "يا سودا" و"قحبة" و"جهادية") ثم طُرح السؤال من جديد. ولم يكن لصمت تِلُو المستمر علاقة بالشجاعة أو التصميم. بل لأنه ما من خيار. كان دمها قد توقف عن الجريان.

لاحظت آيه سي بي بينكي ابتسامة متكلفة على وجه أمريك سنج. كان واضحًا أنه على نحو ما معجب بالتحدي القائم. قرأت في ذلك التعبيرِ الكثيرَ مما أثار في نفسها السخط. خرج أمريك سنج من الغرفة بالورقة. والتفت عند الباب قائلاً:

"توصَّلي إلى ما تقدرين عليه. لا أريد آثار إصابات. هذا ضابط كبير، الشخص الذي كتبت اسمه. سأتحقَّق من المسألة. قد تكون هراء. لكن لا أريد آثار إصابات حتى ذلك الحين".

تلك كانت مشكلة لآيه سي بي بينكي. لم تكن لديها خبرة في ذلك المجال، فلم تكن معذِّبة دارسة، بل اكتسبت الصنعة بالممارسة، في الميدان، وعدم ترك آثار لم تكن من بين المزايا الممنوحة للكشميريين. لم تصدق أن تعليمات أمريك سنج لها أي علاقة بضابط كبير. لقد فهمت نظرة عينيه، وكانت تعرف ما الذي يجذبه في النساء. وكان في اضطرارها إلى كبت نفسها نيلٌ من كرامتها فزاد ذلك مزاجها تعكّرًا. لم تودّ

صفعاتها وركلاتها (المصنَّفة في فئة "التحقيق") إلى استخراج شيء من معتقلتها إلا صمتًا مطبقًا خاليًا من التعبير.

استغرق أمريك سنج أكثر من ساعة إلى أن عرف مكان بيلاب داسجُبتا وتكلَّم معه عبر الخط الساخن في نزل ضيافة الغابة في داشيجام. وكان مجرَّد وجوده ضمن حاشية الحاكم في إجازته مدعاة لإنذار حقيقي. لم يكن من شك في أن المرأة تعرفه. وتعرفه جيدًا. فقد بدا أن نائب مدير القسم في المخابرات الهندية يعرف تمامًا ماذا يكون ج ا ر س و ن ه و ب ا ر ت. ولكن الحيوان المفترس الكامن بداخل أمريك سنج اشتمّ رائحة تردّد، بل وفقدانًا للثقة بالنفس. علم أنه قد يتعرَّض لمشكلة أكبر، وأضخم، ولكن الوقت لم يفُتْ لتفاديها إن هو أطلق سراح المرأة دون أن يلحق بها أذى. كان لديه مجال للمناورة. سارع بالرجوع إلى غرفة الاستجواب ليمنع أيَّ أذى إضافي. كان قد تأخر قليلاً، لكن الوقت لم يكن قد فات.

عثرت آيه سي بي بينكي على طريقة رخيصة نمطية تحتال بها على مشكلتها. تذكَّرت العقاب البدائي للمرأة التي لا بد من تلقينها درسًا. لم يكن لرغبتها في الانتقام علاقة تذكر بمكافحة الإرهاب أو بكشمير كلها، باستثناء أن المكان كان حاضنة لشتى أنواع الجنون.

كان محمد شوبهان هجام، حلاق المعسكر، يغادر الغرفة بينما يسارع أمريك سنج بالدخول.

كانت تِلُو جالسة على مقعد خشبي موثقة الذراعين، وشعرها الطويل على الأرض، مبعثر الخصلات، لم يعد شعرها، مختلطًا بالتراب

وأعقاب السجائر. بينما كان شويهان هجام يقصّ شعرها، أمكنه أن يهمس في أذنها "آسف يا مدام، آسف جدًا".

نشب بين أمريك سنج وآيه سي بي بينكي شجار عشاق أوشك أن يصل إلى تبادل اللكمات. عبس وجه بينكي ولم يخل من تحدٍّ.

"أرني قانون منع حلق الشعر".

فكَّ أمريك سنج وثاق تِلُو وساعدها على النهوض. واستعرض وهو يزيل الشعر عن كتفيها، واضعًا يده الضخمة على فروة رأسها كمن يحميها، كجزار يبارك. ولسوف تنقضي سنوات على تِلُو قبل أن تتجاوز قذارة تلك اللمسة. بعث يطلب لها قبعة لتغطي رأسها. وفيما كانوا في انتظارها قال "آسف على هذا. ما كان ينبغي أن يحدث. لقد قرَّرنا الإفراج عنك. ما حدث قد حدث. فإذا لم تتكلمي لن أتكلم. وإذا تكلمت سأتكلم. ولو تكلمت أنا فأنت وصديقك الضابط ستكونان في مأزق كبير. التعاون مع الإرهابيين ليس مسألة هينة".

وصلت القبعة مع علبة وردية من مسحوق تالك دريمفلاور. وضع أمريك سنج المسحوق على فروة رأس تِلُو الحليقة. وكانت رائحة القبعة أبشع من رائحة سمكة ميتة. لكنها سمحت له أن يضعها على رأسها. خرجا من مركز الاستجواب، فعبرا الفناء، وصعدا سلم الطوارئ إلى مكتب صغير. كان خاويًا. قال أمريك سنج إنه مكتب إشفاق مير من مجموعة العمليات الخاصة، ونائب قائد المعسكر. قال إنه في عملية

بالخارج، لكنه سوف يرجع بسرعة ليسلّمها للشخص الذي بعثه السيد بيلاب داسجُبتا.

رفضت تِلُو بأدب اقتراح أمريك سنج بأن يأتيها بالشاي أو حتى بالماء. تركها في الغرفة، وقد بدا عليه بوضوح مدى لهفته إلى انتهاء تلك الحلقة كلها. ولم تره بعدها، إلى أن فتحت جرائدها الصباحية بعد مرور أكثر من ست عشرة سنة على خبر يقول إنه أطلق الرصاص على نفسه وعلى زوجته وأبنائهما الثلاثة في منزلهم ببلدة صغيرة في الولايات المتحدة. صعب عليها أن تربط صورة الجريدة بالوجه البدين الحليق ذي العينين المرعبتين الذي اغتال جولكاك ثم في اهتمام، بل وبحنان، وضع بودرة التلك على رأسها.

انتظرت في المكتب الفارغ، محملقة في السبورة البيضاء التي كتبت عليها أسماء بجانب كل منها ملاحظة تقول إنه (قُتل)، (قُتل)، (قُتل) وملصق على الجدار مكتوب فيه:

نحن نتبع قواعدنا الخاصة
نحن الضواري
القتلة بكل سلاح
مروّضو الأنهار
اللاعبون بالعواصف
نعم نحن ما تظن فينا

نحن العسكر.

كان ذلك قبل ساعتين من دخول ناجا من الباب متبوعًا بإشفاق مير المبتهج مصحويًا برائحة الكولونيا. استغرق إشفاق مير ساعة أخرى ليكمل مسرحية مقاتل لشكر الجريح الذي كان جزءًا من صفقته، ولتقديم الأومليت والكباب، ولإكمال إجراءات "التسليم". وعلى مدار الاجتماع وعلى طول الطريق إلى أدهوس عبر الشوارع الخاوية بينما ناجا يمسك يدها، لم تستطع أن تفكّر في شيء إلا رأس جولكاك المتدلّي في كيس أرز سورايا البسمتي (لسبب ما كان مقبضا الكيس، مقبضاه بالذات، يبدوان مستهينين استهانة شيطانية) وموسى المستلقي في قاع القارب مغطّى بالسلال الخاوية، والقارب ماضٍ به إلى الأبد.

كان ناجا بمنتهى الاحترام قد حجز لها غرفة بجواره في أهدوس. سألها إن كانت تريده أن يبقى معها ("بمنتهى العلمانية" على حد تعبيره) فلمّا قالت لا، عانقها وأعطاها قرصين منوّمين ("أم تفضّلين سيجارة حشيش؟ عندي واحدة ملفوفة وجاهزة"). واتصل يطلب من خدمة الغرف أن تأتي إليها بدلوي ماء ساخن. تأثرت تِلُو بهذا الاعتناء، وهذا الجانب طيب القلب من شخصيته. لم تكن لَمَسَتْه فيه من قبل. ترك لها من ثيابه قميصًا مكويًا وبنطالاً في حال ما إذا أرادت تغيير ثيابها. واقترح أن يركبا طائرة العصر إلى دلهي. قالت إنها سوف تبلغه برأيها. وكانت تعرف أنها لا يمكن أن ترحل دون أن تسمع أخبارًا من موسى. لا يمكنها. وكانت تعرف أن رسالة سوف تأتي. بطريقة أو بأخرى. استلقت

على سريرها عاجزة عن الإغماض، خائفة أن يطرف لها جفن، متحسّبة لما قد يتراءى لها. كان بداخلها جزء لم تعرفه من قبل لكنه جعلها راغبة في الرجوع إلى شيراز لخوض قتال عادل مع آيه سي بي بينكي. كان إحساسًا شبيهًا بالرغبة في قول ردّ مُفحِم بعد مضي وقت طويل على لحظته المناسبة. أدركت أن الأمر أيضًا فيه رخص وضاعة. لم تكن آيه سي بي بينكي غير امرأة تعيسة عنيفة. لم تكن كلب البحر، لم تكن آلة قتل. ففيم إذن وهم الانتقام الضال؟

فقدت شعرها. ولن يحدث مرة أخرى أن تطيله. في ذكرى جولكاك.

في قرابة العاشرة صباحًا سمعت طرقة خافتة للغاية على باب غرفتها. فكّرت أنه قد يكون ناجا، لكنه كان خديجة. لم تكن إحداهما تعرف الأخرى إلا لمامًا، ومع ذلك لم تكن تِلُو لتفرح برؤية شخص في العالم فرحتها برؤيتها (وموسى بالطبع). شرحت خديجة بسرعة كيف عثرت على تِلُو "نحن أيضًا لنا ناسنا". في هذه الحالة كان من بين ناسهم أحد سائقي القوارب في حملة التطويق والتفتيش وأشخاص في العوامات المجاورة. وعلى طول الطريق، ظلوا يتناقلون المعلومة بينهم، في وقت حدوثها تقريبًا. وفي سينما شيراز كان من ناسهم محمد شوبهان هجام الحلاق. وفي أهدوس كان لهم أحد الخدم.

كانت خديجة آتية بخبر. أعلن الجيش عن اعتقال وقتل المقاتل المخيف القائد جُلريز. موسى كان لا يزال في سري نجر. وسيحضر

الجنازة. وستحضر أيضًا جماعات عديدة لتحية القائد جُلريز بالسلاح. ستكون حركتهم آمنة بسبب وجود عشرات آلاف الناس في الشوارع. فسيكون لزامًا على الجيش أن يتراجع لكي لا نكون مجزرة عارمة. وكان ينبغي أن تذهب معها تِلُو إلى منزل آمن في خانقاه المولى وهناك يقابلها موسى بعد الجنازة. قال إن الأمر مهم. أحضرت خديجة لتِلُو بعض الثياب النظيفة. قميصًا، وسروالاً، وفيرانًا، وحجابًا أخضر ليمونيًا. الطريقة الواقعية التي كانت تتكلم بها خديجة أخرجت تِلُو من غرقها في مستنقع إشفاقها على نفسها. ذكّرتها أنها بين أناس لا تمثّل لهم محنتها على مدار الليلة السابقة إلا حياتهم الطبيعية.

جاء الماء الساخن. استحمت تِلُو وارتدت ثيابها الجديدة. علّمتها خديجة كيف تثبت الحجاب بالدبابيس حول وجهها. جعلها تبدو في جلال ملكة حبشية. أحبّته، برغم أنها كانت تفضّل عليه كثيرًا شعرها هي. شعرها الغابر. وضعت تِلُو رسالة أسفل باب ناجا تقول فيها إنها سوف ترجع بحلول المساء. وخرجت المرأتان من الفندق إلى شوارع المدينة التي دبّت فيها الحياة فقط حينما صار عليها أن تدفن موتاها.

فجأة استيقظت مدينة الجنازات، ودبّت فيها الحركة، والنشاط. الحركة في كل مكان. الشوارع جميعها روافد، أنهار صغيرة من الناس، كلُها تجري باتجاه المصبّ: مزارِ شهدا. جماعات صغيرة، وجماعات هائلة، ناس من المدينة القديمة، ومن المدينة الجديدة، ومن القرى ومن مدن أخرى، توافدوا بسرعة. حتى في الأزقة الصغيرة الضيقة، كانت جماعات النساء والرجال بل والأطفال الصغار يهتفون آزادي.

وعلى طول الطريق أقام الشباب نقاطًا لمياه الشرب ومطابخ صغيرة لإطعام الوافدين من الأماكن البعيدة. وفيما كانوا يوزّعون الماء، ويملأون الأطباق، وفيما كان الناس يأكلون ويشربون، وفيما كانوا يتنفسون ويمشون، وعلى وقع طبول لا يسمع قرعها إلا آذانهم، كانوا يهتفون: آزادي، آزادي.

بدا أن في رأس خديجة خريطة تفصيلية لشوارع مدينتها الخلفية. فأثار ذلك إعجابًا هائلاً لدى تِلُو (إذ كانت تفتقر شخصيًا إلى تلك المهارات). سارتا في طريق طويل كثير الالتفافات. وكان هتاف آزادي قد صار انفجارًا مدويًا بدا أشبه بعاصفة قادمة. (جارسون هوبارت كان مختبئًا في جحر بداشيجام مع حاشية الحاكم عاجزًا عن الرجوع إلى المدينة إلى أن يتمّ تأمين الشوارع، ويسمع ذلك على الهاتف إذ تقرّبه سكرتيرته من الشارع). بعد تسعة أشهر من جنازة الآنسة جِبِن، ها هي جنازة أخرى. وفيها هذه المرة تسعة عشر نعشًا. أحدها خاوٍ، للصبي الذي سرق الإخوان جثته. وفي نعشٍ آخر بقايا رجل ضئيل زمردي العينين ماضٍ في طريقه إلى ملاقاة سلطان، حبيبه البيواكوف، في الجنة.

قالت تِلُو لخديجة "أريد أن أحضر الجنازة".

"يمكننا هذا. لكنها مخاطرة. فقد نتأخر. ثم إننا لن نقترب إطلاقًا. فليس مسموحًا للنساء بالاقتراب من المقبرة. يمكن أن نزورها في ما بعد، بعد أن يرحل الجميع".

ليس مسموحًا للنساء. ليس مسموحًا للنساء. ليس مسموحًا للنساء.

أكان ذلك حماية للمقبرة من النساء، أم حماية للنساء من المقبرة؟

لم تسأل تِلُو.

بعد خمس وأربعين دقيقة من الدوران أوقفت خديجة السيارة وسارتا بسرعة عبر متاهة من الشوارع الملتوية الضيقة في جزء من المدينة بدا مترابطًا بطرق عديدة، بعضها تحت الأرض وبعضها فوقها، بعضها رأسي وبعضها أفقي، بعضها شوارع وبعضها أسطح بيوت وممرات سرية، كأن كل ذلك عضو واحد في جسد. كأنه عشب مرجاني هائل، أو عش نمل لا نهائي.

قالت خديجة "هذا الجزء من المدينة لا يزال لنا. لا يستطيع الجيش الوصول إليه".

خَطَتَا إلى مدخل خشبي صغير بعده غرفة خاوية مفروشة بسجادة خضراء. حيّاهما شاب بوجه غير مبتسم وأشار لكلتيهما بالدخول. سار بهما مسرعًا عبر غرفتين وبينما هم في الثالثة فتح ما بدا خزانة ضخمة. كان ثمة باب مسحور وراءه سلم ضيق منحدر يفضي إلى قبو سري. تبعت تِلُو خديجة على السلم. لم يكن في الغرفة أثاث، بل حشيّتان على الأرض وبضع وسائد، وتقويم سنوي على الجدار لكن عمره سنتان. كانت حقيبتُها موضوعة في ركن، بعدما خاطر شخص ما بإنقاذها من ع و شاهين. نزلت شابة على السلم وفرشت مفرشًا بلاستيكيًا. وجاءت امرأة أكبر سنًا تتبعها بصينية شاي وأكواب وطبق بسكويت وطبق

شرائح كعكة إسفنجية. احتضنت بيديها وجه تِلُو وقبلتها على جبهتها. لم يدُر كلام كثير، ولكن الأم وابنتها بقيتا في الغرفة.

عندما انتهت تِلُو من شايها، ربّتت خديجة على الحشية التي كنّ يجلسن عليها.

"نامي. ستمرّ على الأقل ساعتان أو ثلاث قبل أن يأتي إلى هنا".

استلقت تِلُو فغطّتها خديجة بلحاف. مدّت تِلُو يدها ممسكة يد خديجة أسفل اللحاف. في السنوات التالية ستصبحان صديقتين حميمتين. أغمضت تِلُو. وكان همس النساء بلغة لا تفهمها أشبه بالبلسم على بشرة يابسة.

كانت لم تزل نائمة عندما جاء موسى. تربّع جالسًا بجوارها، مطلاً على وجهها النائم لوقت طويل، راجيًا لو أن باستطاعته إيقاظها في عالم آخر أفضل. كان يعلم أن وقتًا طويلاً سوف يمرُّ قبل أن يراها مرة أخرى. وفقط إن حالفهما الحظ.

لم يكن الوقت المتاح كبيرًا. فقد كان عليه أن يغادر بينما التيار جارف والشوارع لا تزال ملكًا للناس. أيقظها بأرقّ ما كان في وسعه.

"حبيبتي، استيقظي".

فتحت عينيها وجذبته ليستلقي بجوارها. ولوقت طويل لم يتبادلا كلامًا. على الإطلاق.

قال موسى "أنا قادم للتوّ من جنازتي. أطلقت لنفسي إحدى وعشرين طلقة".

ثم بصوت لم يعلُ مطلقًا على الهمس، فكلّما ارتفع ولو قليلاً عاد فانكسر ثانية تحت ثقل ما كان يحاول قوله، حكت له تِلُو ما جرى. لم تنس شيئًا. أيَّ شيء. لا صوت. ولا إحساس. ولا كلمة قيلت أو حبست.

قبّل موسى رأسها.

"هم لا يعرفون ما الذي فعلوه. لا يعرفون مطلقًا".

ثم حان وقت رحيله.

"حبيبتي. اسمعيني جيدًا. عندما ترجعين إلى دلهي، عليكِ مهما تكن الظروف ألا تبقي وحيدة. هذا في غاية الخطورة. ابقي مع أصدقاء... ربما مع ناجا. ستكرهين مني أن أقول ذلك، لكن إما أن تتزوجي أو ترجعي إلى أمك. أنت بحاجة إلى غطاء. لفترة على الأقل. إلى أن نتعامل مع كلب البحر. سنفوز في هذه الحرب، ويمكننا حينئذ أن نكون معًا، أنت وأنا. سألبس أنا الحجاب، مع أن شكلك جميل فيه، وسوف يمكنك أنت أن تحملي السلاح . اتفقنا؟"

"اتفقنا".

وطبعًا لم تسر الأمور على ذلك النحو.

قبل أن يذهب موسى، أعطى تِلُو مظروفًا مغلقًا.

"لا تفتحيه الآن. خودا حافظ".

سنتان سوف تمضيان قبل أن تراه من جديد.

لم تكن الشمس قد غربت حينما ذهبت خديجة وتِلُو إلى مزارِ شهدا. كانت مقبرة القائد جُلريز بارزة وسط بقية المقابر، وقد انتصب عليها إطار صغير من البامبو، مزخرف بخيوط من الفضة وخيوط من الذهب وعلم أخضر. كان القبر ضريحًا مؤقتًا لمقاتل محبوب من أجل الحرية، واحد ممن باعوا يومهم ليشتروا الغد للشعب. كان رجلٌ ينظر إليه من بعيد والدمع ينساب على وجهه.

قالت خديجة بصوت مكتوم "هذا مقاتل سابق. قضى سنين في السجن. مسكين، يبكي الشخص الخطأ".

قالت تِلُو "ربما لا، العالم كله يجب أن يبكي جُلريز".

نثرتا بتلات الورد على قبر جولكاك وأوقدتا شمعة. عثرت خديجة على مقبرتي عارفة والآنسة جِبين الأولى، ففعلتا معهما مثل ذلك. قرأت لتِلُو النقش المكتوب على قبر الآنسة جِبين:

الآنسة جِبين

٢ يناير ١٩٩٢ . ٢٢ ديسمبر ١٩٩٥

ابنة عارفة وموسى يسوي الحبيبة

والنقش شبه المختفي تحته

آخ دليلا وان
يِنتث مانز نِي كان بالاي آسي
نا إيس سوه كوني جونجالز مانز روزان

ترجمته خديجة لتِلُو، ولم تفهم أيٌّ منهما ماذا يعني.

طفت في ذهن تِلُو، دونما استدعاء منها، آخر أبيات قصيدة ماندلشتام التي قرأتها لموسى (وتمنت لو أنها لم تفعل).

ويزداد الموت نظافة، وسوء الحظ ملوحةً،

والأرض صدقًا، وبشاعة.

رجعنا إلى أهدوس، فما كانت خديجة لتترك تِلُو قبل أن تراها وقد رجعت إلى غرفتها. ولمّا ذهبت خديجة، اتصلت تِلُو بناجا لتقول إنها رجعت وإنها سوف تنام. ودونما سبب تعرفه، تلت صلاة قصيرة (لا لإله تعرفه) قبل أن تفتح المظروف الذي أعطاه لها موسى.

كان يحتوي وصفة من طبيب لقطرة في الأذن وصورة فوتغرافية لجولكاك، يرتدي قميصًا بلون كاكي، وزي مقاتل، وحذاء موسى العسل طويل الرقبة، مبتسمًا للكاميرا، ويضع حزام ذخيرة جلديًا أنيقًا مُعلَّقًا على كتفيه، وجراب مسدس على فخذه. كان مسلحًا من رأسه حتى قدميه. وفي كل ثقب لرصاصة في الحزام كان ثمة قرن فلفل أخضر، وفي جراب مسدسه فجلة بيضاء بدينة طازجة الورق.

على ظهر الصورة كتب موسى: قائدنا الحبيب جُلريز.

في منتصف الليل طرقت تِلُو باب غرفة ناجا. ففتحه ووضع ذراعيه حولها. قضيا الليل معًا في منتهى العلمانية.

*

لم تتخذ تِلُو احتياطاتها.

فرجعت من وادي الموت تحمل حياة صغيرة.

كانت هي وناجا قد تزوجا منذ شهرين حينما اكتشفت أنها حبلى. لم يكن زواجهما ليوصف بعد بـ"المكتمل". فلم يكن من شكٍّ لديها فيمن يكون والد الجنين. فكّرت أن تترك الحمل. لم لا؟ جُلريز إن جاء ولدًا. وجِبين إن جاءت بنتًا. لم يكن بوسعها أن ترى نفسها أمًّا، أكثر مما كان بوسعها أن ترى نفسها عروسًا، برغم أنها كانت عروسًا. لقد فعلت ذلك وأفلحت. فلم لا تُفلح في هذه أيضًا؟

القرار الذي اتخذته في نهاية المطاف لم تكن له علاقة بمشاعرها تجاه ناجا أو حبِّها لموسى. بل جاء القرار من مكان أكثر بدائية. كانت تخشى على الإنسان الصغير الذي أنتجته أن يضطرَّ إلى معاركة نفس محيط الأسماك الخطرة الغريبة الذي كان عليها هي أن تعاركه في علاقتها بأمها. لم تكن على يقين من قدرتها أن تكون أمًّا أفضل من التي كانت عليها

مريم إيبي. كان تقديرها الواعي لنفسها أنها ستكون أمًّا أسوأ بكثير. لم تشأ أن تبتلي طفلاً بنفسها. ولم تشأ أن تبتلي العالم بنسخة جديدة منها.

كانت النقود مشكلة. كان معها قدرٌ منها، لكنه ليس وافرًا. وكانت قد فُصلت من وظيفتها لكثرة الغياب، ولم تحصل على وظيفة أخرى. ولم ترد أن تطلب مالاً من ناجا. فذهبت إلى مستشفى حكومي.

كانت غرفة الانتظار مليئة ببائسات طردهن أزواجهن من بيوتهم لعجزهن عن الإنجاب، وقد ذهبن إلى المستشفى لإجراء اختبارات خصوبة. فحين علمن أن تِلُو هناك لتجري ما يعرف بـ أ ط ح -إنهاء طبي للحمل- لم يستطعن إخفاء عداوتهن واشمئزازهن. الأطباء أيضًا كانوا رافضين. استمعت لمحاضراتهم بلا اكتراث. وحينما أوضحت أنها لن تغيّر رأيها، قالوا إنهم لا يستطيعون تخديرها كليًّا ما لم يكن بصحبتها من يوقّع إقرار الموافقة، ويفضل أن يكون والد الطفل. طلبت منهم إجراء العملية دون تخدير. وفقدت الوعي من فرط الألم واستيقظت في العنبر العمومي. وكان معها في سريرها شخص آخر. طفل، لديه فشل كلوي، يصرخ من الألم. كان في كلّ سرير أكثر من مريض. وكان بعض المرضى على الأرض، والزوار وأقارب المرضى المزدحمون بدوا مرضى بقدر المرضى. وكان الأطباء والممرضون يشقون طريقهم في عجلة وسط تلك الفوضى. كان عنبرًا أشبه بعنبر في فترة حرب، لولا أن دلهي لم تكن فيها حرب غير الحرب المعهودة: حرب الأثرياء على الفقراء.

نهضت تِلُو ومضت تتعثر في العنبر. ضلّت طريقها وسط طرقات المستشفى الوسخة الغاصّة بالمرضى والمحتضرين. في الطابق الأرضي سألت رجلاً ذا ذراعين مفتولين بدوا وكأنهما ذراعا شخص غيره أن يُرِيَها طريق الخروج. أفضى بها المخرج الذي أشار إليه إلى خلفية المستشفى. إلى المشرحة، وما وراءها، حيث مقابر المسلمين المهجورة التي بدا أنها لم تعد تُستعمل.

كانت الوطاويط تتدلّى من أغصان شجر عجوز ضخم كأنها رايات سود في مظاهرة قديمة. ولم يكن في الجوار أحد. جلست تِلُو على مقبرة مكسورة، محاولة أن تستعيد اتزانها.

ظهر رجل نحيل أصلع يرتدي معطف نادل قرمزيًا على دراجة قديمة تقعقع. كان يثبت على مقعد دراجته الخلفي باقتين من زهرة القطيفة. مضى إلى إحدى المقابر حاملاً زهوره ومنفضة. وبعد أن نظّف المقبرة، وضع الزهور عليها، ووقف صامتًا للحظة، ثم مضى في عجلة.

مشت تِلُو إلى المقبرة. في حدود ما رأت، كانت تلك هي المقبرة الوحيدة التي كُتب على شاهدتها بالإنجليزية. كانت مقبرة الست مدام ريناتا ممتاز، الراقصة الشرقية الرومانية التي ماتت مفطورة القلب.

كان الرجل هو روشان لال في يوم إجازته من روزبد ريست أو بار. رجل سوف تقابله تِلُو بعد سبعة عشر عامًا، حينما ترجع إلى المقبرة مع الآنسة جِبين الثانية. وطبعا لن تتذكّره. ولن تتذكّر المقبرة، فبحلول ذلك الوقت، لن تكون مقبرة مهجورة يسكنها الموتى المنسيون.

ما كاد روشان لال يرحل، حتى استلقت تِلُو على مقبرة الست مدام ريناتا ممتاز. بكت قليلاً ثم غلبها النوم. ولمّا استيقظت شعرت أنها أحسن حالاً وأكثر استعدادًا للرجوع إلى البيت ومواجهة ما بقي من حياتها.

تضمَّن ذلك عشاءً في الطابق الأرضي، مرَّة على الأقل كلَّ أسبوع، مع سعادة السفير شيفاشنكار وحرمه التي كانت آراؤها في كل شيء تقريبا، بما في ذلك كشمير، تجعل يدي تِلُو ترتعشان فتتصادم أدوات مائدتها في طبقها.

كانت تغبية الهند تتسارع لتصل إلى معدّل غير مسبوق، حتى إنها لم تكن بحاجة إلى احتلال عسكري.

وعندئذ تبدّلت الفصول. وقال م: 'هذه أيضًا رحلة، وليس
لهم أن يعدوها عنا'.

نادجدا ماندلشتام

١٠

وزارة السعادة القصوى

سرعان ما ذاع خبرٌ في أحياء الفقراء بأن امرأة ماهرة انتقلت لسكنى المقابر. توافد آباء الحي لإلحاق أبنائهم بالفصول التي أقامتها تِلُو في نزل ضيافة جنة. كان تلاميذها ينادونها بتِلُو مدام وأحيانا بـ أُستاني جي[٤٥]. ومع أنها ظلت تفتقد نشيد الصباح من تلاميذ المدرسة المواجهة لشقتها، لم تعلِّم تلاميذها إنشاد "سوف تكون الغلبة لنا" بأي لغة، لأنها لم تكن على يقين من أن الغلبة مرجوة في أفق أحد، أيِّ أحد. لكنها علّمتهم الحساب والرسم والكمبيوتر جرافيك (على ثلاثة أجهزة كمبيوتر مكتبية اشترتها مستعملة بأبخس الأسعار)، وقليلاً من أساسيات العلوم، واللغة الإنجليزية، والاختلاف. وتعلّمت منهم الأرديّة وطرفًا من فن السعادة. كانت تعمل طوال النهار، وللمرة الأولى في حياتها، كانت تنام طوال الليل. (والآنسة جِبين الثانية كانت تنام مع أنجم). ومع كل يوم يمر كان إحساسها يقلّ بأن عقلها أحد "مُنْقَذَات" موسى. وبرغم

---

٤٥ أي المعلّمة بالأرديّة

تخطيطها كلّ بضعة أيام لزيارة شقتها فإنها لم تزرها قط منذ أن تركتها. ولا حتى بعدما تلقّت الرسالة التي بعثها جارسون هوبارت من خلال أنجم وصدام حينما ذهبا ليحضرا بعض أغراضها (وبدافع من الفضول إلى أن يريا أين وكيف كانت تعيش المرأة الغريبة التي هبطت على حياتهم كالمظلة). ظلّت تدفع الإيجار في حسابه، وترى ذلك عادلاً، إلى أن نقلت أشياءها من الشقة. ولّما مضت بضعة شهور ولم تصل أخبار من موسى، تركت له رسالة مع بائع الفاكهة الذي جاءها بـ"منقذاته". ولكن لم يصلها خبر عنه. ومع ذلك خفّ قليلاً عبء الخوف الذي حملته سنين طويلة من أن يأتيها على حين غرّة خبر موت موسى. لا لأن حبها له قلّ بأي درجة، بل لأن ملائكة المقبرة البائسة المسؤولة عن مراقبة مهامها البائسة كانت تُبقي بين العالمين أبوابًا مفتوحة (ولم يكن ذلك شرعيًا، فكانت تواربها قليلاً لا أكثر) ليتسنى لأرواح الأحياء والموتى أن تختلط، اختلاط الضيوف في حفل واحد. ذلك كان يجعل الحياة أقلّ حسمًا، والموت أقلّ قطعًا. بطريقة ما أصبح احتمال كل شيء أيسر بعض الشيء.

بتشجيع من النجاح الذي لقيته فصول تِلُو التعليمية وما حقّقته من شعبية، بدأ أستاذ حميد إعطاء دروس الموسيقى من جديد للطلبة الذين كان يراهم واعدين. وكانت أنجم تحضر هذه الدروس كأنها أذان لصلاة. بقيت ممتنعة عن الغناء، لكنها كانت تدندن مثلما كانت تفعل وهي تحاول إقناع زينب الفأرة بتعلم الغناء. وبذريعة مساعدة أنجم وتِلُو في الاعتناء بالآنسة جِبين الثانية (التي كانت تكبر بسرعة، وتزداد شقاوة،

وتلقى تدليلاً كثيرًا) باتت زينب تقضي العصر، والمساء، بل والليل أحيانًا في المقبرة. والسبب الحقيقي ـالذي لم يغب عن أحدـ هو غرامها المشبوب بصدام حسين. كانت قد أنهت دراستها في مدرسة الفنون المتعددة وأصبحت خبيرة في الموضة قصيرة وبدينة تطرِّز الثياب للنساء بالطلب. ورثت مجلات الموضة القديمة من نِمّو الجوركهبورية وبَكَر الشعر وأدوات التجميل التي وُضعت في غرفة تِلُو للترحيب بها يوم جاءت. كان أول إعلان صامت للحب من جانب صدام هو أن سمح لزينب أن تطلي له أظافر يديه وقدميه بالقرمزي وكلاهما يقهقه في وقت واحد. ولم يُزِل الطلاء إلى أن تقشّر من تلقاء نفسه.

كانت زينب وصدام قد جعلا من المقبرة حديقة حيوانات، بل سفينة نوح للحيوانات الجريحة. كان عندهما طاووس صغير لا يجيد الطيران، وطاووسة لا تتركه مطلقًا، فلعلها أمّه. وثلاث بقرات كبيرات ينمن طول النهار. ووصلت زينب يومًا في ريكاشة بمحرك ومعها العديد من الأقفاص الملأى بنحو ثلاثين ببغاء مطلية بطلاءات فاقعة عبثية. كانت قد اشترتها جميعًا في نوبة غضب من بائع طيور تراكمت أقفاص الطيور على خلفية دراجته التي كان يمضي بها في المدينة القديمة. قال صدام إنه لا يمكن إطلاق الطيور بألوانها تلك، وإلا اجتذبت أنظار الجوارح خلال ثوان. وأقام لها قفصًا عاليًا مريحًا امتد بعرض مقبرتين. فكانت الطيور تطير فيه، مشعة في الليل كأنها يراعات بدينة. وسلحفاة صغيرة تخلّص منها البيت الذي كانت تعيش فيه وعثر عليها صدام في حديقة وقد غرس في أحد منخريها عود برسيم، فصار لها حوض طينيٌّ

تخوض فيه وحدها. صار للفرس بايال رفيق، هو حمار أعرج. وكان يُطلَق عليه ماهش بلا سبب يعرفه أحد. وأخذ بيرو يهرم لكن ذريته من الرفيقة لالي تكاثرت ومضت تملأ المكان عبثًا. وقطط عديدة كانت تأتي وتذهب. شأن البشر الذين كانوا يحلون ضيوفًا على نزل ضيافة جنة.

وكانت حديقة الخضراوات القائمة وراء النزل في حالة جيدة هي الأخرى، فتربة المقابر كانت خصبة عتيقة السماد. ومع أن أحدًا لم يكن شغوفًا بأكل الخضراوات (وأقلهم في ذلك زينب)، فقد كانوا يزرعون الباذنجان والفاصوليا والفلفل والطماطم والعديد من أنواع اليقطين فكانت جميعًا تجتذب العديد من أنواع الفراشات برغم الدخان والعوادم المنبعثة من المرور الكثيف على الطرقات المتاخمة للمقبرة. وقد استعين ببعض المدمنين ذوي الأجسام القادرة للمساعدة في رعاية الحديقة والحيوانات. فبدا أنهم يجدون في ذلك شيئًا من العزاء العابر.

أثارت أنجم فكرة احتياج نزل جنة للضيافة إلى حمام سباحة. قالت "لم لا؟ لماذا يكون للأثرياء وحدهم حمامات سباحة؟ لم ليس نحن؟". ولمّا أشار صدام إلى أن الماء عنصر أساسي في حمامات السباحة وأن نقصه سيكون مشكلة، قالت إن الفقراء سوف يمتنّون لوجود حمام سباحة حتى لو لم يوجد فيه ماء. وحفرت حفرة بعمق أقدام قليلة، وبحجم حوض مياه كبير، ووضعت على جوانبه بلاطات حمام زرقاء، وكانت على حق. امتنّ الناس لها. وجاؤوا لزيارتها، ودعوا أن يأتي اليوم الذي (إن شاء الله، إن شاء الله) يمتلئ فيه بالماء الأزرق النظيف.

وكذلك، بصفة عامة، وفي وجود حمام سباحة للناس، وحديقة حيوانات للناس، ومدرسة للناس، كانت الأمور تسير على ما يرام في المقابر القديمة. غير أنه لا يمكن قول مثل ذلك في حق الدنيا.

رجع صديق أنجم، دي دي جُبتا من بغداد، أو مما بقي منها، حاملاً قصص رعب عن حروب ومجازر وقصف وذبح، عن منطقة بأكملها تحوّلت عمدًا إلى جحيم على الأرض. كان سعيدًا أنه لا يزال حيًا ولا يزال لديه وطن يرجع إليه. لم تعد له طاقة على بناء مصدَّات التفجير، ولا على أيِّ مشاريع من أيِّ نوع، وكان يبتهج كلَّما رأى المكان الخرب المهجور الذي تركه حينما ذهب إلى العراق وقد ازدهر وانتعش. كان وأنجم يقضيان ساعات معًا، يثرثران، ويشاهدان الأفلام الهندية القديمة في التليفزيون، ويضعان خططًا جديدة للتوسع والبناء (وكان هو من أشرف على إقامة حمام السباحة). ومن جانبها تخلَّت زوجته السيدة جُبتا عن الحب الدنيوي، وصارت تقضي وقتها كله مع الرب كريشنا في غرفة خصَّصتها للتعبّد.

وكان الجحيم يقترب أيضًا على جبهة الوطن. اكتسح لالاً حبيب الحُجرات الانتخابات وصار رئيس الوزراء الجديد. كان الناس يعبدونه، فبدأت تظهر في البلدات الصغيرة معابد هو إلهها الأكبر. أهداه أحد أنصاره المتفانين سترة مخططة بخيوط صغيرة هي عبارة عن لالاً لالاً لالاً منسوجة في القماش نفسه. فكان يرتديها في استقبال رؤساء الدول. وصار كلَّ أسبوع يوجه خطابًا مباشرًا إلى الشعب عبر بثٍّ إذاعي

عاطفي. كان يزركش رسالته الداعية إلى النظافة والطهر والتضحية من أجل الأمة إما بحكاية أو حدوتة شعبية أو قرار من نوع ما. أشاع ممارسة اليوجا الجماعية في الحدائق. وكان يزور مرّة في الشهر على الأقل حيًا فقيرًا فيكنس الشوارع بنفسه. ومع ارتفاع شعبيته إلى ذروتها، أصابته البارانويا وبات نزّاعًا إلى التكتّم. لم يعد يثق في أحد أو يطلب من أحد نصيحة. صار يعيش وحده، ويأكل وحده، ولا يختلط بأحد. وحمايةً لنفسه استأجر من يتذوّقون له الطعام، وحرسًا من بلاد أخرى. وصارت له إعلانات دراماتيكية وقرارات متطرفة لها تأثيرات بعيدة المدى.

لم تكن المنظمة التي جاءت به إلى السلطة تثق كثيرًا في عبادة الفرد، في حين كانت لها نظرة عميقة للتاريخ، فاستمرّت في دعمه، لكنها كانت تجهز خليفة له في هدوء.

انطلق سراح البيغاوات الزعفرانية بعد طول تربّص وانتظار. فاجتاحت الجامعات والمحاكم واقتحمت الحفلات الغنائية وخرّبت دور العرض السينمائي وأحرقت الكتب. تشكّلت لجنة تعليم بيغائية لصياغة عملية تحويل التاريخ إلى أسطورة والأسطورة إلى تاريخ. دخل عرض الصوت والضوء الخاص بالقلعة الحمراء ورشة التنقيح. وسرعان ما يُنتزع الشعر والموسيقى والعمارة من قرون الحكم الإسلامي لتنهار فلا يبقى فيها غير صليل السيوف وصرخات الحرب الدامية التي لم تدم إلا أطول قليلاً من الضحكة الخشنة التي كانت أستاذة كلثوم بي تُعلّق آمالها

عليها. وبقية الوقت يُخصَّص لقصة المجد الهندوسي. ويصبح التاريخ كحاله دائمًا كشفًا للمستقبل بقدر ما هو درس للماضي.

اهتمت عصابات بلطجة صغيرة أطلقت على نفسها اسم "المدافعون عن العقيدة الهندوسية" بالقرى محققة كل استفادة ممكنة. وكان الساسة المبتدئون يستهلون مسيراتهم بتصوير أنفسهم وهم يلقون خطابات كراهية أو وهم يضربون مسلمين وينشرون هذه الفيديوهات عبر يوتيوب. تحوَّل كلُّ حجٍّ أو مهرجان ديني هندوسي إلى استعراض نصر مستفز. وصارت فرق مسلحة ترافق الحجيج أو المحتفلين في شاحنات أو على دراجات نارية، باحثة عن معارك في أحياء مسالمة. وبدلاً من الأعلام الزعفرانية صارت البيغاوات تتباهى برفع العلم الوطني، وهي حيلة تعلموها من السيد أجراوال وتميمة حظه الغاندية قصيرة العمر في جَنْتر مَنْتر.

أصبحت البقرة المقدسة رمزًا وطنيًّا. ودعمت الحكومة حملات ترويج لبول البقرة (كشراب ومطهّر). وتسرَّبت أخبار من معاقل لالأ عن الجلد العلني للمتهمين بأكل لحم البقر أو قتله، أو إعدامهم في حالات كثيرة.

وفي ضوء تجاربه الحديثة في العراق، رأى السيد دي دي جُبتا بخبرته الواسعة في الحياة، أن كل هذا النشاط سوف ينتهي على المدى البعيد بخلق سوق منتعشة لإقامة مصدَّات التفجيرات.

جاءت نِمّو الجوركهبورية ذات إجازة أسبوعية بحكاية سمعتها وحكتها ضربةً ضربةً عن قريب لصديق جار لها، تعرّض للضرب حتى الموت أمام أهله، على يد جماعة من الناس اتهمته بقتل بقرة وأكل لحمها.

قالت "قد يكون خيرًا لك أن تطردي هذه البقرات العجوز من هنا. فلو ماتت هنا، ولا داعي للو، بل عندما تموت هنا، سيقولون إنك قتلتها وستكون هذه نهايتكم جميعًا. لا بد أن عيونهم على هذا المكان من الآن. هذه هي طريقتهم في هذه الأيام. يتهمونك بأكل لحم البقر ثم يستولون على بيتك أو أرضك ويمشونك إلى مخيم للاجئين. المسألة كلُّها تتعلق بالممتلكات، لا بالبقر. عليكِ أن تكوني في غاية الحذر".

صاح صدام "الحذر بأي طريقة؟ الطريقة الوحيدة للحذر مع أولاد القحبة هؤلاء هو أن نتوقف عن الوجود. إذا أرادوا قتلك فسوف يقتلونك مهما كان حذرك أو طيشك، سواء أقتلت بقرة أم لم تقتلي، سواء أنظرت حتى إلى بقرة أم لم تنظري". تلك كانت المرة الأولى التي يراه أحد فيها وقد فقد أعصابه. فزع الجميع. لم يكن أحد منهم يعرف قصته. فأنجم لم تحكها لأحد. أنجم التي كانت في حفظها للأسرار لا تقل عن بطلة أولمبية.

في يوم الاستقلال، جلس صدام بجوار أنجم على أريكة السيارة الحمراء مرتديًا نظارته الشمسية، وقد بات ذلك طقسهما الخاص بذلك

اليوم. أخذ يتنقل بين قناتين في إحداهما لالاً الجُجرات يلقي خطابًا قتاليًا في القلعة الحمراء وفي الأخرى مظاهرة شعبية حاشدة في الجُجرات حيث اجتمع آلاف الناس -وقوامهم من الدَّلِت- في مقاطعة تدعى أونا للاحتجاج على الجلد العلني لخمسة من الدَّلِت تم إيقافهم في الطريق لاصطحابهم جثة بقرة إلى شاحنتهم. ما كانوا قد قتلوا البقرة. فقط اصطحبوا الجثة، مثلما سبق أن فعل والد صدام قبل كل تلك السنين. ولمّا عجز الخمسة عن احتمال مذلة ما وقع عليهم فقد حاولوا جميعًا الانتحار، وأحدهم نجح.

قالت أنجم "في البداية حاولوا القضاء على المسلمين والمسيحيين. والآن يحاولون القضاء على التشمار".

قال صدام "بل العكس". ولم يوضّح قصده، بل نظر مبهورًا إلى المتحدث تلو المتحدث في المظاهرة وهم يقسمون ألا ينقلوا جثة بقرة من بقر طبقات الهندوس العليا.

ما لم ينقله التليفزيون هو عصابات البلطجية التي تمركزت على الطرق السريعة المفضية إلى موقع المظاهرة، في انتظار التقاط المتظاهرين إثر تفرقهم.

قوطع طقس أنجم وصدام في مشاهدة التليفزيون يوم عيد الاستقلال عندما سمعا صرخات رعب من زينب التي كانت بالخارج تنشر الغسيل. سارع صدام بالخروج، وتبعته أنجم في بطء وقلق. مرّ

عليهما بعض الوقت قبل أن يصدقا أن ما رأياه حقيقة وليس وهمًا. أما زينب نفسها فتجمّدت، وتعلّق بصرها بالسماء ذاهلة عن كل شيء.

كان غراب متجمّدًا ومُعلّقًا في الهواء، وأحد جناحيه مبسوط كالمروحة. مسيح ذو ريش، مُعلّق مائلاً، على صليب خفي. والسماء تغصُّ بآلاف من رفاقه الغربان المهتاجة محلقة على ارتفاعات منخفضة ونعيبها البائس يطغى على كل صوت آخر من أصوات المدينة. ومن فوقها في طبقة أعلى تحوم طائرات ورقية، ربما بفعل الفضول، لكن بصفة عامة لم يكن بالإمكان فهمها. كان الغراب المصلوب ساكنًا أتمّ ما يكون السكون. وسرعان ما اجتمع حشد صغير من الناس ليروا الحدث، ويفزعوا أنفسهم حتى الموت، ليتناصحوا بالقوة السحرية للغربان المتجمدة، وليتناقشوا في الطبيعة الدقيقة للأهوال التي سوف يجلبها عليهم هذا النذير، وهذه اللعنة الرهيبة.

ما حدث لم يكن لغزًا. الأمر أن ريش جناح الطائر علق وهو يطير في وتر طائرة ورقية خفيّ كان مربوطا في أغصان إحدى أشجار التين العجوز في المقبرة. والطائرة الورقية المجرمة، طائرة قرمزية، كانت تحوم حول مسرح جريمتها مختلسة النظر من خلال غصون إحدى الأشجار. أما الخيط، وهو خيط صيني جديد أغرق الأسواق على حين غرة، فكان مصنوعًا من بلاستيك شفّاف قوي مكسو بمادة زجاجية باهتة. كان المتحاربون بالطائرات الورقية في يوم الاستقلال معتادين على "قطع" خيوط بعضهم بعضًا، وإسقاط طائرات المهزومين. وكان ذلك قد تسبَّب من قبل في وقوع حوادث مأساوية في المدينة.

كافح الغراب في أول الأمر إلى أن اكتشف في ما يبدو أنه كلما تحرّك، غاص الوتر في عمق جناحه، فسكن تمامًا، ناظرًا إلى أسفل بعين لامعة مبهورة في رأسه المائل بينما الناس محتشدة تحته. ومع كل لحظة تمرُّ كانت تزداد كثافة الغربان المكروبة الهائجة في السماء.

رجع صدام ـبعد أن كان قد أسرع مبتعدًا إثر تقييمه الموقفـ ومعه حبل طويل مصنوع من قطع متنافرة من كتان الطرود وحبال الغسيل المربوطة في بعضها بعضًا. ربط حجرًا في طرف ومغمضًا عينيه دون الشمس وراء نظارته الشمسية رمى الحجر باتجاه السماء مستعينًا بالغريزة على قياس منحنى وتر الطائرة الخفي، راجيًا أن يلتف حبله عليه ليجذبه أرضًا بثقل الحجر. احتاج محاولات عديدة وتغييرًا للحجر أكثر من مرة (كان ينبغي أن يكون خفيفًا فيرتفع في السماء، وثقيلاً فيلتفَّ حول الوتر وينزل به إلى الشجرة التي كان مربوطًا إليها) قبل أن ينجح. ولمّا فعلها أخيرًا، سقط وتر الطائرة إلى الأرض. وفي البداية هوى معه الغراب، ثم إنه طار كأنما بقوة السحر. وأضاءت السماء، وتراجع النعيب.

وأعلن استئناف الحياة الطبيعية.

أما المتفرجون في المقبرة ممن كانوا يفتقرون إلى التفكير المنطقي والعلمي (أي جميعهم بمن فيهم أستاذ جي)، فكان واضحًا لهم أن قيامة قد اجتُنبت في اللحظة الأخيرة وحلّت بدلاً منها البركة.

وحظي رجل اللحظة بالتكريم والعناق والقبلات.

وما كان صدام ليضيِّع تلك الفرصة، فقرَّر أن الوقت قد حان.

في وقت متأخر من تلك الليلة ذهب إلى غرفة أنجم. كانت مستلقية على جنبها، متكئة بمرفقها على وسادة، مطلّة في حنان على الآنسة جِبين الثانية الغارقة في نومها. (ولم تكن مرحلة قصص النوم غير المناسبة قد وصلت بعد).

قالت "تخيّل، لولا رحمة الله، لكانت هذه المخلوقة الصغيرة الآن في ملجأ حكومي".

تريَّث صدام لوهلة من الصمت محترمًا لحظتها قبل أن يطلب منها يد زينب للزواج. فردَّت أنجم بشيء من المرارة، ودون أن ترفع إليه عينيها، وقد عاودها بغتة وجعُ قدم.

"ولماذا تطلبها مني أنا؟ اطلبها من سعيدة، فهي أمها".

"أنا أعرف القصة، لذلك أطلبها منك أنت".

فرحت أنجم، لكنها لم تُبْدِ فرحتها. نظرت بدلاً من ذلك إلى صدام من أعلاه إلى أدناه وكأنه شخص غريب.

"أعطني سببًا واحدًا يجعل زينب تتزوج رجلاً يُنتظر أن يرتكب جريمة ليُشنق مثل صدام حسين العراقي؟"

"انتهى ذلك. خلاص. لقد أفاق شعبي". وتناول صدام هاتفه وحذف فيديو إعدام صدام حسين. "انظري ها أنا أحذفه حالاً، الآن،

أمامك. انظري، لم يعد له وجود. لم أعد بحاجة إليه. عندي الآن فيديو جديد، انظري".

بينما كانت تستدير معتدلة على سريرها وتتأوّه متخذة وضع الجلوس، غمغمت أنجم في رقة وبصوت هامس قائلة "يا الله! أي ذنب اقترفته لأكفّر عنه بهذا الجنون؟" ولبست نظارة القراءة.

الفيديو الجديد الذي عرضه عليها كان يبدأ بلقطة للعديد من الشاحنات الصدئة المصفوفة في فناء كوخ أنيق من أبنية الحقبة الاستعمارية القديمة يضم مكتب مأمور ضرائب المقاطعة في الجُجرات. كانت الشاحنات محمّلة بحمولات عالية من جثث البقر وهياكله العظمية. ويفرغ شباب غاضبون من الدَّلِت الحمولات ملقين بالبقر في عمق شرفة المبنى ذات الأعمدة. تاركين في الممشى أثرًا رهيبًا من هياكل البقر العظمية، واضعين جمجمة ضخمة ذات قرون على طاولة مكتب مأمور الضرائب مغطّين ظهور مقاعده الوثيرة بفقرات بقريّةٍ بدت أفعوانية في تلوّيها.

شاهدت أنجم الفيديو وقد بدا عليها الذهول، وأخذ النور المنبعث من شاشة الهاتف المحمول يتقافز على أسنانها البيضاء المثالية. كان واضحًا أن الشباب يهتفون، لكن الصوت كان مكتومًا لكي لا يوقظ الآنسة جِبين.

سألت صدام "بماذا يهتفون؟ إنها لغة الجُجرات؟"

همس صدام "هذه أمُكم! اعتنوا أنتم بها".

"آي هاي، وماذا سيفعل هؤلاء الصبية الآن؟"

"وماذا بوسعهم أن يفعلوا هؤلاء الرعاع البائسون؟ لا يستطيعون حتى أن يمسحوا خراءهم. لا يستطيعون أن يدفنوا أمّهاتهم. لا أعرف ماذا سيفعلون. لكن هذه مشكلتهم هم لا مشكلتنا".

"طيب والآن؟ أنت حذفت الفيديو ... معنى هذا أنك تخليت عن فكرة قتل ذلك الضابط ابن القحبة؟" بدت عليها الخيبة. بل ربما الرفض.

"أنا الآن لست بحاجة إلى قتله. أنت شاهدت الفيديو. شعبي نهض. وهم يقاتلون الآن. ما الذي يمثله لنا الآن مجرد سهراوت واحد؟ لا شيء".

"هل تتخذ جميع القرارات المهمة في حياتك بناء على فيديوهات الهاتف المحمول؟".

"العالم الآن على هذا الحال. العالم الآن كله فيديو. لكن انظري ما فعلوا! هذا حقيقي. ليس فيلمًا. هؤلاء ليسوا ممثلين. هل تريدين مشاهدته من جديد؟"

"الأمر ليس بهذه السهولة يا سيد. سيضربون هؤلاء الأولاد، ويشترونهم ... هكذا يفعلون في هذه الأيام... ولو تركوا شغلهم هذا، فمن أين يكسبون؟ ماذا سيأكلون؟ هيا، سنفكر في هذا في ما بعد. هل

لديك صورة فوتوغرافية ظريفة لأبيك؟ يمكن أن نعلّقها في غرفة التليفزيون".

رأت أنجم أن تُعلّق صورة لوالد صدام بجوار صورة ذاكر ميان المكلّلة بطيور العملات الورقية الجديدة، زينةً لغرفة التليفزيون. وتلك كانت طريقتها في قبول صدام ابنًا لها بالمصاهرة.

فرحت سعيدة وانتشت زينب. وبدأت تجهيزات الزفاف. فأخذت مقاسات الجميع بمن فيهم تِلُو لتفصيل ملابس جديدة من تصميم زينب. وقبل شهر من الزفاف أعلن صدام عن اصطحابه العائلة في خروجة خاصة. مفاجأة. كان الإمام ضياء الدين في غاية الضعف فلم يستطع الذهاب وكان اليوم عيد ميلاد حفيد أستاذ حميد. وقال دكتور آزاد بهارتيا إن المكان الذي اختاره صدام مخالف لمبادئه وهو في كل الحالات لا يستطيع الأكل. فتكوّن الوفد من أنجم وسعيدة ونِمّو الجوركهبورية وزينب وتِلُو والآنسة جِبين الثانية وصدام نفسه. ولم يكن أحد منهم ليتصور في أشد أحلامه جموحًا ما يخفيه من أجلهم.

كان نريش كُمار صديق صدام أحد خمسة سائقين يعملون لدى بليونير ورجل صناعة يمتلك قصرًا منيفًا وأسطول سيارات باهظة الأثمان، برغم أنه لم يكن ينفق في دلهي أكثر من ثلاثة أيام في الشهر أو أربعة. وصل نريش كُمار إلى المقبرة ليُقلَّ وفدَ ما قبل الزفاف في مرسيدس رئيسه الفضية جلدية الكراسي. جلست زينب في المقدمة على

حجر صدام وانحشر الباقون في الخلف. لم تتخيَّل تِلُو قبل ذلك أن تنعم بنزهة في شوارع دلهي داخل مرسيدس. ولكن ذلك كما تبيَّنت لم يكن إلا لخيالها المحدود للغاية. كان الركاب يصرخون بينما العربة تسرع، ولم يكن صدام قد أخبرهم إلى أين سيأخذهم. صاروا ينظرون بينما العربة تتحرك بهم في جوار المدينة القديمة بلهفة على أمل أن يراهم أصدقاؤهم ومعارفهم. وفيما كانوا يتحركون باتجاه جنوبي دلهي، بدأ التنافر بين الركاب والمركبة يثير كثيرًا من نظرات الفضول، وأحيانًا الغضب. فما كان منهم إلا أن أغلقوا الشبابيك في شيء من الخوف. توقفوا عند تقاطع مروري في نهاية طريق عريض اصطفّ على جانبيه الشجر حيث كانت جماعة من الهيجرات متأنقات الملبس يتسولن، كنّ نظريًا يتسولن لكنهن فعليًا كن يطرقن شبابيك السيارات مطالبات بالمال. أغلقت جميع السيارات المتوقفة في الإشارة شبابيكها، وكان من فيها يبذلون أقصى ما في وسعهم لكي لا تتلاقى أعينهم بعيون الهيجرات. ولما وقعت أعين الهيجرات على المرسيدس الفضية، تجمعن كلهن عندها، يتشممن فيما يرجون رائحة أجنبي ثري وساذج. ففوجئن حينما فتحت شبابيك السيارة قبل حتى أن يبدأن الطرق عليها بأنجم وسعيدة ونِمّو الجوركهبورية يبادلنهن الابتسام، وتصفيقة الهيجرات بالأصابع المتباعدة. وتحول اللقاء إلى تبادل للنميمة. إلى أي فرقة جهرانة تنتمي الهيجرات الأربع؟ ومن تكون أستاذتهن؟ وأستاذة أستاذتهن؟ مالت الأربع عبر شبابيك المرسيدس، متكئات بمرافقهن على حوافها، مبرزات مؤخراتهن في استفزاز لبقية السيارات. فلمّا تغيَّرت إضاءة الإشارة، أخذت

السيارات تطلق نفيرها نافدة الصبر من الخلف. فردَّت الهيجرات بسلسلة من الفحش الخلاق. أعطاهن صدام مئة روبية وبطاقته الخاصة. ودعاهن للزفاف.

"لا بد أن تحضرن".

ابتسمن ولوَّحن مودِّعات، ومضين يخطرن وسط السيارات الضائقة بهن. وفيما تتحرك السيارة، قالت سعيدة إن أسعار جراحات إعادة ضبط الجنس أخذت تقلّ، وبدأت هي نفسها تتطوّر، وتتيسَّر لمزيد من الناس، ومن ثم سرعان ما ستختفي الهيجرات. "لن يضطر أحد إلى أن يمرّ بمثل ما مررنا به".

قالت نِمّو الجوركهبورية "قصدك لا مزيد من الصراع الهندي الباكستاني؟".

قالت أنجم "لم يكن الأمر كله سيئًا. أعتقد أنه سيكون من العار أن ننقرض".

قالت نِمّو الجوركهبورية "بل كان الأمر كله سيئًا، أم نسيت دكتور مختار الدجال؟ كم كسب من المال من ورائك؟"

أخذت السيارة تطفو كأنها فقاعة من حديد عبر الشوارع الواسعة والضيقة، الملساء والمليئة بالحفر، لأكثر من ساعتين. تنزلق وسط غابات كثيفة من العمارات، مرورًا بمتنزهات خرسانية عملاقة، وقاعات

أعراس عجيبة التصاميم، وتماثيل أسمنتية شاهقة كناطحات السحاب، منها تماثيل شيفا في مئزر نمر أسمنتي مع كوبرا أسمنتية تلتف حول رقبته وقرد هانومان عملاق مطل على مسار المترو. ساقوا على جسر يستحيل فيه التبول، واسع كأنه حقل قمح فيه عشرون حارة مرورية للسيارات المارقة وعلى جانبيه تنمو أبراج من الصلب والزجاج، لكنهم لما سلكوا مخرجًا من الطريق رأوا العالم السفلي القائم تحت الكوبري مختلفًا كل الاختلاف، عالمًا غير مرصوف أو مقسّم لحارات أو مضاء أو منظم، عالمًا شرسًا خطيرًا تتدافع فيه الأتوبيسات والشاحنات والثيران والريكاشات والدراجات وعربات اليد والمارة من أجل البقاء. عالم طائر فوق عالم آخر دون أن يبالي بالتوقف لسؤاله كم الساعة.

طفت الفقاعة الحديدية، عابرة ببلدات قوامها الأكواخ والمستنقعات الصناعية هواؤها غيوم زرق باهتة، بطرق سكك حديدية مكدسة عليها القمامة ومصطفة من حولها العشوائيات. وأخيرًا وصلوا إلى وجهتهم. الحافة. حيث الريف يحاول محاولات خرقاء متسرعة ومأساوية أن يجعل من نفسه مدينة.

مركز تجاري.

حلّ الصمت المطبق على ركاب المرسيدس وهي تستدير إلى موقف تحت الأرض، رافعة غطاءها الأمامي، فاتحة حقيبتها الخلفية، كأنها بنت ترفع جيبتها، لفحص سريع للمتفجرات، ثم تنجرف إلى قبو مليء بالسيارات.

حينما دخلوا رواق التسوق الساطع، بدت على زينب وصدام الفرحة والبهجة، والارتياح التام إلى ما يحيط بهم. أما البقية بمن فيهم أستاني جي فبدا وكأنهن يخطون إلى مدخل كون آخر. بدأت الزيارة بمائق: مشكلة بسيطة عند السلم المتحرك. رفضت أنجم استعماله. استغرق الأمر خمس عشرة دقيقة من المداهنة والتشجيع. وأخيرًا، حملت تِلُو الآنسة جِبِين الثانية، ووقف صدام بجوار أنجم على درجة واحدة واضعًا يده حول كتفها، ووقفت زينب على الدرجة السابقة لها، مواجهة إياها، ممسكة كلتا يديها. وبهذه الثقة صعدت أنجم وهي تتمايل وتصيح آيي حيّ وكأنها تخاطر بحياتها في مغامرة رياضية خطيرة. وفيما مضين يتجوّلن وجلات، محاولات التمييز بين المشترين والمانيكانات في واجهات المتاجر، كانت نِمّو الجوركهبورية أول من استعادت توازنها. أخذت تنظر في إعجاب إلى الشابات في السراويل القصيرة والجيبات القصيرة حاملات أكياس التسوق الضخمة رافعات النظارات الشمسية على شعورهن الغزيرة المفرودة.

"انظرن. هذا ما كنت أريد أن أبدو عليه وأنا شابة. كان عندي إحساس حقيقي بالموضة. لكن لم يفهمني أحد. كنت سابقة زمني بكثير".

بعد ساعة من مشاهدة واجهات المحلات وعدم شراء شيء على الإطلاق تناولوا الغداء في مطعم اسمه ناندوز. أكلوا بالأساس كميات ضخمة من الدجاج المقلي. تولّت زينب الإشراف على نِمّو الجوركهبورية، وصدام اعتنى بأنجم، فلم تكن أيٌّ منهما قد دخلت

مطعمًا من قبل. حملقت أنجم في دهشة عارمة في الأسرة المكونة من أربعة أفراد على المائدة المجاورة، ثنائي من كبيرين وثنائي من شابين. كانت المرأتان، وهما أمٌّ وابنتها بوضوح، ترتديان قميصين بلا أكمام على بنطالين، بوجهين غارقين في المساحيق. وكان الشاب -وهو على الأرجح خطيب الفتاة- يضع مرفقيه على المائدة وينظر بين الحين والآخر إلى عضلات ذراعيه (الضخمة) النافرة من قميصه الأزرق قصير الكمّين. الرجل الكبير هو وحده الذي لم يبْدُ سعيدًا بشكله. كان يختلس نظرات سرية من وراء العمود الوهمي الذي يختبئ وراءه. وكلّ بضع دقائق كانت الأسرة توقف الحوار كلّه، وتثبِّت ابتساماتها وتلتقط صور سيلفي مع قائمة الطعام، ومع النادل، ومع الطعام، ومع بعضهم بعضًا. وبعد كل سيلفي كانوا يمرِّرون الهواتف المحمولة بينهم ليشاهدوا الصورة. وما كانوا يلتفتون إلى أحد قطُّ ممّن في المطعم.

كانت أنجم أكثر اهتمامًا بهم منها بما في طبقها من طعام لم تكن مستمتعة به على الإطلاق. بعدما دفع صدام فاتورة الحساب، نظر حوله في أداء شعائري قائلاً:

"لا بد أنكن جميعًا تتساءلن لماذا أحضرتكن عبر كل هذا الطريق إلى هنا".

قالت أنجم وكأنها تجيب سؤالاً في برنامج مسابقات تليفزيوني "لترينا الدنيا؟"

"لا، بل لأعرفكن جميعًا بأبي. ها هنا مات أبي. هنا بالضبط. حيث يقوم الآن هذا المبنى. قبل إقامته كانت هنا قرية، محاطة بحقول قمح. وكان قسم شرطة ... وطريق ...".

عندئذ حكى لهن صدام قصة ما جرى لأبيه. حكى لهن عن عهده بقتل سهراوت الضابط في قسم شرطة دولبنا، ولماذا تخلى عن الفكرة. تبادلن جميعًا هاتفه حول المائدة يشاهدن فيديو البقر الميت إذ يُلقى في مكتب مأمور ضرائب المقاطعة.

"لا بدّ أن روح أبي تهيم هنا، حبيسة هذا المكان".

حاولن جميعًا أن يتخيّلنه. عامل الجلود القروي، ضائعًا وسط الأضواء الساطعة، يحاول العثور على مخرج له من المركز التجاري.

قالت أنجم "هذا مزاره إذن".

قالت زينب "الهندوس لا يدفنون، فلا مزارات لهم يا بادي مامي".

فكّرت تِلُو ولم تقل إنه ربما يكون مزار العالم كله، ربما تكون المانيكانات والمشترون أشباحًا تحاول شراء ما لم يعد له وجود.

قالت أنجم "هذا غير صحيح. لا يمكن أن يُترك الأمر على هذا النحو. لا بدّ أن تُقام لأبيك جنازة لائقة".

قال صدام "لقد أقيمت له جنازة لائقة. أقيمت له محرقة في قريتنا، وأنا بنفسي أشعلت نار جنازته".

لم تقتنع أنجم. كانت تريد أن تقدِّم المزيد لوالد صدام، حتى ترتاح روحه. وبعد نقاش كبير قرَّروا شراء قميص على اسمه من أحد المحلات (مثلما يشتري الناس الشادور في الأضرحة) ودفنه في المقبرة القديمة حتى يشعر أبناء صدام وزينب بحضور جدِّهم حولهم وهم يكبرون.

قالت زينب فجأة "أنا أعرف صلاة هندوسية. هل أتلوها هنا في ذكرى الأب العزيز؟".

انحنى الجميع منصتين. وهكذا وهم جلوس حول مائدة في مطعم للوجبات السريعة، وعلى سبيل الحب الجارف لحميها الراحل والمستقبلي أيضًا، تلت زينب وِرد جايَتري الذي علّمته لها أنجم وهي بنت صغيرة (معتقدة أنه قد يساعدها إن هاجمها في يوم بعض الحشود).

يا رب يا واهب الحياة
يا مُبدِّد الآلام والأحزان
يا مانح السعادة
يا خالق الكون
أنزل علينا نورك الأسمى ماحي الذنوب
واهْدِ عقولنا سبيل الرشاد.

*

في صباح يوم جنازة والد صدام حسين الثانية، وضعت تِلُو شيئًا آخر على مائدة النقاش. وضعته حرفيًا. جاءت بجرّة رفات أمها الصغيرة وقالت إنها تود دفن أمها أيضًا في المقبرة القديمة. وتقرّر أن تقام في ذلك اليوم جنازة مزدوجة. فإذا حُسب حرق المحرقة الكهربائية في كونشين، لأصبحت هذه أيضًا جنازة مريم إيبي الثانية. حفر صدام حسين المقبرتين، فوضع في إحداهما قميص كاروهات مدراس أنيق، وفي الأخرى جرّة رفات. احتج الإمام ضياء الدين قليلاً على شذوذ ما يجري، لكنه وافق أخيرًا على تلاوة الصلوات. سألت أنجم إن كانت تِلُو تودُّ تلاوة صلاة مسيحية، فأوضحت تِلُو أن الكنيسة رفضت دفن أمها، فأي صلاة في هذه الحالة كافية. وفيما كانت واقفة بجوار مقبرة أمها، عاودها بعض ما ردَّدته مريم إيبي مرارًا في أثناء هلوستها بغرفة العناية المركزة.

أشعر أنني محاطة بالخصيان، صح؟

في وقته لم يبْدُ ذلك أكثر من بعض من سبابها المعتاد في غرفة العناية المركزة. لكنه الآن أحدث قشعريرة في جسد تِلُو. كيف علمت؟ ما كادت الجرّة تُدفن في المقبرة ويُهال عليها التراب، حتى أغمضت تِلُو وأخذت تردِّد بينها وبين نفسها المقطع المفضَّل لأمها من شكسبير. وفي تلك اللحظة أصبح العالم الغريب أصلاً أشدَّ غرابة:

ولن يمرّ عيد كرسبيان منذ اليوم إلى نهاية العالم

حتى نذكر فيه، نحن القلائل،

نحن القلة، نحن القلة السعيدة، نحن العصبة المتآخية
فلعمري إن من يسفك دمه اليوم معي فهو أخي
ومهما كان وضيع النسب،
فإن هذا اليوم يرفعه إلى مقام السادة
أما السادة الراقدون اليوم في فراشهم في إنجلترا
فسيعدّون أنفسهم من الملعونين
لأنهم لم يكونوا معنا
وسيحسون أن رجولتهم رخيصة تافهة
عندما يتكلم واحد ممن حارب معنا في يوم القديس كرسبيان."[٤٦]

لم تفهم قطّ سرّ حب أمّها الخاص لتلك المقطوعة الرجولية العسكرية الحربية. وفهمت. حينما فتحت تِلْو عينيها، ذهلت حينما أدركت أنها كانت تبكي.

تزوجت زينب وصدام بعد مرور شهر، في حضور جمع منتقى من المدعوين: هيجرات من جميع أرجاء دلهي (بمن فيهن الصديقات الجدد اللاتي التقى بهن الجمعُ في إشارة المرور) وصديقات لزينب أغلبهن من

---

٤٦ مسرحية "هنري الخامس" الفصل الرابع، المنظر الثالث، نقلاً عن ترجمة د. محمد عوض محمد، ومراجعة محمد شفيق غربال، ومحمد بدران، الصادرة عن دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٣، بتصرف قليل.

دارسات تصميم الثياب، وبعض طلبة أستاذ جي وآبائهم، وعائلة ذاكر ميان، والعديد من رفاق صدام حسين القدامى في وظائفه العديدة، فمنهم كنَّاسون وعمال مشرحة وسائقو عربات تابعة للبلدية وأفراد أمن. وكان دكتور آزاد بهارتيا، ودي دي جُبتا وروشن لال موجودين بالطبع. حضر من طريق جي بي كل من أنور بهايي ونسائه وابنه الذي كبر على حذائه الكروكس البنفسجي، وعشرت الجميلة التي لعبت دورًا ممتازًا في إنقاذ الآنسة جِبين الثانية جاءت من إندوري. والإسكافي صديق تِلُو ودكتور آزاد بهارتيا ـالذي رسم ورم أبيه المتضخم على التراب- مرَّ مرورًا سريعًا. جاء أيضًا دكتور بهجت العجوز، ولم يزل يرتدي الأبيض، ولم يزل يرتدي ساعته على عصابة معصمه. ولم تُوجَّه دعوة لدكتور مختار الدجال. ارتدت الآنسة جِبين الثانية زيَّ ملكة صغيرة، تاجًا مرصَّعًا وفستانًا منفوشًا وحذاءً ذا صرير. ومن بين جميع الهدايا التي انهالت على العروسين كانت الأحب إليهما ماعزًا أهدتهما إياها نِمّو الجوركهبورية، وقد استوردتها لهما خصيصًا من إيران.

غنَّى أستاذ حميد وتلاميذه.

رقص الجميع.

بعد ذلك أخذت أنجم صدام وزينب إلى حضرة سرمد. وذهبت أيضًا تِلُو وسعيدة والآنسة جِبين الثانية. مضوا في طريقهم جميعًا عابرين باعة العطارة والأحجبة، وحرس أحذية الحجيج، والمعاقين، والمتسولين، والماعز التي تُسمَّن للعيد.

ستون سنة مضت منذ أن اصطحبت الست جهان آرا ابنها آفتاب إلى حضرة سرمد وطلبت منه أن يزرع حبه في قلبها. وخمس عشرة سنة مضت منذ أخذت أنجم الفأرةَ إليه ليبطل العمل السفلي. وأكثر من سنة مضت منذ الزيارة الأولى للآنسة جِبين الثانية.

ابن الست جهان آرا أصبح ابنتها، والفأرة أصبحت الآن عروسًا، وعدا ذلك لم يتغير شيء يُذكر. كانت الأرض حمراء، والجدران حمراء والسقف أحمر. كان دم حضرة سرمد لم ينطمس بعد.

كان رجل هشٌّ يرتدي طاقية صلاة مخططة كأنها مؤخرة نحلة يمسك مسبحته مسترحمًا سرمد. وامرأة نحيلة ترتدي ساري ملونًا تربط سوارًا أحمر في حديد المقام ثم تُسْجِد طفلها الرضيع على أرضه. فعلت تِلُو مثل ذلك في الآنسة جِبين الثانية فظنَّتها الصغيرة لعبة لطيفة وفعلتها من تلقاء نفسها مرَّات أكثر من اللازم. ربطت زينب وصدام سوارين في حديد المقام ووضعا شادورًا جديدًا من القطيفة ذا إطار لامع على قبر صاحب الحضرة.

تلت أنجم صلاة وسألته أن يبارك العروسين.

وحضرة سرمد صاحب السعادة القصوى، وليّ البائسين وعزاء المجهولين والكافر وسط المؤمنين والمؤمن وسط الكافرين، بارك العروسين.

بعد أسابيع ثلاثة شهدت المقبرة القديمة جنازة ثالثة.

*

ذات صباح جاء دكتور آزاد بهارتيا إلى نزل جنة للضيافة ومعه رسالة مبعوثة إليه. سلمتها له يدًا بيدٍ عجوزٌ لم تعرّف بنفسها، وإن قالت إن الرسالة مبعوثة من غابة بَسْتار. لم تدر أنجم ماذا تكون تلك أو أين هي. شرح دكتور آزاد باختصار أمر بستار، وقبائل أديفاسي التي كانت تعيش هناك، وشركات التعدين التي أرادت أرضهم والعصابات الماوية التي كانت تخوض حربًا ضد قوات الأمن الساعية إلى إخلاء الأرض وتسليمها للشركات. كانت الرسالة مكتوبة بالإنجليزية، بخطٍّ صغير متلاصق. لم تكن الرسالة مؤرّخة. قال دكتور آزاد إن الرسالة مبعوثة من أمّ الآنسة جِبين الثانية الحقيقية.

صاحت أنجم "مزّقها. ترمي بنتها ثم تأتي هنا لتقول إنها الأم الحقيقية". ومنعها صدام أن تندفع باتجاه الرسالة.

قال دكتور آزاد بهارتيا "لا تقلقي. هي لن تأتي إلى هنا".

كانت رسالة طويلة، مكتوبة على وجهي الصفحات وفيها فقرات كاملة مكشوطة، وجمل متداخلة في جمل أخرى وكأن الورق شحيح. وبين الصفحات زهور قليلة يابسة تهشّمت عند طيِّ الرسالة ووضعها في اللفافة التي سلِّمت لدكتور آزاد. قرأ دكتور آزاد بهارتيا الرسالة بصوت عال، مترجمًا إياها على أفضل ما استطاع وهو يقرؤها. كان جمهوره أنجم وتِلُو وصدام حسين. والآنسة جِبين الثانية التي بذلت كل ما في وسعها لمقاطعة ما يجري.

عزيزي الرفيق آزاد بهارتيا المحترم،

أكتب إليك هذه الرسالة لأنني خلال أيامي الثلاثة في جَنْتر مَنْتر تابعتك باهتمام. ولو أن أحدًا يعرف الآن مكان ابنتي، أعتقد أنه قد يكون أنت وحدك. أنا امرأة من تيلوجو وأعتذر لأنني لا أجيد الهندية. ولغتي الإنجليزية أيضًا غير جيدة. آسفة على هذا. اسمي ريفاثي، أعمل متفرغة مع الحزب الهندي الشيوعي (الماوي). وحينما تصلك هذه الرسالة سأكون قد قُتلت بالفعل.

عند هذه اللحظة، إذا بأنجم التي كانت مائلة إلى الأمام منصتةً باهتمام واستغراق، تعتدل في ارتياح واضح. بدا أنها فقدت الاهتمام. لكنها تدريجيًا، أخذت تتابع دكتور آزاد بهارتيا وهو يواصل القراءة في استغراق ودونما أي مقاطعة.

رفيقي سوجونا تعرف أن نبعث إليك هذه الرسالة عندما تعرف أنني لم أعد. نحن كما تعلم شعب محظور بعيش تحت الأرض، وهذه الرسالة التي أبعثها إليك يمكنك أن تعتبرها رسالة من تحت تحت الأرض، لذلك سوف يستغرق وصولها إليك ما لا يقلّ عن خمسة أسابيع أو ستة عبر قنوات آمنة. بعد أن تركت ابنتي هناك في دلهي، ضميري سيئ للغاية. لا يمكنني أن أنام أو أستريح. أنا لا أريدها. لكنني أيضًا لا أريدها أن تعاني. لذلك إن كنت تعرف أين هي، أريد أن أحكي لك قليلاً قصتها الحقيقية. البقية قرارك أنت. اسمها الذي سمّيتها به هو أودايه. هو في تيلوجو يعني شروق

الشمس. سمّيتها بهذا الاسم لأنها ولدت في غابة دانداكارانايا في أثناء الشروق. عندما وُلدتْ شعرت صراحةً بكراهية نحوها وفكرت في قتلها. شعرت فعلاً أنها ليست ابنتي. هي فعلاً ليست ابنتي. فعلاً إذا رأيت قصتها التي أكتبها هنا، أنا لست أمّها. النهر أمُّها والغابة أبوها. هذه هي حكاية أودايه وريفاثي. أنا، ريفاثي، من شرق جودافري بمقاطعة أندهرا براديش. طبقتي هي سيتياليجا وهي من الـ ط ع (طبقة عكسية[٤٧]). اسم أمي إندوماتي. موظفة أمن في مدرسة. تزوجت أبي وعمره ١٨ سنة. أبي كان يعمل في الجيش. كان أكبر منها بسنين كثيرة. رآها في إجازة رجع فيها إلى البلدة ووقع في غرامها لأن أمي فاتحة جدًا وجميلة. بعد الخطوبة لكن قبل الزواج فُصل أبي من الجيش لتدخينه على مقربة من مخزن السلاح. رجع يعيش في قريته التي كانت مقابلة لقرية أمي على نهر جودافري. عائلته من نفس الطبقة، لكن غنية أكثر من عائلتها. خلال مراسم الزفاف نفسها جعلوا أمّي تقوم من الكرسي وطلبوا زيادة في البائنة. كان على جدي أن يسارع بالاقتراض. وحينئذ فقط وافقوا واستمرّ الزواج. وبعد الزواج مباشرة ظهرت على أبي انحرافات سادية. كان يريد من أمي أن ترتدي فساتين قصيرة وترقص معه. ولمّا رفضت

---

٤٧ اصطلاح تستعمله حكومة الهند في وصف المحرومين اجتماعيًا أو تعليميًا أو اقتصاديًا لأسباب غير طبقية.

جرحها بالمدى واشتكى من أنها لا ترضيه. وبعد بضعة شهور بعثها إلى بيت جدي. وكانت في الشهر الخامس من حملها بي حين رجع بها شقيقها الصغير إلى قرية أبي في مركب. كانت تلبس يومها ساري جميلاً جدًا ومجوهرات وأخذت معها جرّتين فضيتين من الحلوى وخمسة وعشرين ساري جديدًا لحماتها. لم يكن أبي في البيت. رفض الأصهار أن يفتحوا الباب وخرجوا فركلوا جرة الحلوى. خجلت أمي خجلاً شديدًا. وفي طريق الرجوع، في عرض النهر، خلعت حليّها وقفزت من المركب. كنت في معدتها وعمري خمسة شهور. أنقذها المراكبي وأعادها إلى البيت. ولدت في بيت جدي لأمي. في فترة الحمل كانت معدة أمي ضخمة جدًا. كانت تتوقع أن تنجب توأمًا. كانت تتوقع أن يكونا أبيضين مثلها ومثل زوجها. وجئت أنا. سوداء وبدينة. أمي رأت لوني ففقدت الوعي يومين كاملين. لكنها بعد ذلك لم تتركني مطلقًا. تكلمت القرية كلها. جاءت عائلة أبي لتتعرف إلى أي درجة أنا سوداء. كان لديهم ذلك الإحساس الطبقي واللوني. قالوا إنني لست ابنتهم بل إنني بنت مالا أو ماديجا[٤٨] ، لا يمكن أن أكون ط ع بل ط م طبقة مجدولة. نشأت في بيت جدي. كان يعمل في تربية الحيوانات. كان شيوعيًا. سقف بيته من القش، لكن فيه كثيرًا من الكتب.

---

٤٨ من طبقات الهند الدنيا.

حينما كبر جدي أصبح أعمى أيضًا. كنت في المدرسة حينذاك فكنت أقرأ له. كنت أقرأ له المصور الأسبوعي، وكومبيتيشن ساكسيس رفيو، وسوفييت بومي. وقرأت له أيضًا قصة السمكة الصغيرة السوداء. كانت لدينا كتب كثيرة من دار نشر الشعب. وكان أبي يأتي إلى بيت جدي ليلاً ليزعج أمي. كنت أكرهه. كان يحوم حول البيت بالليل كالثعبان. وكانت تتبعه، فيعذبها ويجرحها ويعيدها إلى البيت. ويعود فيستدعيها وتذهب إليه. ولبعض الوقت بعد ذلك أخذها واستبقاها معه مرة أخرى في قريته. ومرة أخرى حملت. وفي قرية جدي كانت النساء تصلين أن يأتي ابنها الثاني أسود أيضًا لتثبت أمي أنها زوجة مخلصة. ضحين بثلاثين دجاجة سوداء في المعبد من أجل هذا. وبفضل الله ولد أخي أسود أيضًا. لكن مرة ثانية بعث أبي أمي إلى البيت وتزوج امرأة أخرى. كنت أريد أن أصبح محامية لأضع أبي في السجن إلى الأبد. لكنني سرعان ما تأثرت بالشيوعية والفكر الثوري. قرأت الأدب الشيوعي. علمني جدي أغنيات ثورية كنا نغنيها معًا. كانت أمي وجدتي تسرقان جوز الهند وتبيعانه لدفع مصاريف مدرستي. كانتا تشتريان لي أشياء صغيرة وتجعلانني في غاية الأناقة فكان أولاد كثيرون يحبونني. بعدما اجتزت التعليم المتوسط تقدمت للقبول في الطب وقُبلت ولكن لم يكن معنا ما ندفع به المصاريف، فالتحقت بكلية حكومية في وارانجال. وكانت الحركة هناك في غاية القوة.

داخل الغابة، وخارجها أيضًا. في سنتي الأولى جنَّدني الرفيق نيرمالاكا والرفيقة لاكسامي اللذان كانا يزوران سكن الطالبات ويتكلمان مع البنات عن استغلال العدو الطبقي وأوضاع الفقر الرهيبة في بلدنا. وكنت لم أزل في الكلية حينما عملت مبعوثة غير متفرغة للحزب. بعد ذلك عملت في الماهيلا سنغام ـ منظمة المرأة، في نشر الوعي الطبقي في العشوائيات والقرى. أصبحنا قناة إعلامية للحزب في جميع أرجاء تيلانجانا. كنا نسافر بالأتوبيس لحضور الاجتماعات حاملين الكتيبات والمنشورات، ونغني ونرقص في المظاهرات. قرأت ماركس ولينين وماو وأصبحت ماوية عن قناعة.

الوضع في ذلك الوقت كان في غاية الخطورة. كلّ الشرطة، وثعابين الكوبرا، والكلاب السلوقية، وشرطة أندهرا منتشرة في كل مكان. مئات من عمال الحزب تعرضوا للقتل كأيّ شيء. أقصى كراهية الشرطة كانت من نصيب النساء العاملات. الرفيقة نيرمالاكا حينما قتلت قطعوا معدتها وبقروا أحشاءها وأخذوا كل شيء. الرفيقة لاكسامي أيضًا لم يقتلوها فحسب، بل قطعوها وقلعوا عينيها. ومن أجلها قامت مظاهرة ضخمة. ورفيقة أخرى هي بادماكا قبضوا عليها وكسروا ركبتيها لكي تعجز عن المشي وضربوها حتى تلفت كليتها، وكبدها، وأصيبت إصابات كثيرة. خرجت من السجن وتعمل الآن في أمارولا باندهو ميترولا سانجاثان.

كلما قُتل أعضاء في الحزب وكانت أسرهم فقيرة لا تستطيع تدبير مال للسفر لاستعادة جثثهم، تذهب هي. في جرّار أو سيارة تيمو أو أي شيء وتحضر الجثمان للأسرة من أجل الجنازة وكل تلك الأمور. في ٢٠٠٨ الوضع أسوأ كثيرًا داخل الغابة. أعلنت الحكومة عن عملية القنص الأخضر. الحرب على الشعب. انتشر الآلاف من الشرطة والقوات شبه العسكرية في الغابة لقتل أبناء قبائل أديفاسي، وحرق القرى. لم يعد بوسع أحد من أبناء أديفاسي أن يعيش في بيته أو قريته. صاروا ينامون في الغابة في العراء بالليل لأن القوات كانت تأتي بالليل، مئة قوات، مئتان قوات، خمسمئة قوات في بعض الأحيان. يأخذون كل شيء. يحرقون كل شيء. يسرقون كل شيء. الدجاج والماعز والنقود. كانوا يريدون أن تخلي قبائل أديفاسي الغابة ليقيموا مصانع الحديد والتعدين. الآلاف في السجن. كل هذه السياسات يمكن أن تقرأ عنها بالخارج. أو في مجلتنا "مسيرة الشعب". لذلك لن أحكي لك إلا عن أودايه. في مرحلة القنص الأخضر، دعا الجيش للتجنيد في ج ع ت ش، جيش عصابات تحرير الشعب. وفي ذلك الوقت ذهبت أنا واثنتان إلى غابة بستار للتدريب على السلاح. عملت هناك لأكثر من ست سنوات. كانوا يطلقون عليّ في الداخل أحيانًا اسم الرفيقة ماسي. معناها البنت السوداء. أحب هذا الاسم. لكن لنا أسماء مختلفة أيضًا، أسماء

بعضنا بعضًا. ومع أنني في ج ع ت ش، لكوني امرأة متعلمة، كان الحزب يبعثني أيضًا في مهام خارجية. فأحيانًا يكون عليَّ أن أذهب إلى وارانجال، أو فادراتشالام، أو خمّام. وأحيانا نارايانبور. وهذا شديد الخطورة. ففي القرى والمدن الآن كثير جدًا من المخبرين الذين يعملون ضدنا. وهكذا حدث مرة وأنا راجعة من الخارج أن اعتُقلت في قرية كودور. في ذلك الوقت كنت أرتدي ساري وسوارين وعقد لؤلؤ وعلى ظهري حقيبة. لم أكن أستطيع القتال. لم يُعلَن اعتقالي. قيّدوني وخدّروني بالكلوروفورم وأخذوني إلى مكان لا أعرفه. ولمّا صحوت كان الظلام قد حلّ. كنت في غرفة لها بابان وشباكان. كانت فصلاً في مدرسة. فيه سبورة سوداء ولا أثاث. مدرسة حكومية. جميع المدارس في الغابات معسكرات للشرطة. لا يدخلها مدرسون أو تلاميذ. كنت عريانة. وحولي ستة من الشرطة. أحدهم كان يقطع جلدي بنصل مطواة. سألني "تظنين أنك بطلة عظيمة؟" لو أغمضت كانوا يصفعونني. اثنان يمسكان يدي واثنان يمسكان ساقي. "نريد أن نعطيك هدية للحزب". يدخنون ويطفئون السجائر في جسمي. "ناسُك يصرخون كثيرًا. اصرخي الآن وانظري ماذا سيحدث". ظننت أنهم سيقتلونني مثل باندماكا ولاكسامي لكنهم قالوا "لا تخافي يا سودائي سنتركك تذهبين. لا بد أن تذهبي وتخبريهم بما فعلناه فيك. أنت بطلة عظيمة. تأتينهم

بالرصاص، وأدوية الملاريا، والطعام، وفرش الأسنان. كل هذا نعرفه. كم من البنات البريئات بعثتهن إلى الحزب؟ أنت تفسدين الجميع. الآن تذهبين وتتزوجين. وتستقرّين في هدوء. لكن أولاً سنعطيك بعض خبرة الزواج". ظلوا يحرقونني ويقطعونني. ولا أصرخ على الإطلاق. "لماذا لا تصرخين؟ سيأتي قادتك العظماء وينقذونك. ما لكم أيها الناس لا تصرخون؟" ثم أرغمني أحدهم أن أفتح فمي ووضع رجل قضيبه فيه. لم أستطع أن أتنفس. فكرت أنني سوف أموت. ظلوا يصبّون ماء على وجهي. ثم اغتصبوني جميعًا مرّات كثيرة. واحد منهم والد أودايه. أيهم، كيف لي أن أعرف؟ كنت غائبة عن الوعي. ولما صحوت مرة أخرى كنت أنزف من كلّ مكان. كان الباب مفتوحًا. وكانوا بالخارج يدخنون. رأيت الساري الذي جئت به. تناولته ببطء. كان الباب الخلفي مفتوحًا قليلاً وبالخارج حقل أرز. رأوني أجري، فجروا ورائي في البداية ووقعت لكنهم قالوا "دعوها، دعوها تذهب". هذه تجربة مرّت بها نساء كثيرات جدًّا في الغابة. ومن ذلك استلهمت الشجاعة. جريت في الحقول. لم يكن إلا نور القمر. وصلت إلى طريق قطران. وقفت هناك. لم أكن أرتدي غير الساري. لا قميص، ولا جيبة. لففته على أي حال. جاء أتوبيس. ركبت. كنت حافية. أنزف. وجهي مثل البقطينة. فمي ضخم لأنهم ضربوني عليه كثيرًا. كان

الأتوبيس فارغًا. لم يقل محصل التذاكر أي شيء. لم يطلب مني تذكرة. جلست قرب الشباك ونمت بسبب الكلوروفورم. أيقظني في خمام وقال "هذا آخر الخط". نزلت من الأتوبيس. ولما علمت أنني في خمام فرحت إذ كنت أعرف جيدًا دكتور جاورِناث ولديه عيادة. ذهبت إليه. كنت أسير مثل السكران. طرقت الباب وفتحت زوجته وصرخت. جلست على سريرها. كنت أبدو مثل المجنون. جميع حروق السجائر تحولت إلى فقاقيع، على وجهي ونهدي وحلمتي وبطني. سريرها كله صار دمًا. جاء دكتور جاورِناث وقدّم لي إسعافات أولية. أنام دائمًا بسبب الكلوروفورم. وأستيقظ فأبكي فقط. أريد فقط أن أذهب إلى رفاقي داخل الغابة، رينو، دامايانتي، نارمادا آكا. استبقاني دكتور جاورِناث عشرة أيام. وبعدها جاءنا اتصال من الداخل ورجعت إلى الغابة. سرت اثني عشر كيلومترًا ثم جاءت فرقة ج ع ت ش وسرنا خمس ساعات أخرى إلى معسكر كان فيه قادة لجنة المقاطعة. سألني القائد الكبير الرفيق بي كيه عما جرى. لم يعد الآن. هو أيضًا قتل في مواجهة. في ذلك الوقت أخبرتهم، لكنني كنت أبكي فلم يفهم مني أي شيء. أولاً فكر أنني أشكو رفيقًا في الحزب. قال الرفيق بي كيه "أنا لا أفهم هذا الهراء العاطفي. نحن جنود. أخبريني كأنه تقرير بدون عواطف". فقلت له التقرير. لكن دون أي معرفة بأن عيني

كانتا تبكيان. عرضت جراحي على الرفيقات كي يرينها. بعد أن جلسوا يومين يفكرون فيما يعملون. استدعتني اللجنة مرة ثانية وقالت إنني لا بد أن أذهب إلى الخارج وأكوّن "لجنة ريفاني أتباتشار فيديريخ" ـ لجنة مناهضة اغتصاب ريفاني. وكلفوني إضافة إلى ذلك بمسؤولية برنامج آخر لتولي مستعمرة عشوائية فيها ٢٠٠٠ شخص ومضختان يدويتان فقط. أنا مريضة جدًا وعليّ أن أتولّى تنظيم مسيرة الناس من أجل المزيد من المضخات اليدوية. لم أصدق ذلك. لكنهم قالوا إن عليّ أن أساعد نفسي. لكنني لم أستطع أن أذهب إلى الخارج لأنني في ذلك الوقت كنت غير قادرة على المشي. النزيف لم يكن يتوقف. وكنت أصاب بنوبات. جروحي كانت تتعفن. لم أستطع الخروج. لم أكن أستطيع أن أسير مع الفرق. ومرة أخرى تُركتُ في قرية بالغابة. بعد ثلاثة شهور استطعت أن أمشي. وفي ذلك الوقت كنت حبلى. لكنني لم أهتم. انضممت مرة أخرى إلى ج ع ت ش. لكن حينما علم الحزب طلبوا مني مرة أخرى أن أذهب إلى الخارج لأن نساء ج ع ت ش محظور عليهن الإنجاب. بقيت في قرية بالغابة إلى أن ولدت أودايه. حينما رأيتها أولاً شعرت بكثير جدًا من الكراهية. شعرت أن ستة من أفراد الشرطة يقطعونني بالنصال ويحرقونني بالسجائر. فكرت أن أقتلها. وضعت مسدسي على رأسها لكن لم أستطع أن أطلق الرصاص لأنها كانت صغيرة وجميلة. وفي

ذلك الوقت كانت حملة كبيرة تجري خارج الغابة ضد الحرب على الشعب. نظّمت منظمات كبيرة في دلهي محكمة شعبية. دُعي أبناء أديفاسي الذين أصبحوا ضحايا إلى دلهي ليتكلموا أمام الإعلام الوطني. طلب مني الحزب أن أنضم إليهم مع العديد من المحامين والنشطاء المحليين. ولما كانت لدي طفلة صغيرة فقد كانت غطاءً جيدًا لي. كنت خطيبة جيدة بالتيلنجو وكنت على علم بجميع المعلومات. كان لديهم مترجمون جيدون في دلهي. بعد المحاكمة جلست مع ضحايا القبائل ثلاثة أيام في مظاهرة عامة في جَنْتر مَنْتر. رأيت الكثير من الناس الطيبين هناك. لكنني لا أستطيع أن أعيش في الخارج مثلهم.

حزبي هو أبي وأمي. في أحيان كثيرة يرتكب أخطاء كثيرة. يقتل الناس الخطأ. النساء يلتحقن إليه لأنهن ثوريات ولكن أيضًا لأنهن لا يستطعن احتمال المعاناة حيث هن. الحزب يقول إن الرجال والنساء متساوون، ولكنهم مع ذلك لا يفهمون. أعرف أن الرفيق ستالين والرئيس ماو فعلا الكثير من الأشياء الجيدة والكثير من الأشياء السيئة أيضًا. لكنني مع ذلك لا أستطيع أن أترك حزبي. لا أستطيع أن أعيش في الخارج. رأيت كثيرًا من الناس الطيبين في جَنْتر مَنْتر لذلك خطرت لي فكرة أن أترك أودايه هناك. لا أستطيع أن أكون مثلك ومثلهم. لا أستطيع أن أضرب عن الطعام وأعلن المطالب. في الغابة

كلٌ يوم تقتل الشرطة المساكين وتحرق وتغتصب. في الخارج أنتم موجودون تناضلون وتتولّون الأمور. لكن في الداخل ليس هناك غيرنا. لذلك أرجع إلى انداكارانيا لأعيش وأموت مع سلاحي.

شكرًا لك يا رفيق على قراءتك هذه الرسالة.

سلام أحمر! لال سلام

ريفاثي

*

"لال عليكم السلام"، ذلك كان ردّ أنجم الشارد الغريزي عند نهاية الرسالة. كان بالإمكان أن تكون تلك بداية حركة سياسية كاملة، لكنها لم ترد منها إلا أن تكون مثل "آمين" في نهاية عظة مؤثرة.

أدرك كل من المُنصتين، بطريقته الخاصة، شيئًا عن نفسه، عن قصته الخاصة، عن صراعه الهندي الباكستاني، في قصة تلك المرأة المجهولة البعيدة التي لم تعُدْ على قيد الحياة. جعلهم ذلك يقتربون من الآنسة جِبين الثانية كأنهم أيكة من الشجر، أو قطيع من الفيلة الكبيرة، كأنهم قلعة لا نفاذ إليها، ستكبر فيها الفتاة، خلافًا لأمها البيولوجية، محروسة محبوبة.

أما النقاش الفوري الذي بدأ في المكتب السياسي بالمقبرة فكان حول الرسالة، هل ينبغي أن تعلم بها الآنسة جِبين أم لا ينبغي. أنجم، السكرتير العام، لم تكن لديها أي شكوك في الموضوع. فبينما كانت الآنسة جِبين واقفة في حجرها توشك أن تنتزع أنفها من وجهها، قالت أنجم "ينبغي أن تعرف بأمر أمها بالطبع. ولا تعرف شيئًا عن أبيها".

تقرر دفن ريفاتي دفنًا لائقًا بكل ما ينبغي لها من احترام في المقبرة. وفي غياب جسمها، توضع رسالتها في المقبرة. (على أن تحتفظ تِلُو بنسخة مصورة للتوثيق). أرادت أنجم أن تعرف الشعائر السليمة لجنائز الشيوعيين. (مستعملة عبارة لال سلامي). ولما قال دكتور آزاد بهارتيا إنه لا علم له بوجود طقوس معينة، بدا عليها شيء من الاستخفاف. "وماذا يكون هذا إذن؟ أيُّ بشر هؤلاء الذين يتركون موتاهم بلا صلوات؟".

في اليوم التالي دبَّر دكتور آزاد بهارتيا علمًا أحمر. وُضعت رسالة ريفاتي في وعاء محكم الغلق ملفوف بالعلم. وأثناء دفنه أنشد النسخة الهندية من الإنترناشونالي محييًا إياها بالسلام الأحمر واليد المقبوضة. وبذلك انتهت جنازة الأم الأولى أو الثانية أو الثالثة -بحسب ما ترون أنتم- للآنسة جِبين الثانية.

قرَّر المكتب السياسي أن يكون اسم الآنسة جِبين بالكامل اعتبارًا من اليوم هو الآنسة أودايه جِبين. وكان المكتوب على شاهد قبر أمها بسيطًا للغاية:

الرفيقة ماسي ريفاني

الأم الحبيبة للآنسة أودايه جِبين

لال سلام

حاول دكتور آزاد بهارتيا أن يعلّم الآنسة أودايه جِبين ذات الآباء الستة والأمهات الثلاث (اللاتي ارتبطن معًا بخيوط من نور) كيف تقبض يدها ملقية على أمها التحية الحمراء الأخيرة، لال سلام.

فقرقرت البنت قائلة "ال سلاام".

١١

المالك

لم أزل هنا. ولا بد أنكم، دونما شك، تُخمّنون هذا. لم أدخل مطلقًا مركز إعادة التأهيل ذلك. استمرتْ لنحو ستة أشهر، متقطعة، أعني حفلة العربدة التي بدأت بوصولي هنا للمرة الأولى. غير أنني مفيق الآن، مفيق، الآن، لعل هذه هي الطريقة الصحيحة لقول ما أقول. مرّ أكثر من عام منذ أن لمست شرابًا. لكن فات الأوان. فقدت وظيفتي. تركتني تشيترا، ورابيا وأنيا لا تتكلمان معي. والغريب أن كل ذلك لم يُتعسني مثلما كنت أتخيل. بت أستمتع بوحدتي.

أعيش منذ شهور قليلة، حياة تنسّك. وبدلاً من عربدة الشراب، لديّ عربدة القراءة. جعلت وظيفتي أن أتلصّص على كلّ قصاصة ورق، كلّ وثيقة، كلّ تقرير، كلّ رسالة، كلّ فيديو، كلّ ملحوظة على ورقة صفراء، وكلّ صورة فوتوغرافية في كلّ ملفٍّ في هذه الشقة. أفترض أن بوسعكم القول إنني دخلت هذا المشروع أيضًا بسمات شخصية المدمن، وأعني بهذا الانشغال التام به مع الإحساس الحاد

بالذنب والندم الذي لا طائل منه. ما كدت أستعرضه كله، أعني الأرشيف الغريب، حتى حاولت إرضاء ذائقتي بإدخال بعض المنطق والنظام على ما فيه من فوضى. وأرجع فأقول إن هذا قد لا يعدو مزيدًا من العدوان. في كل الحالات، أعدت ترتيب الورق والصور في ملفّات ورتّبتها في علب محكمة الإغلاق، ليتسنّى لها أن تأخذها جميعًا بسهولة، إذا جاءت أو عندما تجيء. جمعت ملاحظات اللوحة وتأكّدت من ترتيب جميع الصور وملاحظات الورق الأصفر على نحو يتيح لها أن تعيدها جميعًا إلى نفس ترتيبها بقدر غير كبير من الصعوبة. ولا أريد من هذا كله إلا القول بأنني انتقلت للسكنى هنا. أعيش هنا الآن، في هذه الشقة. ما من مكان آخر أمضي إليه. إيجار شقة الطابق السفلي يشكّل الجزء الأكبر من دخلي. لا تزال بِلُو تدفع الإيجار في حسابي، لكنني أخطّط لردّه إليها حينما أراها من جديد، أو إذا ما حدث ذلك.

أعترف أن نتيجة تلصّصي ذلك هي أنني غيّرت رأيي في كشمير. يلائمني تمامًا أن أقول الآن مثل هذا القول الرخيص وأعلم أنني أبدو بقوله مثل جنرالات الجيش الذين يعيشون أعمارهم كلها على الحروب ثم يمتلئون ورعًا على حين غرّة فور أن يتقاعدوا فإذا بهم نشطاء مناهضون للحرب وللأسلحة النووية. ما من فارق بينهم وبيني إلا أنني أعتزم أن أحتفظ برأيي الجديد لنفسي. ومع ذلك ليس الأمر سهلاً. فلو أردت، ولو أحسنت لعب أوراقي، فإن بوسعي أن أستثمر هذا الرأي وأجعل منه رأس مال ذا شأن. بوسعي أن أثير عاصفة سياسية لو

"ظهرت"، خاصة أنني أرى من الأخبار أن كشمير -بعد سنين من الهدوء الخادع- تتفجَّر من جديد.

في حدود ما أفهم، لم تعد القضية تتعلق بقوات أمن تهاجم الناس. الأمر الآن يبدو معكوسًا. فالناس، عموم الناس، هم الذين يهاجمون القوات حاليًا. أطفال في الشوارع، في أيديهم حجارة، يهاجمون جنودًا في أيديهم بنادق، وقرويون مسلحون بالعصي والرفوش يجتاحون سفوح الجبال ساحقين معسكرات الجيش. فإن أطلق الجنود النار عليهم وقتلوا قِلّة منهم، ازدادت المظاهرات ضخامة على ضخامتها. القوات شبه العسكرية تستعمل طلقات الخرطوش فتصيب الناس بالعمى، وهذا في تقديري خير من قتلهم. مع أنه أسوأ في عرف الملاقات العامة. فالعالم اعتاد رؤية الجثث أكوامًا. لا رؤية مئات الأحياء عميان. اغفروا لي مباشرتي، فبوسعكم أن تتصوروا الإغراء البصري في الأمر. وحتى هذا لا يبدو نافعًا. فالأطفال ممن فقدوا آحاد أعينهم يرجعون إلى الشارع، مستعدين للمخاطرة بالعيون الباقية. فماذا تفعلون إزاء غضب كهذا الغضب؟

لا شك لديّ أننا قادرون على إنزال هزيمة أخرى بهم، وأننا في طريقنا إلى ذلك. لكن إلى أين سينتهي هذا كله؟ حرب. أو حرب نووية. هاتان هما الإجابتان الأكثر واقعية للسؤال. كلّ مساء وأنا أشاهد الأخبار أتعجَّب مما أرى أمام عيني من جهل وحماقة. وأتذكر أنني عشت حياتي كلها جزءًا من ذلك، فلا يمنعني عن الكتابة للصحف إلا هذا. لن

أفعل، لأنني سوف أجعل نفسي عرضة للسخرية ـذلك المعترض على الحرب، السكير المطرود من الخدمة العسكرية، ومثل ذلك الكلام.

أعرف الآن بالطبع أمر موسى، بمعنى أنني أعرف أنه لم يمت حينما ظننا أنه مات. كان موجودًا كل تلك السنين، وطبعًا، ومن نافلة القول، أن ساكنة شقتي كانت على علم بذلك طيلة الوقت. لم أكن بحاجة إلى أكثر من انقطاع الكهرباء لأكتشف الأشياء التي خبّأتها في الفريزر.

فلكم أن تتخيلوا فرحتي ذات ليلة، حينما دار المفتاح في بابي ودخل موسى فكان أكثر ذهولاً برؤيتي مني أنا برؤيته. كانت لحظات اللقاء القليلة الأولى مشحونة تمامًا. أراد أن يخرج لكن أمكنني إقناعه بالبقاء لشرب فنجان قهوة على الأقل. كنت سعيدًا برؤيته. إذ كان آخر لقاء بيننا ونحن شباب صغار. صبية في واقع الأمر. الآن لا شعر لي تقريبًا، وشعره هو فضي. حينما قلت له إنني لم أعد أعمل مع المكتب ارتاح. وانتهى بنا الحال إلى قضاء تلك الليلة معًا وأغلب النهار التالي لها. تكلمنا كثيرًا، وإذ أستعيد ذلك اللقاء، تستفزني قليلاً المهارة التي اجتذبني بها. كانت مزيجًا من الاهتمام الهادئ ونوع من الفضول أقرب للاهتمام منه للتفتيش. ربما بسبب حرصي على طمأنته إلى أنني لم أعد "العدو"، فقد انتهيت أنا إلى ملء الجزء الأكبر من الحوار. هالني مدى درايته بكيفية عمل المكتب. تكلم عن بعض الضباط وكأنهم أصدقاء شخصيون. بدا الحوار وكأنه تبادل ملاحظات بين زميلين. لكنه مضى ببرود شديد، بشيء يقترب من اللا مبالاة، بما يشبه الثرثرة العارضة المتاخمة للنميمة، فلم أدرك حقيقة ما

دار بيننا إلا بعد أن ذهب. لم نتكلم كلامًا حقيقيًا في السياسة. ولم نتكلم عن تِلُو. عرض عليّ أن يطبخ غداء من المكونات الموجودة في المطبخ مهما تكن. وطبعًا كنت أعرف أن ما يريده حقًا هو إلقاء نظرة على الفريزر. لم يكن في البيت غير كيلو من لحم الضأن الجيد. قلت له إن ما في الشقة، بما في ذلك جوازات سفره العديدة وممتلكاته الشخصية، موضوعة ومجهزة للنقل فور أن تريد تِلُو نقلها.

درنا حول موضوع كشمير، لكن على نحو مجرد لا أكثر.

قلت له في المطبخ "قد تكونون على حق في نهاية المطاف. لكنكم لن تنتصروا أبدًا".

ابتسم مقلّبًا القدر الذي انبعثت منه رائحة الروجان جوش[٤٩] الرائعة وقال "أتصوّر أن العكس هو الصحيح. قد يتبيّن أننا مخطئون، لكننا انتصرنا بالفعل".

تركت الأمر عند ذلك الحد. لا أعتقد أنه واعٍ بالمدى الذي يمكن أن تذهب إليه حكومة الهند للاحتفاظ بقطعة الأرض الصغيرة تلك. بوسعها أن تقيم حمّام دمٍ تبدو معه التسعينيات لعب صغار في مدرسة. في المقابل، قد لا تكون لديّ أنا فكرة عن مدى استعداد الكشميريين الانتحاري. في أيٍّ من الحالتين، بدت المخاطر أعلى بكثير مما كانت عليه من قبل. أو ربما تكون لدينا فكرتان مختلفتان عما يعنيه "الانتصار".

---

٤٩ لحم ضأن في الغالب، بالكاري في صلصة طماطم غزيرة.

كانت الوجبة مبهجة، وموسى كان طاهيًا حقيقيًا متمكنًا. سأل عن ناجا. "لم أره في التليفزيون في الفترة الأخيرة. أهو بخير؟"

الغريب، أن الشخص الوحيد الذي كنت أراه بين الحين والآخر في حياة تنسُكي هو ناجا. كان قد استقال من صحيفته وبات أسعد مما عهدته طيلة حياته. فلعلنا، لسخرية القدر، نكون تحرَّرنا بقرار تِلُو النهائي الحاسم بالاختفاء من حياتينا والعالم الذي نعرفه. قلت لموسى إنني وناجا نخطِّط -ولم يكن الموضوع يعدو التخطيط- لإنشاء محطة للموسيقى القديمة، في الإذاعة أو ربما على الإنترنت. ناجا يتولَّى الموسيقى الغربية، من روك آن رول وبلوز وجاز، وأنا أتولَّى الموسيقى العالمية. فلديّ مجموعة محترمة، وأعتقد أنها ممتازة، من الموسيقى الشعبية الأفغانية والإيرانية والسورية. قلت ذلك فشعرت أنني ضحل ومصطنع. لكن موسى أبدى اهتمامًا حقيقيًا فتكلمنا كلامًا قليلاً لطيفًا عن الموسيقى.

في الصباح التالي كان قد جهّز سيارة تيمبو صغيرة من السوق وجاء برجلين شحنا فيها الصناديق وبقية أغراض تِلُو. بدا أنه يعرف مكانها، لكنه لم يقل، فلم أسأله. ولم يكن من شكٍّ في أنني كنت بحاجة إلى أن أسأله قبل أن يرحل عن أمر كنت أتحرق إلى معرفته قبل أن تمضي ثلاثون سنة أخرى. كان ليزعجني لما بقي من حياتي لو لم أسأله. كان لا بد أن أسأله. ولم يكن من مجال لطرح السؤال بطريقة لطيفة. لم يكن سهلاً، ولكنني في النهاية سألته.

"هل قتلت أمريك سنج؟"

"لا". ونظر إليّ بعينين في لون الشاي الأخضر. "لم أقتله".

لم يقل شيئًا لوهلة، ولكنني عرفت من نظرته أنه يزنني، ويقيّم ما إذا كان ينبغي أن يقول أكثر. قلت له إنني رأيت طلبات اللجوء وتصاريح صعود الطائرات إلى الولايات المتحدة باسم يتطابق مع أحد جوازات سفره المزورة. وصادفتُ إيصالاً من شركة تأجير سيارات في كلوفيس. والتواريخ أيضًا متطابقة، فعرفت أن له علاقة بتلك الواقعة كلها، لكنني لم أعرف طبيعة تلك العلاقة.

قلت "عندي فضول فقط. لا يهمني إن كنت قتلته. فقد كان يستحق القتل".

"لم أقتله. هو قتل نفسه. لكننا جعلناه يقتل نفسه".

لم أدر ماذا يعني ذلك بحق الجحيم.

"لم أذهب إلى الولايات المتحدة بحثًا عنه. كنت هناك بالفعل لعمل آخر حينما رأيت في الصحف أنه اعتُقل لاعتدائه على زوجته. صار عنوان سكنه معروفًا. كنت أبحث عنه منذ سنوات. كان بيني وبينه عمل لم يكتمل. وبينه وبين كثير منا. فذهبت إلى كلوفيس، وأجريت بعض التحريات، إلى أن عثرت عليه في ورشة ومغسلة للشاحنات كان يذهب إليها لصيانة سيارته. كان شخصًا مختلفًا تمامًا عن القاتل الذي عرفناه، قاتل جالب قدري وكثير غيره. كان يفتقر إلى بنية الحصانة التحتية التي كان يعمل منها في كشمير. كان مرعوبًا ومفلسًا. أكاد أكون رثيت لحاله.

طمأنته إلى أنني لن ألحق به أذى، وأنني لم أذهب إليه إلا لأخبره أننا لن نسمح له بنسيان ما اقترفه".

كنت وموسى نجري ذلك الحوار في الشارع، بعد أن نزلت معه لأودعه.

"آخرون من كشمير كانوا قد قرأوا الأخبار. فبدأوا يصلون إلى كلوفيس ليروا كيف بات يعيش جزار كشمير. بعضهم كانوا صحفيين، وبعضهم كتابًا، ومصوّرين، ومحامين... وبعضهم مجرد ناس عاديين. كانوا يظهرون حول عمله، وحول بيته، وفي السوق، وفي الجهة الأخرى من الشارع، وعند مدرسة أبنائه. بات مُرغمًا على رؤيتنا. كلّ يوم. مرغمًا على التذكّر. لا بد أن ذلك أثار جنونه. وأخيرًا جعله ذلك يدمّر نفسه. ومن هنا... وإجابة لسؤالك... لا، لم أقتله".

ما قاله موسى بعد ذلك، وهو واقف وراء بوابة المدرسة المرسوم عليها الممرضة الرهيبة وهي تحقن الطفل بمصل شلل الأطفال كان أشبه... أشبه بحقنة الثلج. فقد قيل بطريقته العرضية الرقيقة، وبابتسامته الودودة السعيدة، وكأنه لا يقول إلا مزاحًا.

"وكشمير يومًا ما سوف تجعل الهند تدمّر نفسها بهذه الطريقة أيضًا. قد تكونون بحلول هذا الوقت قد أصبتمونا جميعا بالعمى، كلّ واحد فينا، بطلقات الخرطوش. ولكن أنتم ستكون لكم أعين ترون بها ما فعلتموه فينا. أنتم لا تدمّروننا. بل تُقيموننا. وأنفسكم هي التي تدمّرونها. خودا حافظ جارسون بهاي".

وبذلك رحل. فلم أره بعدها قط.

ماذا لو أنه على حق؟ لقد رأينا دولاً عظيمة تخرُب فعليًا بين عشية وضحاها. ماذا لو كان الدور علينا؟ ملأتني تلك الفكرة بحزن ملحمي.

لو أن هذا الشارع الخلفي يصلح مثالاً، فربما يكون التحلل قد بدأ بالفعل. فجأة هدأ كل شيء. البناء توقف. العمال اختفوا. أين العاهرات والمثليون والكلاب ذات المعاطف المتأنقة؟ أفتقد كل هذا. كيف يمكن أن يختفي كل شيء بهذه السرعة؟

عليّ ألا أستمر في الوقوف هنا، وقفة أحمق عجوز يقتله الحنين.

سوف تتحسن الأمور. حتمًا.

في طريق رجوعي تمكنت من تفادي الساكنة الشهوانية الثرثارة أنكيتا على السلّم وأنا صاعد إلى شقتي الخاوية التي ستبقى إلى الأبد مسكونة بأشباح الصناديق الورقية التي ذهبت بما كان فيها من قصص.

وغياب المرأة التي سأظل أحبها حبي الضعيف المترنح.

ماذا سيكون من أمري؟ إن بي شبهًا قليلاً من أمريك سنج: هرم، متورم، جريح، محروم مما أطلق عليه موسى ببلاغة "بنية الحصانة التحتية" التي كنت أعمل من خلالها طيلة حياتي. ماذا لو دمَّرت أنا الآخر نفسي؟

ممكن، ما لم تنقذني الموسيقى.

عليَّ أن أتصل بناجا. علينا أن نعمل على تلك الفكرة الإذاعية.

لكنني بحاجة أولاً إلى كأس.

١٢

الخنفساء

كانت الليلة الثالثة لموسى في نزل جنة للضيافة. قبل أيام قليلة، وصل في صورة عامل توصيل، بعربة تيمبو مليئة بالصناديق الورقية. فرح الجميع إذ رأوا الحياة تدبُّ في وجه أُستاني جي بمجرد أن وقعت عيناها عليه. وُضعت الصناديق بجانب جدار في غرفة تِلُو مالئة المكان الذي تشترك فيه مع أحلام باجي. كانت تِلُو قد حكت لموسى كلَّ ما عرفته عن كلٍّ من المقيمين في نزل جنة للضيافة. وفي الليلة الأخيرة استلقت بجواره في السرير تستعرض عليه براعتها في اللغة الأردية. كانت قد دوَّنت قصيدة تعلَّمتها من دكتور آزاد بهارتيا في أحد دفاترها:

ماتت في قفصها، البلبلة الصغيرة
وهذه كلمات تركتها لحارسها
أرجوك خذ حصاد الربيع
واحشره حشرًا في مؤخرتك الذهبية.

قال موسى "هذا أشبه بنشيد تفجيري انتحاري".

حكت له تِلُو عن دكتور آزاد بهارتيا وكيف كانت القصيدة ردَّه على تحقيق الشرطة في جَنْتر مَنْتر (في غداة الليلة إياها، الليلة المقصودة، الليلة السابق ذكرها، الليلة التي يشار إليها لاحقا بـ 'الليلة').

قالت تِلُو ضاحكة "عندما أموت، أريد أن يُكتب هذا على شاهدة قبري".

غمغمت أحلام باجي ودمدمت ببضع لعنات وتقلبت في مقبرتها.

نظر موسى إلى صفحة الدفتر المواجهة للتي كتبت فيها تِلُو القصيدة.

كان فيها:

كيف

تحكي

قصة

مبعثرة.

بأن

تصبح

ببطء

جميع الأشخاص.

لا.

بل بأن نصبح ببطء كلّ شيء.

فكّر أن ذلك أمر يستحق التفكير.

جعله يلتفت إلى حبِّ عمره، إلى المرأة التي باتت غرابتها حبيبة إليه، واحتضنها بقوة.

شيء ما في بيت تِلُو الجديد ذكّر موسى بقصة ممتاز أفضل ملك، سائق التاكسي الشاب الذي قتله أمريك سنج، وعثر على جثته في حقل وأعيد إلى ذويه ويداه قابضتان على التراب وزهور الخردل بارزة من بين أصابعه. تلك قصة لم تبارح عقل موسى، ربما بسبب تضافر الأمل والحزن فيها، تضافرًا شديدًا، لا انفكاك له.

سيغادر إلى كشمير في الصباح التالي، راجعًا إلى مرحلة جديدة في حرب قديمة لا رجوع له منها هذه المرة. سيموت مثلما أراد أن يموت، مرتديًا حذاءه العسل طويل الرقبة. ويُدفن مثلما أراد أن يُدفن، رجلاً لا يحمل وجهًا في مقبرة لا تحمل اسمًا. والشباب الذين يحلون محله سيكونون أقسى منه، وأضيق أفقًا، وأقلّ مقدرة على الغفران. سيكونون أقرب إلى النصر في أيّ حرب يخوضونها، لأنهم أبناء جيل لم يعرف غير الحروب.

سوف تتلقى تِلُو رسالة من خديجة: صورة لموسى وجولكاك في شبابهما مبتسمين. ستكتب خديجة على ظهرها أن القائدين جُلْريز

وجُلريز معًا الآن. ستحزن تِلُو أعمق الحزن لرحيل موسى، لكن الحزن لن يغلبها، فسيكون بوسعها أن تكتب إليه بانتظام وتزوره كثيرًا عبر شقٍّ في الباب الذي تبقيه الملائكة البائسة مفتوحًا (فتحة غير شرعية) من أجلها.

لن تكون لأجنحتها رائحة مؤخرات الدجاج.

في آخر ليلة لهما معًا، نامت تِلُو وموسى وقد لفَّ كلٌّ ذراعيه حول الآخر، وكأنهما لم يلتقيا إلا للتو.

في تلك الليلة منع الأرق أنجم من النوم. مضت تجوب المقبرة متفحِّصة بيتها. توقَّفت لوهلة لدى مقبرة بومبي سيلك وتلت صلاة وحكت للآنسة أودايه جِبين الجالسة على فخذها قصة المرَّة الأولى التي وقعت فيها عيناها على بومبي سيلك وهي تشتري الأساور من بائع الخلاخيل في ضريح تِشتِلي فتبعتها حتى زقاق دكوتان. انحنت تتناول زهرة من زهور روشان لال المنثورة فوق مقبرة الست مدام ريناتا ممتاز ووضعتها على مقبرة الرفيقة ماسي. ومجرد إعادة التوزيع البسيطة تلك أشعرتها أنها أفضل حالاً. نظرت إلى نزل جنة للضيافة ووراءها ممتلئة بإحساس الرضا والتحقُّق. وانتابتها رغبة مفاجئة، فقرَّرت الخروج بالآنسة أودايه جِبين هكذا في جولة عند منتصف الليل حتى تألف محيطها وترى أضواء المدينة.

عبرت بالمشرحة، ومرّت في موقف المستشفى إلى الطريق الرئيسي. لم يكن المرور كثيفًا في تلك الساعة. ومع ذلك، على سبيل الاحتياط، بقيتا على الرصيف، يتلوى طريقهما وسط ريكاشات الدراجات المصفوفة والبشر النائمين. عبرتا برجل عارٍ نحيل في لحيته عود من سلك شائك. رفع لهما يده بالتحية وانطلق مسرعًا كمن تأخّر على العمل. عندما قالت الآنسة أودايه جِبين "ممّي، سوو سووو". أجلستها أنجم تحت أحد مصابيح الشارع. تبولت البنت وعيناها ثابتتان على أمها ثم رفعت مؤخرتها لتنظر في عجب إلى سماء الليل والنجوم والمدينة ذات الألف عام وقد انعكست جميعًا على بِرْكَةِ بَوْلِها الصغيرة. حملتها أنجم وقبّلتها وعادت بها إلى البيت.

عندما رجعتا كانت جميع الأنوار مطفأة والجميع نيام. الجميع أي الجميع، فيما عدا جوِه كيوم، خنفساء الروث. كانت مستيقظة وتعمل، مستلقية على ظهرها وسيقانها في الهواء لتنقذ العالم إن سقطت السماء. لكن حتى هي كانت تعلم أن كلّ الأمور سوف تكون في نهاية المطاف على ما يرام. ستكون على ما يُرام، لأنها لا بدّ أن تكون على ما يُرام.

لأن الآنسة جِبين، الآنسة أودايه جِبين، هنا.

شكر

أتوجه بجزيل الشكر للصديق المترجم هاني السعيد الذي أسهمت معرفته العميقة باللغة الأردية والثقافة الهندية بعامة في ضبط تعريب أغلب أسماء الأعلام وترجمة كثير من الأبيات الشعرية الواردة في هذه الرواية، كما أشكر له جميع ما قدمه من اقتراحات وآراء سديدة إثر اطلاعه الكريم على مسودة مبكرة لهذه الترجمة ومقارنتها بترجمة أردية للرواية.

كما أتوجه بجزيل الشكر للشاعر محمود عبد الرازق جمعة الذي استعنت بمعرفته العميقة أيضًا باللغة العربية فأنار برأيه ما غمض عليَّ من مسائل طرحتها عليه.

أمَّا ما قد يعتور هذه الترجمة من أخطاء أو زلات فلا شريك لي فيها.

المترجم

الفهرس

الصفحة

الكتب خان للنشر والتوزيع ®
١٣ شارع ٢٥٤ - دجلة - المعادي - القاهرة.
تليفون: ‎+٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩‎ - ‎+٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨‎
بريد إليكتروني: info@kotobkhan.com
موقع إليكتروني: www.kotobkhan.com



"قطعة منسوجة من السرد. مؤلمة، مضحكة، ومثيرة."

"الجارديان"

"متاهة فاتنة. استحقت الانتظار الطويل."

"الإندبندنت"

فيما كانت الهند تستعد للصعود إلى مصاف القوى العظمى، ولد في دلهي القديمة طفل رآه أهله ذكرا وأصر أنه امرأة، فسمى نفسه "أنجم" وعاش في وسط المخنثين المعروفين بالهيجرات الذي احتضنته حضارة الهند على مدار القرون. هنالك عرفت أنجم الرقص والغناء والمتعة والألم والشقاء، إلى أن أطل التعصب الديني بوجهه القبيح فلم يبق لأنجم ملاذ إلا المقابر.

في الوقت نفسه، تولد امرأة أخرى اسمها "تلو" ضحية للنظام الطبقي الغاشم، وتعيش لتشهد قسوة الهند الدموية في كشمير، يقع في غرامها المناضل وضابط المخابرات والصحفي العميل، وتهرب من كل ذلك، فلا تجد هي الأخرى غير المقابر. امرأتان، أو امرأة وشبه امرأة، وطوفان من الشخصيات التي لفظتها المدينة، أو لفظت هي المدينة، فلاذت جميعا بالمكان الوحيد الصالح للحياة وتلمس أسباب السعادة: المقابر.

بعد عشرين عامًا تقريبًا من روايتها الأولى "إله الأشياء الصغيرة"، الحائزة على جائزة البوكر الدولية لعام ١٩٩٧، تعود "أروندهاتي روي" للكتابة الروائية، بعمل يؤكد معرفتها العميقة بالواقع السياسي والاجتماعي للهند خلال العقود الماضية. تقدم "وزارة السعادة القصوى" نظرة بانورامية ممتدة في المكان والزمان، على تاريخ المجتمع الهندي الرازح تحت ثقل الفوضى والطبقية والعنف الطائفي. وتمزج التوثيق السياسي بالتخييل الأدبي، عبر تتبع حيوات ومصائر طيف واسع من الشخصيات شديدة الواقعية والغرابة في نفس الوقت.

ملحمة روائية كثيفة ومشحونة ومتعددة الخطوط، عن التاريخ المُعقد لبلد من أكثر بلاد العالم تنوعًا وصخبا.

*

أروندهاتي روي: كاتبة وروائية وناشطة سياسية هندية. بدأت مشوارها الإبداعي ككاتبة سيناريو، ثم نشرت روايتها الأولى "رب الأشياء الصغيرة" عام ١٩٩٧، وفازت عنها بجائزة البوكر العالمية لنفس العام. أتبعت "روي" روايتها بعدد من الكتب غير السردية -حوالي ١٨ كتابا- مثلت تعليقا ثقافيا وسياسيا متميزا على الشأن الهندي والعالمي، منها: "نهاية الخيال" ١٩٩٨، "ثمن العيش" ١٩٩٩، "حديث الحرب" ٢٠٠٣، و"الرأسمالية: قصة مرعبة" ٢٠١٤. "وزارة السعادة القصوى" هي روايتها الثانية، وقد صدرت عام ٢٠١٧، وحازت ترشيحا على القائمة الطويلة لجائزة البوكر العالمية لنفس العام.





ISBN 978-977-803-091-4
9 789778 030914 >

Cover: David Eldridge